إعجاز القرآن

للقاضي الباقلاني

إعجاز القرآن

للقاضي أبي بكر الباقلاني

دراسة وتحقيق وتعليق

الأستاذ الدكتور / محمود محمد مزروعة

أستاذ العقيدة والأديان بجامعتي الأزهر وأم القرى



مكتبة كنوز المعرفة

ص . ب : ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧

هاتف ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٤٢٢٢ فاكس : ٦٥١٦٥٩٣

اسم الكتاب : إعجاز القرآن

اسم المؤلف : القاضي أبي بكر الباقلاني

دراسة وتحقيق وتعليق : الأستاذ الدكتور / محمود محمد مزروعة

الطبعة الأولى

1427 هـ - 2006 م

مكتبة كنوز المعرفة

المملكة العربية السعودية

هاتف : 6514222 - 6510421

فاكس : 6516593

ص.ب (30746) جدة (21487)

تصدير

الحمد للَّه رب العالمين والصلاة والسلام على المرسل رحمة للعالمين، وعلى إخوانه وآله وأصحابه والتابعين.

● **أما بعد:**

فإن أشرف الكتب وأعلاها، وأجلها وأسماها، وأرفعها وأرقاها، وأقدسها كلامًا، وأصدقها حديثًا، إنما هو كتاب اللَّه ﷻ الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وهذا الشرف والسمو، وتلك المكانة والمنزلة، هي بمثابة ضياء ساطع، يلقي بنوره على كل ما جاوره واقترب منه، ويجود بشرفه على كل ما قاربه واحتمى به، ويمنح قبسًا من جلاله، ومسحةً من جماله، لكل ما استظل بظله، أو لَاذَ برحابه.

وليس من شك في أن أكثر العلوم مجاورة للقرآن العظيم واقترابًا منه، واستظلالًا بظله واحتماءً به، إنما هي العلوم التي تسمى **«علوم القرآن»**، والتي يأتي في المرتبة الأولى منها البحث في أوجه إعجاز القرآن المجيد، وأسرار ذلك الإعجاز وآياته، وما يتصل بكل ذلك من قواعد وأحكام.

فالبحث في إعجاز القرآن العظيم إنما هو - بجانب كونه علمًا من علوم القرآن الكريم، وقبسًا من نوره - عبادة للَّه - تَعَالَى - وقربة إليه، وخدمة لكتابه وقربًا منه، ومنة عظيمة، ونعمة جليلة من اللَّه - سُبْحَانَهُ - على كل مَن يُسِّر له السبيل للاشتغال بهذا العلم الجليل.

لذلك، حينما عُرض علي أن أحقق كتاب **«إعجاز القرآن»** للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، وجدتها فرصة سانحة، وهبة مانحة، ومنة من اللَّه - تَعَالَى - عظيمة، ونعمة من اللَّه ﷻ جليلة.

فأقبلت على ذلك ـ مع قلة البضاعة، وضعف الصناعة، متوكلًا على اللَّه ﷻ، ومعتمدًا على مدده وفضله، ومستمدًا منه ﷻ الهداية والتوفيق.

داعيًا اللَّه ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون ثقلًا في كتاب المحقق والكاتب والقارئ يوم الدين.

وما توفيقي إلا باللَّه، عليه توكلت وإليه أنيب.

د. محمود محمد مزروعة

٢٣ من رمضان ١٤١٧ هـ

* * *

تعريف بالباقلاني وإعجاز القرآن

● اسمه وكنيته:

هو القاضي: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني. ويكنى: أبا بكر.

* * *

● مولده:

لم تذكر التراجم تاريخًا محددًا موثوقًا به لميلاد القاضي أبي بكر. ومن ثم كانت الآراء حول تاريخ ولادته مجرد اجتهادات واستنباطات لا تخلو من جنوح. والأكثرون على أنه ولد حول النصف الثاني من القرن الرابع الهجري: أي حول خمسين وثلاثمائة. والذي نراه أنه ـ رحمه اللَّه ـ تَعَالَى ـ ولد قبل ذلك بسنوات، أي في أواخر النصف الأول للقرن الرابع الهجري. والذي يحملنا على هذا الظن: أن المؤرخين مجمعون على أن السلطان عضد الدولة قد بعث بالقاضي أبي بكر في سفارة إلى ملك الروم، وأن القاضي أبلى في هذه السفارة بلاءً طيبًا، واستولى على إعجاب ملك الروم وتقديره. وإذا كان السلطان قد اختار القاضي لتلك السفارة، فلابد أن يكون القاضي في سِنٍّ وعلم ومنزلة بين علماء عصره ـ وهم يومئذ كثير ـ تؤهله للفوز بها من دونهم. والغالب أن تكون سنه حول الثلاثين، وقد تزيد عليها، وإن نقصت عنها فلا تنقص كثيرًا. فهذه هي السن المعقولة التي تؤهله لسفارة كهذه دون علماء بغداد المعاصرين له. إذا كان ذلك كذلك؛ ثم عرفنا أن عضد الدولة قد توفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة، وأن هذه السفارة قد تكون قبل وفاة عضد الدولة بسنة أو سنوات، فإننا بالنظر إلى هذه الاعتبارات نستطيع أن نقرر أن القاضي أبا بكر الباقلاني قد ولد قبل النصف الثاني من القرن الرابع الهجري بعشر سنوات. قد تزيد قليلًا أو تنقص قليلًا..

وكما لم تبين التراجم تاريخ مولده. فقد أغفلت - أيضًا - محل مولده، والذي نعرفه من ذلك أنه نسب إلى البصرة، وسكن بغداد وأقام بها، وتتلمذ على مشايخها في العلوم المختلفة.

* * *

● **وفاته:**

بعد حياة حافلة مباركة مثمرة تُوفي القاضي أبو بكر الباقلاني ببغداد مساء السبت لثمان بقين من ذي القعدة، ودفن يوم الأحد لسبع بقين منه من سنة ثلاث وأربعمائة من الهجرة. وسنه - في تقديرنا - حول الثالثة والستين. وصلَّىٰ عليه ابنه الحسن، ودفن بداره بدرب المجوس، ثم نقل بعد ذلك حيث دفن بمقبرة باب حرب.

وقد رثاه بعض محبيه وعارفي فضله من شعراء عصره، فقال يصفه محمولًا ومقبورًا:

انْظُرْ إِلىٰ جَبَلٍ تَـمْشِي الرِّجَالُ بِهِ وَانْظُرْ إِلىٰ القَبْرِ مَا يَحْوِي مِنَ الصَّلَفِ
وَانْظُرْ إِلىٰ صَارِمِ الإِسْلَامِ مُغْتَمِدًا وَانْظُرْ إِلىٰ دُرَّةِ الإِسْلَامِ فِي الصَّدَفِ

* * *

● **مذهبه:**

كان القاضي أبو بكر الباقلاني - رحمه اللَّه - تَعَالَى - ينتسب في عقيدته إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، وقد كان القاضي بارعًا في علم الكلام، مجادلًا عن مذهبه الأشعري، انتهت إليه الرئاسة في عصره، وقد قضى حياته يؤلف التصانيف الكثيرة في علم الكلام مدافعًا عن مذهبه، رادًّا على خصومه من الجهمية والرافضة والمعتزلة والخوارج وغيرهم.

وقد أغرى القاضي بالاشتغال بعلم الكلام كثرة الطوائف الملحدة والمبتدعة في العراق في عصره، وتساهل الحكام مع هذه الطوائف، وذيوع المجادلات

المذهبية، وشيوع المحاورات الفلسفية التي خرجت بالناس عن اليقين وفتحت عليهم أبوابًا من الشك والحيرة، مما دفع القاضي إلى الخوض في هذه المجادلات مدافعًا عما يُعتقد أنه الحق..

ولشيوع الفلسفة وأساليبها في ذلك الوقت نجد القاضي جنح في اشتغاله بعلم الكلام بطرق غير شرعية، لم تكن معروفة لدى الأوائل ـ رضوان الله عليهم ـ مثل قضايا الجواهر والأعراض، وإثبات الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ، والخلاء وما يتعلق به من أحكام عندهم، والعرض وكيف أنه لا يبقى زمانين، ولا ينتقل من محل إلى آخر، كما نفى الجهة والعلو، وأوَّلَ صفات الباري ـ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ـ إلى آخر هذه القضايا المشهورة عن متأخري الأشاعرة، بل إن القاضي زاد على ما لدى الأشاعرة فقال بمقالة أبي هاشم المعتزلي الذي يثبت الأحوال التي هي عندهم: صفات لا هي موجودة ولا هي معدومة، ولا مجهولة ولا معلومة..

ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لقلنا: قوم اقتنعوا بأمور لا علم لنا بها ولا حاجة لشرع الله ـ تَعَالَى ـ إليها، وهم أحرار في نفوسهم وما يرون. ولله في خلقه شئون. ولكن المصيبة الحقيقية من وراء هذه المعتقدات أن القوم ـ ومنهم القاضي أبو بكر الباقلاني ـ قد جعلوا هذه القضايا الفلسفية الكلامية واجبة الاعتقاد، وألحقوها بالعقيدة الإيمانية الإسلامية في وجوب اعتقاد كل، فأضحى المسلم ـ في زعمهم ـ مطالبًا بالإيمان بالجوهر الفرد وأحكامه، والعرض والخلاء والملاء وأحكام كل، مثل ما هو مطالب بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وحجتهم في ذلك؛ زعمهم أن إثبات العقائد الدينية متوقف على هذه القضايا الفلسفية، فهي دليلها وبرهانها. وإذا لم نعرفها ونثبتها عجزنا عن معرفة عقائدنا وإثباتها؛ لأن بطلان الدليل أو ضعفه يؤدي إلى بطلان المدلول أو الشك فيه، ومن ثم فقد اشتهر عندهم امتحان الناس وسؤالهم عن هذه القضايا عند إرادة معرفة: إن كانوا مسلمين أم لا؟

وبذلك ضيق القاضي وحزبه على الناس، وحملوهم العنت والمشقة، وفتحوا

عليهم أبوابًا من أمور ما جاء بها الشرع، ولا أنزل اللَّه بها من سلطان، جنحت بالكثيرين إلى الحيرة إن لم يكن الشك، ظنًّا منهم أن العقيدة الإسلامية لا تثبت إلا بمثل هذه القواعد الكلامية، والتي هي غير ثابتة في ذاتها، فكيف يقوم عليها ثبات غيرها؟

ولعل الذي دفع القاضي أبي بكر إلى ذلك الاتجاه والإغراق فيه، أنه كان عَلَمَ الأشاعرة في عصره، وأن الرئاسة في المذهب قد انتهت إليه، وشعوره بوجوب نصرة المذهب، ومن ثم فقد اشتغل بتلك القضايا التي بدأت قبله. ثم وصل الاشتغال بها إلى ذروته في عصره على يده وأيدي مَن كانوا معه من أقطاب المذهب الأشعري، وإن كانت تلك القضايا الفلسفية اتخذت منحًى أكثر خطورة وأدخل في باب الابتداع وتنكب طريق السلف على أيدي دعاة الاعتزال وعلماء المعتزلة.

وإذا كان الإنصاف يقتضي ألا نجحد فضل إنسان لخطأ يرتكبه، وإذا كان العدل يوجب أن نذكر محاسن الأشخاص كما نذكر مساوءهم؛ فإن للقاضي أبي بكر في مجال الدفاع عن عقيدة الإسلام فضلًا لا يُنسى، وله محاسن لا تجحد.

فنحن لا ننسى للرجل جهوده الموفقة الناجحة في دحضه شبه الفرق المبتدعة الضالة، ولا ننسى معاركه القوية الناجحة ضد الطوائف الملحدة المارقة، فإن الرجل لم يأل جهدًا، ولا ترك وسيلة إلا سلكها لرد مطاعن هؤلاء على الإسلام، ودحض شبههم، وكشف افتراءاتهم ضد الدين. وقد سلك إلى كل ذلك الوسائل المتاحة في عصره، سلك طريق الكتابة والتصنيف، فألَّف الكتب العديدة في الرد على الجهمية والرافضة والملحدة والخوارج. من ذلك كتابه: «**التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج**» وهو كتاب مطبوع منشور، وهذا للمثال وليس للحصر، فإنَّ له غير ذلك كثيرًا من المصنفات في هذا الباب، كما سلك سبيل المجادلات والمناظرات، وقد كانت له مناظرات ومحاورات

شهيرة موفقة ضد هذه الفرق. - وسنشير إلى شيء من ذلك بحول اللَّه - تَعَالَى - عند كلامنا عن مناقبه.

وقد كان القاضي أبو بكر جم النشاط، وزع نشاطه إلى قسمين رئيسين: ما يزاوله في نهاره من نشاط في التدريس والمناظرات وشئون الحياة الكثيرة، فإذا جاء الليل بدأ القسم الثاني من نشاطه. أقصد الكتابة والتصنيف، فقد ذكر الذين أرَّخوا لحياته أنه إذا قضى راحته من أول الليل، قام إلى «ورده» اليومي من الأذكار، فإذا انتهى من ورده وضع الدواة بين يديه ثم كتب خمسًا وثلاثين ورقة في المتوسط، وكان يكتب من حفظه وذاكرته ولا يرجع إلى مصنفات الآخرين. وأنهم جمعوا كتبه ومصنفاته وقسموها على أيام حياته فكان نصيب كل يوم عشر صفحات.. وقد يكون في ذلك شيء من المبالغة، لكن المبالغة تكشف في كثير من الأحيان ما لا تكشفه الحقيقة الجامدة إذا اقتصر عليها.

* * *

● **مؤلفاته:**

مر بنا أن الشيخ أبا بكر الباقلاني كان يكتب في كل ليلة حول خمسٍ وثلاثين ورقة من حفظه، وأنه قد جمعت كتاباته وقسمت على أيام حياته فخُصَّ كل يوم بعشر صفحات. وقيل: إن مجموع ما كتب وصل إلى سبعين ألف ورقة. وليس غريبًا أن ينسب إلى القاضي بذكائه وعلمه، وسعة حفظه وقوة ذاكرته ودقة فهمه وعمق فقهه لقضايا الإسلام في عصره، ليس غريبًا أن ينسب إليه هذا الكم الكبير من الكتابات، وإذا ما أضيف إليها شرف الموضوعات التي كتب فيها، وأهمية القضايا التي تناولها، وأنها في جملتها كانت تتناول أمرين هامين، وتدور في فلك هدفين جليلين:

الأول: توضيح العقيدة الإسلامية، وشرحها. وبيان قضاياها، وإقامة الأدلة

على حقيقتها وثبوتها.. وهذا الجانب إن خالفه التوفيق فيه بسبب عقيدته الكلامية، وإغراقه في المصطلحات الفلسفية، فإن شرف الهدف، ونبل الغاية، يقلبان المخالفة إلى محالفة، ويخففان من الملامة والمؤاخذة، وبخاصة إذا عرفنا ظروف العصر والبيئة التي كان القاضي يعيش فيها، وكيف أنها كانت بيئة فلسفة وكلام، وأن تلك الوسائل التي استعملها القاضي كانت هي الناجعة الناجحة مع طوائف الملاحدة والزنادقة والمبتدعة التي كانت تغص بها الساحة وقتذاك.

أما الهدف الثاني: فكان الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وعن دين اللَّه ـ تَعَالَى ـ ضد الطوائف الضالة الملحدة. والزائغة المبتدعة. ولئن كانت المبادئ التي أقام عليها القاضي إثبات العقيدة الإسلامية لا ترضينا ـ من مثل الجوهر الفرد، والعرض، والخلاء والملاء وغير ذلك ـ فلقد كان هناك من المبادئ التي أغرقت فيها الطوائف الأخرى من الجهمية والمعتزلة والخوارج والرافضة إضافة إلى الملاحدة والزنادقة، ما تعد المبادئ التي قال بها القاضي بالنسبة إليها نقية صافية لا غبار عليها.

ولقد قضى القاضي أبو بكر حياته يخدم هذين الهدفين: تقرير العقيدة، ثم الدفاع عنها، وذلك من خلال مناظراته التي سوف نشير إلى طرف منها، ثم مؤلفاته التي نذكر ما وصلتنا أخباره إما عن طريق إشاراته إليها في كتاب «**إعجاز القرآن**» هذا الذي بين أيدينا، وإما عن طريق ذكره والإشارة إليه في نطاق ذلك من المراجع التي تهتم بالتأريخ لهذه الحقبة وأعلامها، من أمثال: أبي المظفر الإسفراييني في كتابه «**التبصير**»، وغير ذلك..

● **ومن أهم مؤلفاته ما يلي:**

١ ـ كتاب: «**الأصول الكبير**» ذكره في «**هداية المسترشدين**»، وأشار إليه القاضي في كتابه هذا «**إعجاز القرآن**».

٢ ـ كتاب: **«الإمامة الكبير»** أو **«مناقب الأئمة»** تكلم فيه عن الإمامة والخلافة، وقد عرض فيه لما جرى بين الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم أجمعين.

٣ ـ كتاب: **«كيفية الاستشهاد في الرد على أهل الجحد والعناد»** وهو ـ كما يتضح من عنوانه ـ في مناظرة الفرق الأخرى وتفنيد شبهاتها والرد على مفترياتها.

٤ ـ كتاب: **«كشف الأستار في الرد على الباطنية»** وقد أشار إليه ابن كثير في **«البداية والنهاية»** تحت عنوان: **«كشف الأسرار وهتك الأستار»**.

٥ ـ كتاب: **«إكفار المتأولين»**.

٦ ـ كتاب: **«الملل والنحل»**.

٧ ـ كتاب: **«هداية المسترشدين»**.

٨ ـ كتاب: **«الفرق بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين»**.

٩ ـ كتاب: **«نقض النقض»** ذكره الإسفرايينى في كتابه **«التبصير»**.

١٠ ـ كتاب: **«الانتصار لصحة نقل القرآن والرد على من نحله الفساد بزيادة أو نقصان»**.

١١ ـ كتاب: **«دقائق الكلام والرد على مَن خالف الحق من الأوائل ومنتحلي الإسلام»**. ذكره في **«هداية المسترشدين»**.

١٢ ـ كتاب: **«الكسب»** ذكره صاحب **«التبصير»**. وهو شرح ودفاع عن قضية الكسب التي وضعها أبو الحسن الأشعري، ثم تحير الناس فيها فلم يفهمها حتى أتباعه مما أوقع الخلاف بينهم في المراد بها، حتى ضرب بها المثل في الخفاء فقيل: أخفى من **«كسب»** الأشعري. والكتاب المذكور هو في هذه القضية كما هو واضح من اسمه.

١٣ ـ كتاب: **«النقض الكبير»**. وهو غير كتاب **«نقض النقض»** الذي تقدم ذكره.

و**«النقض الكبير»** وضعه القاضي أبو بكر في قضية (كلام اللّه ـ سُبْحَانَهُ ـ)

والتي كانت في ذروتها بين المعتزلة ودعاة الحق من أهل الحديث وغيرهم ممن تابعهم.

والمعروف أن الباقلاني وكثيرين غيره زعموا أن الألفاظ مخلوقة، وسفهوا مَن قال: أن كلام اللَّه ـ تَعَالَى ـ قديم، وأن القرآن كلام اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ قديم، وأن القرآن ليس معاني مجردة من ألفاظها، بل هو بمعانيه وألفاظه قديم. لأننا لم نعرف معنى يكون بلا لفظ، فالقرآن المجيد قديم بلفظه ومعناه، ولم يعرف كلام عن حدوث الألفاظ والكلمات من القرآن المجيد إلا بعد (ابن كُلَّاب) الذي اخترع ما يسمى بـ(الكلام النفسي).. ولكن الباقلاني الأشعري ينتصر لرأي ابن كُلَّاب ويزعم أن الألفاظ والكلمات مخلوقة حادثة، بل ويرمي مَن قال بغير ذلك بالسفه والحمق وخروجه عن حد المعقول، ودخوله في إطار البلهاء والحمقى.. نقل عنه إمام الحرمين أنه يقول في كتابه: «**النقض الكبير**»: «مَن زعم أن السين من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ بعد الباء، وأن الميم بعد السين الواقعة بعد الباء لا أول لها ـ أي قديمة غير مخلوقة، كما هي عقيدة السلف وأهل الحديث ـ فقد خرج عن المعقول، وجحد الضرورة وأنكر البديهة، فإن اعترف بوقوع شيء فقد اعترف بأوليته، فإن ادعى أنه لا أول له فقد سقطت محاجته ولحق بالسقطة، وكيف يرجى أن يرشد بالدليل مَن يتواقح في جحد الضروري».. يقول: هذا يقصد به السلف من أئمة الحديث وأئمة الفقه من أمثال الإمام أحمد والإمام مالك ـ رضي اللَّه عن الجميع ـ.

ولسنا ندري كيف يذهب الباقلاني إلى مخالفة المعتزلة فيقول: إن القرآن كلام اللَّه قديم غير مخلوق. ثم يزعم أن ألفاظه وكلماته مخلوقة؟ وهل القرآن شيء، وكلماته وألفاظه شيء آخر. وكيف تكون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[فاطر: ١] كيف تكون قرآنًا إذا أنت أفرغتها من الكلمات والألفاظ والحروف؟ هل يبقى شيء بعد ذلك؟ ـ عفا اللَّه عنا وعن الشيخ الباقلاني وغفر لنا وله ـ.

١٤ ـ كتاب: «**التقريب والإرشاد الصغير**» في الأصول، ذكره أبو المظفر الإسفراييني في كتاب «**التبصير**»، وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق د./عبدالحميد أبو زيد.

١٥ ـ كتاب: «**التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والمعتزلة والرافضة والخوارج**». وقد نُشر هذا الكتاب. نشره: محمود محمد الخضيري ومحمد عبدالهادي أبو ريدة.

١٦ ـ كتاب: «**الإنصاف**» حققه محمد زاهد الكوثري.

١٧ ـ كتاب: «**التبصرة**» ذكره ابن كثير.

١٨ ـ كتاب: «**شرح الإبانة**» ذكره ابن كثير ـ أيضًا ـ.

١٩ ـ كتاب: «**إعجاز القرآن**» هذا الذي بين أيدينا والذي نحن بصدد إخراجه.

وكتاب «**إعجاز القرآن**» من أجود ما صنَّف القاضي أبو بكر الباقلاني من كتب.

وهو كذلك من أجود ما صُنف في بابه. أعني في إعجاز القرآن المجيد، ولا نقول: إنه أجودها..

وقد قال مؤلِّفه القاضي الباقلاني مبينًا السبب الذي دعاه إلى تصنيفه: «**وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة. تسقط الشبهات وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم. ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة.. فأجبناه إلى ذلك متقربين إلى الله عَجَّلَك، ومتوكلين عليه وعلى حسن توفيقه ومعونته، ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا ونشير إليه، ولا نبسط القول، لئلا يكون ما أُلِّفناه مكررًا ومقولًا، بل يكون مستفادًا من جهة هذا الكتاب خاصة، ونُضِيف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام، وما تختلف فيه طرق البلاغة، وتتفاوت من جهته سبل البراعة...**».

فقد كان السبب الذي دعا المؤلِّف إلى وضع كتابه هذا سؤال بعض القريبين منه العارفين مقدرته على هذا النوع من التأليف أن يضع لهم وللناس كتابًا يُجلي وجه الإعجاز للقرآن العظيم..

وقد عتب الشيخ القاضي أبو بكر على العلماء في عصره وقبل عصره أنهم لم يهتموا بالاشتغال بإعجاز القرآن وبيان أوجهه، رغم كثرة كتاباتهم في النحو واللغة وعلم الكلام. يقول القاضي أبو بكر:

«... وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلَّم في فوائده من أهل صنعة العربية، وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه، فهو أحق بكثير مما صنَّفوا فيه: من القول في الجزء، ودقيق الكلام في الأعراض، وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به أوجب، وقد قصر بعضهم في هذه المسألة حتى أدى ذلك إلى تحول قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها. ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب ألا يستنصر فيها، ولا وجه لهم حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا، وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا، ثم رأوا ما صنَّفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه، ولا مستوفىً في وجهه...».

وقد التمس القاضي العذر لبعضهم في هذا التقصير عن الكتابة في إعجاز القرآن بسبب أن الكتابة في إعجاز القرآن تتطلب إمكانات وقدرات قد لا تكون متوفرة لدى الجميع.

لقول القاضي:

«... وقد يعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه، وذهاب عنه؛ لأن هذا الباب مما يمكن إحكامه بعد التقدم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ».

ولما تقاعس هؤلاء وأولئك عن إعطاء الكتابة في إعجاز القرآن حقها من الاهتمام، إما لفقد آلة ـ نعني عدم التمكن من الكتابة في هذا الفن، كما أشار القاضي في الفقرة السابقة ـ وإما للاشتغال بأمور أخرى، وكانت الحاجة ماسة إلى مثل هذا الكتاب، تقدم القاضي أبو بكر الباقلاني، فجبر الكسر، ورأب

الصدع، وسد النقص. فكان ذلكم الكتاب الذي بين أيدينا.

* * *

● أشهر مَن كتبوا في إعجاز القرآن المجيد:

كان القرآن المجيد ـ ومازال ـ ملتقى اهتمام علماء الإسلام، والقاسم المشترك بين هؤلاء العلماء، من حيث دراسته وتفسيره وكل ما يتصل به من علوم، وكل العلوم الإسلامية إنما تمت إلى القرآن بسبب أو أسباب؛ لأنه منبعها ومصدرها. يستوي في ذلك النحو والبلاغة والفقه والكلام والأصول وغير ذلك من علوم، فكل مَن كتب في شيء من ذلك إنما يضرب إلى القرآن المجيد بسبب، ويأخذ منه بشعب.

غير أن هذه العلوم جميعها شأن، والكتابة الخاصة بإعجاز القرآن شأن آخر.

● والذين كتبوا في إعجاز القرآن المجيد أشهرهم:

١ ـ أبو عبيدة، المتوفى: ٢٠٨ هـ. وكتابه: «**إعجاز القرآن**».

٢ ـ الجاحظ، المتوفى: ٢٥٥ هـ. وكتابه: «**نظم القرآن**».

وقد ذكر المؤلف أبو بكر الباقلاني كتاب الجاحظ هذا وعلق عليه بما يفيد عدم رضاه عنه، وذلك بقوله:

«وقد صنَّف الجاحظ في «**نظم القرآن**» كتابًا لم يزد فيه على ما قاله المتكلِّمون من قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى».

وقد علَّق الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه «**إعجاز القرآن**» على نقد الباقلاني للجاحظ بقوله:

«**... وقد ذهب عن الباقلاني أن ما دعا الجاحظ إلى وضع كتابه في أوائل القرن الثالث غير الذي دعاه هو إلى التصنيف في أواخر القرن الرابع**».

٣ ـ أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي، المتوفى: ٣٠٦ هـ. وكتابه: «**إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه**».

٤ ـ أبو الحسن على بن عيسى الرماني المعتزلي، المتوفى: ٣٨٦ هـ. وكتابه: **«النكت في إعجاز القرآن»**.

٥ ـ أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، المتوفى: سنة ٣٨٨هـ. وكتابه: **«بيان إعجاز القرآن»**.

٦ ـ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، والمتوفى: ٤٧١ هـ. وكتابه: **«الرسالة الشافية»**.

٧ ـ فخر الدين الرازي، المتوفى: ٦٠٦ هـ. وكتابه: **«إعجاز القرآن»**.

٨ ـ ابن أبي الأصبع المصري، المتوفى ٦٥٤ هـ، وكتابه: **«بديع القرآن»**.

٩ ـ ومن أشهر وأجمع مَن ألف في ذلك **«إعجاز القرآن»** للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، المتوفى: ١٩٣٧هـ.

* * *

● مناقب القاضي أبى بكر الباقلاني:

كان القاضي أبو بكر الباقلاني من كبار المفكرين المعدودين في القرن الرابع الهجري. وكان متعدد الجوانب، كثير المناقب، مبرزًا في شتى المجالات الفكرية والعلمية، تدريسًا، ومناظرةً، وتأليفًا، وكان إلى جانب ذلك يمتاز بذكاء وفطنة وسرعة بديهة وقوة عارضة وغزارة علم، وأن ما يرويه عنه معاصروه والمؤرِّخون له ليقف شاهدًا له على صدق توفر هذه السمات في الشيخ القاضي ـ رحمه اللَّه ـ تَعَالَى ـ. وقد كان شيخ الأشعرية في وقته المتحدث باسم المذهب الأشعري المنافح عنه ضد معارضيه، وبخاصة المعتزلة، ورغم أننا نختلف مع الباقلاني في آرائه الكلامية، ولا نتفق معه في الكثير مما ألزم به نفسه، وألزم به الأمة من مبادئ اعتبرها من الدين، وهي ليست منه في شيء، إلا أنَّ ذلك لا يجعلنا نغمط الرجل حقًّا هو له، ولا فضلًا أحرزه، ولا منقبة حازها. ومناقب القاضي التي تذكر له كثيرة. لكن أحسن ما يذكر له، وأفضل ما شهره ورفع ذكره بين معاصريه

حدثان:

الحدث الأول: اتصاله بالملك: فَنَّاخِسْرُو بن الحسن بن بُوَيْه الملقب «**عضد الدولة**» أبو شجاع، وكان يملك على فارس والموصل والجزيرة، وهو أول مَن لقب نفسه «**شاهنشاه**» أي ملك الملوك - نستغفر اللَّه -. وأول مَن خُطِبَ له على المنابر بعد الخليفة، وكان بلاط الملك يغص بعلماء المعتزلة، وكذلك كان قاضي القضاة معتزليًا. وتكلم قاضي القضاة هذا ينقض مذهب الأشاعرة. فقال الملك للقاضي: إنَّ مجلسنا عامر بالعلماء، لكنَّا لا نرى فيه أحدًا من أهل السنة - يقصد الأشاعرة - ينصر مذهبه. فقال القاضي: إن أهل السنة عامة رعاع غوغاء أصحاب تقليد وأخبار وروايات، وأنهم يروون الخبر وضده ويعتقدونهما، وأحدهما ناسخ للثاني، ولا أعرف أحدًا منهم يقوم بهذا الأمر، فقال الملك «**فناخسرو**»: محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر ينصره، فانظروا أي موضع يكون فيه مناظر لنكتب إليه ليحضر مجلسنا، فلما رأى القاضي المعتزلي عزم الملك على ذلك، قال له: أخبروني أن بالبصرة رجلين، شيخًا وشابًا؛ أما الشيخ فيعرف بأبي الحسن الباهلي، وأما الشاب فيعرف بالباقلاني. وكانت حضرة الملك بشيراز، فكتب إلى عامله بالبصرة أن يشخصهما إليه، وأن يعطيهما ما يحتاجانه من نفقة. وما حدث بعد ذلك يحكيه القاضي **الباقلاني** بنفسه فيقول: «فلما وصل الكتاب إلينا قال الشيخ - يعني أبا الحسن الباهلي - وبعض أصحابنا: هؤلاء القوم فسقة، لا يحل لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال: إن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم، ولو كان ذلك للَّه عَزَّوَجَلَّ خالصًا لنهضت، فأنا لا أحضر عند قوم هذه صفاتهم».

قال القاضي: فقلت لهم: كذا قال ابن كلَّاب والمحاسبي ومَن كان في عصرهم من المتكلِّمين، قالوا: إنَّ المأمون لا نحضر مجلسه، حتى ساق أحمد - الإمام أحمد بن حنبل رضي اللَّه عنه - إلى طرسوس حتى مات المأمون، ثم ردُّوه إلى المعتصم، فامتحنه وضربه، فهؤلاء الذين أسلموه، ولو ذهبوا إليه وناظروه

لكفوه عن هذا الأمر، فإنه كان يزعم أن القوم ليست لهم حجة على دعاواهم، وأنت أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد ابن حنبل رضي الله عنه ويقولون بخلق القرآن، ونفى رؤية اللَّه ـ تَعَالَى ـ أما أنا فخارج إليهم».

قال القاضي الباقلاني: فخرجت مع الرسول نحو شيراز عن طريق البحر حتى وصلنا إليها، ولقينا من ترحيب الملك...»، ثم ذكر القاضي الباقلاني ما كان من مناظرته مع المعتزلة في حضرة الملك فناخسرو، وقطعه إياهم وظهوره عليهم، مما كان سببًا في أن يميل الملك إلى مذهب الأشاعرة، وبلغ من إعجابه بالقاضي الباقلاني أن دفع إليه ابنه ليعلمه مذهب أهل السنة ـ يقصد مذهب الأشاعرة ـ، وتولَّىٰ القاضي ذلك، بل إنه ألف كتاب «**التمهيد**» لهذا الغرض.

وهذه الواقعة تدل على حسن تقديرٍ للأمور من القاضي، وحسن بصر بعواقبها، كما تدل على طول باع في المناظرات وإفحام الخصوم.

ومما يدل على قوة عارضته في المناظرة ما نقله «**ابن عساكر**» عن الشيخ أبي القاسم بن برهان النحوي أنه قال: «**مَن سمع مناظرة القاضي أبي بكر لم يستلذ بعدها بسماع كلام أحد من المتكلمين والفقهاء والخطباء والمترسلين، ولا الأغاني أيضًا، من طيب كلامه وفصاحته. وحسن نظامه وإشارته**».

ومما يروى في هذا السبيل؛ أنه قد جرى بينه وبين أبي سعيد الهاروني مناظرة، فأكثر القاضي أبو بكر الكلام فيها ووسع العبارة وزاد في الإسهاب، ثم التفت إلى الحاضرين وقال: اشهدوا عليّ إن أعاد كلام نفسه سلمت له ما قال.

* * *

- **فطنته وسرعة بديهته:**

مما يدل على فطنة الشيخ الباقلاني وسرعة بديهته، وذكائه، وحسن تصرفه فيما يعنّ له من أمور، ما يذكره الدقاق وغيره، وهو ما يمثل:

الحدث الثاني: من الحدثين الذين قلنا أنهما شهراه ورفعا ذكره بين الناس.

ونقصد به سفارته إلى ملك الروم.

فإن الملك **«فناخسرو عضد الدولة»** كان قد بعث القاضي الباقلاني في سفارة له إلى ملك الروم. وكان من عادة ملك الروم أن كل مَن دخل عليه من السفراء والكبراء أن ينحنوا مرات وهم مقبلون عليه حتى تقارب رؤوسهم الأرض.

ولما وصل القاضي الباقلاني إلى ملك الروم في سفارته سأل عنه الملك وعرف أنه لن ينحني له كما يفعل كل مَن دخل عليه. ففكر الملك ومَن معه في حيلة تجعل القاضي مضطرًا لأن ينحني أمام الملك وهو داخل عليه.

وكانت الفكرة أو الحيلة تتمثل في أن يجعل السرير الذي يجلس عليه الملك وراء باب لطيف صغير لا يمكن لأحد أن يدخل منه إلا منحنيًا إلى حد الركوع، حتى إذا دخل القاضي على الملك اضطر أن ينحني شديدًا حتى يمر من الباب، وبذلك يتحقق للملك ما أراد من انحناء القاضي بين يديه. فلما وضع الملك سريره على هذا الحال أمر بإدخال القاضي عليه من هذا الباب الصغير. فلما رأى القاضي الباب تفكر قليلًا، ثم أدرك الحيلة، فأدار ظهره للملك. وحنى ظهره وطأطأ رأسه، ودخل من الباب وهو يمشي من الخلف وقد استقبل الملك بظهره بدلًا من وجهه، وظل سائرًا بظهره إلى أن وصل إلى الملك فرفع رأسه ونصب ظهره ثم استدار إلى الملك بوجهه، فعجب الملك من ذكائه وفطنته وسرعة بديهته. ووقعت له الهيبة في نفسه.

ومما يدل على ذكائه وفطنته أنه ـ وهو في سفارته إلى ملك الروم تلك ـ دخل على الملك يومًا فوجد لديه بعض المطارنة والرهابنة والقسس، فقال القاضي لكبيرهم: كيف أنت، وكيف الأهل والأولاد؟ فتعجب الملك وقال له: ذكر مَن أرسلك إلينا في رسالته أنك لسان الأمة، ومن علماء الملة، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الأهل والأولاد؟ فأجابه القاضي أبو بكر: رأيناكم لا تنزهون اللَّه ـ تَعَالَى ـ عن الأهل والأولاد، وتزعمون أنكم تنزهون هؤلاء عن

الأهل والأولاد فهل هؤلاء عندكم أقدس وأجل وأعلىٰ من اللَّه ـ تَعَالَى ـ؟ فانكسر الملك وازدادت هيبة الملك في نفسه.

وفي هذه السفارة ـ أيضًا ـ أراد الملك الرومي أن يخزي القاضي ويوبخه فقال له: أخبرني عن قصة عائشة زوجة نبيكم وما قيل فيها.. فقال له القاضي على الفور: هما اثنتان قيل فيهما ما قيل، زوج نبينا، ومريم ابنة عمران أم المسيح، فأما زوج نبينا لم تلد، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها. وقد برأ اللَّه ـ تَعَالَى ـ كلًّا منهما مما رميت به. فانقطع الملك ولم يحر جوابًا.

ونحن ـ وإن أعجبنا بذكائه وسرعة بديهته وحسن تخلصه ـ إلا أننا لا نوافقه على أن يقيم تلك الموازنة بين اثنتين من أطهار النساء.

فهذه الوقائع ـ وغيرها كثير ـ مما يدل على ذكاء الشيخ القاضي أبى بكر الباقلاني وسرعة بديهته وحسن تخلصه وقوة فطنته.

* * *

● **أوجه الإعجاز القرآني في رأينا:**

اتفق العقلاء قديمًا وحديثًا على أن القرآن العظيم هو آية اللَّه العظمى لخاتم النبيين محمد ﷺ، بل هي آية اللَّه العظمى لسائر النبيين والمرسلين من لدن أبي البشر آدم عليه السلام حتى خاتمهم محمد ﷺ، باعتبار أن القرآن المجيد مصدق لما بين يديه من الكتب ـ أي الكتب السابقة كلها ـ وناسخ لها ومهيمن عليها. وباعتبار آخر هام؛ وهو أن القرآن المجيد يعتبر هو السجل الوحيد الموثوق به ثقة مطلقة، والذي أورد في ثنايا آياته وسوره أخبار الكتب السابقة، وأخبار مَن نزلت عليهم تلك الكتب، وأهم من ذلك أنه أمرنا بالإيمان بهذه الكتب جميعها إجمالًا فيما أجمل، وتفصيلًا فيما ورد مفصلًا. يقول ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ في تصديق القرآن الكتب السابقة وهيمنته عليها:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ

﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

ويقول ـ سُبْحَانَهُ ـ في وجوب الإيمان بالكتب السابقة التي أنزلت على الرسل السابقين: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

وهذه الآية تأمرنا بالإيمان بالكتب السابقة، وبالرسل الذين أنزلت عليهم هذه الكتب..

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الكتب السابقة بين أمرين: إما مضيع مفقود، أو محرف مردود. فالكتب السابقة كلها فقدت، ورفع العلم بها بين الناس، أما التوراة فهي محرفة مبدلة. يقول اللَّه ـ تَعَالَى ـ عن اليهود وتحريفهم التوراة: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

وفي ظل غياب الكتب السابقة بين مفقود ومحرف مردود، لم يبق بين أيدي الناس من سجل مأمون، وثبت معصوم. أورد أخبار الرسل والأنبياء السابقين، وتحدث عن كتبهم التي أنزلت عليهم. بل وتحدث ـ في كثير من آياته ـ عن بعض ما ورد في هذه الكتب، سوى القرآن العظيم، فهو السجل المأمون، والكتاب المعصوم الذي عن طريقه، ومن خلاله ورد ذكر الرسل السابقين، والكتب التي أنزلت عليهم، وبعض ما ورد في هذه الكتب. من مثل قوله ـ تَعَالَى ـ عن بعض الأحكام التي وردت في توراة موسى عليه السلام:

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

وقوله ـ تَعَالَى ـ عن بعض ما ورد في التوراة ـ أيضًا ـ:

﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ

وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقوله ـ تَعَالَى ـ عن بعض ما ورد في زبور داود عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: ١٠٥].

وقوله ـ سُبْحَانَهُ ـ عن بعض ما ورد في صحف إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٤٢].

هذا، فضلًا عن الأخبار الدقيقة التفصيلية التي ورد بها القصص المعصوم عن الرسل ـ صلوات اللَّه عليهم ـ وأقوامهم، وسيرة الأقوام مع رسلهم. وما أنزل اللَّه ـ تَعَالَى ـ بكل قوم من عقاب شديد جزاء ما اقترفوا في حق أنبيائهم ورسلهم.

كل هذا يبين صدق ما قلنا من أن القرآن العظيم هو آية اللَّه العظمى، ليس لخاتم الرسل محمد ﷺ، بل لكل الأنبياء والمرسلين من لدن أبي البشر آدم حتى خاتمهم محمد ـ صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين ـ.

ولأن القرآن المجيد كما قلنا، بل وفوق ما قلنا ـ لأنه من المسلم به أن ليس هناك قول يوفي القرآن حقه ـ، فإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ قد اختص القرآن العظيم بخصائص لم تكن لغيره من الكتب السابقة. ولسنا نزعم أن بإمكاننا أن نلم بتلك الخصائص والمزايا التي فضل اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ بها كتابه الخاتم وميزه، ولكننا ـ بقدر الإمكان والطاقة ـ سنشير إلى أهمها إشارات موحية وإن لم تكن كافية.

١ ـ أن اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ جعله الكتاب الخاتم المصدق لكل ما تقدم من كتب، والمهيمن عليها ـ كما سبق بيانه ـ.

٢ ـ أن اللَّه ـ تَعَالَى ـ ضمنه الدين الكامل، والرسالة الخاتمة الباقية التامة العامة.

يقول ـ تَعَالَى ـ:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكانت الرسالات السابقة ممهدة لتلك الرسالة الخاتمة، لذلك نسخت تلكم الرسالات كما نسخت كتبها بما فيها من تشريعات، وجاءت الرسالة التامة العامة، الكاملة الشاملة مضمنة في ذلكم الكتاب المبين.

٣ ـ لأن القرآن المجيد هو المحتوي على الرسالة الخالدة الباقية؛ فقد تكفل الله ﷻ بحفظه من التحريف والتبديل، فضلًا عن الفقد والضياع. وفي ذلك يقول ﷻ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وقد كان الله ـ سُبْحَانَهُ ـ قادرًا على حفظ الكتب السابقة. وهو الذي لا يعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض. ولكن الله ـ تَعَالَى ـ لم يحفظ الكتب السابقة لأمور أهمها:

أولًا: أن الكتب السابقة كانت تنزل على قوم بأعيانهم ولزمان ومكان بعينه، فكانت تلك الكتب بما تحويه من شرائع كتبًا خاصةً: أقوامًا وزمانًا ومكانًا. لذلك لم تكن ثمة حاجة إلى حفظ هذه الكتب بما تحويه من تشريعات منسوخة، جاءت بها رسالة خاصة نسخت بما جاء بعدها من رسالات.

ثانيًا: أن الله ـ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ـ لم يحفظ الكتب السابقة، حتى لا يصير بين أيدي الناس أكثر من كتاب إلهي يشتغلون به حفظًا له، وعملًا به، واجتهادًا في فهم ما يحويه من أحكام وتشريعات وقصص ومواعظ وإنذارات وتبشيرات وأوامر ونواه، إلا ذلك الكتاب الخاتم: القرآن العظيم.

٤ ـ أن الله ﷻ جعله المعجزة الخالدة الباقية لخاتم الرسل محمد ﷺ، وإذا كان لكل نبي جاء من قبل الله ـ تَعَالَى ـ معجزته أو معجزاته، وكانت معجزاتهم منها ما هو حسي، وما هو معنوي عقلي، ونعني بذلك ما أنزل عليهم من الكتب

السابقة التي هي كلام يحتوي على معان، وإنما تدرك المعاني بالعقل وليس بالحس، لذلك قلنا معنوية عقلية، نقول: إذا كان ذلك واقع حق ثابت، فقد أضحت هذه المعجزات بشقيها الحسي والمعنوي أخبارًا نؤمن بها ضمن ما نؤمن به من الغيب حين نتلقاها من أحد المصدرين المعصومين أو من كليهما: الكتاب الكريم، والسنة الصحيحة، لكن يظل كل ذلك في دائرة الغيب، إلا معجزة واحدة، هي المعجزة الباقية الخالدة التي نعايشها بحواسنا وعقولنا، بأفئدتنا ومشاعرنا، تلكم المعجزة الوحيدة الباقية هي القرآن العظيم..

والقرآن العظيم المعجزة الباقية يصح بأن نصفه بأنه معجزة المعجزات، وآية الآيات، وهذا حق؛ لأن القرآن المجيد هو الذي نقل إلينا قصص الأنبياء والرسل السابقين ـ صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين ـ، ونقل إلينا أخبارهم مع أقوامهم، وما يهمنا هنا ـ تحديدًا ـ أن القرآن الكريم هو الثبت الذي احتوى أهم معجزات الأنبياء والرسل السابقين، ونقلها إلينا، ومنها ما نقل بتفصيل كبير، مثل معجزات موسى عليه السلام إلى فرعون ثم إلى بني إسرائيل، سواء في عددها، أو في تفصيل ما جرى في بعضها مثل ما وقع بين موسى عليه السلام وفرعون ثم السحرة ثم دقائق ما حدث في هذه المعجزة العظيمة تمهيدًا لها، ثم أثنائها، ثم ما وقع بعدها نتيجة لها، كل ذلك لم نأخذه عن توراة موسى، أو غيره من كتب اللّه ـ تَعَالَى ـ التي ذهبت، وإنما أخذناه عن القرآن المجيد، عرفنا منه تلكم المعجزات، وآمنا بها وأيقنا بوقوعها، من خلال القرآن الكريم..

لذلك قلنا: إن القرآن العظيم يصح لنا أن نصفه بأنه معجزة المعجزات من حيث إنه المعجزة الوحيدة الباقية، وأنه كذلك هو الثبت للمعجزات الماضية.

٥ ـ أن القرآن المجيد هو المعجزة التي مازال التحدي بها للبشرية كلها قائمًا، وسيظل ويبقى قائمًا ما بقيت الحياة الدنيا، وكل إنسان على هذه الأرض، بل كل جني من أفراد الجن متحدى بهذا القرآن أن يأتي بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله.

فالمعجزات السابقات ذهبت وذهب التحدي بها، وبقى القرآن المجيد معجزة خالدة، وخلوده معجزة.. يعني - بالضرورة - خلو: التحدي به، وقيام هذا التحدي حتى قيام الساعة.

٦ - أن القرآن المجيد معجزات في معجزة، فإن كل معجزة لنبي من الأنبياء - صلوات الله عليهم - قد يكون لها وجه إعجاز واضح، مثل قلب عصا موسى عليه السلام حية، فهذا وجه واحد للمعجزة، ومثل ناقة صالح لها وجهان للإعجاز، ومثل نطق الضب لرسول الله ﷺ، فإنه له وجهين للإعجاز، نطقه، وشهادته برسالة محمد ﷺ وهكذا جملة المعجزات على اختلافها بين وجه ووجهين.

أما القرآن المجيد فأوجه إعجازه كثيرة ومتعددة، وكل وجه من أوجه إعجازه يقوم مقام معجزة فذة. فكأنه - كما ذكرنا - معجزات في معجزة، بل إنه لكذلك، بل إن الآراء لتختلف في إحصاء ما في القرآن من أوجه إعجاز، كل وجه هو بمقام معجزة في حد ذاتها، وهذه الآراء في أوجه الإعجاز هو ما سنشير إليه بعد الانتهاء من إحصاء مزايا وخصائص القرآن المجيد - على قدر الإمكان ..

٧ - أن القرآن العظيم كلام الله - سُبْحَانَهُ - غير مخلوق. فهو كلام الله - وكلام الله - تَعَالَى - قديم وليس حادثًا. والقرآن مكتوب في لوح الله المحفوظ، كما قال ربنا عز وجل في قرآنه:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

والقرآن في لوح الله - سُبْحَانَهُ - المحفوظ بلفظه ومعناه، فحروفه، وكلماته المكونة من الحروف، إنما هي موجودة في اللوح المحفوظ..

وليس صحيحًا ما يذهب إليه بعض طوائف المتكلمين، وبخاصة متأخرو الأشاعرة - ومنهم مؤلف كتاب إعجاز القرآن الذي بين أيدينا. أعني القاضي أبا بكر الباقلاني - نقول: ليس صحيحًا ما ابتدعوه وذهبوا إليه من القول بأن القرآن العظيم قديم بمعناه، حادث بألفاظه وحروفه. بمعنى أن معانيه قديمة، أما حروفه وكلماته فحادثة. فهذه بدعة اخترعها (ابن كُلَّاب) المتكلم شيخ أبي الحسن

الأشعري. حين ابتدع ما سماه: (الكلام النفسي)، ثم انتشرت هذه البدعة بعد ذلك، ولقد رأينا القاضي الباقلاني يرددها ويحكم على مَن يعارضها بأنه مريض العقل، فاقد الصلاحية للمناقشة.

ولسنا ندري من أين جاءوا بهذا التقسيم العجيب الذي جعلوا به القرآن ﴿عِضِينَ﴾ فكانوا مع الذين قال الله - تَعَالَى - فيهم:

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩٣].

فأولئك جعلوا القرآن أقسامًا، وهؤلاء - الباقلاني ومَن معه - جعلوا القرآن قسمين:

ألفاظه وحروفه قسم، ومعانيه قسم آخر. فقالوا: بحدوث القسم الأول، وبقدم القسم الثاني. مع أن القرآن اسم للألفاظ والمعاني معًا، وأن العقل يحيل وجود معاني خالية من الألفاظ، كما يحيل وجود ألفاظ ينطق بها عاقل تكون خالية من المعاني. وقد يوجد إنسان يركب ألفاظًا وأصواتًا ينطق بها تكون خالية من المعاني، لكنه يوصف بأنه معتوه أو ناقص التمييز، أو ضارب في طريق من طرق العبث. وحاشا أن يكون القرآن الكريم كذلك.. ولست أدري كيف تكون قراءتنا:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ ألفاظًا وحروفًا خالية من المعنى الكريم المقدس الذي تحمله، أو كيف يمكن أن يجرد معناها الشريف فيكون خلوًا من ألفاظه وحروفه؟

* * *

وإذ قد فرغنا من بيان ما تيسر لنا استحضاره من خصائص القرآن العظيم وميزاته - على قدر الطاقة -، فسنشير - فيما يلي بحول الله - تَعَالَى - إلى الآراء في أوجه إعجاز القرآن المجيد، متوخين الإجمال أولًا، ثم انتقاء الأشهر والأظهر من

الآراء ثانيًا، والانتقاء من الآراء حول هذه القضية أمر ضروري، حيث إن القرآن المجيد منذ نزل، وقد شغل القلوب والعقول، واستولى على الألباب والأفئدة، واهتم به وله المؤمنون وغير المؤمنين، أما المؤمنون فاشتغلوا به بحكم إيمانهم. بل بحكم فطرهم. فإن القرآن نفذ إلى قلوبهم، وملك عليهم وجداناتهم ومشاعرهم، وأصبح نبراسًا يستضيئون بنوره، ويهتدون بهديه، وينفذون أوامره، ويدعون نواهيه، ويتخذونه إمامًا ومرشدًا لهم في كل شئون حياتهم صغيرها قبل كبيرها، وحقيرها أسبق من خطيرها. ثم إنه للمؤمن دليل إيمانه، ومرشد فرائضه، وتبيان حلاله وحرامه، وفاروق جنته من النار، وفيصل حقه من الباطل، لذلك اشتغل به المؤمن، واهتم له المسلم، كأكثر ما يكون الاشتغال، وأخطر ما يكون الاهتمام، ومن جملة اشتغال المؤمن بالقرآن العظيم أن يتدبره ويتفكر فيه، فإن الله ـ سُبْحَانَهُ ـ يخاطب المؤمنين:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقال ﷻ مبينًا بعض سمات عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣].

وأما غير المؤمن فقد اشتغل بالقرآن ليشغب عليه، وليجد فيه ثغرة ينفذ من خلالها للطعن فيه، وليعرف سبب تأثيره على النفوس ليعطل ذلك التأثير أو يقلل منه، وهيهات أن يجدوا من ذلك شيئًا، أو يحققوا من أهدافهم نزرًا، لذلك لجأوا إلى المبهمات يوارون عجزهم خلفها، ويعللون خيبتهم بها، فقالوا: إنه سحر، وإنه شعر، وإنه كهانة. فرد الله ﷻ عليهم قولهم. فقال ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣].

بل إن غير المؤمنين كانوا يشتغلون به يعللون أنفسهم بالبحث عن مطعن فيه، وهم في حقيقة أمرهم يشتغلون به إعجابًا وافتتانًا بما يحويه من سبل الإعجاز،

حتى إن بعضهم بدأ الاشتغال به كراهية له وعداء، ثم لم يمض قليل حتى أسلم قياده، وخلع عناده، وآمن وصدق إيمانه. وهذا وحده من أوضح أوجه إعجاز القرآن المجيد، وليس من مثال على ذلك أظهر وأشهر من واقعة إيمان الفاروق ابن الخطاب عمر رضي الله عنه، فقد اشتغل بمعارضة المؤمنين وتخويفهم، ولما علم أن أخته آمنت اندفع إلى دارها تشتعل نار قلبه، ويغطي الغضب على نور عقله وفكره، حتى دخل الدار وضرب مَن ضرب، وأسال دماء مَن في الدار، لكنه ما إن أمسك بذلك الرق وفيه آيات من القرآن، حتى حوله القرآن خلقًا جديدًا، أمسك بالرق وهو أشد الناس عداوة ومقتًا للقرآن، وإذا هو بعد نظرة في ذلك الرق يتحول إلى فاروق الإسلام، وناصر الإيمان الذي فرق الله به بين الحق والباطل.

* * *

وقد أشار صاحب كتاب: «**إعجاز القرآن**» الذي في أيدينا إلى أوجه من الإعجاز للقرآن بلغت عشرة، ونحن نشير إلى بعضها، ونضيف إليها، متوخين الإيجاز والانتقاء ـ كما ذكرنا ـ، من حيث أن اشتغال الناس بالقرآن العظيم منذ نزل، مؤمنهم وكافرهم ـ على ما بيّنا ـ قد خلف آراء في إعجاز القرآن قد تجل عن الحصر، وبخاصة في عجالة كهذه.

الوجه الأول: إن أول وجوه الإعجاز للقرآن المجيد ـ في نظرنا ـ قد يكون هو آخرها ـ عادة ـ في ترتيب الكاتبين في هذا المجال. ونعني به تأثير القرآن في النفوس والأفئدة، واستيلاءه على العقول والقلوب، حتى إنه ليخضع أعتى النفوس، ويلين أقسى القلوب، ويستولي على أغلظ الأكباد، ويحول في طرفة عين أعدائه إلى أولياء، ومحاربيه إلى مجاهدين في سبيله، كما ضربنا لذلك بابن الخطاب عمر رضي الله عنه، وكم من أمثال عمر في كل زمان ومكان يجلون عن الحصر يماثلونه في قضية إيمانهم تلك، وإن كانوا يقصرون عنه في الجوانب الأخرى التي اختص بها رضي الله عنه والتي من أجلها لم يكن في تاريخ الإسلام إلا ابن خطاب واحد.

وقد يختلف الباحثون حول السر في هذه القوة التي بها يستولي القرآن على العقول والقلوب، والتي يسلب بها النفوس من أصحابها، حتى إنهم لينكرون أنفسهم بعد قراءتهم القرآن المجيد وتأثيره فيهم، قد يختلف الناس في تفسير هذا السر، لكنا نزعم أنه ليس سرًّا بهذا القدر الذي يتخيلونه. ذلكم أن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين، إلى النفوس والقلوب التي صاغها وفطرها وخلقها رب العالمين، أحسن الخالقين، فخالق النفوس والقلوب والعقول هو وحده العليم بما يؤثر فيها وبما تتأثر به، ومن ثم فقد أنزل إليها ذلكم الكتاب على الهيئة التي بها يستطيع أن يؤثر فيها ويستولي عليها، وذلك وصف اللَّه ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ الإسلام الذي جاء به القرآن بأنه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ قال ـ سُبْحَانَهُ ـ:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٤٠].

ولعل من مفاتيح ذلك السر العجيب أن اللَّه ـ تَعَالَى ـ أنزل القرآن ليخاطب القلوب والعقول، فليس هو كتاب منطقي أرسطي، ولا فلسفة فارابية أو سينوية، تتفلسف بقضايا جامدة ميتة، لكنه كتاب حي طلي يخاطب القلوب والعقول، والمشاعر والوجدانات، ويمسك بتلابيب الإنسان من جانبيه النفسي والعقلي، فيستولي عليه، ويجتذبه نحوه.

الوجه الثاني: بلاغة القرآن الفذة العجيبة، التي حار فيها البلغاء، وعجز عن وصفها الأدباء، وأسلم لها العقلاء والأذكياء، وخضع لها الناثرون والشعراء، ولم يجدوا لها تعليلًا، ولا إليها مدخلًا وسبيلًا، فأسلم لها البلغاء والفصحاء، وحصروا كل همهم ليس في معارضتها ومحاولة الإتيان بمثيل لها، بل في محاولة تفسيرها وإدراك شيء من أسرارها، وقد عبر عن ذلك الإمام الخطابي في كتابه **«بيان إعجاز القرآن»** بقوله: **«ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه إعجاز القرآن من جهة البلاغة، لكن صعب عليهم تفصيل ذلك»** ورحم اللَّه الخطابي. فإنه قرر بعبارته الموجزة أن الباحثين من البلغاء والفصحاء قد عجزوا عن

تفصيل سر بلاغة القرآن ووصف أسبابها، لذلك نكتفي بالإشارة إلى بلاغته دون محاولة تفصيلها أو تفسيرها، حيث عجز عن ذلك مَن أرسخ قدمًا وأعلا كعبًا في هذا الباب، لكنا وإن لم نشغل أنفسنا بتفسير أسرار تلك البلاغة الآسرة، فإنا نجد لازمًا علينا أن نبين آثارها في نفوس القوم الذين نزل عليهم القرآن، وكانوا أعلم الناس بالبلاغة والفصاحة وتصاريف القول في هذا الباب، ولأنهم كذلك تحداهم اللَّه ـ تَعَالَى ـ أن يأتوا في هذا الباب بما يماثل القرآن، أو عشر سور مثله، أو سورة من مثله، على ما نجده مفصلًا في غير هذا الموضع، ولكنهم عجزوا إلى حد أن استبدلوا باللسان السنان، وبالمقال القتال، وضحوا بالأنفس والأموال، حين عجزوا على أن يأتوا بمثل القرآن الكريم أو شيء منه، وفيما يرويه الرواة عن حالهم حين نزول القرآن، وافتتانهم به دليل في مثل وضوح الشمس ظهيرة يوم صائف على أنهم مقرون معترفون ببلاغته وفصاحته وإعجازه، ولكن الظالمين بآيات اللَّه يجحدون.

يروى أن أبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق، وأبا سفيان بن حرب خرجوا ليستمعوا من رسول اللَّه ﷺ القرآن وهو يصلي من الليل في بيته، فاتخذ كل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل منهم لا يدري بمكان صاحبه، ولا يعلم أن أحدًا يستمع غيره، فباتوا يستمعون حتى إذا طلع الفجر تفرقوا عائدين فجمعهم الطريق، فتلاوموا على سماعهم من رسول اللَّه. ثم قالوا: لا تعودوا لمثل هذا فلو رآكم سفهاؤكم لأوقعتم في أنفسهم شيئًا. ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية اتخذ كل منهم مجلسه الذي كان فيه البارحة، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا عائدين فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم ذهب كلٌّ إلى بيته، فلما كان الصباح أخذ الأخنس بن شريق عصاه ثم خرج حتى أتىٰ أبا سفيان. فقال له: أخبرني يا أبا سفيان عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال أبو سفيان: يا أبا ثعلبة واللَّه لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما

يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت كذلك...

وقد كانوا يدركون تأثير القرآن العجيب على النفوس وأثره في القلوب. ولذلك كانوا يخشون سماعه، ويتجنبون وقوعه في آذانهم خشية أن يفقدوا تماسكهم حياله ويذعنوا له. ولذلك تواصوا فيما بينهم ألا يُعَرّض أحدهم نفسه لمثل هذه التجربة التي ستؤدي به إلى التسليم والإذعان، كما تواصوا أنه إذا تعرض أحدهم للقرآن أن يسد أذنيه أو يصيح ويحدث من الجلبة ما يودي بصوت القارئ فلا يصل إليه. يقول اللّه ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ فيما تواصوا به من ذلك:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

وهذا الخوف منهم فسرته كثير من الوقائع التي ما أن استمع المشرك فيها إلى آية وربما بعض آية حتى يلين قلبه، وتزول الغشاوة من فوق عينه ثم يعلن إسلامه.

يروى أن أعرابيًّا سمع رجلًا يقرأ قوله ـ تَعَالَى ـ:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤].

فخر الأعرابي ساجدًا وقال: أسجدني فصاحته.

وروي أن رجلًا من المشركين سمع قوله ـ تَعَالَى ـ:

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف عليه السلام: ٨٠].

فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل ذلك.

وفي حديث إسلام أبي ذر رضي الله عنه مثال على بلاغة القرآن، وشهادة بتأثيرها من عارف بتلك البلاغة بارع فيها. فقد قال أبو ذر رضي الله عنه فيم يروى عنه: واللّه ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، لقد ناقض اثني عشر شاعرًا أنا أحدهم. وأنه ذهب إلى مكة وجاء لي بخبر النبي صلى الله عليه وسلم، قلت له: فما يقول الناس عنه؟ قال أخي أنيس: يقولون: ساحر شاعر كاهن، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على قصائد الشعر فلم يلتئم على لسان أحد يدعى أنه شاعر، واللّه إنه لصادق. وإنهم ليكذبون.

وإذا كان الشيء يكون أوضح وأظهر إذا قورن بضده، وقوبل بنقيضه، كما قال الشاعر: «**والضد يظهر حسنَه الضدُّ**». فإنا لهذا فقط نسوق هنا كلامًا زعم صاحبه أنه وحي من عند الله ـ سُبْحَانَهُ ـ بعد أن زعم أنه نبي مرسل، وهذا الكلام الذي سنسوقه توفرت له كل الظروف التي توفرت للقرآن المجيد، عدا أن صاحبه كاذب في دعوى النبوة، وبالتالي في دعوى أن يكون ذلك الكلام وحيًا من عند الله رب العالمين، لم ينقض هذا الكلام إلا هذه، ثم توفر بعد ذلك أن صاحبه عربي قح، وأن الزمان زمان العربية الفصحى، والمكان مكان العرب الخلص، فليس ـ إذن ـ من فارق سوى أن هذا كلام رب العالمين، وذاك كلام كذاب مهين، إنه كلام مسيلمة. فماذا قال؟ إنه قال فيما يزعمه وحيًا من عند رب العالمين ـ حاشا لله ـ:

«**ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشًا قوم يعتدون**». وهذه سماها الكذاب: سورة الضفدع.

وقال الكذاب أيضًا:

«**والمبديات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمنًا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعترَّ فآووه، والباغي فناوئوه**»..

واجتمع مسيلمة الكذاب ـ قائل الغث السابق ـ مع «**سجاح بنت الحارث**» وكانت تدعي النبوةَ أيضًا، فلما اجتمع النبي بالنبية، قالت له ما أوحى إليك؟ قال: أوحى إليَّ: «**أن الله خلق النساء أفواجًا، وجعل الرجال لهن أزواجًا، فنولج فيهن قعسًا إيلاجًا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجًا، فينتجن لنا سخالاً نتاجًا**» فلما سمعت المرأة حديثه هذا سارعت تقول له: أشهد أنك نبي.

إن هذا الكلام الصادر عن الكذاب مسيلمة ليدل بوضوح على البون الشاسع

بينه وبين كلام رب لعالمين، ولذلك لما سمع أبو بكر ﷺ كلام مسيلمة هذا قال لمن جاءه به: ويحكم إن هذا الكلام لا يخرج عن «آل» أي عن ربوبية، أي ليس هذا كلام رب العالمين، إن أقل الناس تمييزًا لا يذهب عنه، ولا يصعب عليه أن يدرك أن هذا كلام في غاية السخف والإسفاف.

إننا نفرز كلام ربنا - سُبْحَانَهُ - ونميزه، فنخصه بسطور مفردة تقديسًا له وإجلالًا أن يختلط بكلامنا، وكلام الكذاب هذا قد أفرزناه في فقرات خاصة به تكريمًا لكلامنا نحن أن يختلط بهذا السخف، وتنزيها له أن يمازج هذا الهراء.

الوجه الثالث: الإخبار بالمغيبات في الماضي. ونعني بذلك أخبار الأمم الماضية، والقرون السالفة، ومع كل أمة ذكر نبيها الذي أرسل إليها، ثم ما جرى بينه وبينهم، ثم ما وقع لهم نتيجة تكذيبهم إياه، كل ذلك يقصه القرآن العظيم، على هيئة تفصيلية دقيقة، بل إنه ليحكي مقالة القوم ردًّا على مقالة نبيهم، ثم رد النبي عليهم، ثم ما قالوه إجابة على ذلك في تفصيل دقيق يعجز عن إحصائه وبيانه مَن قد كان حاضرًا تلك المحاورات بين الأنبياء وأقوامهم، فماذا عن محمد ﷺ الذي جاء آخر الزمان بعد مضي تلك الأحقاب بالأنبياء وأممهم؛ كيف يقص هذه الأخبار بتلك التفصيلات الدقيقة المسهبة؟

إن علم هذه الأمور المغيبة في الماضي لم يكن يعرفه إلا فئة رجال الدين من يهود ونصارى، وكانت علومهم في ذلك يشوبها الكثير من النقص، وبخاصة في جانبين:

الجانب الأول: أنها كانت علومًا مستقاة من كتبهم التي حرفت وبدلت وغُيّر ما فيها، إلى حد أن أضحت غير مأمونة على خبر تلقيه، أو قصة تقصها، ونتيجة للتحريف والتبديل الذي وقع لهذه الكتب؛ فقد أكمل الأحبار والرهبان القصص المبتورة غير الواضحة من خيالهم حتى تبدو كاملة. وبذلك حرف القصص وأصبح مدخولًا مكذوبًا.

الجانب الثاني: أن قصص الماضين لدى رجال الديانتين اليهودية والنصرانية -

رغم ما فيه من تحريف وخيال - فإنه مبهم غاية الإبهام، إضافة إلى أنه لا يتناول جميع الأمم السابقة، بل يختص بما كان لبني إسرائيل أو اليهود الخاصة.

وإذا كانت هذه علوم علماء اليهود والنصارى بالنسبة لذلك القصص الماضي؛ فهل اختلف محمد ﷺ إلى أحد من الأحبار أو الكهان؟ هل تلقى علوم الأمم الماضية عن طريق معلم؟ أم هل ثقَّف محمد ﷺ نفسه عن طريق الكتابة والقراءة؟

إن شيئًا من ذلك لم يكن، فما كان له ﷺ صلة بالكهان أو الأحبار أو رجال الدين السابقين. كذلك لم يكن يختلف إلى معلم يعلمه أو قاصٌّ يقص عليه، كذلك كان من معجزات محمد ﷺ أنه لا يقرأ ولا يكتب، واعجب.. إنها أول وآخر حدث في التاريخ أن يكون فقدان العلم بالقراءة والكتابة فضيلة ومعجزة، ولقد ذكر اللَّه - سُبْحَانَهُ - هذه الحقيقة وأكد عليها. فحين طعن الكفار في القرآن، أنزل اللَّه على رسوله ﷺ قوله:

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس عليه السلام: ١٦].

وقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ولم يبق إلا أن تكون تلك الأخبار من عند اللَّه رب العالمين.

الوجه الرابع: الإخبار بالغيوب الآتية:

فقد ورد من ذلك الشيء الكثير.

من مثل قوله - تَعَالَى - إخبارًا بتغلب الروم على الفرس في بضع سنين:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾ [الروم: ١ - ٤].

فقد كانت الحرب قائمة بين الفرس والروم، وكان الرسول ﷺ والمسلمون معه في مكة قبل الهجرة يحبون أن ينتصر الروم على الفرس؛ لأن الروم نصارى أهل الكتاب، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس الوثنيين الذين يعبدون النار، وكان مشركو مكة على العكس من هذا يحبون أن ينتصر الفرس المجوس على الروم النصارى، لأنهم مشتركون مع الفرس في الوثنية، ولما غلبت الفرس الروم فرح المشركون وحزن المسلمون، فأنزل اللّٰه فواتح سورة الروم يبشر المسلمين بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين. وقد كان وعد اللّٰه حقًّا.

ومثل قوله - تَعَالَى - لرسوله ﷺ وأصحابه يبشرهم بدخول المسجد الحرام:

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

ومن مثل قوله ﷻ عن غزوة بدر:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

الوجه الخامس: كشف الحقائق العلمية.

فقد جاء القرآن الكريم يخبر عن حقائق علمية دقيقة، لم يكشفها الناس إلا في العصر الحديث. وذلك مثل قوله - تَعَالَى -:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

فقد أثبت العلم الحديث أن الرياح تحمل عناصر معينة تلقح بها البخار في الجو فيتكثف ماءً ثم يسقط مطرًا. وهذا واضح من ترتيب نزول الماء من السماء على تلقيح الرياح كما في الآية الكريمة.

ومثل قوله - سُبْحَانَهُ -:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦].

فقد أثبت العلم الحديث أن النبات أزواج ذكر وأنثى، وكذلك فيما يتعلق بالذَّرَّة فإن فيها السالب والموجب وهما يتجاذبان.

ومن الإعجاز في الآية الكريمة أنها ذكرت ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ ولم تنص على الذكورة والأنوثة. وبذلك دخل في الآية الكريمة كافة أشكال الخلق الإلهي القائم على المتقابلين، يستوي في ذلك أن يكون المتقابلان ذكرًا وأنثى، أو موجبًا وسالبًا، أو غير ذلك من كافة الأشكال، ما نعرف وما لا نعرف.

ومثل قوله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ [سورة الانشقاق: ١٦ - ١٩].

فهذه الآيات تدل على صعود الإنسان إلى أجواز الفضاء، وركوبه طبقات الجو، واختراقه طبقة من بعد طبقة، طبقة الهواء الجوي، طبقة الجاذبية الأرضية، وحوله طبقات الجاذبية لكوكب القمر حين هبوطه عليه أو اقترابه منه، على أن قوله - تَعَالَى - ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ يصدق سواء ركبنا بأنفسنا أو ركبنا تلك الطبقات بآلاتنا، وبذلك يدخل في نطاق الآية تلكم الأقمار التي يرسلها العلماء إلى المريخ والزهرة وغيرهما والتي تجوز طبقات بعد طبقات لا يحصيها ولا يرقبها إلا اللَّه - سُبْحَانَهُ -.

ومن ذلك قوله ﷻ في شأن أصحاب النار:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فإن الآية الكريمة عللت تبديل الجلود بذوقهم العذاب. كأنهم بدون جلودهم لا يذوقون العذاب. وهذا ما أثبته العلم الحديث، حيث أثبت أن مراكز الإحساس في جسد الإنسان تتركز في الجلد فقط، وأنه بدون الجلد لا يحس الإنسان شيئًا.

الوجه السادس: خلوه من التناقض والاختلاف رغم طوله، وتعدد الأغراض التي تناولها، وتعدد الأساليب التي تناول بها كل غرض من هذه الأغراض،

يستوي في ذلك أن يكون إنذارًا، أو تبشيرًا، أو قصصًا، أو وعظًا وتذكيرًا، أو أحكامًا وتشريعًا، أو ترغيبًا في الجنة ونعيمها، أو ترهيبًا من النار وجحيمها... إلى تلكم الأغراض التي تناولها القرآن الحكيم.

ومن أعجب ما في القرآن العظيم؛ أنه يخلص من موضوع إلى موضوع آخر قد يشاكله أو يخالفه، وينتقل من غرض إلى غرض مختلف، قد يقترب منه أو يبتعد عنه، وأنت لا تكاد تحس بفجأة الانتقال، ولا تشعر بطفرة التغيير، ولا بهزة التحول، كأن الموضع الثاني - رغم بعده عن الأول - جزء منه أو بعضه، وكأن الغرض الآخر - رغم اختلافه عن سابقه - شيء منه أو عضوه..

وليس ذلك من القرآن في موضع دون موضع، أو سورة أو بضع سور، بل إن السورة الواحدة مهما بلغت من القصر شكلًا وكمًّا، فإنك واجد فيها من تعدد المعاني والأغراض، وكثرة الأهداف والغايات، ما يوضح المعنى الذي نريد أن ننبه إليه.

ويكفي في هذا المعنى أن ننظر إلى أقصر سورة من القرآن المجيد، التي هي سورة الكوثر. يقول الله - سُبْحَانَهُ - مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ③﴾ [الكوثر: ١ - ٣].

إن الناظر في هذه السورة يكاد يجد فيها من الأغراض والموضوعات التي اشتملت عليها وتناولتها، أكثر من الألفاظ التي تكونت منها.

فقد تناولت فضل اللَّه - تَعَالَى - على رسوله ﷺ، ومن ذلك الفضل الخير الكثير الذي لا يحصى، أو الكوثر الذي هو نهر في الجنة، وفي ذلك استهلال إعزاز وتكريم من اللَّه - تَعَالَى - لرسوله ﷺ ردًّا على ما زعمه المشركون من أن اللَّه - تَعَالَى - حرم محمدًا من البنين. ثم انتقلت السورة فأمرته بألا يلتفت إلى تُرَّهَات هؤلاء المشركين ومزاعمهم الباطلة، وأن يقيم دينه بالحفاظ على الصلاة التي هي عماد الدين، وقد يكون الأمر بالصلاة هنا أمرًا بشكر اللَّه - تَعَالَى - على نعمه إذ

أعطاه الخير الكثير. ثم أمره اللَّه ـ تَعَالَى ـ بأن ينحر، ولذلك معان كثيرة ذكرها العلماء. هل هو نحر الضحية في عيد الأضحى؟ وتكون الصلاة هنا صلاة العيد، أم المراد توجه بنحرك إلى القبلة في الصلاة، والأغلب أن يكون المراد نحر الضحايا، فتكون الآية على صغرها تناولت الصلاة والصدقات، ثم إن قلب الآية الصغيرة لفتت الأنظار إلى أهم ما في العبادة، وهي أن تكون خالصة للَّه رب العالمين. ثم انتقلت السورة إلى غرض آخر، فردت على المشركين ودفعت عن رسول اللَّه ﷺ زعم المشركين بأنه عليه السلام أبتر. وفرقت الآية الكريمة بين نوعين من البتر: بتر البنين، وبتر الإيمان الذي هو مناط الخير كله، فرسول اللَّه ﷺ إن كان حرم حياة البنين، فإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ قد أعطاه الخير الكثير أو الكوثر، بينما المشركون، وإن كان لديهم البنون، فقد حرموا الإيمان الذي هو الخير كله، وهم كفار، وبنوهم كفار، وكلما زاد بنوهم زاد عدد الكافرين، وضمنت جهنم المزيد من الحصب.

إن هذا الذي ذكرناه أغراض السورة أو بعض أغراضها، وما يشعر الإنسان وهو يقرأ إلا بانسياب المعاني داخل الألفاظ، وتآلف الألفاظ والآيات.

وهذا الذي قصدنا بيانه بهذا الوجه.

الوجه السابع: ما يشتمل عليه القرآن العظيم من الأحكام والتشريعات التي ضمنت السعادة للمؤمنين بها، المطبقين لها في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

الوجه الثامن: وهذا وجه يعتمد على إحصاء حروف العربية ومعرفة خصائصها. وهو يبين أن ثمة حكمه ونظامًا دقيقًا وراء كل حرف وكلمة في القرآن المجيد.

فالحروف في العربية تسعة وعشرون حرفًا.

والسور التي افتتحت بهذه الأحرف تسع وعشرون سورة. هي: البقرة، آل عمران، الأعراف، يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، يس، ص، غافر،

فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، ن.

فالسور التي افتتحت ببعض الأحرف يبلغ عددها عدد جميع أحرف العربية.

والأحرف التي ذكرت في أوائل السور يبلغ عددها أربعة عشر حرفًا. بعضها مكرر.

وهي الأحرف: أ، ل، م، ص، ر، ك، هـ، ي، ع، ط، س، ح، ق، ن.. فكأنها نصف أحرف المعجم.

وهذه الأحرف الأربعة عشر صلاتها ببقية الأحرف تستدعي النظر والاعتبار، فهي تحتوي على نصف الأحرف المهموسة. والأحرف المهموسة عشرة يجمعها قولهم: «**فحثه شخص سكت**».

والنصف الموجود ضمن أوائل السور من المهموس هو الأحرف: ص، ك، هـ، س، ح.

ثم هي كذلك تحتوي على نصف الأحرف المجهورة التي بقيت بعد المهموسة. ثم إنها تحتوي على نصف حروف الحلق التي هي: العين، والحاء، والغين، والخاء، والهمزة، والهاء. ففي أوائل السور منها ثلاثة هي: العين، والباء، والحاء. ثم هي كذلك تحتوي على نصف الأحرف الشديدة التي هي: الهمزة، والباء، والجيم، والذال، والطاء، والظاء، والقاف، والكاف.. ففي حروف أوائل السور منها: الطاء، والقاف، والكاف، والألف.

ثم هي تحتوي كذلك على نصف الحروف المطبقة الأربعة وهي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء. ففيها منها حرفان هما: الصاد، والطاء.. إلى آخر هذه العلاقة الغريبة التي لا تأتي ارتجالًا ولا تأتي لعبًا ولا لهوًا، وإنما تأتي لحكمة يعلمها الخبير - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبعد؛ فإنه هذا هو ما تمكنا من الإشارة إليه من أوجه الإعجاز القرآني الكريم. الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ولا يعني ذلك أننا جمعنا وأحصينا أوجه إعجاز الكتاب العزيز، فإن وراء

كل وجه أشرنا إليه، أوجهًا كثيرة أغفلناها إما اختصارًا، وإما عجزًا منا عن الوصول إليها والإحاطة بها.

* * *

على أننا ينبغي ألا نترك هذا الموضوع الشريف حتى نشير إلى بعض الآراء الشاذة حول إعجاز القرآن المجيد. وإشارتنا إليها ليس اهتمامًا بها أو تقديرًا لها، وإنما هو من باب تكملة الموضوع من جميع جوانبه، وإلا؛ فهذه الآراء من الإسفاف والسفه حيث لا يقام لها قيمة ولا وزن.

من هذه الآراء ما ذهب إليه **«الجعد بن درهم»** حيث زعم أن القرآن ليس معجزًا بوجه من الوجوه، وأن العربي قادر على أن يأتي بمثله دون عناء كبير. وهذا الرأي الشاذ ليس غريبًا من هذا الرجل الذي تربى ودرس على يد رجل من يهود الشام، وتلقى عن أستاذه اليهودي نفثات الحقد اليهودي على الإسلام والمسلمين، ثم جاء يردد ما لقنه أستاذه اليهودي إياه. ولم يكن شذوذ **«الجعد بن درهم»** في هذه المقالة فقط، بل إنه هو الذي نقل عن أستاذه اليهودي القول بالجبر، وأن الإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئًا، وأن التكليف عبث، والحساب عبث، والجنة والنار عبث؛ لأن الإنسان غير مسئول عن عمله. وقائل مثل هذا السفه ليس غريبًا عنه أن يطعن في إعجاز القرآن. لكن الذي نسيه هذا الكذاب أنه عاش يردد هذه المقالة سنين، ولم يحاول أن يقيم الدليل على صدقها فيعارض القرآن بشيء ليبين أنه محق في مقالته.

ومثل هذا الرأي الشاذ، ما ذهب إليه **«النظام»** الفيلسوف المتكلم عن مذهب الاعتزال، من أن القرآن الكريم غير معجز في أسلوبه وبيانه وبلاغته، وأن العرب قادرون على أن يأتوا بمثله، لكنه معجز بـ **«الصَّرْفَة»**. والمراد بهذه الكلمة: **«الصرفة»** في زعمه، أن العرب قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لكنهم كلما هموا بأن يؤلفوا كلامًا مثله صرفهم اللَّه ـ تَعَالَى ـ عن ذلك، وشغلهم بأمور تمنعهم من الإتيان بما يماثل القرآن.

وهذا الرأي لاقى قبولًا من بعض مدخولي الإسلام وضعفاء الإيمان، وروج له بعض مرضى القلوب، لكنه انتهى بانتهاء صاحبه وتلامذته، ولم يبق منه إلا تاريخ يروى للدلالة على ما يفعله ضعف الإيمان بأصحابه.

● **الباقلاني وكتابه:**

وإذ قد انتهينا من بيان وجهة نظرنا في إعجاز القرآن المجيد، وأهم أوجه ذلك الإعجاز، فقد بقيت كلمة نختم بها حديثنا عن الكتاب الذي بين أيدينا.

فلقد وضع القاضي أبو بكر الباقلاني كتابه لبيان إعجاز القرآن المجيد. وإن أردنا الدقة، فإن الرجل قد وضع كتابه هذا لهدفين هامين:

الأول: إثبات أن القرآن الكريم معجز، والرد على كل مَن جحد ذلك أو شك فيه، أو أثار الشبهات حوله.

الثاني: بيان أوجه ذلك الإعجاز من وجهة نظره.

وهذان الأمران جاء عنوان الكتاب **«إعجاز القرآن»** ليعبر عنهما.

لكنا أحببنا أن نلفت النظر إلى أمر غاية في الأهمية بالنسبة للكتاب الذي بين أيدينا.

ذلكم أن الكتاب كما هو في إعجاز القرآن، كذلكم هو - وعلى نفس المستوى - في النقد الأدبي والموازنات الشعرية، فهو كتاب في النقد الأدبي بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وقد تناول موضوعات النقد الأدبي بكل دقة وخبرة وعلم وتخصص، وقد تبحر في الموازنات الشعرية بين عدد كبير من فطاحل الشعراء، كما تناول بالنقد والتقويم عددًا لا يكاد يحصى من أبيات الشعر وأغراضه للشعراء المعدودين، لا نعني نقده قصيدة أمرئ القيس والبحتري فقط، فإنه في إطار نقده هاتين القصيدتين تناول جمهرة الشعراء المعدودين في أزهى عصور الشعر، ونقدهم ووازن بينهم ورجح بعضًا وأزرى بآخرين. وقد استغرق في ذلك صفحات الكتاب كلها إلا قليلًا.

قد يقال: إن النقد الأدبي، وسوق كثير من قصائده وأبياته وأغراضه إنما هو لخدمة الهدف الأصلي والغاية الأم للكتاب وهي إعجاز القرآن: تحقيقًا وبيانًا، لكن الحق أن هذا لا يفسر صرف الكثرة الكاثرة من صفحات الكتاب لهذه المجالات والأغراض الأدبية البحتة، وذكر قرابة الثلاثمائة من أسماء الشعراء والأدباء ونقاد الشعر ورواته، وترديد أسماء هؤلاء على صفحات الكتاب ما يزيد على الألف بكثير. والقارئ الكريم سوف يجد في آخر الكتاب ثبتًا بأسماء الأعلام الواردة في طياته من الشعراء ونقاد الشعر والأدباء والرواة ومقابل كل اسم عدد مرات وروده، وسيجد القارئ الكريم أننا لم نبالغ في عدد مرات ورودهم.

إنه مما لاشك فيه أن بعض ذلك، بل وأقل كثيرًا من ذلك كان يكفي المؤلف الفاضل - رحمه اللَّه - تَعَالَى -. وكذلك يكفي القارئ ليفهم عن المؤلف ما يريد إفهامه إياه.

لكن المؤلف القاضي أبا بكر - رحمه اللَّه - تَعَالَى - كان أديبًا، ولوعًا بالأدب بأصنافه وأنواعه، وبخاصة الشعر والشعراء، ولذلك اغتنم حديثه عن إعجاز القرآن ليشبع هواه من الشعر والأدب، وليفسح لنفسه صفحات الكتاب يعيش من خلالها مع عشرات وعشرات من الشعراء يروي أشعارهم، ويقابل بينها ويوازن، ويبين خللَّها، ويشبع رغبته وهواه.

لكن يبقى بعد ذلك كله أن إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني من عيون ما كتب في الموضوع، وبخاصة وأن كاتبه من المعدودين المتخصصين في المجال الذي عالجه الكتاب، وقد قضى حياته منافحًا ضد الفرق المناوئة للإسلام، وقد عالج بكتابه هذا مرضًا كاد يستشري في عصره، ونعني به الزعم بأن القرآن المجيد ليس معجزًا، وجاء كتاب الرجل فتحًا في هذا الباب، فجزاه اللَّه عن نيته وعمله وما قدم للإسلام والمسلمين خيرًا.

* * *

إعجاز القرآن

للقاضي أبي بكر الباقلاني

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه المنعم على عباده بما هداهم إليه من إيمان. والمتمم إحسانه بما أقامه لهم من جلي البرهان. الذي حمد نفسه(١) بما أنزل من القرآن ليكون بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللَّه بإذنه وسراجًا منيرًا، وهاديًا إلى ما ارتضى لهم من دينه، وسلطانًا أوضح وجه تبيينه، ودليلًا على وحدانيته، ومرشدًا إلى معرفة عزته وجبروته، ومفصحًا عن صفات جلاله، وعلو شأنه، وعظيم سلطانه، وحجة لرسوله الذي أرسله به، وعلمًا على صدقه، وبينة على أنه أمينه على وحيه، وصادع بأمره، فيما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله، ورسالة تشتمل

---

(١) أي أن اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ قد حمد نفسه في القرآن المجيد.
حيث وردت فيه آيات كثيرة تحتوي على حمد اللَّه ﷻ. منها ما في أوائل السور. من مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ فاتحة الفاتحة. وقوله ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فاتحة سورة الأنعام، وكذا فواتح الكهف، وسبأ، وفاطر. ومنها ختام بعض السور، مثل سورة الزمر: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الآية: ٧٥].
ومنها ما في أواسط السور مثل قوله ـ سُبْحَانَهُ ـ في سورة غافر: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦٥﴾ [الآية: ٦٥].
لكن هذا المعنى كان يقتضي أن تكون الصلة «في» وليس «الباء» فيقال: «الذي حَمَدَ نفسه فيما أنزل» أما وقد جعل المؤلف الصلة بالباء التي تفيد السببية، فإن المعنى يكون: الذي حمَدَ نفسه بسبب إنزاله القرآن الذي هدى الناس إلى الدين القويم، وأقامهم على الصراط المستقيم. وضمن لهم السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة. وبسبب ذلك تلهج ألسنة الخلق بحمد اللَّه ـ تَعَالَى ـ والثناء عليه. في كل لحظة وحين، كما قال الرسول ﷺ: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ».. فكان اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ قد حمَدَ نفسه لما أنزل على الناس ما بسببه حمدوه.

على تصحيح قول مؤديها. بين فيه ـ سُبْحَانَهُ ـ أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تعدوها، أو حجة تتلوها، وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات، والتشكك في المشاهدات(١). ولذلك قال عز ذكره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾(٢). وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾(٣) [الحجر: ١٤، ١٥](٤)... فله الشكر على جزيل إحسانه وعظيم مننه، والصلاة على سيدنا المصطفى وآله وسلم.

ومن أهم ما يجب على أهل دين اللَّه كَشْفُهُ، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قوامًا، ولقاعدة توحيدهم عمادًا ونظامًا، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهانًا، ولمعجزته ثبتًا وحجة(٥)، لاسيما والجهل ممدود الرواق شديد النفاق(٦) مستوْلٍ على الآفاق، والعلم إلى عفاء ودروس، وعلى خفاء وطموس وأهله في

(١) يقرر المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ أن الإيمان بأن القرآن كتاب اللَّه الحق. بعث به النبي الحق، من الأمور الضرورية البدهية التي لا تحتاج إلى دليل، وأن المتشكك فيه كمن يشك فيما تراه عينه. ويشاهده بصره.

(٢) سورة الأنعام. الآية: ٧.

(٣) سكرت؛ أي: فقدت القدرة على الإبصار؛ بسبب أن أعينهم سحرت، أو أنهم بجملتهم قد أصابهم السحر.

(٤) والمعنى في الآيتين أن المكذبين بالقرآن. الشاغبين عليه وعلى الرسول الذي بعث به. قد أنكروا الأمور الضرورية، وشككوا في الحقائق التي يشاهدونها بأبصارهم، فهؤلاء لا سبيل لهدايتهم، ولا أمل في إيمانهم. وهكذا حال كل المعاندين الجاحدين.

(٥) يريد القرآن المجيد، فإن الاشتغال به يجب أن يكون في المقدمة من اهتمام المسلمين.

(٦) وصف الجهل بأنه شديد النفاق كناية عن انتشاره وشيوعه وصعوبة القضاء عليه.
وأصل هذا الوصف إما من قولهم: «سلعة نافقة» أي رائجة مطلوبة، و«نفقت المرأة» أي كثر خطابها، بمعنى أن النفاق شاع وذاع وأضحى محل إقبال الناس.
=

جفوة الزمن البهيم[١]، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم[٢] حتى صار ما يكابدونه قاطعًا عن الواجب من سلوك مناهجه، والأخذ في سبله. فالناس بين رجلين: ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته، مكدود في صنعته. فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين، وقد قل أنصاره[٣]، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه، حتى عادوا على مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره، فمن قائل قال: إنه سحر، وقائل يقول: إنه شعر، وآخر يقول: إنه أساطير الأولين، وقالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[٤] إلى الوجوه التي حكى الله ﷻ عنهم أنهم قالوا فيه، وتكلموا به، فصرفوه إليه.

= وإما من الأصل الذي اشتقت منه كلمة «نفاق» وهي جحرة اليربوع أو بيت اليربوع، فإن اليربوع يجعل لبيته بابين يظهر أحدهم ويطم الآخر ويخفيه. فإذا جئته من الظاهر هرب من الذي أخفاه. والعرب تسمي بيت اليربوع أو جحرته «نافقاء اليربوع» ومنه اشتقت لفظة «نفاق» لما أن المنافق صاحب وجهين يظهر أحدهما ويخفي الآخر..

وكلمة «نفاق» لم تكن معروفة لدى العرب قبل الإسلام في المعنى الذي أطلقها الإسلام عليه، فإطلاق هذه الكلمة على مَن يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وعلى كل مَن له وجهان، ظاهر يبديه للناس، وباطن يخفيه عنهم، إطلاق إسلامي لم يكن معروفًا لدى العرب قبل الإسلام.

(١) أي الذي فسدت أمور الناس فيه وسدت السبل إلى إصلاحه.. والبهيم: هو اللون الخالص الذي لا يخالطه لون آخر، سوادًا كان أو غيره، وغلب إطلاقه على اللون الأسود إذا جاء وصفًا لليل.

(٢) أي الكريه الوجه. وأصل المادة «شتم» للدلالة على كل كريه بغيض، وإنما سمي الكلام المحتوي على السب والنقص «شتمًا»؛ لأنه كلام كريه بغيض.

(٣) الضمير للقرآن العظيم.

(٤) سورة الأنفال. بعض الآية: ٣١. والآية اشتملت أيضًا على قولهم: أساطير الأولين التي أشار إليها المؤلف.. وتمام الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وذكر لي بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى ذلك حتى يفضله عليه، وليس هذا ببديع[١] من ملحدة هذا العصر، وقد سبقهم إلى عظم ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم، إلا أن أكثر مَن كان طعن فيه في أول أمره استبان رشده، وأبصر قصده، فتاب وأناب، وعرف في نفسه الحق بغريزة طبعه، وقوة إتقانه لا لتصرُّف لسانه، بل لهداية ربه، وحسن توفيقه. والجهل في هذا الوقت أغلب، والملحدون فيه عن الرشد أبعد، وعن الواجب أذهب، وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده، من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه فهو أحق بكثير ممن صنفوا فيه، من القول في الجزء، ودقيق الكلام في الأعراض[٢]، وكثير من بديع الأعراب وغامض النحو[٣]. فالحاجة إلى هذا أمسَّ، والاشتغال به أوجب. وقد قصر بعضهم في هذه المسألة، حتى أدى ذلك

(١) أي: جديد غريب. والأصل أن الإبداع في اللغة هو إيجاد الشيء على غير مثال سابق. وكلمة «بديع» صيغة مبالغة من الفاعل مثل: قـدير، وعليـم، وسميـع. ومن ذلك قوله ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: بعض آية: ١٠١]؛ أي: موجدهما وخالقهما على غير مثال سابق.

(٢) يشير إلى علماء الكلام الذين أغرقوا في تصنيف المطولات، وأجهدوا أنفسهم ـ والناس من بعدهم ـ في وضع المتون وشروحها حول الألفاظ الدخيلة من أمثال: الجوهر، والعرض، والجزء الذي لا يتجزأ، إلى غير ذلك مما لا طائل وراءه، وتركوا العناية بالقرآن المجيد وبيان أوجه إعجازه، والدفاع عنه ضد المشككين والطاعنين الذين لا يخلو من ضلالهم زمان.

(٣) يشير إلى علماء اللغة، ممن ألفوا المطولات في النحو والبيان، وإن كان أمر هؤلاء مختلفًا عن أمر علماء الكلام. فإن العناية باللغة من نحو وصرف وبلاغة وبيان أمرٌ مطلوب، والحاجة إليه ماسة في فقه اللغة العربية، بل هو آلة من الآلات الكاشفة عن أوجه إعجاز القرآن، فالاشتغال بذلك هو من باب الاشتغال بالقرآن.

إلى تحول قوم منهم إلى مذهب البراهمة فيها، ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها، ولا وجه لها، حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا، وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا، ثم رأوا ما صنفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه، ولا مستوفى في وجهه، قد أخلَّ بتهذيب طرقه، وأهمل ترتيب بيانه(١)، وقد يُعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه، وذهاب عنه؛ لأن هذا الباب مما يمكن إحكامه بعد التقدم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ.

وإذا انتهينا إلى تفصيل القول فيها، استبان ما قلناه من الحاجة إلى هذه المقدمات، حتى يمكن بعدها إحكام القول في هذا الشأن. وقد صنف الجاحظ في **«نظم القرآن»** كتابًا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى.

وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرج للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم، من الطعن في وجه المعجزة. فأجبناه إلى ذلك(٢)، متقربين إلى الله عَجَّلَكَ، ومتوكلين عليه، وعلى حُسْن توفيقه ومعونته. ونحن نبين ما سبق في البيان من غيرنا ونشير إليه، ولا نبسط القول، لئلا يكون ما ألفناه مكررًا ومقولًا، بل يكون مستفادًا من

---

(١) يشير إلى أن بعض الذين اشتغلوا بعلم الكلام، وعلوم اللغة قد بذلوا جهودًا في الاشتغال بالقرآن الكريم وبيان أوجه إعجازه. لكن المطلع على وجودهم يجدهم قد برعوا وبلغوا الغاية في علومهم الكلامية واللغوية، بينما جهودهم في علوم القرآن وبيان إعجازه جهود ضعيفة متهافتة. ولعل المؤلف هنا يشير إلى الكتاب الذي وضعه الجاحظ في بيان أوجه إعجاز القرآن، وسماه «نظم القرآن»، وسوف يرد ذكره في الفقرة التالية.

(٢) يبين السبب الذي دعاه لتأليف الكتاب الذي بين أيدينا، وأن بعض المشتغلين بالقرآن، المهتمين بالبحث عن أسرار إعجازه لما لم يجدوا بغيتهم فيما وضعه السابقون لجأوا إليه طالبين أن يكتب لهم مبينًا أوجه الإعجاز وأسراره.

جهة هذا الكتاب خاصة. ونضيف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام، وما تختلف فيه طرق البلاغة، وتتفاوت من جهته سبل البراعة، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية، والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع، ثم ما اختلف به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب، وغير ذلك من مجال الخطاب، وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح، وتقصد فيه البلاغة؛ لأن هذه أمور يتعمل لها في الأغلب، ولا يتجوز فيها، ثم من بعد هذا الكلام الدائر في محاوراتهم، والتفاوت فيه أكثر؛ لأن التعمل فيه أقل، إلا من غزارة طبع، أو فطانة تصنع وتكلف. ونشير إلى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق، ليعرف عظم محل القرآن، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه، وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها، أو يشتبه ذلك على متأمِّل.

ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه، وأردنا شرحه وتفصيله، لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبًا، وعن وجه اللسان غافلًا؛ لأن ذلك مما لا سبيل إليه[1]، إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليها مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية، قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه، وعرف جملة من طرق المتكلمين، ونظر في شيء من أصول الدين، وإنما ضمن الله ﷻ فيه البيان لمثل من وصفناه، فقال:

---

(١) يبين المؤلف أنه لم يضع كتابه هذا لجميع القراء على اختلاف ثقافاتهم وتنوعها. وإنما وضعه لفئة خاصة من القراء، وهم الذين لهم صلة وثيقة باللغة العربية وعلومها من نحو وصرف وأدب وبلاغة وبيان. فهؤلاء فقط يمكنهم أن يقرأوا كتابه ويفيدوا منه. أما الذين لا صلة لهم بالعربية، أو مَن كانت صلتهم بالعربية واهية فلن يفيدوا من كتابه ولن يفهموه..
وهذا صحيح تمامًا، لأن الرجل وضع كتابه في إعجاز القرآن، والبحث فيه سيكون منصبًا على اللغة وأسرارها. ومن ثم لن يفهمه إلا من له باللغة صلة وثيقة.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾[فصلت: ٣].
وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [سورة الزخرف: ٣][١].

* * *

(١) والرجل يستدل بهاتين الآيتين ـ وأمثالها في القرآن كثير ـ على أن إدراك أسرار القرآن وفهم معانيه لا يتيسر إلا لقوم يعلمون أسرار العربية كما في الآية الأولى، ولمن يعقل معانيه ومراميه كما في الآية الثانية.

فصل

أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن

الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا السَّلِيلا بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أُيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة، ونقل بعضها نقلًا متواترًا يقع به العلم وجودًا، وبعضها مما نقل نقلًا خاصًا، إلَّا أنه حُكي بمشهد من الجمع العظيم أنهم شاهدوه، فلو كان الأمر على خلاف ما حكي لأنكروه، أو لأنكره بعضهم، فحل محل المعنى الأول وإن لم يتواتر أصل النقل فيه، وبعضها مما نقل من جهة الآحاد، وكان وقوعه بين يدي الآحاد[١].

فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين[٢]، وبقيت بقاء

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى معجزات الرسول ﷺ غير القرآن، ويبين منزلتها من التواتر وغيره. وقد أشار إلى أنها ـ من هذه الحيثية ـ ثلاثة أنواع:

أ ـ معجزات متواترة: وهي التي نقلت على سبيل التواتر اللفظي، وذلك يتحقق إذا نقلنا في كل طبقة من الرواة جماعة يحيل العقل تواطؤهم على الكذب، وهذا النوع من التواتر اللفظي يوجب العلم ويفيد اليقين، وهو حجة قاطعة على مَن اطلع عليه وعرفه، ولا سبيل لإنكاره، ومَن أنكره كان جاحدًا ومعاندًا.

ب ـ معجزات نقلها عدد كثير لكن بألفاظ مختلفة، فالتواتر اللفظي لم يتحقق، وإن كان المحتوى والمضمون واحد، وهذا يلحق بالحكم في النوع الأول؛ إذ إنه يفيد التواتر المعنوي، والتواتر المعنوي حكمه حكم التواتر اللفظي، وإن كان اللفظي في المرتبة الأولى.

ج ـ معجزات لم تنقل بطريق التواتر اللفظي أو المعنوي، وإنما نقلت بطريق الآحاد، وذلك كالمعجزات التي وقعت من الرسول ﷺ بحضور عدد قليل لا يتحقق بهم التواتر، وأخبار الآحاد مفيدة للعلم عند علماء السنة والجماعة، وإنما شغب عليها وأنكرها في العقائد جمهور المعتزلة وكثير من علماء الكلام، ولا عبرة بما ذهبوا إليه.

(٢) **المراد بالثقلين:** الجن والإنس. ومنه قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ =

العصرين(١).

ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد(٢)، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله وجه دلالته، فيغني ذلك عن نَظَر مجدد في عَجْز أول(٣) العصر عن مثله، وكذلك قد يغني عَجْز أهل

= [الرحمن: ٣١]. وإنما عمت معجزة القرآن الجن والإنس لأنهما الصنفان المكلفان من خلق اللَّه ـ تَعَالَى ـ برسالة محمد ﷺ.

والأصل أن اللَّه ـ تَعَالَى ـ قد خلق من أصناف العقلاء أربعة: صنف يطيع ولا يعصي وهم الملائكة، قال ـ تَعَالَى ـ فيهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وصنف يعصي ولا يطيع، بذلك سبقت كلمة اللَّه فيه، وهم إبليس وذريته الشياطين. قال ـ تَعَالَى ـ مخاطبًا إبليس ـ لَعَنَهُ اللَّهُ ـ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٣٥]. وصنفان فيهما الطاعة والعصيان، وهما المكلفان برسالات الرسل وخاتمهم محمد ﷺ وهما الثقلان: الجن والإنس.

(١) كلمة: «العصر» إذا أفردت دلت على فترة زمنية معينة، قد تقصر حتى جزء من النهار كالفترة بين انكسار الشمس ناحية الغروب حتى غروبها، فهذه الفترة تسمى العصر ومنها سميت صلاة العصر، وقد تطول حتى تشمل عهدًا من عهود التاريخ مثل: عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر الخلفاء الراشدين.. أما إذا ثنيت فإنها تعني: الليل والنهار، وهو المعنى الذي قصده المؤلف. أما إذا جمعت فإنها تعني الأحقاب التاريخية المتتالية المتتابعة. مثل: عصور ما قبل التاريخ.

(٢) أي أن التحدي بالقرآن الكريم قائم منذ نزول القرآن وتحدى اللَّه ـ تَعَالَى ـ به الخلق حتى قيام الساعة، فليس التحدي به مقصورًا على عهد نزوله، وهذا التحدي بالقرآن لا يعتوره تغيير، فهو قائم على مستوًى واحد ودرجة ثابتة. في زماننا مثل ما كان في زمان نزوله.

(٣) يبدو أن هاتين اللفظتين نقلتا خطأ. والصواب فيهما: «في عجز أهل العصر» كما أثبتها المؤلف في السطر التالي مباشرة بعد بضع كلمات. والمقصود بـ«أهل العصر الأول» عصر النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

والمقصود بـ«أهل هذا العصر» العصر الذي وجد فيه المؤلف ووضع فيه كتابه هذا. وقد عاش المؤلف في القرن الرابع الهجري وتوفي عام ٤٠٣ هـ.

هذا العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول(١). وإنما ذكر هذا الفصل لما حُكيَ عن بعضهم أنه زعم أنه وإن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول، فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه. ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدلالة لأنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم. ونحن نبين خطأ هذا القول في موضعه، فأما الذي يبين ما ذكرناه من أن اللَّه ـ تَعَالَى ـ حين ابتعثه(٢) جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليه، سور كثيرة، وآيات نذكر بعضها، وننبه بالمذكور على غيره، فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه.

فمن ذلك قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾(٣) فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة. وقال ﷻ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾(٤)، فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يوقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾(٥). وهذا بيِّن جدًّا فيما قلناه، من أنه

(١) لما كان القرآن المجيد قد تحدى اللَّه ـ تَعَالَى ـ به الخلق منذ نزوله وحتى قيام الساعة. فإن هذا يعني أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله في كل العصور وليس في عصر دون عصر ولأن الناس متقاربون في القدرات والإمكانات، والعجز يشملهم جميعًا عن الإتيان بمثل القرآن؛ فإن الباحث في إعجاز القرآن مَن يعلم أن أهل العصر الأول ـ عصر الرسول ﷺ قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، فإن ذلك يغنيه ويكفيه مؤنة البحث في أهل العصور التالية، وهل عجزوا أم لا، فإن عجز الناس في عصر من العصور عن الإتيان بمثل القرآن دليل كاف على عجزهم عن ذلك في كافة العصور.

(٢) المراد: بعث الرسول ﷺ غير أن «ابتعث» تختلف عن (بعث) في أنها تفيد النشاط والاندفاع في تلبية الأمر والسرعة في تنفيذه.

(٣) سورة إبراهيم عليه السلام الآية: ١، ٢.

(٤) سورة التوبة. جزء الآية: ٦.

(٥) سورة الشعراء. الآيات: ١٩٢ ـ ١٩٤.

جعله سببًا لكونه منذرًا، ثم أوضح ذلك بأن قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[١]، فلولا أن كونه بهذا اللسان حجة لم يعقب كلامه الأول به، وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة[٢] إلا وقد أشبع فيها ما قلناه، ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده، وكثير من هذه السور إذا تأملته، فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته.

فمن ذلك سورة المؤمن، قوله ﷻ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾[٣] ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾[٤]، ثم إلى أن قال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٥]، فدل على أن الجدال في تنزيله كفر وإلحاد. ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلها بقوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾[٦] إلى آخر الآية، فتوعدهم بأنه أخذهم في الدنيا بذنبهم في تكذيب الأنبياء. ورد براهينهم، فقال: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[٧]. ثم توعدهم بالنار فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾[٨]. ثم عظم شأن المؤمنين بهذه الحجة بما أخبر من استغفار الملائكة لهم، وما

---

(١) سورة الشعراء. الآية: ١٩٥.

(٢) الحروف المقطعة في أوائل السور تبلغ أربعة عشر حرفًا. وقد تدرجت في أوائل السور من حرف واحد حتى خمسة أحرف. فالحرف الواحد مثل: ص، ن. والحرفان مثل: طه، حم، يس. والثلاثة أحرف مثل: ألم، ألر. والأربعة أحرف مثل: المص، المر. والخمسة أحرف مثل: كهيعص، أول مريم، حم عسق، أول الشورى.

(٣) سورة غافر. الآيتان: ١، ٢، وتسمى أيضًا: سورة (المؤمن) ويقال أيضًا: سورة مؤمن آل فرعون.

(٤) سورة غافر. الآية: ٣.

(٥) سورة غافر. بعض الآية: ٤.

(٦) سورة غافر. بعض آية: ٥.

(٧) سورة غافر. بعض آية: ٥.

(٨) سورة غافر. آية: ٦.

وعدهم عليه من المغفرة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾(١)، فلولا أنه برهان قاهر لم يذم الكفار على العدول عنه، ولم يحمد المؤمنين على المصير إليه، ثم ذكر تمام الآيات في دعاء الملائكة للمؤمنين.

ثم عطف على وعيد الكافرين، فذكر آيات، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾(٢)، فأمر بالنظر في آياته وبراهينه، إلى أن قال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾(٣)، فجعل القرآن والوحي به كالروح؛ لأنه يؤدي إلى حياة الأبد، ولأنه لا فائدة للجسد بدون الروح، فجعل هذا الروح سببًا للإنذار، وعلمًا عليه، وطريقًا إليه(٤)، ولولا أن ذلك برهان بنفسه لم يصح أن يقع به الإنذار والإخبار عما يقع عند مخالفته، ولم يكن الخبر عن الواقع في الآخرة عن ردهم دلالته من الوعيد حجة، ولا معلومًا صدقه، فكان لا يلزم قبوله، فلما خلص من الآيات في ذكر الوعيد على ترك القبول ضرب لهم المثل

---

(١) سورة غافر. الآية: ٧.

(٢) سورة غافر. بعض الآية: ١٣.

(٣) سورة غافر. الآية: ١٥.

(٤) وردت كلمة «الروح» في القرآن العظيم بمعان عدة:

- منها ما به الحياة. من ذلك قوله - تَعَالَى - عن آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].. وهذه الروح هي التي وسوس اليهود للمشركين أن يسألوا رسول الله ﷺ عنها، فلما سأله المشركون عنها أنزل الله - تَعَالَى - في شأنه قوله - سُبْحَانَهُ -: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

- ومنها أمين الوحي وسفيره جبريل عليه السلام. من ذلك قوله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

- ومنها القرآن العظيم تشبيهًا له بالروح التي تكون بها الحياة، فكما أن الروح تكون بها =

بمن خالف الآيات، وجحد الدلالات والمعجزات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى آخر الآية(١)، ثم بين أن عاقبتهم صارت إلى السوآى، بأن رسلهم كانت تأتيهم بالبينات، وكانوا لا يقبلونها منهم، فعلم أن ما قدم ذكره في السورة بَيِّنَةُ رسول الله ﷺ.

ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام، ومجيئهما بالبينات، ومخالفتهم حكمها(٢)، إلى أن قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾(٣)، فأخبر أن جدالهم في هذه الآيات لا يقع

حياة البدن، فالقرآن الكريم به حياة القلب، بل به حياة البدن والقلب جميعًا. ومن ذلك قوله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

(١) سورة غافر. الآية: ٢١.

(٢) أورد الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ قصص الماضين في سورة غافر من الآية: ٢١ وحتى الآية: ٥٤. على ثلاث صور:

الأولى: صورة مجملة تمامًا. في الآيتين: ٢١، ٢٢. وفيهما أجمل الله ـ تَعَالَى ـ قصص الأمم الماضية مع رسلها. وقد جمع الله ـ سُبْحَانَهُ ـ هذه القصص في أمور ثلاثة:

أ ـ إتيان الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ أممهم بالبينات والهدى من قبل الله ـ تَعَالَى ـ.

ب ـ تكذيب الأمم رسلهم بما جاءوهم به من العقائد والشرائع.

جـ ـ أخذ الله ـ سُبْحَانَهُ ـ الأمم بذنوبهم وإنزاله شديد العقاب بهم.

الثانية: صورة بين التفصيل والإجمال، وذلك في الآيتين: ٣٤، ٣٥ حيث ورد الحديث فيهما عن نبي الله يوسف عليه السلام ومجيئه قومه بالبينات، وتكذيب قومه إياه وزعمهم أنه آخر الرسل وأن الله لن يبعث من بعده رسولًا، وكيف عاقبهم الله ـ تَعَالَى ـ بأن طبع على قلوبهم المتكبرة بطابع الكفر فأضلهم وأعمى أبصارهم.

الثالثة: صورة مفصلة. في الآيات من ٢٣ حتى ٥٤ عدا آيتي: ٣٤، ٣٥.

وفي هذه الآيات أورد الله ـ تَعَالَى ـ قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه.

(٣) سورة غافر. الآية: ٣٥.

بحجة، وإنما يقع عن جهل، وأن الله يطبع على قلوبهم، ويصرفهم عن تفهم وجه البرهان لجحودهم[١] وعنادهم واستكبارهم. ثم ذكر كثيرًا من الاحتجاج على التوحيد[٢]، ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾[٣].

ثم بين هذه الجملة، وأن من آياته الكتاب، فقال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾[٤] إلى أن قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٥]، فدل على أن الآيات على ضربين: أحدهما كالمعجزات التي هي أدلة في دار التكليف، والثاني الآيات التي ينقطع عندها العذر، ويقع عندها العلم الضروري، وأنها إذا جاءت ارتفع التكليف، ووجب

---

(١) في كلام المؤلف الفاضل نظر. حيث قرر أن يوسف عليه السلام وقوم موسى عليه السلام كانوا يجادلون عن «جهل»، ثم وصفهم بأنهم «جاحدون» بقوله: «لجحودهم». والحق أن الجحود لا يجتمع مع الجهل، بمعنى أن الجحود لا يكون عن جهل، وإنما يكون عن علم بالحق ومعرفة به. فالذين يجادلون عن جهل لا يوصفون بالجحود، وإنما الجاحدون هم الذين يعرفون الحق ثم ينكرونه رغم معرفتهم إياه عنادًا واستكبارًا. وقد كانت هذه حال مشركي مكة. حيث كانوا يعرفون صدق رسول الله ﷺ فيما جاءهم به، ولكنهم جحجدوا ذلك وكذبوه ظلمًا وعلوًّا واستكبارًا، وقد وصف الله ـ تَعَالَى ـ حالهم تلك لرسوله ﷺ بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣] وكذلك أخبر الله ـ تَعَالَى ـ عن حالهم تلك بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] أي أن أنفسهم مستيقنة بصدق رسالة محمد ﷺ، فليسوا يعلمون صدقها فقط، بل يعلمونها علم اليقين. ورغم ذلك جحدوها بسبب ظلمهم واستعلائهم..

(٢) الدعوة إلى التوحيد في السورة الكريمة تركزت في الآيات من: ٥٤ وحتى ٧٤ في مجموعة آيات متتابعات، وإلا فالدعوة إلى التوحيد مبثوثة في ثنايا السور كلها. بل في القرآن العظيم جميعه، ولا تخلو سورة من تلك الدعوة التي هي لب الدين وجوهره.

(٣) سورة غافر. الآية: ٦٩.

(٤) سورة غافر. الآية: ٧٠.

(٥) سورة غافر. جزء الآية: ٧٨.

الإهلاك، إلى أن قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾[(١)]، فأعلمنا أنه قادر على هذه الآيات، ولكنه إذا أقامها زال التكليف[(٢)]، وحقت العقوبة على الجاحدين.

كذلك ذكر في حم السجدة[(٣)]، على هذا المنهاج الذي شرحنا، فقال ﷻ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[(٤)]، فلولا أنه جعله برهانًا لم يكن بشيرًا نذيرًا، ولم يختلف بأن يكون عربيًّا مفصلًا أو بخلاف ذلك، ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم بقوله ـ تعالَى ـ: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[(٥)]، ولولا أنه حجة لم يضرها الإعراض عنه. وليس لقائل أن يقول: قد يكون حجة ويحتاج في كونه حجة إلى دلالة أخرى، كما أن الرسول حجة ولكنه يحتاج إلى دلالة على صدقه، وصحة نبوته، وذلك أنه إنما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل، ولم يذكر حجة غيره[(٦)]، ويبين

---

(١) سورة غافر. جزء الآية: ٨٥.

(٢) المراد بالآيات التي يزول التكليف عند مجيئها هي أشراط الساعة الكبرى. من مثال ظهور الدابة التي قال الله ـ تعالَى ـ في شأنها: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]. وكذلك خروج الشمس من مغربها. فإن هذه الآيات حين تجيء يختم على كل نفس بما كانت عليه. ويغلق باب التوبة. ويحق القول على كل إنس وجن بما كان منه قبل ذلك.

(٣) في القرآن العظيم سورتان باسم «السجدة». الأولى: التي بعد لقمان وقبل الأحزاب. وترتيبها بين سور القرآن المجيد الثانية والثلاثون. والثانية: التي بعد غافر وقبل الشورى. وهذه تسمى «فصلت» ويفرق بينهما بذكر فاتحة كل منهما من أحرف المعجم. فيقال في الأولى: «ألم السجدة» ويقال في الثانية «حم السجدة».

(٤) سورة فصلت التي هي حم السجدة.. الآيات: الأولى، والثانية، والثالثة، وبعض الرابعة.

(٥) السورة نفسها: بقية الآية الرابعة.

(٦) حاصل الكلام: أنه قد يعترض البعض بأن القرآن محتاج إلى دليل يدل على أنه حجة. وهذا الدليل يجب أن يكون من خارج القرآن وليس منه. مثل الرسول ﷺ، فإنه حجة على الذين بعث إليهم، لكن كونه حجة احتاج إلى دليل يدل على ذلك سوى الرسول، وهو القرآن ـ فكما أن الرسول ﷺ حجة وقد احتاج إلى دليل على كونه حجة، فكذلك القرآن المجيد حجة، وهو محتاج إلى دليل من خارجه يدل على تلك الحجية. =

ذلك أنه قال عقيب هذا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾(١)، فأخبر أنه مثلهم لولا الوحي، ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

= والكلام على ما أثاره المؤلف الفاضل من عدة وجوه:

أولًا: أن ما أثاره الاعتراض من أن كل حجة تحتاج إلى دليل يدل على حجيتها، كلام صحيح. لكن ليس بلازم أن يكون الدليل من خارج الحجة نفسها، بل قد يكون في ثناياها. مثل القرآن الكريم. فالدليل على كونه حجة للرسول ﷺ ومعجزة له تدل على صدق دعواه النبوة، موجود داخل القرآن وفي ثنايا آياته، وذلك متمثل في أوجه إعجازه التي لا تكاد تحصى، فإعجازه البياني، وإخباره بالمغيبات الماضية والمستقبلة، وخلوه من الاختلاف على طوله وتنوع أغراضه وكثرة موضوعاته، إلى غير ذلك من الأوجه التي هي دلائل على كونه معجزًا، وعلى أنه من عند الله رب العالمين. تأييدًا لسيد الأولين والآخرين.

ثانيًا: الزعم بأن كل حجة تحتاج إلى حجة أو دليل يؤكد حجيتها زعم يؤدي إلى تسلسل الحجج تسلسلًا لا نهاية له. وهو تسلسل باطل. وما يؤدي إلى الباطل باطل.

ثالثًا: الرسول ﷺ حجة على الذين أرسل إليهم وبلغتهم دعوتهم. والرسول ﷺ أيده الله - تَعَالَى - بآيات وحجج تدل على صدقه في دعوى النبوة مثل المعجزات. ومعجزة المعجزات القرآن العظيم. وهذه الحجج المؤيدة لرسول الله ﷺ هي خارج عن شخصه، ومنفصلة عن ذاته، لكن هذا لا يعني أن رسول الله ﷺ ليست له حجج من ذاته. فإن المدقق في سيرته ﷺ قبل البعثة وبعدها يجد أن حياته قبل البعثة وسيرته هي في حد ذاتها حجة من أقوى الحجج على صدق دعوته. فطهره وعفافه ونقاؤه واستقامته وأمانته في مجتمع يقوم على الزنا والسكر والعصبية والظلم، مقياس العلاقات فيه قول الشاعر: «ومَن لا يظلم الناس يظلم» ثم استقامته على أخلاقه العظيمة طوال أربعين عامًا أو تزيد. دون أن يقارف شيئًا من جهالات بيئته حتى قيل: إنه الصادق الأمين. وحتى قبل أشياخ قريش تحكيمه عليهم في قضية الحجر الأسود المشهورة، وهو فتى حديث السن في مجتمع للسن فيه المنزلة والمكانة، كل ذلك وغيره حجة من ذات الرسول ﷺ كان من شأنها أن تكفي دليلًا على صدقه لدى الناس جميعًا لو كانوا يعقلون.

(١) سورة فصلت. الآية: ٦. وكذلك بعض الآية: ١١٠ خاتمة سورة الكهف.

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾﴾[١]، ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحي والتنزيل، وعرفوا هذه الحجة، ثم تصرف في هذا الاحتجاج على الوحدانية والقدرة[٢]، إلى أن قال: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[٣]، فتوعدهم بما أصاب مَن قبلهم من المكذبين بآيات الله من قوم عاد وثمود في الدنيا[٤]. ثم توعدهم بأمر الآخرة، فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾[٥] إلى انتهاء ما ذكره فيه. ثم رجع إلى ذكر القرآن فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٦]. ثم أثنى بعد ذلك على مَن تلقاه بالقبول، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ﴾[٧]. ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[٨]، وهذا ينبه على أن النبي ﷺ يعرف إعجاز القرآن، وأنه دلالة على جهة الاستدلال؛ لأن الضروريات لا يقع فيها نزغ الشيطان[٩]، ونحن نبين ما يتعلق بهذا الفصل في

(١) سورة فصلت. الآية: ٨. وممنون: منقوص أو مقطوع أو مسحوب. وقد ورد نفس المعنى في آيات كثيرة بنفس الألفاظ تقريبًا: مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق: ٢٥]، وقوله ـ سُبۡحَانَهُ ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٢٥﴾﴾ [التين: ٦].

(٢) الاحتجاج على الوحدانية والقدرة مبثوث في السورة كلها. ولكن المؤلف الفاضل يشير إلى الآيات من ٩ ـ ١٢.

(٣) سورة فصلت. الآية: ١٣.

(٤) سورة فصلت. من الآية: ١٣ وحتى الآية: ١٨.

(٥) سورة فصلت. الآية: ١٩.

(٦) سورة فصلت. الآية: ٢٦.

(٧) سورة فصلت. بعض الآية: ٣٠.

(٨) سورة فصلت. الآية: ٣٦.

(٩) في كلام المؤلف الفاضل نظر؛ فإن القرآن المجيد حجة على صدق النبي ﷺ. وحجية القرآن، وكونه معجزًا أمر ثابت على مستوى الضرورة والاستدلال جميعًا، وليس على مستوى الاستدلال فقط كما ذهب المؤلف ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ـ. =

موضعه.

= أما كون القرآن العظيم حجة ومعجزة على جهة الضرورة؛ فذلك ثابت من سيرة المشركين الذين كانوا يسمعون القرآن فيذهلون ويفجأون، ويدركون مباشرة وللوهلة الأولى أنه ليس من كلام بشر، ثم يسلم ويؤمن منهم مَن شاء اللَّه ـ تَعَالَى ـ له الهداية، ومنهم من لم يشأ اللَّه أن يهديه يذهب وقبيله يبحثون عن تعلة يتعللون بها في كفرهم فمن قائل: سحر، وقائل: شعر، وقائل: كهانة.. إلى آخر هذه الدعاوى التي كانوا هم أول مَن يعرف كذبها وبطلانها، وليست قصة الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن من رسول اللَّه ﷺ ثم مسارعته إلى منع الرسول من الاسترسال في القراءة، ثم خروجه إلى قومه يقرر أنه سمع كلامًا ما هو من قول البشر.. وكذلك قصة إيمان الفاروق عمر ابن الخطاب ﷺ من أوضح الأدلة على أن إدراك إعجاز القرآن لا يحتاج إلى نظر واستلال، بل هو أدخل في باب الضرورات والبدهيات لدى مَن له معرفة بأساليب اللغة وأوجه استعمالاتها. وهل هناك أوضح على ذلك من لجوء المشركين إلى إثارة الضجيج واللغط حول الرسول ﷺ حين كان يقرأ القرآن عند الكعبة خشية أن يسمعه الحاضرون فلا يملكون إلا أن يسلموا، ذلك الذي سجله القرآن في قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]. وهذه الوقائع ـ وغيرها لا يحصى ـ دليل على أن القرآن معجزة وحجة لرسول اللَّه ﷺ وإدراك ذلك إنما يقع بالضرورة، كما يقع بالنظر العقلي أو الاستدلال.

أما كون القرآن العظيم حجة ومعجزة على جهة الاستدلال؛ فإنما يكون ذلك ـ أكثر ما يكون ـ لهؤلاء الذين لا يدركون أسرار اللغة، وكذلك يجهلون مسيرة القرآن مع هذه الأمة، وآثاره البعيدة المدى في نفوس أفرادها سواء في إقبالهم على اعتناق الإسلام، أو في نشرهم الإسلام وجهادهم في سبيله بالنفس والمال.

أما دعوى المؤلف الفاضل: أن الضروريات لا يقع فيها نزغ فإنها دعوى تحتاج إلى إعادة نظر؛ لأن الشيطان ينزغ في الضروريات كما ينزغ في النظريات أو الاستدلالات. وهل كان نزغ الشيطان لأبي البشر آدم عليه السلام إلا في أمر ضروري بدهي؟ وهل طاعة اللَّه فيما نهى، وترك الأكل من الشجرة التي نُهي آدم وزوجه عن الأكل منها، بل عن الاقتراب منها وهل كان ذلك أمر يحتاج إلى نظر واستدلال؟ أليس أمرًا بدهيًّا ضروريًّا؟ ومع ذلك فقد نزغ الشيطان آدم وزوجه ودلاهما بغرور حين أطاعاه.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾[1]، إلى أن قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[2]. وهذا وإن كان متأولًا على أنه لا يوجد فيه غير الحق مما يتضمنه من أقاصيص الأولين، وأخبار المرسلين، وكذلك لا يوجد خلف[3] فيما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب، وعن الحوادث التي أبنًا أنها تقع في الثاني، فلا يخرج على أن يكون متأولًا على ما يقتضيه نظام الخطاب، من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدح في معجزته، أو تعارضه في طريقه، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالته، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه[4].

ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[5]، فأخبر أنه لو كان أعجميًا لكانوا يحتجون في رده: إما بأن ذلك خارج على عرف خطابهم، أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، وبأنهم لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه؛ لأنه ليس من شأنهم ولا لسانهم أو بغير ذلك من الأمور، وأنه إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به، على ما نبينه في وجه هذا الفصل، إلى أن قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ

---

(١) سورة فصلت. بعض أية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت. الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٣) أي أن كل ما أخبر القرآن المجيد من المغيبات في المستقبل قد وقع كما أخبر، لم يختلف من ذلك شيء.

(٤) بين المؤلف الفاضل المراد بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ من الآية السابقة. فهو يرى أن المراد بـ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي حين نزول القرآن. فلا يوجد ما يعارضه أو يطعن في إعجازه وقت نزوله. والمراد بـ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي ما بعد نزوله مستقبلًا حتى قيام الساعة. فلن يوجد ما يطعن في إعجازه أو يعارضه باعتباره الكتاب الإلهي المهيمن.

(٥) سورة فصلت. بعض آية: ٤٤. والمراد بقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أي لو أنزل الله ـ سُبْحَانَهُ ـ القرآن أعجميًا لاعترض المشركون وقالوا: أقرآن أعجمي ولساننا عربي؟

كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾(١).

والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور، فكرهنا سَرْدَ القول فيها(٢)، فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك.

ثم مما يدل على هذا(٣) قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾(٤)، فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعلم من أعلامه، وأن ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء صلوات اللَّه عليهم، ويدل عليه قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾(٥)، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ﴾(٦)، فدل على أنه جعل قلبه مستودعًا لوحيه، ومستنزلًا لكتابه، وأنه لو شاء صرف ذلك إلى غيره، وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وإبطال الباطل، مع صرفه عنه. ولذلك أشباه كثيرة تدل على نحو الدلالة التي وصفناها.

فبان بهذا وبنظائره ما قلناه من أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه(٧) أنه يمكن أن يعلم أنه كلام اللَّه ـ تعَالَى ـ، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء، لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد، ووصف مضاف إليها؛ لأن نظمها ليس معجزًا(٨)، وإن

(١) سورة فصلت. الآية: ٥٢.

(٢) أي أن ما نبه عليه من أوجه الإعجاز في سورتي غافر وفصلت كاف في بيان ذلك في سور القرآن جميعها، فلا حاجة إلى ذكر شيء من السور الأخرى خشية الإطالة.

(٣) أي على أن القرآن العظيم هو معجزة رسول اللَّه ﷺ وآية على صدقه في دعوى النبوة.

(٤) سورة العنكبوت. آية: ٥١ وبعض آية: ٥٢.

(٥) سورة الفرقان. فاتحة السورة.

(٦) سورة الشورى. بعض الآية: ٢٤.

(٧) الضمير للقرآن العظيم.

(٨) يقيم المؤلف الفاضل موازنة بين القرآن العظيم وغيره من الكتب السابقة عليه مثل التوراة =

كان ما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزًا، وليس كذلك القرآن؛ لأنه يشاركها في هذه الدلالة، ويزيد عليها في أن نظمه معجز، فيمكن أن يستدل به عليه، وَحَلَّ في هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سمع كلامه علم أنه في الحقيقة كلامه، وكذلك مَن يسمع

= والإنجيل، وذلك من حيث الإعجاز. فيقرر المؤلف أن القرآن وكذلك الكتب السابقة كلها معجز، وكلها حجج من اللّه ـ تَعَالَى ـ لرسله ـ صلوات اللّه عليهم ـ لكن القرآن المجيد يختلف عن الكتب السابقة في أن دليل إعجازه موجود فيه نفسه، وليس أمرًا زائدًا عليه؛ لأن نظم القرآن معجز، وإعجاز نظمه دليل على كونه من عند اللّه ـ تَعَالَى ـ. أما الكتب السابقة فدليل إعجازها، وكونها من عند اللّه ـ تَعَالَى ـ ليس أمرًا في داخلها. وإنما دليل ذلك أمر خارج عنها وزائد عليها ومضاف إليها، لأن نظمها ليس معجزًا، ولأن اللّه ـ سُبْحَانَهُ ـ لم يتحدَّ القوم بهذه الكتب ويعجزهم أن يأتوا بمثلها في النظم.
هذا كلام المؤلف ـ رَحِمَهُ اللّهُ تَعَالَى ـ.
لكن الأمر فيه نظر؛ فإن كتب اللّه ـ تَعَالَى ـ كلها معجز، وكل كتاب هو حجة للرسول الذي أنزل عليه. ودليل إعجاز كتب اللّه ـ تَعَالَى ـ كلها هو في داخلها وفي نفسها وليس خارجًا عنها ـ فيما نرى ـ، غير أن أوجه الإعجاز في كتب اللّه ـ تَعَالَى ـ كثيرة، من هذه الأوجه ما هو مشترك بين القرآن العظيم وإخوته من الكتب السابقة، ومنها ما هو خاص بالقرآن الكريم وحده. فمن الأوجه الإعجازية المشتركة بين الكتب كلها: اشتمالها جميعها على الإخبار بالمغيبات سابقة ولاحقة، وأوضح مثال على ذلك اشتمالها كلها على البشارة بمحمد ﷺ اسمًا وصفة، وعلامات ظهوره زمانًا ومكانًا، وكذلك اشتمالها على التشريعات والأحكام التي تضمن السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وكذلك خلوها عن التناقض والاختلاف، إلى غير ذلك من الأوجه التي توجد في كتب اللّه ـ تَعَالَى ـ كلها، وهي أوجه موجودة داخل الكتب وفي ثناياها، وليست خارجة عنها.
أما ما هو خاص بالقرآن الكريم؛ فذلك ما يتصل باللغة وأساليبها والنظم وأوجه التصرف فيه. ولقد أشار المؤلف ـ رَحِمَهُ اللّهُ تَعَالَى ـ إلى بعض أوجه الإعجاز التي هل داخل الكتب السابقة ـ وليست منفصلة عنها ـ حيث قال: «وإن كان ما يتضمنه ـ غير القرآن من الكتب ـ من الأخبار عن الغيوب معجزًا».

القرآن يعلم أنه كلام اللَّه. وإن اختلف الحال في ذلك من بعض الوجوه؛ لأن موسى عليه السلام سمعه من اللَّه عز وجل، وأسمعه نفسه متكلمًا، وليس كذلك الواحد منا.

وكذلك قد يختلفان[1] في غير هذا الوجه، وليس ذلك قصدنا بالكلام في هذا الفصل، والذي نرومه الآن ما بيّنا من اتفاقهما في المعنى الذي وصَفْنا، وهو أنه عليه السلام يعلم أن ما يسمعه كلام اللَّه من جهة الاستدلال، وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال[2].

---

(١) أي: القرآن الكريم والكتب السابقة.

(٢) أقام المؤلف الفاضل مقارنة بين معرفة موسى عليه السلام أن ما أنزل عليه من التوراة هو كلام اللَّه ـ تَعَالَى ـ، ومعرفة محمد ﷺ أن ما أنزل عليه من القرآن هو كلام اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ.. فقرر المؤلف أن موسى عليه السلام عرف أن التوراة كلام اللَّه بالضرورة وليس بالاستدلال؛ لأن موسى عليه السلام سمعها بنفسه من ربه ـ سُبْحَانَهُ ـ، فهو قد سمع كلام اللَّه ـ تَعَالَى ـ مباشرة، ثم بعد ذلك تلا الكلام على نفسه، فعلم أن ذلك الذي تلاه على نفسه هو كلام اللَّه الذي سمعه من اللَّه ـ تَعَالَى ـ قبل ذلك.. قال المؤلف: «وليس كذلك الواحد منا».. أي أن القرآن لم يسمعه محمد ﷺ من ربه، ولم يتكلم اللَّه به إلى محمد كما وقع ذلك لموسى. ولذا لم يعرف محمد ﷺ أن القرآن كلام اللَّه ضرورة كما وقع ذلك لموسى، ولكنه علم ذلك عن طريق الاستدلال..

وقد سبق أن بينا أن إعجاز القرآن المجيد، وأن كونه حجة لرسول اللَّه ﷺ، وأن إدراك أنه كلام اللَّه ـ تَعَالَى ـ كل هذه أمور ثابتة على مستوى الضرورة أولًا، ثم على مستوى الاستدلال ثانيًا.. ولسنا نعرف أو نتصور كيف أن رسول اللَّه ﷺ لا يعلم أن القرآن الذي ينزل عليه هو كلام اللَّه ـ تَعَالَى ـ إلا على جهة الاستدلال العقلي ونصب الأدلة النظرية؟ إن اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ يلهم الرسول ﷺ وكذلك كل رسول أنزل عليه كتابًا أن ما يلقى عليه هو كلام اللَّه حقًّا، فيعلم الرسول علمًا ضروريًّا يقينيًّا أن الذي يلقى عليه هو كلام اللَّه وليس كلام غيره، ومحال أن يلتبس الأمر عليه في ذلك.

ولعل المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ قد استحضر في ذهنه حال الرسول ﷺ حين جاءه جبريل عليه السلام أول مرة في غار حراء وقرأ عليه فواتح سورة العلق. حيث أصيب الرسول =

....

* * *

= ﷺ بالخوف والرهبة، وسارع إلى زوجه السيدة خديجة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ ليلقي إليها بما حدث، ويسألها النصيحة. وأن خديجة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ بعد أن طمأنته ذهبت به إلى ابن نوفل ورقة فسألاه النصيحة في ذلك.. والقصة أشهر من أن تذكر. نقول: لعل هذا الأمر هو الذي لبّس على المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ حتى ذهب إلى أن الرسول لا يعلم أن القرآن الذي يلقى عليه هو كلام اللّه إلا بالدليل النظري. لكن الذي حدث حال البعثة في غار حراء كان مفاجئًا له ﷺ، وكان شديدًا وصعبًا، ولم يكن الرسول ﷺ يستعلم عن الآيات التي ألقيت عليه فقط، بل كان يستعلم عن الأمر برمته، فلما استقر الأمر وتتابع الوحي هدأت نفس النبي ﷺ وأنس إلى الوحي النازل عليه، بل إن السيرة النبوية الشريفة لتخبرنا بأن الرسول ﷺ كان يستوحش إذا فتر الوحي ويستشرف لنزوله.

فصل

في الدلالة على أن القرآن معجزة

قد ثبت بما بينا في الفصل الأول أن نبوة نبينا ﷺ مبنية على دلالة معجزة القرآن، فيجب أن نبين وجه الدلالة من ذلك.

وقد ذكر العلماء أن الأصل في هذا هو أن تعلم أن القرآن الذي هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبي ﷺ، وأنه هو الذي تلاه على مَن في عصره ثلاثًا وعشرين سنة[١]، والطريق إلى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم الضروري به، وذلك أنه قام به في المواقف، وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها مَن تابعه، وأورده على غيره ممن لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشتبه على أحد، ولا يحتمل أنه قد خرج مَن أتى بقرآن يتلوه، ويأخذه على غيره، ويأخذه غيره على الناس، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها، وتعدى إلى الملوك المصاقبة[٢] لهم، كملك الروم والعجم[٣] والقبط

---

(١) القول بأن نزول الوحي على رسول الله ﷺ استغرق ثلاثًا وعشرين سنة هو الذي أطبق عليه جمهور العلماء. لكن هناك مَن يرى أن الوحي استغرق اثنتين وعشرين سنة، وهناك أقوال أخر. وهذا راجع إلى اختلافهم حول تحديد السن التي بعث عندها رسول الله ﷺ والثابت يقينًا أن رسول الله ﷺ ولد في ربيع الأول، وأنه عليه السلام بعث في رمضان بعد أن أكمل من سنه الشريفة الأربعين. فهو قد بعث بعد أن أقضى من عمره الشريف أربعين عامًا وستة أشهر وبضعة أيام.. وهذا الذي عليه الجمهور، والأقوال الأخرى ـ بجانب أنها لا تمس جانبًا هامًّا من الرسالة النبوية الشريفة ـ لا ثقل لها عند المحققين.

(٢) أي: المجاورة. من: «صَقبَ» إذا اقترب ودنا. ومنه قولهم: الجار أحق بصقبه. أي بما يليه ويلاصقه. يقولونها في الشفعة التي هي حق الجار فيما يجاوره.

(٣) العجم: خلاف العرب، وإن عاش وسط العرب وتكلم العربية فهو أعجمي. فالكلمة بهذا المعنى تشمل كل الذين ذكرهم المؤلف الفاضل من: الروم والقبط والحبش وغيرهم ما لم يكونوا عربًا. لكن هناك مَن يطلق كلمة: «عجم» على الفرس خاصة. وهو نفس=

والحبش وغيرهم من ملوك الأطراف، ولما ورد ذلك مضادًّا لأديان أهل ذلك العصر كلهم، ومخالفًا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر، وقف جميع أهل الخلاف على جملته، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم اللّٰه بالإيمان على جملته وتفاصيله، وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير، إذ كان عمدة دينهم، وعلمًا عليه، والمفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم، ثم تناقله خَلَف عن سَلَف، ثم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا ما وصفنا من حاله.

فلن يتشكك أحد، ولا يجوز أن يتشكك أحد مع وجود هذه الأسباب، في أنه أتى بهذا القرآن من عند اللّٰه، فهذا أصل.

وإذا ثبت هذا الأصل وجودًا فإنا نقول: أنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم[1] على ترك الإتيان به طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوك بذلك.

والذي يدل على هذا الأصل أنا قد علمنا أن ذلك مذكور في القرآن، في المواضع الكثيرة، كقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[2]؛

= المعنى الذي قصده المؤلف الفاضل حيث ذكر الروم والعجم الذين هم «الفرس» والقبط والحبش.. والأصل في المادة أنها في الصمت وعدم الإصابة. ومن ذلك قولهم: «صلاة النهار عجماء».

(١) أي: أوجعهم باللوم والتوبيخ والتعنيف.

(٢) سورة البقرة. الآيتان: ٢٣، ٢٤.

والقرآن الكريم قد تحدى العرب أن يأتوا بما يماثله على مراحل ثلاث متنزلًا معهم من مرحلة إلى مرحلة حتى وصل بهم إلى مستوى لا يمكن التنزل دونه. فقد تحداهم اللّٰه ـ تَعَالَى ـ في كتابه الكريم أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا. وذلك في قوله ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]. كذلك تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فعجزوا عن ذلك. كما جاء في=

وكقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[(١)]. فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلًا على أنه منه، ودليلًا على وحدانيته، وذلك يدل عندنا على بطلان قول مَن زعم أنه لا يمكن أن يعلم بالقرآن الوحدانية، وزعم أن ذلك مما لا سبيل إليه إلا من جهة العقل؛ لأن القرآن كلام الله ﷻ، ولا يصح أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولًا[(٢)]، فقلنا إذا ثبت بما نبينه إعجازه وأن الخلق لا يقدرون عليه، ثبت أن

= قول الله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]. ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة ولو من أصغر سوره، وذلك في قوله ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس ﵇ ٣٨ وبعض آية: ٣٩]، وكذلك ورد التحدي في الآية التي ذكرها المؤلف في سورة البقرة، ورغم هذا التحدي، ورغم هذا التدرج معهم من القرآن كله. إلى عشر من سوره، إلى سورة صغيرة مثل سورة الكوثر، ورغم أنهم ادعوا أن في استطاعتهم أن يأتوا بمثله إن شاءوا. كما أخبر القرآن المجيد في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: ٣١]. نقول: رغم كل هذا وذاك فإنهم عجزوا عن الإتيان بشيء مما يماثل القرآن أو يقاربه. ولجأوا إلى الطريق الأشق وهو القتال والتضحية بأنفسهم وأموالهم، ولو كان بإمكانهم أن يعارضوا القرآن بمثله أو شيء من مثله لفعلوا ذلك ووفروا على أنفسهم القتل والأسر، لكن لجوءهم إلى الطريق الأشق والأصعب دليل في وضوح الشمس على عجزهم، تصديقًا لقوله ﷻ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

(١) سورة هود. الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) يشير المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ إلى ما ذهب إليه بعض علماء الكلام من أن الاستدلال على وجود الله ـ تَعَالَى ـ وعلى وحدانيته لا يكون إلا من جهة العقل. ولا يصح أن يكون من جهة الشرع أو السمع، وحجتهم في ذلك أن الاستدلال على وجود الله ـ تَعَالَى ـ ووحدانيته من خلال القرآن يؤدي إلى الدور، وهو باطل لأن الإيمان بالقرآن كلامًا لله =

الذي أتى به غيرهم، وأنه صدق، وإذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقًا، وليس إذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع أن يعرف من الوجهين[(١)]، وليس الغرض تحقيق القول في هذا الفصل؛ لأنه خارج عن مقصود كلامنا، ولكنا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾[(٢)]، وقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾[(٣)].

فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله. وفي هذا أمران: أحدهما التحدي إليه، والآخر أنهم لم يأتوا له بمثل، والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين.

وإن قال قائل: لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي، وإنما قرأ

= - تَعَالَى - متوقف على معرفة الله، وأنه منزله، فإذا توقفت معرفة الله - تَعَالَى - ووحدانيته على القرآن تم الدور، فيكون العلم بالقرآن متوقفًا على معرفة الله، ومعرفة الله متوقفة على معرفة القرآن. فيكون دورًا باطلًا.

وكلام علماء الكلام فيه نظر. ولا يخفى ما فيه من سفسطة ومغالطة، فإن كون القرآن معجزًا للبشر، دل على أنه من كلام غيرهم. وغيرهم لا يكون مثلهم. فثبت بالقرآن أنه ليس من كلام البشر، وأنه كلام غيرهم وهو الله - سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَى -، وقد أشار المؤلف الفاضل إلى أن معرفة الله - تَعَالَى - وأسمائه الحسنى وصفاته العلى يكون عن طريق القرآن وعن طريق العقل جميعًا. أو عن طريق السمع والعقل. وهو عن طريق السمع أولى، وعن طريق العقل أقنع، وليس هناك تعارض بين الطريقين. ولا بين المعرفة الناتجة عنهما.

(١) أي: وجه السمع ووجه العقل.

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٨٨.

(٣) سورة الطور. الآيتان: ٣٣، ٣٤.

عليهم ما سوى ذلك من القرآن، كان كذلك قولًا باطلًا، يعلم بطلانه، مثل ما يعلم به بطلان قول مَن زعم أن القرآن أضعاف هذا وهو يبلغ حمل جَمَل، وأنه كتم وسيظهره المهدي(١)، أو يدعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي ﷺ، وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان ـ رضي اللّه عنهما ـ حيث وضع المصحف، أو يدعي فيه زيادة أو نقصانًا، وقد ضمن اللّه حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه(٢)، ووعده الحق. وحكاية قول مَن قال ذلك

(١) يشير المؤلف إلى ما يعتقده كثير من الشيعة في مصحف غير المصحف الشريف، يسمونه «مصحف فاطمة» نسبة إلى الزهراء ابنة الرسول ـ صلى اللّه وآله وسلم، ورضي اللّه ـ تَعَالَى ـ عنها ـ.

وقصة ذلك المصحف ـ فيما يزعمه الشيعة ـ أن السيدة فاطمة بنت رسول اللّه ﷺ، و. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ بعد وفاة أبيها وقبل أن تلحق به لقيت من الأحزان والآلام ما لا يعلمه إلا اللّه ـ سُبْحَانَهُ ـ، وفي هذه الفترة ـ ما بين موت أبيها وموتها ـ كان جبريل عليه السلام يتنزل عليها ـ بإذن ربه ـ ليجالسها طوال اليوم يواسيها ويسري عنها. وكانت وسيلة جبريل للتسرية عن السيدة فاطمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أن يحدثها بكل ما كان وما هو كائن وما سوف يكون، حدثها عما كان قبل ما يخلق اللّه السموات والأرض، وكيف خلقهما، ثم ماذا جرى من قصص الماضين تفصيلًا، ثم عما هو كائن، ثم عما سوف يكون، حتى عرفها آجال الناس وأرزاقهم، وأهل الجنة بأسمائهم وصفتهم وأهل النار كذلك... إلى آخر ما يزعمون من هذا القبيل. قالوا: وبينما كان جبريل عليه السلام يحدث فاطمة بكل ذلك. كان علي رضي الله عنه يحرص على أن يجلس خلف باب الحجرة يسمع من جبريل ويسجل كل ما يسمع، حتى انتقلت الزهراء ـ رضي اللّه عنها ـ إلى جوار ربها. فانقطع مجيء جبريل عليه السلام، لكن بعد أن تَكَوَّن لَدى الإمام علي رضي الله عنه مما نقل عن جبريل مصحف يعدل المصحف الشريف الذي أنزل اللّه ـ تَعَالَى ـ على رسوله محمد ﷺ عدة مرات، قالوا وهذا المصحف خاص بالأئمة يتوارثونه إمامًا عن إمام، حتى كان الإمام الثاني عشر غائب، فأخذه معه حين غاب، ويعود الإمام ـ حين يعود ـ ومعه ذلك المصحف الذي يعلم منه الأئمة أخبار الماضي والحاضر والمستقبل.. هكذا زعموا، والحق أحق أن يتبع.

(٢) يشير المؤلف الفاضل إلى قوله ـ سُبْحَانَهُ ـ في وعده بحفظ القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ =

يغني عن الرد عليه. لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي وفي الأسفار وفي الحضر، وضبطوه حفظًا من بين صغير وكبير، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف، لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان، ولو زادوا أو نقصوا أو غيروا لظهر.

وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه مساسها إلى القرآن، لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت، لا بل لو غير فيه لفظ، لتبرأ منه أصحابه، وأنكره أربابه، فإذا كان ذلك مما لا يمكن في شعر امرئ القيس ونظائره، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن مع شدة الحاجة إليه في أصل الدين، ثم في الأحكام والشرائع، واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه.

فمنهم مَن يضبطه لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أدائها(١)، ومنهم مَن يحفظه للشرائع والفقه(٢)، ومنهم مَن يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه(٣)،

= وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر: ٩]. كما يشير إلى الآية الكريمة التي يقول الله - تَعَالَى - فيها عن القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

(١) يشير المؤلف الفاضل إلى علماء التجويد والقراءات. فإن علماء التجويد عملهم بيان كيفية أداء القرآن المجيد على الوجوه الشرعية الصحيحة، وعلماء القراءات همهم بيان أوجه القراءات الواردة للقرآن والمعتبرة شرعًا، وكلا التجويد والقراءات لا يكون إلا عن طريق التلقي تلقينًا من الشيخ لطلابه، ولا يصح فيه أبدًا الأخذ عن الكتب، وإلا تحول الطالب إلى حافظ لقواعد لا يدري كيفية تطبيقها.

(٢) يشير إلى علماء الفقه وأصوله. فإن عملهم هو استنباط الأحكام الفقهية وأدلتها الشرعية من القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة.

(٣) يشير إلى علماء التفسير الذين وقفوا أنفسهم على تفسير القرآن العظيم. كل حسب اتجاهاته وإمكاناته، فمنهم مَن يفسر القرآن العظيم بالمأثور. أي يفسر القرآن بالقرآن =

ومنهم مَن يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة[١]، ومن الملحدين مَن يحصله لينظر في عجيب شأنه[٢].

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة، والآراء المتباينة، على كثرة أعدادهم، واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم، أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان؟ ويبين ذلك أنك إذا تأملت ما ذكر في أكثر السور، مما بيَّنَّا ومن نظائره، في رَدّ قومه عليه[٣] ورد غيرهم، وقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾[٤]، وقول بعضهم: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾[٥]. إلى الوجوه التي يصرف إليها قولهم في الطعن عليه:

فمنهم مَن يستهين بها ويجعل ذلك سببًا لتركه الإتيان بمثله، ومنهم مَن يزعم أنه مفترى فلذلك لا يأتي بمثله.

ومنهم مَن يزعم أنه دارس وأنه أساطير الأولين، وكرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحديه، لئلا يقع التطويل، ولو جاز أن يكون بعضه مكتومًا جاز على كله، ولو جاز أن يكون بعضه موضوعًا جاز ذلك في كله. فثبت بما بيناه أنه تُحُدِّي إليه،

= والسنة. وذلك مثل تفسير: أبي حاتم، وابن كثير.
ومنهم مَن يفسره بالرأي، مثل تفسير الرازي والزمخشري، ومنهم مَن يخلط بين هذا وذاك من أمثال تفسير الطبري في ترجيحاته بين الآراء، ومنهم مَن يفسر بالرمز كابن عربي وأمثاله، وهؤلاء الأخيرون إنما يفسرون أنفسهم ولا يفسرون القرآن العظيم.

(١) يشير إلى علماء اللغة.

(٢) يشير إلى الملاحدة في كل زمان. وأشهرهم في زماننا العلمانيون والشيوعيون الذين إن نظروا في القرآن فإنما ليبحثوا عن مطعن أو ثغرة ينفذون من خلالها إلى الطعن في القرآن والإسلام، وهيهات أن يجدوا ضالتهم أو يمسخهم اللّٰه خنازير وقردة.

(٣) الضمير للرسول ﷺ، أي أقوالهم ومزاعمهم التي زعموها على تحدي القرآن الكريم لهم وكذلك ردود الملاحدة في كل زمان.

(٤) سورة الأنفال. بعض الآية: ٣١.

(٥) سورة ص. بعض الآية: ٧.

وأنهم لم يأتوا له بمثله، وفي هذا الفصل قد بينا أن الجميع قد ذكروه وبنوا عليه، فإذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعدهم أن تركهم للإتيان بمثله كان لعجزهم عنه.

والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدقه ونبوته، وتضمنت أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه، بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم، ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكليف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي، فلما لم يحصل هناك معارضة منهم، علم أنهم عاجزون عنها، يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد، لاسيما مع استعظامه ما أبدعه بالمجيء[(١)] من خلع آلهته، وتسفيه رأيه في ديانته، وتضليل آبائه والتغريب عليه بما جاء به، وإظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته، والتصرف على حكم إرادته، والعدول عن إلفه وعادته، والانخراط في سلك الأتباع بعد أن كان متبوعًا، والتشيع بعد أن كان مشيَّعًا[(٢)]، وتحكيم الغير في ماله، وتسليطه إياه على جمله أحواله، والدخول تحت تكاليف شاقة، وعبادات متعبة[(٣)]،.............

---

(١) الضمير في (استعظامه) لكفار مكة، والضمير في «أبدعه» للرسول ﷺ أو للإسلام. والمعنى: أن كفار مكة استعظموا ما جاء به الرسول ﷺ أو ما جاء به الإسلام من خلع آلهتهم... إلى آخر الأمور التي ذكرها المؤلف.. ولفظه: «أبدعه» إشارة إلى أن ما جاء به الرسول ﷺ أمور مستحدثة لم تكن معروفة لدى العرب قبلًا.

(٢) التشيع: المناصرة والتأييد والمتابعة. ومنه «الشيعة» أتباع علي بن أبي طالب ومؤيدوه ومناصروه وآل بيته من بعده ـ فيما يزعمون ـ.

(٣) أي أن الإسلام جاء إلى مشركي مكة بأمور شاقة كان كل منها سببًا في أن يعارضوا القرآن بمثله لو أنهم قدروا. الأول: أنه سفه أحلامهم، وسب آلهتهم، وطعنهم في أقدس ما يدافع عنه الإنسان بنفسه وماله وهو دينهم. الثاني: أن الإسلام كلفهم زعاماتهم التي =

بقوله[(١)].

وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعوا إلى سلب النفوس دونه.

هذا والحمية حميتهم، والهمم الكبيرة هممهم، وقد بذلوا له السيف، وأخطروا بنفوسهم وأموالهم[(٢)]، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه، وإلى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها مطلع، والرتبة التي ليس وراءها منزع[(٣)]، ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره، وتكذيب قوله، وتفريق جمعه، وتشتيت أسبابه، وكان مَن صدق به يرجع على أعقابه، ويعود في مذهب

= يفتخرون بها ويحرصون عليها، وقضى على مكانتهم الاجتماعية، حيث حولهم من رؤساء إلى مرؤوسين، ومن متبوعين إلى تابعين. الثالث: أن الإسلام وضع عليهم تكاليف شاقة من الصلاة والصيام والزكاة والجهاد.. إلى غير ذلك من الواجبات الشرعية التي يصاحبها التعب والمشقة. فلو كان في مقدورهم أن يدفعوا عن أنفسهم هذه الأمور كلها بمقالة يقولونها يعارضون بها القرآن ويبطلون تحديه إياهم لفعلوا.

(١) كلمة: «بقوله» راجعة إلى عبارة المؤلف قبل ذلك ببضعة أسطر حيث قال: «يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه» أي يقصد لدفع قول عدوه بقوله هو.. فالجار والمجرور «بقوله» معمول للمصدر هناك الذي هو: «الدفع».

(٢) أي جعلوا أنفسهم وأموالاهم عرضة للهلاك والضياع، وهو استعمال صحيح، ولو قيل: خاطروا لكان أولى. ومن معاني كلمة «أخطر» المقارنة والمراهنة فيقال: أخطر فلان لفلان، أي جعل نفسه عَدْلًا له وقرينًا فبارزه وقاتله. ويقال: أخطر فلان لي وأخطرت له: تراهنا.

(٣) أي الرتبة العليا التي ليس وراءها رتبة ينزع إليها. أي يسعى إليها. ومن معاني نزع: السعي إلى الشيء، والكف عنه. فيقال: نزع إليه، أي سعى إليه واجتهد في تحصيله. ويقال: نزع عنه. أي كف ونقض منه يده. ومن معانيها إخراج الشيء من مكمنه. قال ـ تَعَالَى ـ عن موسى عليه السلام: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٨، الشعراء: ٣٣].

أصحابه، فلما لم يفعلوا شيئًا من ذلك مع طول المدة، ووقوع الفسحة، وكان أمره يتزايد حالًا فحالًا، ويعلو شيئًا فشيئًا؛ وهم على العجز عن القدح في آيته، والطعن في دلالته، علم ما بينا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته، ولا على توهين حجته. وقد أخبر اللَّه ـ تَعَالَى ـ عنهم أنهم قوم خصمون[1]، وقال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[2]، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④﴾[3].

وعلم أيضًا أن ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن، مما حكى اللَّه عَزَّوَجَلَّ عنهم، ومن قولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[4]، وقولهم: ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[5]، وقالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[6]، وقالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[7]، وقالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾[8]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤﴾[9]، ﴿وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا

---

(١) أي في طبعهم حب المخاصمة مع الآخرين والسعي إلى ذلك. و«الخَصِم» هو الذي يحب الخصام ويبرع في أسبابه.

(٢) سورة مريم. بعض الآية: ٩٧، و(لُدًّا) جمع: أَلَدّ. والألدّ هو شديد العداوة التي ترتكز عداوته على حقد وضغينة، ولا يقف في عداوته عند حد.

(٣) سورة النحل: الآية: ٤، ومثل تلك الآية قوله ـ تَعَالَى ـ من سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ⑰﴾ ٧٧.

(٤) سورة الأنفال. بعض الآية: ٣١.

(٥) سورة القصص. بعض آية: ٣٦.

(٦) سورة الحجر. بعض الآية: ٦.

(٧) سورة الأنبياء. بعض الآية: ٣.

(٨) سورة الصافات. بعض الآية: ٣٦.

(٩) سورة الفرقان. الآيتان: ٤، ٥.

مَّسْحُورًا﴾[١]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾[٢]، إلى آيات كثيرة في نحو هذه الأمور، من تعليل وتعذير، ومدافعة بما وقع التحدي إليه، وعرف الحث عليه، وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب، وجاهروه، ونابذوه، وقطعوا الأرحام، وأخطروا بأنفسهم. وطالبوه بالآيات والإتيان بغير ذلك من المعجزات، يريدون تعجيزه، ليظهروا عليه[٣] بوجه من الوجوه، فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم، وذلك يدحض حجته، ويفسد دلالته، ويبطل أمره، فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه، من الأمور التي ليس عليها مزيد في المنابذة والمعاداة، ويتركون الأمر الخفيف؟ هذا مما يمتنع وقوعه في العادات، ولا يجوز اتفاقه[٤] من العقلاء.

وإلى هذا قد استقصى أهل العلم الكلام، وأكثروا في هذا المعنى وأحكموه. ويمكن أن يقال إنهم لو كانوا قادرين على معارضته، والإتيان بمثل ما أتى به، لم يجز أن يتفق منهم ترك المعارضة، وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلاقة، والمعرفة بوجوه الفصاحة، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته، وأنهم يضعفون عن مجاراته، ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي به

---

(١) سورة الفرقان. بعض الآية: ٨. وفي بعض الطبعات: (إن تتبعوا) وهو خطأ. والصحيح: ﴿إن تَتَّبِعُونَ﴾؛ لأن (أن) في الآية نافية وليست شرطية.

(٢) سورة الحجر. الآية: ٩١.

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ أي فرقوه وجزأوه عضة عضة، أي أجزاء آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. فالتعضية هي التفريق والتقطيع. ومنه الحديث الشريف «لا تعضية في ميراث» أى لا تقسموا ما لا يحتمل القسمة أو القطع مثل السيف والرمح وغيرها. وقيل: إن العضة هي الكذب. وجعلهم القرآن عضين، أي جعلوه كذبًا. وجمع عضة: عضون. لكن الأول أولى. وعليه جمهور المفسرين.

(٣) أي لينتصروا عليه.

(٤) أي لايتفق وقوع ذلك منهم مع كونهم عقلاء.

ويقرعهم ويؤنبهم عليه، ويدرك آماله فيهم(١)، وينجح ما يسعى له بتركهم المعارضة، وهو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه، وتفخيم أمره، حتى يتلو قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾(٢)، وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾(٣)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾(٤)، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾(٥)، وقوله: ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾(٦)، وقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٧)، وقول: ﴿مَّثَانِىَ﴾(٨)، إلى غير ذلك من الآيات التي تضمن تعظيم شأن القرآن، فمنها ما يتكرر في السورة في مواضع منها، ومنها ما ينفرد فيها، وذلك مما يدعوهم إلى المباراة، ويحضهم على المعارضة، وإن لم يكن متحديًا إليه(٩).

---

(١) أي يصل إلى ما يريده فيهم بإظهار عجزهم عن معارضة القرآن المجيد، وتأكيد أن القرآن كلام الله الحق.

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٨٨.

(٣) سورة النحل. الآية: ٢.

(٤) سورة الحجر. الآية: ٨٧.

(٥) سورة الحجر. الآية: ٩.

(٦) سورة الزخرف. الآية: ٤٤.

(٧) سورة البقرة. بعض الآية: ٢.

(٨) سورة الزمر. بعض الآية: ٢٣.

(٩) الواقع أن القرآن كله قد وقع به التحدي، في جملته، وفي أبعاضه من السور والآيات. غير أن التحدي وقع صريحًا ومباشرًا في مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ووقع التحدي بطريق غير مباشر في كل آية من القرآن المجيد، حيث إن الله ـ تَعَالَى ـ قد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وأصغر سورة يقع بها المعارضة هي سورة الكوثر. وقد ذهب العلماء إلى أن هذه المعارضة تتحق أيضًا بآية في مثل سورة الكوثر.. فكل آية في مثل سورة الكوثر وما فوقها في الطول هو مما وقع به التحدي إما مباشرة، وإما ضمنًا.

ألا ترى أنهم قد كان ينافر شعراؤهم بعضهم بعضًا، ولهم في ذلك مواقف معروفة، وأخبار مشهورة، وأيام منقولة، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة، ويتبجَّحون بذلك، ويتفاخرون بينهم، فلن يجوز ـ والحالة هذه ـ أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها، تحداهم إليها أو لم يتحدهم، ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر، وهو أنه لو كان مقدورًا للعباد لكان قد اتفق إلى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه، وتعمل نظمه في الحال، فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق، وخطبة متقدمة، ورسالة سالفة، ونظم بديع، ولا عارضوه به، فقالوا هذا أفصح مما جئت به، وأغرب منه، أو هو مثله، علم أنه لم يكن إلى ذلك سبيل، وأنه لم يوجد له نظير، ولو كان وجد له مثل لكان ينقل إلينا، ولعرفناه، كما نقل إلينا أشعار أهل الجاهلية، وكلام الفصحاء والحكماء من العرب، وأدى إلينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد، وغير ذلك من أنواع بلاغتهم، وصنوف فصاحتهم(١).

(١) يشير المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ بقوله: «ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر... إلى آخر الفقرة» إلى معنى جديد في التحدي ـ هو أنه لو كان لدى العرب قدرة على الإتيان بمثل القرآن لما لزمهم أن يحاولوا معارضته بكلام ينشئونه حين نزول القرآن، بل لكفى العرب الذين عاصروا نزول القرآن وتحديه إياهم أن ينقبوا في أقوال السابقين منهم من نثر وشعر، ولوجدوا من ذلك الشيء الكثير، فإن العرب حين نزول القرآن كان لديهم ذخائر ونفائس من أقوال سابقيهم من الشعراء والناثرين في أغراض شتى، وكانوا يحتفظون من ذلك بمأثورات كتبوها بالذهب وعلقوها في جوف الكعبة مما سمي بالمعلقات، بل وصل افتتانهم ببعض شعرائهم إلى الحد الذي زعموا فيه أن الجن تنفث على لسانه، فلو كان القرآن مما يعارض لما انتظروا حتى يتكلفوا بالإتيان بما يعارضه، بل لجاءوا من أقوال سابقيهم بما يعارضه، ولأبطلوا تحديده إياهم، أما وإن ذلك لم يقع فقد ثبت أن القرآن معجز، وأنه لا يعارض.
وبذلك أشار المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ إلى أن القرآن معجز، وأن تحديه للعرب لم يكن=

فإن قيل: الذي بني عليه الأمر في تثبيت معجزة القرآن أنه وقع التحدي إلى الإتيان بمثله، وأنهم عجزوا عنه بعد التحدي إليه، فإذا نظر الناظر، وعرف وجه النقل المتواتر في هذا الباب، وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه، وما ذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدي، وأن ما أتي به قد عرف العجز عنه بكل حال(١).

قيل: إنما احتيج إلى التحدي بإقامة الحجة، وإظهار وجه البرهان؛ لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة بأن يدعيها مَن ظهرت عليه، ولا تظهر على مدع لها إلا وهي معلومة أنها من عند اللَّه، فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدي وجب فيها التحدي؛ لأنه لا تزال بذلك الشبهة على الكل، وينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة، وإلا فإن مقتضى ما قدمناه من الفصل أن مَن كان يعرف وجوه الخطاب، ويتقن مصارف الكلام، وكان كاملًا في فصاحته، جامعًا المعرفة بوجوه الصناعة، لو أنه احتجَّ عليه بالقرآن، وقيل له إن الدلالة على النبوة، والآية على الرسالة، ما أتلوه عليك منه، لكان ذلك بلاغًا في إيجاب الحجة، وتمامًا في إلزامه فرض المصير إليه.

ومما يؤكد هذا أن النبي ﷺ قد دعى الآحاد إلى الإسلام، محتجًا عليهم بالقرآن. لأنا نعلم أنه لم يلزمهم تصديقه تقليدًا، ونعلم أن السابقين الأولين إلى

= مقصورًا على المعاصرين، بل تحدى معاصريه والسابقين على نزوله، وهذا معنى طيب يحسب للمؤلف فضله في لفت الأنظار إليه.

(١) هذا اعتراض افتراضي من المؤلف الفاضل، بناه - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - على ما سبق أن قرره من أن العرب كانوا عاجزين عن معارضة القرآن قبل وبعد نزوله.
وبيان الاعتراض: أن معجزة القرآن المجيد ثبتت عن طريق تحديه العرب أن يأتوا بمثله، والتحدي لا يكون إلا لمن يظن فيه القدرة على المعارضة، أما وإن العرب قبل نزول القرآن لم يكن في أقوالهم وأشعارهم ما يوهم قدرتهم المعارضة، فإن عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ثابت قبل نزول القرآن. وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن تحديهم أن يأتوا بمثل القرآن لا تأثير له، بل هو من باب العبث،؛ لأنه طلب إيجاد شيء مما عرف سلفًا أنهم عاجزون عن إيجاده، وبذلك يصبح التحدي فاقد التأثير،؛ لأنه وقع على غير محله.

الإسلام لم يقلدوه، وإنما دخلوا على بصيرة، ولم نعلمه قال لهم: ارجعوا إلى جميع الفصحاء، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فقد ثبتت حجتي، بل لما رآهم يعلمون إعجازه ألزمهم حكمه فقبلوه، وتابعوا الحق وبادروا إليه مستسلمين، ولم يشكوا في صدقه، ولم يرتابوا في وجه دلالته، فمَن كانت بصيرته أقوى، ومعرفته أبلغ، كان إلى القبول منه أسبق، ومَن اشتبه عليه وجه الإعجاز، واشتبه عليه بعض شروط المعجزات، وأدلة النبوات، كان أبطأ إلى القبول حتى تكاملت أسبابه، واجتمعت له بصيرته، وترادفت عليه مواده(١).

وهذا فصل يجب أن يتم القول فيه بعد، فليس هذا بموضع له.

ويبين ما قلناه؛ أن هذه الآية عَلَمٌ(٢)، يلزم الكل قبوله، والانقياد له، وقد علمنا تفاوت الناس في إدراكه ومعرفة وجه دلالته؛ لأن الأعجمي لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها مَن كان من أهل صنعة الفصاحة، فإذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم، وجرى مجراهم، في توجه الحجة عليه، وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصنعة، فربما حل في ذلك محل الأعجمي، في أن لا تتوجه إليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه، وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده، أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل

(١) يبين المؤلف الفاضل أن القرآن المجيد معجز، وأن ذلك واضح لكل مَن يعرف العربية وأسرارها، لكن العرب حين نزول القرآن العظيم لم يكونوا على مستوى واحد في إدراك إعجاز القرآن. فمنهم مَن أدرك أنه معجز للوهلة الأولى فأسلم سريعًا، ومنهم من أدرك ببطء واحتاج الأمر لديه إلى رؤية، فذلك احتاج لوقت ليسلم، وهكذا اختلفت مدارك العرب أفرادًا في إدراك كون القرآن معجزًا، ومدى الاستجابة لما يوجبه ذلك الإعجاز من الإسلام لله رب العالمين.. كذلك بين المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ أن إدراك إعجاز القرآن لم يكن تقليدًا ممن أسلموا، ولكن كان عن فهم ووعي لخصائص الإعجاز في الكتاب الخالد.

(٢) الإشارة إلى القرآن الكريم باعتباره معجزة لرسول الله ﷺ. والآية: المعجزة. والعلم: للدلالة. أي أن هذا القرآن آية وعلم على صدق رسول الله ﷺ.

وحدهما، غور هذا الشأن ما يعرف مَن استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام، وطرق البراعة. فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه بعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه. فأما مَن كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه، وإن لم نقل ذلك أدى هذا القول إلى أن يقال: إن النبي ﷺ لم يعرف إعجاز القرآن حين وصل إليه حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه. وهذا خطأ من القول. فصح من هذا الوجه أن النبي ﷺ حين أوحي إليه القرآن عرف كونه معجزًا، وبأن قيل له: إنه دلالة وعلم على نبوتك، أنه كذلك من قبل أن يقرأه على غيره، أو يتحدى إليه سواه، ولذلك قلنا: إن المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاصح، متى سمع القرآن عرف أنه معجز؛ لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه، ويعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أن عَجْز غيره كعجزه هو، وإن كان يحتاج بعد هذا إلى استدلال آخر على أنه علم على نبوة ودلالة على رسالة، بأن يقال له: إن هذه آية لنبيه، وإنها ظهرت عليها وادعاها معجزة له وبرهانًا على صدقه.

فإن قيل: فإن من الفصحاء مَن يعلم عَجْز نفسه عن قول الشعر، ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه، فكذلك البليغ، وإن علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد يخفى عليه عجز غيره[1].

---

(١) اعتراض بيانه؛ أن معرفة إنسان ما بعجزه عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ليس دليلًا على عجز غيره، فقد يدرك الكثيرون أنهم عاجزون عن معارضة القرآن والإتيان بمثله، لكن ذلك لا يمنع أن يكون غيرهم قادرًا على ما عجزوا هم عنه. ومثالًا لذلك؛ فإن الكثيرين يقرأون أشعار الشعراء الفحول ويدركون أنهم عاجزون عن الإتيان بمثلها، مع أن أمثالهم من الشعراء قادرون على الإتيان بمثلها وأشعر منها. فعجز البعض عن الشعر ليس دليلًا على عجز غيرهم عنه. =

قيل: هو مع مستقر العادة، وإن عجز عن قول الشعر، وعلم أنه مفحم، فإنه يعلم أن الناس لا ينفكون من وجود الشعراء فيهم، ومتى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره؛ لأنه كهو؛ لأنه يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواء، إذ ليس في العادة مثل للقرآن يجوز أن يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه، فإذا لم يكن لذلك مثل في العادة، وجرى مُجرى ما يعلم أن إخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات، فهو لا يجوِّزه من نفسه، وكذلك لا يجوز وقوعه من غيره إلا على وجه نقض العادة، بل يرى وقوعه موقع المعجزة. وهذا وإن كان يفارق فلق البحر وإخراج اليد البيضاء ونحو ذلك، من وجه، وهو أنه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه، لكونه ناقضًا للعادة، ومن غير تأمل شديد ولا نظير بعيد، فإن النظر في معرفة إعجاز القرآن يحتاج إلى تأمل، ويفتقر إلى مراعاة مقدمات، والكشف عن أمور، نحن ذاكروها بعد هذا الموضع، فكل واحد منها يؤول إلى مثل حكم صاحبه في الجمع الذي قدمنا.

ومما يبين (ذلك) ما قلناه، من أن البليغ المتناهي في الفصاحة يعرف إعجاز القرآن، وتكون معرفته حجة عليه إذا تُحُدِّيَ إليه وعجز عن مثله، وإن لم ينتظر وقوع التحدّي في غيره. وما الذي يصنع في ذلك الغير(١).

= وقد رد المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ على الاعتراض بكلام طيب واضح مبني على أن ثمة مستوى لما تعود عليه الناس من مقدوراتهم وإمكاناتهم التي يتفاوتون فيها، فبعضهم يعجز عن فعل، ويدرك في نفس الوقت أن غيره قادر عليه، وهذا مادام الفعل في مستوى ما ألف الناس وتعودوا، ولكن هناك أمور تخرج عن عادات الناس وقدراتهم، وهذه يدرك الجميع أنها خارج إمكاناتهم وفوق قدراتهم. ومثالًا لذلك أنني قد لا أستطيع أن أحمل ثقلًا وزنه مئة من الكيلوات، وأعلم أن ثمة مَن يستطيع أن يحمله، لأن ذلك داخل في إطار الإمكانات البشرية، أما إذا وصل الأمر إلى وزن قدره طن. فإنني أدرك أنني عاجز عن حمله، وأدرك أن غيري كذلك.

(١) يشير المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ إلى أن قضية التحدي التي أقامها اللّه ـ تَعَالَى ـ بكتابه، ونصبها على آياته. إنما هي موجهة للأفراد باعتبارهم أفرادًا. وكذلك موجهة إلى الجماعة. =

وهو ما رُوي في الحديث أن جبير بن مطعم(١) ورد على النبي ﷺ في مُعَنًّى(٢) حليف له أراد أن يفاديه، فدخل والنبي ﷺ يقرأ سورة: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾(٣) في صلاة الفجر، قال: فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾(٤)، قال خشيت أن يدركني العذاب. فأسلم.

وفي حديث آخر: أن عمر بن الخطاب ؓ سمع سورة «**طه**» فأسلم.

وقد روي أن قوله ﷻ في أول «**حم السجدة**»(٥) إلى قوله: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾(٦)، نزلت في شيبة وعتبة ابني ربيعة، وأبي سفيان بن

= فالإنسان الذي يعرف العربية ويبرع في وجوه تصاريفها ويصل من ذلك إلى منتهاه. لاشك أنه بمعرفته تلك سيدرك ـ ضرورة ـ أن القرآن معجز للخلق. ومعرفته تلك تلزمه الإيمان والتسليم،؛ لأنه بتلك المعرفة لزمته الحجة. من أن القرآن تحداه، وعرف هو عجزه عن معارضته. فموقفه من تحدي القرآن إياه هو التسليم والإيمان، وهذا واجب عليه بالنظر إلى شخصه هو، واقتناعه بما أوصلته إليه معرفته بالعربية. ولا صلة له بعد ذلك بموقف غيره من تحدي القرآن، فسواء عرف غيره إعجاز القرآن وآمن، أو عرف وعاند، أو جهل ذلك، فإن هذه الاحتمالات بالنسبة للغير لا ينبغي أن يكون لها تأثير في موقف مَن علم آية القرآن، وأدرك تحديه إياه، وعجزه عن معارضته. وقد ذكر المؤلف الفاضل عقب ذلك أمثلة لأنواع من مواقف المشركين الذين بلغوا في الفصاحة مبلغها. فمنهم مَن أدرك أن القرآن معجز فأذعن وأسلم، ولم ينظر إلى مواقف غيره من المشركين. وذلك مثل الفاروق عمر بن الخطاب وجبير بن معطم ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنۡهُمَا ـ، ومنهم مَن أدرك ذلك لكنه عاند وجحد وأخذ يبحث عن تعلات لجحده وعناده أمثال مَن ذكرهم بعد ذلك.

(١) جبير بن مطعم ؓ: صحابي جليل من المعمرين بعد رسول الله ﷺ. والحديث رواه الإمام أحمد ؓ: (٨٣/٤)، ورواه أصحاب التقارير.

(٢) المُعَنَّى: الأسير، وكذلك: العاني. وفي الحديث الشريف: «عودوا المرضى، وفكوا العاني». ومؤنث العاني: العانية، والجمع: عوان.

(٣) سورة الطور. الآيتان: ١، ٢.

(٤) سورة الطور. الآيتان: ٧، ٨.

(٥) هي سورة فصلت.

(٦) سورة فصلت. بعض آية: ٤.

حرب، وأبي جهل. وذكر أنهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليكلمه، وكان حسن الحديث، عجيب الشأن، بليغ الكلام، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده، فقرأ النبي ﷺ سورة «**حم السجدة**» من أولها، حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[١]، فوثب مخافة العذاب، فاستحكوه ما سمع، فذكر أنه لم يسمع مثله كلمة واحدة، ولا اهتدى لجوابه، ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد، فقال له عثمان بن مظعون: لتعلموا أنه من عند الله؛ إذ لم يهتد لجوابه[٢].

وأبين من ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[٣]، فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدل

---

(١) سورة فصلت الآية: ١٣.

(٢) الواقعة وردت بروايات متعددة، والرواية كما أوردها «الكشاف» في تفسيره أوائل سورة «حم السجدة، أو فصلت» كما يلي:

«رُوي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلًا عالمًا بالسحر والشعر والكهانة فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره. فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد علمت السحر والشعر والكهانة، وعلمت من ذلك علمًا وما يخفى عليّ. فأتى عتبة رسول الله ﷺ فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ إن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فتكون رئيسنا، وإن كانت بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت. فلما فرغ عتبة من كلامه قال رسول اله ﷺ: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ إلى قوله تَعَالَى: ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم. ورجع إلى أهله ولم يرجع إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ. فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت. فغضب وأقسم ألا يكلم محمدًا أبدًا. ثم قال: والله لقد كلمته فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إن قال شيئًالم يكذب. فخفت أن ينزل بكم العذاب» «الكشاف» للزمخشري: (٣/٤٤٨).

(٣) سورة التوبة. بعض آية: ٦.

على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه.

فإن قيل: لو كان على ما كنتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا في عصر النبي ﷺ على طريقة واحدة في إسلامهم عند سماعه، **قيل**: لا يجب ذلك؛ لأن صوارفهم كانت كثيرة، منها أنهم كانوا يشكون: منهم مَن يشك في إثبات الصانع(١)، وفيهم مَن يشك في التوحيد(٢)، وفيهم مَن يشك في النبوة(٣)،

(١) هؤلاء هم الملاحدة الذين لا يؤمنون برب خالق لهذا الوجود، ويسمون لدى علماء الملل: «الدُّهريون» نسبة إلى «الدهر»، أخذًا من قوله - تَعَالَى - حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤]. وهذه الطائفة «الدهريون» كانت موجودة في جزيرة العرب تمثل كثرة.

(٢) وهؤلاء هم المشركون، وكان شكهم في التوحيد من حيث الألوهية. أي من حيث العبادة حيث كانوا يعبدون آلهة كثيرة مثل: (اللات، العزة، مناة، هبل) أما من حيث الربوبية فكانوا موحدين. أي مؤمنين بأن خالق الوجود واحد لا شريك له في الخلق. قال - تَعَالَى -: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥، والزمر: ٣٨].

وقد كانوا يعبدون الأصنام مع إيمانهم بأن الخالق المدبر واحد - سُبْحَانَهُ - زعمًا منهم أن الأصنام تقربهم إلى الخالق وتشفع لهم عنده، قال - تَعَالَى - حكاية عن عقيدتهم تلك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس عليه السلام: ١٨]، ويقول - تَعَالَى - مبينًا زعمهم أن الأصنام تقربهم إلى الله - سُبْحَانَهُ -: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

(٣) الذين كان يشكون في النبوة فريقان: فريق كان يشك في مبدأ النبوة، فهو لا يعتقد في بعثة الأنبياء إلى البشر، ويرفض المبدأ نفسه، ومن ثم فهو لا يؤمن بأي نبي. والفريق الثاني: يعتقد في مبدأ النبوة والأنبياء ويسلم به، ولكنه يشك في نبوة محمد ﷺ تحديدًا ويرفض الإيمان بها. وذلك لأسباب مختلفة. منها ما حكاه القرآن عن رفضهم الإيمان برسول الله ﷺ لفقره وقلة ماله، كما قال الله - تَعَالَى - حكاية عن هؤلاء: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].. يضاف إلى هذين النوعين أو الفريقين فريق ثالث لم يكن يشك =

ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء إلى رسول الله ﷺ ليسلم، عام الفتح، قال له النبي عليه السلام: **«أَمَا آنَ لك أن تشهد أن لا إله إلا الله»**، قال: بلى، فشهد، قال: **«أَمَا آنَ لك أن تشهد أني رسول الله؟»** قال: أما هذه ففي النفس منها شيء. فكانت وجوه شكوكهم مختلفة، وطرق شبههم متباينة، فمنهم مَن قَلَّتْ شبهُه، وتأمل الحجة حق تأملها، ولم يستكبر، فأسلم، ومنهم مَن كثرت شبهه، وأعرض عن تأمُّل الحجة حق تأملها، أو لم يكن في البلاغة على حدود النهاية، فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر واستبصر، وراعى واعتبر، واحتاج إلى أن يتأمل عَجْزَ غيره عن الإتيان بمثله، فلذلك وقف أمره، ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة، لتوافوا إلى القبول جملة واحدة.

فإن قيل: فكيف يعرف البليغ الذي وصفتموه إعجاز القرآن، وما الوجه الذي يتطرق به إليه، والمنهاج الذي يسلكه، حتى يقف به على جلية الأمر فيه؟

قيل: هذا سبيله أن يفرد له فصل. فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله، مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟ وهلا قلتم: إن مَن قدر على جميع هذه الوجوه البديعة، وتوجه من هذه الطرق الغريبة، كان على مثل نظم القرآن قادرًا، وإنما يصرفه الله عنه ضربًا من الصرف[1]، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربًا من المنع، أو تقصر دواعيه دونه مع

= في أن محمدًا ﷺ نبي صادق. لكنه كان يجحد ذلك حقدًا واستكبارًا. قال ـ تَعَالَى ـ مخاطبًا رسوله ﷺ في شأن هؤلاء: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

(١) يشير المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ إلى ما ذهب إليه بعض المبتدعة من أن القرآن العظيم ليس فوق مستوى البشر في البلاغة والفصاحة، وأن العرب كانوا قادرين في زمان نزول القرآن على الإتيان بمثله أو أبلغ منه، ولكن الله ـ تَعَالَى ـ منعهم عن معارضته أو الإتيان بمثله رغم مقدرتهم على ذلك، بأن صرف هممهم عن محاولة معارضته. وهذه هي معجزة القرآن أو هذا هو وجه إعجازه ـ في زعمهم ـ. فليس إعجاز القرآن في عدم مقدرة العرب عن معارضته بمثله، بل في صرف الله ـ تَعَالَى ـ همم العرب عن معارضته ومنعهم=

قدرته عليه، ليتكامل ما أراده اللَّه من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة؛ لأن مَن قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة. حتى يتكامل قدر الآية أو السورة؟

فالجواب: أنه لو صح ذلك، صح لكل مَن أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع من بيت، أن ينظم القصائد، ويقول الأشعار. وصح لكل ناطق، قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة، والرسائل العجيبة، ومعلوم أن ذلك غير سائغ، ولا ممكن.

على أن ذلك لو لم يكن معجزًا على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حطَّ من رتبة البلاغة فيه، ووضع من مقدار البلاغة في نظمه، أبلغ في الأعجوبة، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب. على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه، لم يكن مَن قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف، لأنهم لم يتحدوا إليه، ولم تلزمهم حجته. فلما لم يوجد في كلام مَن قبله مثله، علم أن ما ادعاه القائل بالصرف ظاهر البطلان[1].

= من ذلك. وهذا المذهب معروف لدى العلماء بمذهب «الصَّرفة» في إعجاز القرآن، وقد رد المؤلف الفاضل على هذا الزعم ردودًا موفقة في الفقرة التالية.

(١) يرد المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ على أصحاب مذهب «الصرفة» في إعجاز القرآن. وجملة رده في أمرين: الأول: أنه لو كان إعجاز القرآن في أن اللَّه ـ تَعَالَى ـ صرف همم العرب ومنعهم من معارضته والإتيان بمثله رغم قدرتهم على ذلك؛ لما كان هناك داع إلى أن يأتي اللَّه ـ تَعَالَى ـ بالقرآن في المرتبة العليا من البلاغة والفصاحة لأن ذلك قد يشكك في قضية الصرفة، وقدرة اللَّه ـ تَعَالَى ـ على منعهم، بأن يقال: إنهم امتنعوا لعجزهم وليس لصرف اللَّه إياهم، وكان الأولى أن ينزل اللَّه ـ تَعَالَى ـ القرآن في أدنى مرتبة من البلاغة، وأحط منزلة من الفصاحة، بحيث يكون في قدرة الفاغة والضعفاء في العربية أن يأتوا=

وفيه معنى آخر: وهو أن أهل الصنعة في هذا الشأن إذا سمعوا كلامًا مطمعًا لم يخف عليهم، ولم يشتبه لديهم. ومَن كان متناهيًا في فصاحته لم يجز أن يطمع في مثل هذا القرآن بحال.

فإن قال صاحب السؤال: إنه قد يطمع في ذلك. قيل له: أنت تزيد على هذا، فتزعم أن كلام الآدمي قد يضارع القرآن وقد يزيد عليه في الفصاحة، ولا يتحاشاه، ويحسب أن ما ألفه في الجزء وفي الطفرة هو أبدع وأغرب من القرآن لفظًا ومعنًى، ولكن ليس الكلام على ما يقدره مقدِّر في نفسه، ويحسبه ظان في أمره، والمرجع في هذا إلى جملة الفصحاء، دون الآحاد.

ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ، وتميزه في ذلك من سائر أجناس الخطاب، ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ، بَيِّن الغلط، وأن هذا التقدير من جنس مَن حكى اللَّه ـ تَعَالَى ـ قوله في محكم كتابه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾(١)، فهم يعبرون عن دعواهم أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله بأن ذلك من قول البشر؛ لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل إلى الحد الذي يتجاوز إمكان معارضته.

* * *

= بمثله. ثم يمنعهم ـ رغم ذلك ـ عن الإتيان بمثله ومعارضته. هنا يكون أثر الصرفة أو منع اللَّه ـ تَعَالَى ـ إياهم واضحًا بينًا. الثاني: أننا لو سلمنا بأن العرب الذين أنزل القرآن في عصرهم لم يأتوا بمثل القرآن لأنهم كانوا مصروفين بصرف اللَّه إياهم، فلم لم نجد في أشعار أسلافهم وأقوالهم المأثورة ما يماثل القرآن أو يقاربه؟ هل كان أسلافهم ـ أيضًا ـ مصروفين ممنوعين قبل أن ينزل القرآن؟ إن عجز السابقين واللاحقين دليل على أن الإعجاز ليس بالصرفة أو المنع ـ كما زعموا ـ ولكن لأن القرآن كلام اللَّه ـ تَعَالَى ـ لا يستطيعه أحد من خلقه.

(١) سورة المدثر. الآيات: ١٨ ـ ٢٥.

ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة: أنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزًا، وإنما يكون المنع معجزًا، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه.

وليس هذا بأعجب مما ذهب فريق منهم: أن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب، لو تعلموه لوصلوا إليه به.

ولا بأعجب من قول فريق منهم: إنه لا فرق بين كلام البشر وكلام اللَّه - تَعَالَى - في هذا الباب، وإنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد(١).

* * *

فإن قيل: فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام اللَّه ﷻ معجز، كالتوراة والإنجيل والصحف؟

قيل: ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزًا كالقرآن فيما يتضمن الإخبار بالغيوب، وإنما لم يكن معجزًا؛ لأن اللَّه - تَعَالَى - لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأنَّا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن، ولمعنى آخر وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز، ولكنه يتقارب. وقد

---

(١) يشير المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - إلى مذاهب أخرى جاء بها المبتدعة حول إعجاز القرآن المجيد. فذكر أنه من هؤلاء مَن زعم أن العرب جميعهم قادرون على الإتيان بمثل القرآن من حيث اللغة وتصاريفها، ولكن الذي يعجزهم إنما هو النظام القرآني في ترتيب الجمل وتنسيق الآي. ولو علموا ذلك لجاءوا بمثل القرآن خواصهم وعوامهم على ذلك سواء. ثم ذكر أن من هؤلاء مَن زعم أن قضية الإعجاز مطروحة في كلام البشر كما هي في كلام اللَّه القرآن، فمن البشر مَن يستطيع أن يؤلف كلامًا لم يأت القرآن بمثله، كما أن في القرآن كلامًا لم يأت البشر بمثله، ويصح أن يكون المراد أن كل واحد من البشر قادر على أن ينظم كلامًا يتحدى به الآخرين ويعجزهم عن الإتيان بمثله، كما وقع ذلك في القرآن.

رأيت أصحابنا يذكرون هذا في سائر الألسنة، ويقولون ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب.

ويمكن بيان ذلك[١] بأنا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة (العربية)، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات ووجوه الاستعمالات البديعة التي يجيء تفصيلها بعد هذا[٢].

ويشهد لذلك من القرآن أن اللَّه ـ تَعَالَى ـ وصفه بأنه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[٣]، وكرر ذلك في مواضع كثيرة وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميًّا، فلو كان يمكن في لسان العجم إيراد مثل فصاحته لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة، وأنه وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله: «**إنه عربي مبين**» أنه مما يفهمونه، ولا يفتقرون فيه

---

(١) أي قلة تصاريف الكلام في اللغات الأخرى إلى الحد الذي يجعل التفاوت في وجوه الفصاحة لدى الناطقين بها ضيقًا وغير ذي بال.

(٢) من أوضح الأدلة على تميز اللغة العربية وتفردها من بين اللغات جميعها في ثرائها وكثرة تصريفاتها وشدة التفاوت بين ألسنة الناطقين بها؛ التنافس الشديد بين العرب فيما يتصل بطرق استعمالاتها شعرًا ونثرًا، والاهتمام الذي ليس له مثيل في السابقين واللاحقين بالبراعة فيها، إلى الحد الذي كان شرف القبيلة ومجدها يتوقف على براعة شاعرها، مما جعل القبيلة تقيم الولائم وتنحر الذبائح حيث ظهر فيها شاعر مجيد، وقد ينقذ بيت من الشعر يقوله شاعر مجيد قبيلة مما لحق بها من خزي وعار. كما لحق بقبيلة تسمى «أنف الناقة» من خزي بسبب ذلك الاسم الذي كان مثار السخرية بها. حتى جاء أحد الشعراء فأنقذها ببيت يقول فيه:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومَن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فكان هذا البيت مثار أفراح وولائم أقامتها هذه القبيلة، وهل سمع أحد في لغة من اللغات أن أقيمت أسواق ليس فيها بيع ولا شراء ولا منافسة إلا للغة واستعمالاتها وتصاريفها شعرًا ونثرًا، سوى ما كان عند العرب؟

(٣) سورة الشعراء. الآية:١٩٥.

إلى الرجوع إلى غيرهم، ولا يحتاجون في تفسيره إلى مَن سواهم، فلا يمتنع أن يفيد ما قلناه أيضًا، كما أفاد بظاهره ما قدمناه.

ويبين ذلك أن كثيرًا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة، وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع في العربية.

ومعنى آخر: وهو أنا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم(١)، ولا ادعى لهم المسلمون، فعلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن.. ويبيّن هذا أن الشعر لا يتأتَّى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية، وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية، وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي يتبين فيها الفصاحة على ما يأتي في العربية.

فإن قيل: فإن المجوس تزعم أن كتاب زرادشت(٢)، وكتاب ماني(٣) معجزان، قيل: الذي يتضمنه كتاب ماني من طريق النيرنجات(٤) وضروب من الشعوذة(٥)، ليس يقع فيها إعجاز. ويزعمون أن في الكتاب الحكم، وهي حكم

---

(١) واضح أن العبارة لا تستقيم كما هي مكتوبة. ولعل هناك سقطًا في الكلام، ولعل العبارة: «.. وهو أنا لم نجد أحدًا من أهل التوراة أو أهل الإنجيل ادعى الإعجاز لكتابه».

(٢) زرادشت: مصلح اجتماعي فارسي. كانت له نظرات وآراء أراد بها إصلاح مجتمعه - من وجهة نظره -، تحولت آراؤه إلى ديانة لدى أتباعه سميت «الزرادشتية» وقد عاش زرادشت حوالي القرن الخامس قبل الميلاد.

(٣) ماني: فيلسوف فارسي جاء بتعاليم زعم أن فيها إصلاح المجتمعات والقضاء على ما فيها من عداوات وحروب. ولكنه فشل. وخلف مذهبًا ينسب إليه اسمه: (المانوية).

(٤) النَّيرَنْجَاتُ: نوع من التخييل والإيهام يزاوله بعض مَن يوهمون الناس أنهم سحرة. والنيرنجات ليس سحرًا ولا يدخل في بابه، لكنه تلبيس على الناس عن طريق الحيل والإيماءات.

(٥) الشَّعْوَذَة، ويقال أيضًا: الشَّعْبَذَة: خفة في اليد وسرعة في الحركة مع استعمال بعض=

منقولة متداولة على الألسن، لا تختص بها أمة على أمة، وإن كان بعضهم أكثر اهتمامًا بها، وتحصيلًا لها، وجمعًا لأبوابها.

وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة[(١)] وهما كتابان: **أحدهما** يتضمن حكمًا منقولة، توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل، فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى. **والآخر**: في شيء من الديانات، وقد تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل. وكتابه الذي بيناه في الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة، فأي صنع له في ذلك، وأي فضيلة حازها فيما جاء به؟

وبعد؛ فليس يوجد له كتاب يدَّعي مُدَّعٍ أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره، فإن كان كذلك فقد أصاب، وأبصر القصد. ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء، ثم يلوح له رشده، ويبين له أمره، وينكشف له عجزه، ولو كان بقي على اشتباه الحال

= الأشياء المساعدة مما يخيل للناس بوقوع أشياء عن طريق الوهم والتخييل، ويغلب أن يكون تأثير المشعوذين منصبًا على مَن يحضرهم، فيوقعونه تحت تأثيرهم ويجعلونه يرى ما يريدون هم أن يراه، وإن كان غير حقيقي.

(١) هناك سقط في الكلام؛ لأن المذكور كتاب واحد، بينما الإحالة بعد ذلك إلى كتابين. والمعروف أن ابن المقفع كان من أبلغ أهل زمانه، وكان فارسيًّا شعوبيًّا. أي ممن يكره العرب ويتعصب ضدهم. وقد كانت براعته في العربية وثناء أهل زمانه عليه في ذلك سببًا في اغتراره بنفسه، إلى الحد الذي زعم أن بإمكانه معارضة القرآن بمثله، وقد قيل إنه ألف كتبًا كثيرة لتحقيق هذا الغرض الخبيث لديه، من ذلك - فيما نقل - كتاب «الأدب الصغير» الذي قيل له حين ألفه: إنه ليس له حلاوة القرآن. فقال: دعوه تلوكه الألسن مثل الزمان الذي لاكت الألسن القرآن وسترون آنذاك حلاوته. وقد أخزاه اللَّه وقبيله فسقطت مزاعمه لديه هو قبل غيره، لأن معرفته بالعربية وفنونها جعلته يدرك قبل غيره أن ما فعله مجرد عبث لا طائل وراءه.

عليه، لم يخف علينا موضع غفلته، ولم يشتبه لدينا وجه شبهته(١). ومتى أمكن أن تدعي الفرس في شيء من كتبهم أنه معجز في تأليفه وعجيب نظمه؟

* * *

فصل

في جملة وجوه إعجاز القرآن

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاث أوجه من الإعجاز:

أحدهما، يتضمن الأخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه.

فمن ذلك ما وعد اللَّه ـ تَعَالَى ـ نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾(٢)، ففعل ذلك، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم اللَّه من إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل كذلك في أيامه، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه(٣)، فكان سعد بن أبي وقاص ـ رحمه اللَّه ـ وغيره من أمراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لأصحابه، ويحرضهم به ويوثق لهم، وكانوا يلقون الظفر

---

(١) المؤلف الفاضل يأخذ موقع المدافع عن ابن المقفع في دعوى معارضته القرآن ببعض كتاباته. ويقول بأن ليس للمقفع كتاب في هذا القبيل، ولو فرض وكان له اشتغال بمثل هذا الغرض؛ فلعل ذلك كان لفترة في حياته اشتبه عليه أمر إعجاز القرآن فيها، ثم اتضحت له حقيقة إعجازه فرجع عن ذلك. ولو كانت له كتابات في هذا المجال ما خفي علينا أمرها، وكنا قد استطعنا أن نرد عليه ونفند مزاعمه فيها.

(٢) سورة التوبة. الآية: ٣٣، وسورة الصف. الآية: ٩.

(٣) أي حتى أخذ قواد جيشه عنه هذه الطريقة. فكانوا يعرفون جنودهم وعد اللَّه بالنصر. كما كان عمر رضي الله عنه يعرفهم ذلك.

في مواجهاتهم، حتى فتح إلى آخر أيام عمر ﷺ إلى بلخ(١) وبلاد الهند، وفتح في أيامه مَرْوَ والشاهجان ومرو الروذ، ومنعهم من العبور بجيحون(٢).. وكذلك فتح في أيامه فارس إلى اصطخر وكرمان ومكران وسجستان، وجميع ما كان من مملكة كسرى(٣) وكل ما كان يملكه ملوك الفرس بين البحرين(٤) من الفرات(٥) إلى جيحون: وأزال ملك ملوك الفرس، فلم يعد إلى اليوم، ولا يعود أبدًا إن شاء الله ـ تَعَالَى ـ، ثم إلى حدود أرمينية(٦) وإلى باب الأبواب(٧)، وفتح ناحية الشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر، وأزال ملك قيصر عنها، وذلك من الفرات إلى بحر مصر، وهو ملك قيصر، وغزت الخيول في أيامه إلى عمورية فأخذ الضواحي كلها، ولم يبق دونها إلا ما حجز دونه البحر، أو حال عنه جبل منيع، أو أرض خشنة، أو بادية غير مسلوكة.

وقال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾(٨)، فصدق فيه، وقال في أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾(٩)، ووفَّى لهم بما وعد.

وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الأخبار عن الغيوب يكثر جدًّا، وإنما

---

(١) بلخ. من بلاد فارس. وهي أشهر بلاد خراسان، تقع قريبا من مدينة كابل عاصمة أفغانستان. ويمر بها نهر جيحون.

(٢) نهر كبير مشهور، يمر بالكثير من أقاليم فارس، ويصب في بحر قزوين.

(٣) كل البلاد المذكورة هي من أعمال إقليم فارس الذي كان في ذلك الوقت تحت حكم كسرى ثم قوضه المسلمون واستولوا عليه بفضل الله ـ سُبْحَانَهُ ـ.

(٤) إمارة البحرين حاليا. وكانت أيام الفتح الإسلامي تحت ملك كسرى.

(٥) النهر المشهور بالعراق. يوازي في جانب كبير منه نهر دجلة ويصبان في مصب مشترك. ويحصران فيما بينهما أرض الجزيرة بالعراق.

(٦) أحد أقاليم بلاد فارس. وهو محصور بين بحر قزوين والبحر الأسود.

(٧) مدينة القسطنطينية، سميت بذلك لأنها المفتاح إلى ما حولها من أصقاع.

(٨) سورة آل عمرأن. الآية:١٢.

(٩) سورة الأنفال. بعض آية:٧.

أردنا أن ننبه بالبعض على الكل[١].

والوجه الثاني، أنه كان معلومًا من حال النبي ﷺ أنه كان أميًا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ[٢]. وكذلك كان معروفًا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئًا من

---

(١) إخبار القرآن العظيم عن الغيوب نوعان:
الأول: إخبار عن الغيوب الماضية. والمقصود بذلك ما مضى من أخبار الأمم الماضية والممالك الغابرة، وتفاصيل حياتهم، وسيرهم مع أنبيائهم، وما جرى لهم.. ويدخل في ذلك قصص الأنبياء من لدن أبي البشر آدم حتى آخرهم قبل رسول الله ﷺ عيسى بن مريم عليه السلام كل هذه غيوب لم يكن رسول الله ﷺ يعرف عنها شيئا. بل ولم يكن لدى غيره عنها إلا شذرات قليلة تصيب فيما ندر، وتخطئ فيما شاع وكثر، وليس لأحد أن يتهم الرسول ﷺ بأنه أخذ أخبار الماضين عن توراة اليهود أو أناجيل النصارى أو حكايات هؤلاء وأولئك. وذلك لأمرين: أولا: أن رسول الله ﷺ لم يكن يقرأ ولا يكتب؛ ولم يجلس إلى معلم، ولم يأخذ عن قصاص. وثانيا: أن ما جاء به القرآن الكريم من أخبار الماضين اختلف كثيرا وجوهريا مع الروايات التي وردت في كتب اليهود والنصارى، والتي قصتها مروياتهم، وقد نبه المؤلف الفاضل إلى الأمر الأول، وأغفل عن الثاني.
النوع الثاني: إخبار عن الغيوب المستقبلة. وقد عنى المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ بها في هذه الفقرة. كما عنى بالغيوب الماضية في الفقرة التالية. ومن الغيوب المستقبلة التي لا تغفل في هذا المجال، ما وقع من انتصار الفرس على الروم في عهد الرسول ﷺ بمكة. وقد فرح المشركون لأنهم تجمعهم مع الفرس عبادة الوثنية، وقد حزن رسول الله ﷺ وأصحابه لانتصار الوثنية على أهل الكتاب وهم الروم، ونزل قول الله ـ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى ـ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ ففرح المسلمون.. وقد تحقق هذا الوعد وانتصر الرومان على الفرس.

(٢) عبارة المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ توهم أن رسول الله ﷺ كان لا يكتب ألبته، ولا يقرأ قراءة جيدة. فهي توهم أنه كان يقرأ، لكن ليس بصورة حسنة وذلك غير صحيح، فإن رسول الله ﷺ ما كان يقرأ ولا يكتب ألبتة. كما قال عنه القرآن المجيد: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾. والأفضل أن تكون عبارة المؤلف، أنه ﷺ: «كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ» بدلًا من قوله: «كان أميًا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ».

كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجملة ما وقع وما حدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام، وابتداء خلقه، وما صار إليه أمره من الخروج من الجنة، ثم جملة من أمر ولده[١]، وأحواله وتوبته[٢]، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى إليه أمره، وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام، إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين في القرآن، والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ.

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم، وإذا كان معروفًا أنه لم يكن ملابسًا لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا مترددًا إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي، ولذلك قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾[٣]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾[٤]. وقد بينا أن مَن كان يختلف إلى تعلم علم، ويشتغل بملابسة أهل صنعة، لم يخف على الناس أمره، ولم يختلف عندهم مذهبه، وقد كان

---

(١) يشير المؤلف إلى قصة ابني آدم وما جرى بينهما مما أوردته سورة المائدة من قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ...﴾ الآيات من: ٢٧ ـ ٣١.

(٢) يشير إلى ما وقع من آدم عليه السلام من الأكل من الشجرة التي نهاه الله ـ تَعَالَى ـ عن الأكل منها. وبعد أن أكل منها وأحس بذنبه ندم وأراد أن يتوب إلى ربه من ذنبه، لكنه عليه السلام لم يكن يدري كيف يتوب؟ فأوحى الله ـ تَعَالَى ـ إليه بكلمات التوبة، فلما قالها هو وزوجه تاب الله عليهما.
يقول ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] وكلمات التوبة هي ما ورد في سورة الأعراف: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: [الآية:٢٣].

(٣) سورة العنكبوت. الآية: ٤٨.

(٤) سورة الأنعام. بعض الآية: ١٥٠.

يعرف فيهم مَن يحسن هذا العلم وإن كان نادرًا، وكذلك كان يعرف مَن يختلف إليه للتعليم، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومتعلمها، فلو كان منهم لم يخف أمره.

والوجه الثالث، أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة(١).

ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل، ونكشف الجملة التي أطلقوها. فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه:

منها: ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم. وله أسلوب يختص به ويتميز عن أساليب الكلام المعتاد. وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفًّى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إسالًا فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة، على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلًا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمَّل ولا يتصنَّع له. وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطُرق، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه، وكذلك من قبيل الشعر؛ لأن من الناس مَن زعم أنه كلام مسجع، ومنهم مَن يدعي أن فيه شعرًا كثيرًا، والكلام عليهما يذكر بعد هذا الموضع، فهذا إذا تأمله المتأمل، تبين - بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم - أنه خارج عن العادة، وأنه معجز، وهذا خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه.

ومنها: أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف

(١) أي أن العلماء حين قالوا: إن القرآن معجز. أرادوا بإعجازه جملة الأمور التي ذكرها وهي: (بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة) وهذه الأمور المجملة هي ما سوف يفصله بعد.

البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويقع فيه ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبًا مع الفصاحة، على ما وصفه الله ـ تَعَالَى ـ به، فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].. فأخبر أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت، وبان عليه الاختلال، وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره، فتأمله تعرف الفضل.

* * *

(١) سورة الزمر. بعض آية: ٢٣.
ومعنى قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي يشبه بعضه بعضا في الحسن والإعجاز وأخذ الخلق إلى طريق الهداية.
والوصف بالمتشابه هنا يختلف عن الوصف بالمتشابه في الآية السابقة من [آل عمران: ١]: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾. فإن وصف القرآن بالمتشابه في آية الزمر أن شامل لجميع آياته. والوصف في آل عمران لبعض آياته، وهي قليلة في القرآن العظيم، وكذلك معنى المتشابه في الزمر أن آيات القرآن تمثل قمة عالية في البلاغة والجزالة وإرشاد الخلق إلى الحق على ما بينا. وأما في آل عمران فيقصد بالمتشابه ما ظهر المعنى في الآية وخفي الكيف. من مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ فإن الاستواء معلوم. ولكن الكيف مجهول. وعلى المسلم أن يفوض الكيف إلى علم الله ـ تَعَالَى ـ مع القطع بمخالفته لجميع الكيفيات التي عليها الخلائق.
(٢) سورة النساء. بعض الآية: ٨٢.

وفي ذلك[١] معنى ثالث: هو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وأعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور.

فمن الشعراء مَن يجود في المدح دون الهجو، ومنهم مَن يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم مَن يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم مَن يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم مَن يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر، ويتداوله الكلام. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب[٢]، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام، ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم؛ لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر، ولاشك في تبريزهم في مذهب النظم. فإذا كان الاختلال بيِّنًا في شعرهم، لاختلاف ما يتصرفون فيه، استغنينا عن ذكر مَن هو دونهم، وكذلك يُستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها.

ثم نجد في الشعراء مَن يجود الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلًا، ومنهم مَن

---

(١) الإشارة إلى ما ذكره قبل ذلك من: بديع النظم، وعجيب التأليف والتناهي في البلاغة.

(٢) تدور الرواية في كتب الأدب حول خمسة، مع تقديم وتأخير، وحذف البعض وإضافة البعض. فالثلاثة الذين ذكرهم المؤلف: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، يضاف إليها: عنترة إذا كلب، والأعشى إذا طرب.

ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما تكلفه أو عمله، ومن الناس يجود في الكلام المرسل فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانًا عجيبا، ومنهم من يجود بضد ذلك.

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف،لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر؛ لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار، وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب[1].

* * *

ومعنى رابع: وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بينًا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع. ألا ترى أن كثيرًا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه، حتى أن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى - مع جودة نظمه وحسن وصفه - فى الخروج من النسب الى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتى فيه بشيء. وإنما اتفق له فى مواضع معدودة خروج يرتضى، وتنقل يستحسن. وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب إلى باب. ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة، ونبين أن القرآن - على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة - يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين

(١) بين المؤلف ذلك بإجمال في الفقرات السابقة مباشرة، لكنه يأتي بعد ذلك فيفصل ما أجمله ويوضحه.

كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد[١]. وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج به الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف.

* * *

ومعنى خامس: وهو أن نظم القرآن وقع موقعًا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس والجن، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا، وقد قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[٢]

فإن قيل: هذه دعوى منكم، وذلك أنه لاسبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن مثله، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله، وإن كنا عاجزين. كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة، وأسباب غامضة دقيقة، لا نقدر نحن عليها، ولا سبيل لنا للطفها[٣] إليها. وإذا كان كذلك لم يكن إلى علم ما ادعيتم سبيل.

قيل: قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله ﷻ، وقد يمكن أن يقال: إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن، وما يروون لهم من الشعر، ويحكون عنهم من الكلام، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول عنهم، والقدر الذي نقلوه قد تأملناه، فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس، ولعله يقصر عنها، ولا يمتنع أن يسمع الناس كلامهم، ويقع بينهم وبينهم

---

(١) أي يجعل المتنافر في الأفراد متقاربا متماثلا كأنه عن شيء واحد وليس عن أشياء. وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٤٠]. وأمثال ذلك في القرآن مما لا يحصى.

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٨٨.

(٣) أي لدقتها وخفائها.

محاورات في عهد الأنبياء صلوات اللَّه عليهم، وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات(١)، علي أن القوم إلىٰ الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان، ولهم أشعار محفوظة، مروية في دواوينهم، قال تأبط شرًّا(٢):

وأدهم قد جبتُ جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيعلا(٣)
إلي أن حدا الصبح أثناءه ومزق جلبابه الأَلْيَلا(٤)
علي شيم نار تنوَّرتُها فبت لها مدبرًا مقبلا(٥)
فأصبحت والغول لي جارةٌ فيا جارتا أنت ما أهولا(٦)
وطالبتها بضعها فالتوت بوجه تهوَّل واستغولا(٧)
فمن سال أين ثَوَتْ جارتي فإن لها باللوى منزلا(٨)

(١) أي في حياة الأنبياء ـ صلوات اللَّه عليهم ـ، فإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ يظهر على أيديهم المعجزات التي هي نقض للعادة وخرق للقوانين التي ألفها الناس.
(٢) شاعر جاهلي مجيد في شعره. كثر تناوله الحديث عن الغيلان في شعره.
(٣) الأدهم: الأسود اللون. وهو هنا الليل.وجلباب الليل ظلامه.الكاعب: الفتاة التي بدا ثدياها في الظهور. والخيعل: الثوب المشقوق الجانبين. أو الذي خيط جانب منه وترك ألآخر.. يقول: رب ليل مظلم قد جال فيه غير خائف فاحتواه ظلام الليل كما احتوى الثوب الفتاة.
(٤) حدا: أي جاء. الأليل: شديد الظلمة. أي: إلي أن ظهر الصباح وأضاء ظلام الليل.
(٥) شام الشيء: تطلع نحوه في ترقب. وتنورتها: رأيتها من بعيد وتتبعتها. أي: رأى نارا بعيدة فأخذ يدور حولها تارة مقبلا وتارة مبتعدا.
(٦) يقول: بعد أن طلع النهار نظر حول النار فوجد الغول بائتة بجواره طوال الليل، وشكلها مفزع.
(٧) يقول: أنه طلب من «الغول» أن يجامعها فغضبت وازداد شكلها هولا وأضحت أكثر فزعا.
(٨) يقول: إذا سألني سائل أين تعيش تلك الغول. قلت له: إن لها منزلا باللوى. واللوى: كثبان الرمال الملتوية في الصحراء.

وكنت إذا ما هممت اعتزمت وأحـر إذا قـلـت أن أفـعـلا(١)

● وقال أخر:

عشوا ناري فقلت مَنُون أنتم فقالوا الجن قلت عموا ظلاما(٢)

فقمت إلي الطعام، فقال منهم زعيم يحسد الإنس الطعاما(٣)

ويذكرون لامرئ القيس قصيدة مع عمرو الجني، وأشعارًا لهما كرهنا ذكرها لطولها.. وقال عبيد بن أيوب:

فـلـلَّـه دَرُّ الـغـول أي رفيقـة لصاحب قفرٍ خائف يتقفر(٤)

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حواليَّ نيرانًا تبوخ وتزهر(٥)

وقال ذو الرمة بعد قوله:

قد أعسف النازحُ المجهولُ معسفَهُ في ظلِّ أخضرَ يدعو هامَهُ البومُ(٦)

---

(١) يمدح نفسه بالشجاعة بعد أن حكى واقعته مع الغول. فيقول: إنه إذا نوى على شيء نفذه دون تردد، وأنه إذا قال فعل.

(٢) عشوا ناري: أي أقبلوا عليها من بعيد. و«منون» جمع من الاستفهامية. على غير قياس، فإنها لا تجمع؛ لأنها على صيغة واحدة للمفرد والجمع. وعموا ظلاما: تحية منه للجن. مثل قول العرب: عموا مساء. يقول بأنه نزل نُيلا في سفر وأوقد ناره فإذا حول النار عدد كبير. فسألهم من أنتم؟ قالوا: نحن الجن. قال عموا ظلاما. ولم يقل مساء لأن الجن حياتهم ونشاطهم في الظلام.

(٣) يقول: إنه قام إلى طعامه ليأكل. فقال زعيم الجن المجتمعين حول ناره وهو يتشوف إلى طعامه ويحسده عليه. وقد وقف حديث المؤلف في هذا الشعر عند هذا البيت. فلم يذكر ماذا قال زعيم الجن للشاعر.

(٤) القفر: الصحراء المجدبة لا ماء ولا نبات. والمتقفر: الذي يمشي في القفر.

(٥) اللحن: صوت الغناء. وتبوخ وتزهر. أي ترتفع وتخبو. يثني الشاعر على إحدى الغيلان التي أدركته في صحراء مقفرة خائفا، فأوقدت له النار وانسته بالغناء.

(٦) أعسف: تنكب الطريق ومال عنه. والأخضر هنا: سواد الليل. والبوم: طائر معروف،=

للجنِّ بالليل في حافاتها زجلٌ كما تناوح يومَ الرِّيحِ عَيْشُوم(١)
دوية ودجا ليلٍ كأنهما يَمٌّ تراطَنَ في حافاتِهِ الرُّوم(٢)

وقال أيضًا:

وكم عرست بعد النوى من مُعَرَّس لها من كلام الجن أصوات سامر(٣)

وقال:

ورمل عزيف الجن في عَقَبَاته هزيز كتضراب المغنين بالطبل(٤)

= والهام، والهامة، أرواح القتلى الذين لم يؤخذ بثأرهم تتحول إلي طير أسود يطوف بالليل وينادى نداء البوم يطلب الأخذ بثأره، هكذا كانت تزعم العرب، فلما جاء الإسلام أبطل هذه الخرافة. وقال رسول اللَّه صلي اللَّه عليه وسلم في الحديث الصحيح: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة..**» الحديث. يقول الشاعر: إنه ضل طريقه في صحراء شاسعة في ليل مظلم تتجاوب فيه أصداء البوم والهامة، أي أرواح القتلى - في زعمهم -.

(١) حافاتها: جنباتها وأنحائها. زجل: أصوات مرتفعة وضوضاء. والتناوح: التمايل والاصطدام. والعيشوم: الشجر الذي انتشر جفاف فروعه، والنبات الكثير الملتف. يقول: إن أصوات الجن وضوضاءها في تلك الصحراء كانت تشبه أفرع الأشجار الجافة التي تصطدم بفعل الرياح الشديدة.

(٢) الدوية: الفلاة - والدجا: الظلام الحالك. واليم: البحر. والرطانة: رفع الصوت بكلامهم لا يفهم يشبه أصوات الجن وضوضاءها في الصحراء بجماعه من الروم يرطنون بلغتهم التي لا يفهمها وقد ركبوا وسط اليم فاختلطت أصوات الموج برطانتهم.وذو الرمة قائل هذه الأبيات هو: غيلان بن عقبة من بني صعب بن مالك ابن عدى بن عبد مناة، ويكنى: أبا الحارث.

(٣) التعريس:النزول في آخر الليل للاستراحة بعد تعب المسير. والمعرس: مكان التعريس. والنوى: البعد، والانتقال من مكان إلى آخر. والسامر: مجلس السمار أو السمار أنفسهم. يقول: بأن ناقته وقفت للراحة من آخر الليل بعد مسيرها طوال الليل والانتقال من مكان إلى مكان. وكان الجن الذين يسكنون المكان الذي عرست فيه يصدرون أصواتا حسبتها الناقة أصوات السمار. أي القوم الذين جلسوا يتسامرون.

(٤) العزيف صوت العود، وصوت القوس، وصوت الريح. والمراد هنا: صوت الجن. والعقبة: الشيء الصعب. والمراد هنا: المراقى الصعبة من الرمال والجبال. والهزيز: الصوت الشديد، =

وإذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم، ويحكون عنهم، وذلك القدر المحكي لا يزيد أمره على فصاحة العرب، صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه، كعجز الإنس. ويبين ذلك من القرآن أن الله ـ تَعَالَى ـ حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1] إلى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه، فإذا ثبت أنه وصف كلامهم، ووافق ما يعتقدونه من نقل خطابهم، صح أن يوصف الشيء المألوف بأنه ينحط عن درجه الفصاحة.

وهذان الجوابان[2] أسدُّ عندي من جواب بعض المتكلمين عنه: بأن عَجْزَ الإنس عن القرآن يثبت له حكم الإعجاز، فلا يعتبر غيره، ألا ترى أنه لو عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه، فقال لنا قائل: فدلوا على أن الملائكة تعجز عن الإتيان بمثله، لم يكن لنا في الجواب غير هذا الطريقة التي قد بيناها.

وإنما ضعفنا هذا الجواب؛ لأن الذي حكي وذكر، عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله، فيجب أن نعلم عجز الجن عنه، كما علمنا عجز الإنس عنه، ولو كان وصف عجز الملائكة عنه، لوجب أن نعرف ذلك أيضًا بطريقه.

فإن قيل: أنتم قد انتهيتم إلى ذكر الإعجاز في التفاصيل، وهذا الفصل إنما يدل على الإعجاز في الجملة. قيل: هذا كما أنه يدل على الجملة، فإنه يدل على التفصيل أيضًا، فصح أن يلحق هذا القبيل، كما كان يصح أن يلحق بباب

= وصوت الريح وصفيرها. والتضراب: الضرب الشديد.

(١) سورة الاحقاف. الآية:٢٩

(٢) الجوابان المشار إليهما هم:

أ ـ إخبار الله عَجَلَّ في كتابه الكريم أن الجن لا تستطيع أن تأتي بمثل القرآن. في قوله ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨].

ب ـ ما حكاه الشعراء من كلام الجن ومخاطبتهم، مما يدل على أنهم مثل الإنس في عجزهم عن معارضة القرآن.

الجمل.

* * *

ومعنى سادس: وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب: من البسط والاقتصاد والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح والتجوُّز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم، موجود في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة. وقد ضمنا بيان ذلك بعد؛ لأن الوجه ههنا ذكر المقدمات دون البسط والتفصيل(١).

ومعنى سابع: وهو أن ورود تلك المعاني التي تتضمن في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر، ويمنع ذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة. فلو برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر والأمر المتقرر المتصور، ثم إن انضاف إلى ذلك التصرف البديع، في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يُبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه، بان التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما علي الآخر، فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم(٢).

* * *

ومعنى ثامن: وهو أن الكلام يبين فضله، ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذه الأسماع، وتتشوف إليه النفوس، ويرى وجه رونقه باديًا غامرًا سائر ما يقرن به، كالدرة التي ترى في

---

(١) لا يخفى على فطنة القارئ أن هذا الوجه هو تفصيل لبعض ما يتناوله الوجه الثالث الذي مر الكلام عليه.

(٢) وهذا الوجه ـ أيضًا ـ تفصيل لما أجمل في الوجه الثالث.

سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد. وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي علي نفسه بتميزه وتخصصه، برونقه وجماله، واعتراضه في جنسه ومائه(١).

وهذا الفصل أيضًا مما يحتاج فيه إلي تفصيل وشرح ونص، ليتحقق ما ادعيناه منه؛ ولولا هذه الوجوه التي بيناها لم يتحير فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التعمل للمقابلة، والتصنع للمعارضة، وكانوا ينظرون في أمرهم يراجعون أنفسهم، أو كان يراجع بعضهم بعضًا في معارضته، ويتوقفون لها. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور، لعلمهم بعجزهم عنه، وقصور فصاحتهم دونه، ولا يمتنع أن يلتبس على مَن لم يكن بارعًا فيهم ولا متقدمًا في الفصاحة منهم هذه الحال(٢)، حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل، حتى يعرف حال عجز غيره، إلا أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا، ولم يشتغلوا بذلك، تحققًا بظهور العجز، وتبينًا له.

وأما قوله ـ تَعَالَى ـ حكاية عنهم: ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾(٣)، فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم، وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم وهو يدل على عجزهم، ولذلك أورده اللَّه مورد تقريعهم؛ لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز، والضمان إلى الوفاء، فلما لم يستعملوا ذلك مع استمرار التحدي، وتطاول زمان الفسحة في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه، علم عجزهم، إذ لو كانوا قادرين على ذلك

(١) أي: وأصله.

(٢) أي: امتناع الفصحاء عن معارضته. وحاصل كلام المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ، أن الفصحاء لمعرفتهم فنون الكلام يدركون أن القرآن معجز ولا سبيل إلى معارضته فيسلمون القياد، وأما غير البارعين في العربية قد يظنون ـ لجهلهم باللغة وتصاريفها ـ أن القرآن يمكن معارضته، فيعجبون لتقاعس الفصحاء عن معارضته، وربما حاولوا هم معارضته، وهذا وذاك منهم سببه جهلهم بالعربية وهبوط مستواهم في العلم بها.

(٣) سورة الأنفال. بعض آية: ٣١.

لم يقتصروا على الدعوى فقط، ومعلوم من حالهم وحميتهم أن الواحد منهم يقول في الحشرات والهوام والحيات، وفي وصف الأزمة[١] والأنساع[٢] والأمور التي لا يؤبه لها ولا يحتاج إليها، ويتنافسون في ذلك أشد التنافس، ويتبجحون به أشد التبجح، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته في هذه المعاني الفسيحة والعبارات الفصيحة، مع تضمن المعارضة تكذيبه والذب عن أديانهم القديمة، وإخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم وتضليله إياهم، والتخلص من منازعته، ثم من محاربته ومقارعته، ثم لا يفعلون شيئًا من ذلك، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل، ويعللونها بالأباطيل؟

* * *

ومعنى تاسع: وهو أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفًا، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة[٣]، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهي أربعة عشر حرفًا[٤]، ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

والذي ينقسم إليه هذه الحروف، على ما قسمه أهل العربية، وبنوا عليها وجوهها، أقسام نحن ذاكروها:

فمن ذلك أنهم قسموها إلى: حروف مهموسة، وأخرى مجهورة، فالمهموسة

(١) الأزمة:الضيق والشدة وقد تكون بتشديد الميم.ويراد بها زمام الدابة وما شابه. وهي بذلك أشبه.

(٢) الأنساع: جمع نسع بكسر فسكون. والنسع: سير ينسج عريضًا على هيئة رباط النعل، لكنه طويل تشد به الرحال.

(٣) إنما هي تسع وعشرون سورة. وهي بترتيب المصحف الشريف: سور: البقرة ـ آل عمران ـ الأعراف ـ يونس ـ هود ـ يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم ـ الحجر ـ مريم ـ طه ـ الشعراء ـ النمل ـ القصص ـ العنكبوت ـ الروم ـ لقمان ـ السجدة ـ يس ـ ص ـ عافر ـ فصلت ـ الشورى ـ الزخرف ـ الدخان ـ الجاثية ـ الأحقاف ـ ق ـ ن.

(٤) الحروف التي في أوائل السور. هي بترتيب وجودها في المصحف الشريف: أ ـ ل ـ م ـ ص ـ ر ـ ك ـ هـ ى ـ ع ـ ط ـ س ـ ح ـ ق ـ ن.

منها عشرة، وهي: الحاء، والهاء، والخاء، والكاف، والشين، والثاء، والفاء، والتاء، والصاد، والسين[(١)]. وما (غير) ذلك من الحروف فهي مجهورة، وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور[(٢)]، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان[(٣)]. والمجهور معناه أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد، ويجري الصوت.. والمهموس كل حرف ضعف الاعتماد في موضعه، حتى جرى معه النفس، وذلك مما يحتاج إلي معرفته، لتبتني عليه أصول العربية.

وكذلك مما يقسمون إليه الحروف يقولون: إنها على ضربين: أحدهما: حروف الحلق، وهي ستة أحرف: العين، والحاء، والهمزة، والهاء، والخاء، والغين. والنصف من هذه الحروف مذكور في جملة الحروف التي تشتمل عليها الحروف المبينة في أوائل السور[(٤)]، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق[(٥)]

---

(١) جمعها علماء التجويد في قولهم: فحثه شخص سكت.

(٢) وهي الحروف: ص - ك - هـ س - ح.

(٣) وهي بقية الحروف الأربعة عشر بعد إخراج الخمسة المهموسة منها. أي تسعة أحرف. وقول المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: لا زيادة ولا نقصان. رجوع منه عما سبق أن ذكره من أن حروف المعجم تسعة وعشرون حرفا. ويبين أنها ثمانية وعشرون؛ لأن الحروف المجهورة ثمانية عشر حرفًا بعد إخراج العشرة المهموسة. ونصفها يكون تسعة، وهي الباقية من أحرف أوائل السور بعد إخراج الخمسة المهموسة منها.. لكن المؤلف إن جعل الحروف ثمانية وعشرين يكون قد جعل الألف والهمزة حرفًا واحدًا، وهذا مما سيخالفه هو بعد ذلك، وهو الحق.

(٤) وهي الحروف: ع - ح - هـ. ولم يعد الهمزة منها. مما يدل على أنه يراها غير الألف - وهو الصواب - لأن الألف من حروف أوائل السور.

(٥) لأن حروف الحلق ستة. فإذا طرحناها من حروف المعجم الثمانية والعشرين - كما يعتبرها المؤلف - سوف يبقى منها اثنان وعشرون حرفًا. نصفها أحد عشر حرفًا. وهي التي تحصل لدينا من الأربعة عشر التي في أوائل السور إذا ما طرحنا فيها الثلاثة المهموسة التي أشرنا إليها قبلا.

وكذلك تنقسم هذه الحروف إلى قسمين آخرين: أحدهما حروف غير شديدة، وإلى الحروف الشديدة، وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه وهي: الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والظاء، والذال، والطاء، والباء.. وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضًا هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بني عليها تلك السور(١).

ومن ذلك: الحروف المطبقة، وهي أربعة أحرف، وما سواها منفتحة فالمطبقة: الطاء، والظاء، والضاد، والصاد. وقد علمنا أن نصف هذه في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور(٢). وإذا كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام، لأغراض لهم في ترتيب العربية، وتنزيلها، بعد الزمان الطويل، من عهد النبي ﷺ، رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر، على حد التنصيف الذي وصفنا. دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه، بعد العهد الطويل، لا يجوز أن يقع إلا من الله ﷻ؛ لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب. وإن كان إنما نبهوا على ما بني عليه اللسان في أصله، ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان. فذلك أيضًا من البديع، الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان. فإن كان أصل اللغة توقيفًا فالأمر في ذلك أبين، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضًا؛ لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله ـ تَعَالَى ـ(٣)، وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه

---

(١) تكون نصف تلك الحروف ضمن حروف أوائل السور إذا احتسبنا الهمزة من أحرف أوائل السور. وذلك لأن الذي من أوائل السور من الأحرف الثمانية التي ذكرها هنا هي: القاف ـ والكاف ـ والطاء ـ. فلا تكون نصفًا إلا إذا أضفنا إليها الهمزة بمعنى الألف.. وقد بينا قبل ذلك أن المؤلف فرق بينهما ـ وهو الصواب ـ.

(٢) وهي: الطاء ـ والصاد.

(٣) يشير المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ إلى أن الله ـ تَعَالَى ـ قد كتب القرآن في لوحه المحفوظ قبل خلق السموات والأرض. وقبل وجود العرب ولسانهم، فكيف قسم الأحرف العربية =

الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه، وقد يمكن أن تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصها في النظم إذا كانت حروفًا، كنحو: «**ألم**»؛ لأن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلعًا، واللام متوسطة، والميم متطرفة، لأنها تأخذ في الشفة. فنبه بذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم، بما يتعارفون من الحروف، التي تتردد بين هذين الطرفين، ويشبه أن يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الألف؛ لأن الألف قد تلغى، وقد تقع الهمزة وهي موقعًا واحدًا(١).

* * *

ومعنى عاشر: وهو أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريبًا إلى الإفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس. وهو مع ذلك ممتنع

= في كتابه هذه التقسيمات البديعة التي طابقت لغة العرب من مهموس ومجهور وقوي وضعيف وحلقي وغير حلقي.. إلى آخر هذه التقسيمات التي جاءت على غاية من الحكمة؟ ثم يشير المؤلف إلى حاصل المذاهب في نشأة اللغات، حيث انتهت الآراء إلى رأيين: الأول: أن اللغة العربية توقيفية. أي أنها من عند اللَّه ـ تَعَالَى ـ وأن اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ هو الذي أنزلها، وهدي العرب إليها. لتكون على مقتضى لغة كتابه الخاتم. وفي هذه الحالة ـ يقول المؤلف ـ لا عجب أن تأتي تقسيمات الحروف في كتاب اللَّه على ما عليه لغة العرب؛ لأن اللغة والقرآن كلاهما من عند اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ. أما الرأى الثاني في نشأة اللغة: فإنها مما تواضع عليه الناس توصلوا إليها من خلال الخبرات الحياتية، فهي من إفرازات البيئة. يقول المؤلف وعلى هذا الرأي يكون الأمر عجيبًا. فإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ لاشك قد جمع همم العرب في اختيارهم لغتهم عبر الأجيال إلى اختيار نفس اللغة التي سبق في علمه أن تكون لغة كتابه الخالد.

(١) أشرنا فيما سبق إلى أن المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ يحتسب الألف والهمزة حرفين حينًا، ويحتسبهما حرفًا واحدًا حينًا آخر. وقد وضح مذهبه هنا حين بين أن تصنيفه للحروف هنا لم يحتسب فيه الألف؛ لأن العرب قد يكتفون بالهمزة عنها ويسقطونها من حيث إن مخرجها هي والهمزة واحد. لكن يبقى أن المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ قد اعتبرها في عد الأحرف تسعة وعشرين، وهو الصواب.

المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به، فأما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام، المبتذل، والقول المسفسف، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة فيطلب فيه التمنع، أو يوضع فيه الإعجاز، ولكن لو وضع في وحشي مستكره، أو غمر بوجوه الصنعة وأطبق بأبواب التعسف والتكلف، لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر ويعيب ويقرع. ولكنه أوضح مناره، وقرب منهاجه، وسهل سبيله، وجعله في ذلك متشابهًا متماثلًا، وبين مع ذلك إعجازهم فيه، وقد علمت أن كلام فصائحهم، وشعر بلغائهم، لا ينفك من تصرف في غريب مستنكر، أو وحشي مستكره، ومعان مستبعدة، ثم عدولهم إلى كلام مبتذل وضيع لا يوجد دونه في الرتبة ثم تحولهم إلى كلام معتدل بين الأمرين، متصرف بين المنزلتين، فمَن شاء أن يتحقق هذا نظر في قصيدة امرئ القيس[(١)].

قفانبك من ذكرىٰ حبيب ومنزل[(٢)]

ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما تتصرف إليه هذه القصيدة، ونظائرها ومنزلتها من البلاغة، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها، على وجه يؤخذ باليد، ويتناول من كثب، ويتصور في النفس كتصور الأشكال، ليبين ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن.

* * *

واعلم أن مَن قال من أصحابنا: إن الأحكام معللة بعلل موافقة لمقتضى العقل، جعل هذا وجهًا من وجوه الإعجاز، وجعل هذه الطريقة دلالةً فيه كنحو

(١) من أشهر شعراء الجاهلية. كان ربيب خمر وندمان. جاءه خبر قتل أبيه وهو في مجلس الخمر فقال قولته المشهورة: اليوم خمر وغدًا أمر، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، ضيعني صغيرا، وحملني دمه كبيرا، له معلقة من أشهر المعلقات. مطلعها ما ذكره المؤلف هنا.وسيأتي شرح موسع مع نقد وتحليل لتلك القصيدة.

(٢) مطلع معلقة امرئ القيس المشهورة الموصوفة بالبلاغة.

ما يعللون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها. ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة، ووجوه تستحسن. وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك[(١)]، ولكن الأصل الذي يبنون عليه عندنا غير مستقيم، وفي ذلك كلام يأتي في كتابنا في **«الأصول»**.

وقد يمكن في تفاصيل ما أوردنا من المعاني الزيادة والإفراد، فإنا جمعنا بين أمور، وذكرنا المزية المتعلقة بها، وكل واحد من تلك الأمور مما قد يمكن اعتماده في إظهار الإعجاز فيه.

فإن قيل: فهل تزعمون أنه معجز؛ لأنه حكاية لكلام القديم ـ سُبْحَانَهُ ـ، أو؛ لأنه قديم في نفسه؟ قيل: لسنا نقول بأن الحروف قديمة، فكيف يصح التركيب على الفاسد، ولا نقول أيضًا: إن وجه الإعجاز في نظم القرآن أنه حكاية عن الكلام القديم؛ لأنه لو كان كذلك لكانت التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله ﷻ معجزات في النظم والتأليف، وقد بينا أن إعجازها في غير ذلك. وكذلك كان يجب أن تكون كل كلمة مفرده معجزة بنفسها.. ومتفردها، وقد ثبت خلاف ذلك[(٢)].

---

(١) يشير المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ إلى ما يذهب إليه العلماء من أن الأحكام التشريعية التي اشتمل عليها القرآن العظيم، ومدى ملاءمتها للفطرة، وتحقيقها المصلحة، وتوفيرها السعادة في الدنيا للآخذين بها، وسموها وتفردها بالكمال إذا قيست بما تواضع عليه الناس من قوانين ونظم، وخلودها واستقرارها بينما قوانين البشر ونظمهم في تغير دائم. كل ذلك يعتبر من أعظم أوجه الإعجاز في القرآن المجيد، من حيث إن القرآن هو الوعاء الذي حمل واحتوى تلك التشريعات. ولاشك أن هذا وجه صحيح من أعظم الأوجه في إعجاز القرآن المجيد، وإن عارض المؤلف ذلك.

(٢) أدخل المؤلف نفسه هنا في مشاكل كلامية تتصل بقضية خلق القرآن التي حمل المعتزلة كبرها وإثمها، وما تفرع عنها من قضايا وآراء أشار المؤلف إلى بعضها هنا، واختار لنفسه ما يخالف عقيدة السلف التي هي العقيدة الحقة.

فصل

في شرح ما بينَّا من وجوه إعجاز القرآن

فأما الفصل الذي بدأنا بذكره، من الأخبار عن الغيوب، والصدق، والإصابة في ذلك كله، فهو: كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾[1] فأغراهم أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ إلى قتال العرب والفرس والروم، وكقوله: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ

(١) غفل المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ عن المعنى الذي جاءت الآية تدعو إليه. فالآية الكريمة لم تنزل في قتال الفرس والروم. ولكنها نزلت في قتال المرتدين عن الإسلام بعد رسول ﷺ. وما كان أحرى بالمؤلف الفاضل أن يعرف ذلك. ذلكم أن الآية الكريمة بينت بالنص القاطع أن الأعداء الذين سيقاتلهم المخلفون من الأعراب سوف يخيرون بين أمرين اثنين لا ثالث لهما: الإسلام أو القتال. وهذا التخيير بين الأمرين لا يكون للفرس أو الروم؛ لأن الفرس والروم مخيرون بين ثلاثة أمور ـ وليس أمرين ـ: بين الإسلام أو الجزية أو القتال. وهؤلاء الذين ذكروا في الآية الكريمة لا يقبل منهم الجزية.بل هم بين الإسلام أو القتال. وهؤلاء هم المرتدون من العرب تحديدًا، وذلك حكم كل مرتد عن دين اللَّه ـ تَعَالَى ـ إما العودة إلى الإسلام وإما القتل ولا يقبل منه الجزية. وهذه الآية الكريمة وحدها وجه عظيم من أوجه الإعجاز؛ لأنها إخبار بغيب لم يكن يتوقعه أحد.فلم يكن أحد يتوقع أن يرتد بنو حنيفة ومن جاراهم عن الإسلام بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ. ولذلك كان المسلمون حينما نزلت هذه الآية يتعجبون: فيمن نزلت؟ ومن هؤلاء الذين سيقاتلونهم ولا يقبلون منهم إلا الإسلام؟ حتى ارتد بعض قبائل العرب، ودعا أبو بكر ﷺ إلىقتالهم، فعرف المسلمون من نزلت فيهم الآية، وأنهم مرتدو العرب.. فعن رافع بن خديج ﷺ أنه قال: «والله لقد كنا نقرأ هذه الآية: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ فلا نعلم من هم،حتى دعانا أبو بكر ﷺ إلى قتال بني حيفة فعلمنا أنهم هم. فإدخال قتال الفرس والروم تحت هذه الآية سهو من المؤلف. وجل من لا يضل ولا ينسى. والآية من سورة الفتح: ١٦.

أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾(١)، وراهن أبو بكر الصديق ﷺ في ذلك، وصدق الله وعده. وكقوله في قصة أهل بدر: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾(٢).

وكقوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾(٣). وكقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾(٤). في قصه أهل بدر. وكقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(٥). وصدق الله ـ تعالى ـ وعده في كل ذلك. وقال في قصة المتخلفين عنه في غزوته: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾(٦)، فحق ذلك كله وصدق، ولم يخرج من المخالفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد. وكقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾(٧) وكقوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٨)، فامتنعوا من المباهلة، ولو أجابوا إليها اضطرمت عليهم الأودية نارًا على ما ذكر في الخبر، وكقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾(٩)، ولو

---

(١) سورة الروم. الآيتان: ١ ـ ٢، وبعض: ٣.

(٢) سورة القمر. الآية: ٤٥.

(٣) سورة الفتح. بعض آية: ٢٧.

(٤) سورة الأنفال. بعض آية: ٧.

(٥) سورة النور. بعض آية: ٥٥.

(٦) سورة التوبة.بعض آية:٨٣.

(٧) سورة التوبة.بعض آية: ٣٣، وسورة الفتح. بعض آية: ٢٨،وسورة الصف. بعض آية:٩.

(٨) سورة آل عمران. بعض آية:٦١.

(٩) سورة البقرة. آية. ٩٤ وبعض آية: ٩٥. ومثل هذه الايةقوله ـ تعالى ـ من سورة الجمعة:﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟=

تمنوه لوقع بهم. فهذا وما أشبهه فصل.

* * *

وأما الوجه الثاني الذي ذكرناه، من أخبار عن قصص الأولين، وسير المتقدمين، فمن العجيب الممتنع، على مَن لم يقف علي الأخبار، ولم يشتغل بدرس الآثار. وقد حكى في القرآن تلك الأمور حكاية مَن شهدها وحضرها، وذلك قال اللّه تعالي: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[3]، فبين وجه دلالته من إخباره بهذه الأمور الغائبة السالفة. وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾[4]. الآية.

فأما الكلام في الوجه الثالث، وهو الذي بينَّاه، من الإعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف، فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوهًا.

ومنها أنَّا قلنا إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم، ومَن ادَّعى ذلك لم يكن له بدّ من أن يصحّح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى؛ لأن قومًا من كفار قريش ادعوا أنه شعر، ومن الملحدة مَن يزعم أن فيه شعرًا، ومن أهل الملة مَن يقول

= ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾: (٦:٧).

(١) سورة العنكبوت. الآية: ٤٨.

(٢) سورة القصص. الآية: ٤٤.

(٣) سورة القصص. الآية: ٤٦.

(٤) سورة هود. بعض آية: ٤٩. ومثل تلك الآية قوله ـ تعالي ـ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران. بعض آية: ٤٤، يوسف. بعض آية: ١٠٢].

إنه كلام مسجع إلا إنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم، ومنهم مَن يدعي أنه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب.

* * *

فصل

في نفي الشعر من القرآن

قد علمنا أن الله ـ تَعَالَى ـ نَفَى الشعر عن القرآن وعن النبي ﷺ، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾[1]، وقال في ذم الشعراء: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾[2]، إلى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات[3]، وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[4].

وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار، من قولهم: **«إنه شاعر» و«إن هذا إلا شعر»**، لابد من أن يكون محمولًا على أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه، علي الأعاريض المحصورة المألوفة، أو

---

(١) سورة يس. الآية: ٦٨.

(٢) سورة الشعراء: الآيتان ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) لقد كان الأولى بل الصواب ألا يقف المؤلف الفاضل على ذكر الآيتين السابقتين من سورة الشعراء؛ لأن فيهما ذما للشعر والشعراء بناء على وصفين ذكرتهما الآيات، وكان يجب أن يكمل حتى يذكر الاستثناء الوارد في قوله ـ تَعَالَى ـ:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ خاتمة سورة الشعراء.
والوقوف على الآيتين خطأ أولا: لأنه وقوف قبل الاستثناء مباشرة. وهذا غير جائز شرعا وهو شبيه بمن يقف على قول الله ـ تَعَالَى ـ:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾من سورة العصر.
وشبيه بمن يقف على قول الله ـ تَعَالَى ـ:﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ من سورة التين..

(٤) سورة الحاقة. بعض آية: ٤١.

يكون محمولًا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر، لدقة نظرهم(١) في وجوه الكلام، وطرق لهم في المنطق، وإن كان ذلك الباب خارجًا عما هو عند العرب من شعر على الحقيقة، أو يكون محمولًا على أنه أطلق من بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر، وهذا أبعد الاحتمالات(٢).

فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحًا وذلك أن الشعر يفطن لما لا يفطن له غيره، وإذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه في رأيهم وعندهم أقدر، فنسبوه إلى ذاك لهذا السبب.

* * *

فإن زعم زاعم أنه قد وَجَدَ في القرآن شعرًا كثيرًا، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيتٌ تام أو أبيات تامة، ومنه ما يزعمون أنه مصراع؛ كقول القائل:

قد قلت لما حاولوا سلوتي هيهات هيهات لما توعدون(٣)

(١) الاولي أن تكون الكلمة: لدقة نظر لهم.

(٢) يبين المؤلف أن وصف المشركين القرآن بأنه شعر،ووصف الرسول ﷺ بأنه شاعر يحتمل ثلاثة أوجه:

أولًا: أن يكونوا قد قالوا ذلك نظرا إلي بعض الآيات التي وردت موزونة على بعض الاعاريض والأوزان الشعرية المألوفة لديهم. وهذه حالات محصورة وقليلة. وسيأتي كلام المؤلف عنها مبينا أنها لا تعتبر شعرا.

ثانيًا: أن يكونوا قد قالوا ذلك اعتبارا من إطلاقهم كلمة«شعر» على الحكمة. وكلمة «شاعر» على الحكيم. وقد كانوا يطلقون على الفلاسفة والحكماء لديهم شعراء بهذا المعنى، وقد قرر المؤلف. أن الإطلاق بهذين الاعتبارين صحيح.

ثالثًا: أن يكون هذا الإطلاق قد صدر عن بعض من لا يجيد أوزان الشعر ولا يعرف فنونه. فظنوا أن الأسلوب الفريد في القرآن هو من باب الشعر حقيقة. قال المؤلف. وهذا الإطلاق أبعد الاحتمالات.

(٣) الشطر الثاني هو الآية رقم: ٣٦ من سورة المومنون.

ومما يزعمون أنه بيت قوله:

﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾(١)

قالوا: هو من الرمل من البحر الذي قيل فيه:

ساكن الريح نطوف ... المزن منحل العزالي(٢)

وكقوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾(٣)

كقول الشاعر من بحر الخفيف:

كل يوم بشمسه ... وغد مثل أمسه

وكقوله ﷻ:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٤).

قالوا هو من المتقارب... وكقوله:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾(٥).

ويشبعون حركة الميم فيزعمون أنه من الرجز، وذكر عن أبي نواس أنه ضمن ذلك شعرًا وهو قوله:

وفتية في مجلس وجوههم ... ريحانهم قد عدموا التثقيلا(٦)

دانية عليهم ظلالها ... وذللت قطوفها تذليلا

---

(١) سورة سبأ. بعض آية: ١٣.

(٢) نطوف: وجمع نطفة، وهو وصف للماء. والمزن: جمع مزنة وهي السحابة البيضاء.والعزالي: جمع عزلاء. فتحة السقاء التي ينزل منها الماء. يصف المزن كأنه أسقية مملوءة بالماء وقد فتحت أفواهها فنزل المطر.

(٣) سورة فاطر. بعض آية: ١٨، ونص الجزء المذكور:[ومن يتزكى فإنما يتزكى لنفسه].وقد حذفت الواو ليواكب الكلام الوزن.

(٤) سورة الطلاق. بعض آيتي: ٢ - ٣.

(٥) سورة الإنسان. الآية: ١٤.

(٦) يصف الفتية بالظرف وخفة الظل بقوله: قد عدموا التثقيلا.

وقوله ﷻ: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[١] زعموا أنه من الوافر كقول الشاعر:

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلتها عصي[٢]

وكقوله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾[٣] ضمنه أبو نواس في شعره ففصل، وقال: فذاك الذي»، وشعره:

وقرا معلنا ليصدع قلبي والهوى يصدع الفؤاد السقيما

أرأيت الذي يكذب بالدين فذاك الذي يدع اليتيما

وهذا من الخفيف كقول الشاعر:

وفؤادي كعهده بسليمى بهوى لم يحل ولم يتغير

وكان ضمنه في شعره من قوله:

سبحان (مَنْ) سخر هذا لنا (حقا) وما كنا له مقرنين[٤]

.فزاد فيه حتى انتظم له الشعر، وكما يقولون في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾[٥]، ونحو ذلك في القرآن كثير كقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾[٦]، وهو عندهم شعر من بحر البسيط.

---

(١) سورة التوبة. بعض آية: ١٤.

(٢) يفتخر باليسار والغنى فيذكر أن لديه غنمًا كثيرة منها الصغير. ومنها الأغنام الكبيرة السن التي تحولت قرونها وطالت حتى كأنها العصيّ.

(٣) سورة الماعون. الآيتان: ١ - ٢.

(٤) ما ضمنه الشاعر الماجن بيت شعره كان قبل أن يغير فيها آية من سورة الزخرف. هي الآية: ١٣. والآية هي قول الله - تعالى -: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

(٥) سورة العاديات. الآيتان: ١ - ٢.

(٦) سورة الذاريات. الآيات: ١ - ٣.

والجواب عن هذه الدعوى التي ادعوها من وجوه:

أولها: أن الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعرًا، ولم يروه خارجًا عن أساليب كلامهم، لبادروا إلى معارضته؛ لأن الشعر مسخر لهم مسهل عليهم، لهم فيه ما قد علمت من التصرف العجيب، والاقتدار اللطيف، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، ولا عوَّلوا عليه، عُلم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئًا مما يقدره الضعفاء في الصنعة، والمرمدون في هذا الشأن[١]، وأن استدراك من يجيء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم، وزعمه أن قد ظفر بشعر في القرآن ذهب أولئك النفر عنه، وخفي عليهم مع شدة حاجتهم إلى الطعن في القرآن، والغض منه، والتوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه، لن يجوز أن يخفَى على أولئك وأن يجهلوه، ويعرفه مَن جاء الآن وهو بالجهل حقيق.

وإذا كان كذلك، عُلم أن الذي أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد، وهو أنهم قالوا: إن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرًا، وأقل الشعر بيتان فصاعدًا، وإلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الإسلام. وقالوا أيضًا: إن ما كان على وزن بيتين إلا أنه يختلف رويهما وقافيتهما فليس بشعر. ثم منهم مَن قال: إن الرجز ليس بشعر أصلًا، لاسيما إذا كان مشطورًا أو منهوكًا[٢]، وكذلك ما كان يقارنه في قلة الأجزاء. وعلى هذا يسقط

(١) أي الفقراء في فن الشعر. والعرب تصف الفقراء بأن أيديهم مليئة بالرماد أو التراب، فيقولون في الدعاء بالفقر «رمدت يداك» أو «تربت يداك» أي امتلأت يداك رمادًا أو ترابا. أي افتقرت. وقد تستعمل كلمة «المرمدون» في الغنى والكرم. بمعنى كثيري الرماد. وقد كانوا يكنون عن الغني بأنه كثير الرماد. من كثرة إشعاله النار لإطعام الضيفان. لكن الكلمة هنا في الفقراء.

(٢) المشطور: الشعر من الرجز أو السريع إذا جعلت وحداته نصف بيت يلتزم في جميعها قافية واحدة. والمنهوك: هو الشعر من الرجز إذا حذف ثلثا البيت.

السؤال[١].

ثم يقولون: إن الشعر إنما يطلق متى قصد القاصد إليه، على الطريق الذي يتعمد ويسلك، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما يستوي فيه العامي والجاهل، والعالم بالشعر واللسان وتصرفه. وما يتفق من كل واحد، فليس يكتسب اسم الشعر، ولا صاحبه اسم شاعر؛ لأنه لو صح أن يسمى[٢] كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر، أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض، كان الناس كلهم شعراء. لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض في جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر، وينتظم انتظامه. ألا ترى أن العامي قد يقول لصاحبه: «**أغلق الباب وائتني بالطعام**»، ويقول الرجل لأصحابه: «**أكرموا مَن لقيتم من تميم**»، ومتى تتبع الإنسان هذا عرف أنه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه.. وهذا القدر الذي يصح فيه التوارد ليس يعده أهل الصناعة سرقة، إذ لم تعلم فيه حقيقة الأخذ، كقول امرئ القيس:

وقوفا بها صحبي عليَّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وكقول طرفة:

---

(١) يتحصل مما ذكر المؤلف ـ رحمه اللَّه ـ تَعَالَى ـ أن الكلام لكي يسمى شعرًا لابد من توفر شرطين: الأول: أن يكون الكلام الموزون أكثر من بيت. أي بيتين فأكثر. الثاني: أن يكون البيتان متفقين في الوزن والقافية. وعلى ذلك فالبيت الواحد لا يسمى شعرًا، والأبيات الكثيرة إذا لم يتفق فيها بيتان وزنًا وقافية لايكون ذلك شعرًا. ثم أضاف المؤلف الفاضل: إن من علماء الشعر والعربية من يرى أن الرجز ليس شعرًا بصورة عامة. ويتأكد خروجه عن الشعر إذا كان مشطورًا أي على نظام نصف البيت. أو كان منهوكًا. أي حذف من البيت ثلثاه. فإن التشطير والنهك يؤدي إلى قلة أجزاء الرجز إلى الحد الذي يجعله قريبًا من الكلام العادي وقد أضاف المؤلف شروطًاأخرى لتحقق وصف الكلام بأنه شعر. سوف يأتي الكلام عنها في الفقرة التالية.

(٢) أي يسمى شاعرًا، ويسمى كلامه شعرًا.

وقوفا بها صحبي عليَّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد[١]

ومثل هذا كثير. فإذا صح مثل ذلك في بعض البيت، ولم يمتنع التوارد فيه، فكذلك لا يمتنع وقوعه في الكلام المنثور، اتفاقًا غير مقصود إليه، فإذا اتفق لم يكن ذلك شعرًا. وكذلك يمتنع التوارد على بيتين، وكذلك يمتنع في الكلام المنثور وقوع البيتين ونحوهما. فثبت بهذا أن ما وقع هذا الموقع لم يعد شعرًا، وإنما يعد شعرًا ما إذا قصده صاحبه تأتَّى له، ولم يمتنع عليه، فإذا كان هو مع قصده لا يتأتى له، وإنما يعرض في كلامه عن غير قصد إليه، لم يصح أن يقال: إنه شعر، ولا إن صاحبه شاعر، ولا يصح أن يقال: إن هذا يوجب أن مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب أن يكون شعرًا؛ لأنه لو قصده لكان يتأتَّى منه. وإنما لم يصح ذلك؛ لأن ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعرًا من أحد، وما كان شعرًا من أحد من الناس كان شعرًا من كل أحد. ألا ترى أن السوقي قد يقول: «**اسقني الماء يا غلام سريعًا**»، وقد يتفق ذلك من الساهي، ومَن لا يقصد النظم. فأما الشعر إذا بلغ الحد الذي بينا فلا يصح أن يقع إلا من قاصد إليه. وأما الرجز فإنه يعرض في كلام العوام كثيرًا، فإذا كان بيتًا واحدًا فليس ذلك بشعر. وقد قيل: إن أقل ما يكون منه شعرًا أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها، ولم يتفق ذلك في القرآن بحال. فأما دون أربعة أبيات منه، أو ما يجري مجراه في قلة الكلمات، فليس بشعر، وما اتفق في ذلك من القرآن مختلف الروي، ويقولون: إنه متى اختلف الروي خرج من أن يكون شعرًا[٢].

(١) يقول كل من الشاعرين: إن أصحابه وقفوا رواحلهم عليه، كناية عن وقوفهم هم لما رأوه وَاقفًا عند أطلال الأحبة يبكي. وقالوا له: لا تهلك نفسك واصبر.

(٢) خلاصة هذا الذي ذكره المؤلف أن من شرائط كون الكلام شعرًا أن يكون قد قصد صاحبه أن يجعله شعرًا. فلابد من توفر القصد لدى القائل. فإذا ما خرج الكلام موزونًا دون قصد من قائله فلا يسمى شعرًا. وقد سبق أن بين المؤلف أن الكلام لا يكون شعرًا إلا إذا كان بيتين فأكثر وعلى وزن وقافية واحدة، هذا بالنسبة إلى الشعر بعامة. أما الرجز=

وهذه الطرق التي سلكوها في الجواب معتمدة[١] أو أكثرها، ولو كان ذلك شعرًا لكانت النفوس تتشوف إلى معارضته؛ لأن طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد، وأهله يتقاربون فيه، أو يضربون فيه بسهم.

فإن قيل: في القرآن كلام موزون كوزن الشعر وإن كان غير مقفى، بل هو مزاوج متساوي الضروب، وذلك آخر أقسام كلام العرب. قيل: من سبيل الموزون من الكلام أن تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر، والسواكن والحركات، فإن خرج عن ذلك لم يكن موزونًا كقوله:

رب أخٍ كنت به مغتبطًا ... أشد كَفّي بعُرا صحبته
تمسكًا مني بالود ولا ... أحسبه يزهد في ذي أمل
تمسكا مني بالود ولا ... أحسبه يغير العهد ولا
يحول عنه أبدًا ... فخاب فيه أملي[٢]

وقد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القبيل، بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح، وربما كان عندهم مستنكرًا، بل أكثره على ذلك.

وكذلك ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه أولًا، وهو الذي شرطنا فيه التعادل والتساوي في الأجزاء غير الاختلاف الواقع في التقفية. ويبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذي بينا، وتتم فائدته بالخروج منه، وأما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه[٣].

* * *

= بخاصة فقد وضع له المؤلف شرطا آخر وهوألا يقل عن أربعة أبيات وكلها على روي واحد، فإذا قلت عن أربعة، أو كانت أربعة فأكثر واختلف الروي لا يسمى الرجز شعرًا.

(١) أي متفق عليها لدى علماء هذا الفن.

(٢) هذه أربعة أبيات من الرجز غير ملتزم فيها قافية واحدة، وقد ضرب به مثلا لما لا يسمى شعرًا.

(٣) يبين المؤلف عن معنى بديع في الفروق بين القرآن العظيم وشعر الشعراء مهما بلغت فصاحته. فقد نبه على أن القرآن المجيد يختلف عن الشعر في أن بلاغته وتمام معانيه إنما =

فصل

في نَفْي السجع من القرآن

ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن، وذكره أبو الحسن(١) في غير موضع من كتبه. وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع(٢) في القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة، كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك، من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة. وأقوى ما يستدلون به عليه: اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون ـ عليهما السلام ـ، ولمكان السجع قيل في موضع: (هارون

= تتم وتصل غايتها حين يخرج القرآن على أوزان الشعر ويخالفه. بينما الشعر إنما يكون بديعًا ورائعًا حينما يكون موزونًا.فالقرآن بلاغته في الخروج على أوزان الشعر. والشعر على عكس ذلك، فكيف يستقيم ـ مع هذا ـ القول بأن القرآن شعر أو فيه شعر. وأن رسول الله ﷺ شاعر؟.

(١) أبو الحسن الأشعري. يصل نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ﷺ. كان بارعًا في علم الكلام علىمذهب الاعتزال، وكان المقدم من تلامذة أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في زمانه. ثم انفصل أبو الحسن عن الاعتزال وأعلن خروجه على المعتزلة. وأخذ يقعد لمذهبه الذي بين فيه ضلال المعتزلة في أصولهم التي بنوا عليها مذهبهم.. ألف الكتب الكثيرة في الرد على الاعتزال وبيان قواعد مذهبه، عدل في أخريات حياته إلى عقيدة السلف والتزم عقيدة الإمام أحمد بن حنبل بقية السلف في عهده ـ رضي الله عن الجميع ـ، عاش أبو الحسن ستين عامًاتقريبًا بين: ٢٧٠ ـ ٣٣٠ هـ. وقد نص المؤلف على أبي الحسن ـ تعيينا ـ لما أن المؤلف أشعري. وأبو الحسن شيخ الأشعرية.

(٢) السجع: توالى الكلام في فقرات متفقة الفواصل. وقد عرفه المؤلف ـ في رأس الصفحة التالية ـ بأنه: موالاة الكلام على وزن واحد.وأصل السجع: ترديد الأصوات على نظام واحد، مفهومًا كان أو غير مفهوم. ومن غير المفهوم قولهم: سجعت الحمامة. أي رددت أصواتها.

وموسى)[١] ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل: (وهارون)[٢].

قالوا: وهذا يفارق أمر الشعر؛ لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصودًا إليه، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي يسمى شعرًا، وذلك القدر ما يتفق وجوده من المفحم، كما يتفق وجوده من الشاعر. وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير، لا يصح أن يتفق كله غير مقصود إليه.

ويبنون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع، قال أهل اللغة: هو موالاة الكلام على وزن واحد، قال ابن دريد: سجعت الحمامة معناها: رددت صوتها. وأنشد:

طربت فأبكتكَ الحمامُ السواجع تميل بها ضَحوًا غصونٌ نوائعُ[٣]

النوائع: الموائل، من قولهم: نائع، أي متمايل ضعفًا.

وهذا الذي يزعمونه غير صحيح، ولو كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلًا فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقال: هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا: شعر معجز، وكيف؟ والسجع مما كان يألفه

---

(١) يشير إلى قوله ـ تَبَارَكَ وَ ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]. والمقصود هنا أن النظم القرآني المجيد قد قدم «هارون» في الكلام على «موسى» رغم أن موسى أفضل منه باتفاق. وإنما قدم عليه بسبب فواصل الآي، فإنها كلها قبل الآية المذكورة وبعدها بالألف المقصورة. كما يتضح ذلك من الرجوع إلى آيات السورة الكريمة من الآية ٣٦ وحتى: ٧٧.

(٢) يشير إلى قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢، والشعراء: ٤٧ ـ ٤٨]. وورد مثل ذلك في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١١٩ ـ ١٢٠].. ويلاحظ أن القرآن المجيد لم يرد فيه فاصلة قبل ذكر موسى وهارون بالواو والنون. ولكنها كلها وردت بالياء والنون كما هو واضح من الآيات المذكورة.

(٣) يقول: إن الحمام كان يسجع بأصواته وهو واقف على غصون أشجار تميل به هنا وهناك. فأثار شجعها أشجانك وأبكاك. والمراد بقوله: طربت: جاشت عواطفك.

الكهان من العرب، ونَفْيُه من القرآن أجدر بأن يكون حجة[١] من نَفْي الشعر؛ لأن الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر.

وقد روي أن النبي ﷺ قال للذين جاؤوه وكلموه في شأن الجنين فقالوا: **«كيف ندي مَن لا أكل ولا شرب[٢]، ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يطل؟»**، فقال ﷺ: **«أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟»** وفي بعضها: **«أسجعًا كسجع الكهان؟»** فرأى ذلك مذمومًا لم يصحّ أن يكون في دلالته.

والذي يقدرونه أنه سجع فهو وَهَمٌ؛ لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعًا؛ لأن ما يكون به الكلام سجعًا يختص ببعض الوجوه دون بعض؛ لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدّي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعًا للمعنى، وفصل[٣] بين أن ينتظم الكلام في نفسه، بألفاظه التي تؤدّي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظمًا دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبًا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى[٤].

---

(١) أي: أولى من نفي الشعر؛ لأن الشعر كان يتعاطاه الناس الأسوياء في جملته. أما السجع فقد كان يتعاطاه ويحرص عليه طائفة من أسوأ الناس وهم الكهان.

(٢) الجملة فيها تقديم وتأخير. وصوابها: كيف ندى مَن لا شرب ولا أكل. ووضع «أكل» في آخر الفاصلة لتستقيم كلها على وزن واحد.. وقوله: ندى: معناه: ندفع الدية. من: ودى يدي. مثل: وقى يقي.

(٣) أي: فرق.

(٤) يبين المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ أن السجع نوعان: نوع يكون المعنى هو الأساس والهدف، فيأتي المتكلم بالسجع لأن المعنى يتطلبه. وهذا النوع يكون فيه اللفظ تابعًا للمعنى. وهذا السجع الجيد الذي لا يظهر فيه تكلف. والنوع الثاني: سجع يكون اللفظ المسجوع هو الأساس، والمعنى يكون تابعًا للفظ. فهو يسجع وتأتي المعاني بعد ذلك أيًّا كانت. وهذا السجع المتكلف الرديء.

فإن قيل: فقد يتفق في القرآن ما يكون من القبيلين[(١)] جميعًا، فيجب أن تسمُّوا أحدهما سجعًا.

قيل: الكلام في تفصيل هذا خارج عن غَرَض كتابنا وإلا كنا نأتي على فصل فصل من أول القرآن إلى آخره، ونبيّن في الموضع الذي يَدَّعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى، ولكنه خارجٌ عن غرض كتابنا. وهذا القدر يحقق الفرق بين الموضعين.

ثم إن سلَّم لهم مسلّم موضعًا أو مواضع معدودة، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب إلى الفواصل لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وزعم أن الوجه في ذلك أنه من باب الفواصل، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود إليه، وأن ذلك إذا اعترض في الخطاب لم يُعَدَّ سجعًا، على ما قد بينًّا من القليل من الشعر، كالبيت الواحد والمصراع، والبيتين من الرجز، ونحو ذلك يعرض فيه، فلا يقال: إنه شعر؛ لأنه لا يقع مقصودًا إليه، وإنما يقع مغمورًا في الخطاب، فكذلك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونه.

ويقال لهم: لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعًا لكان مذمومًا مرذولًا؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه، كان قبيحًا من الكلام. وللسجع منهج مرتَّب محفوظ، وطريق مضبوط، متى أخلَّ به المتكلم أوقعَ الخللَ في كلامه، ونُسب إلى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئًا، وكان شعره مرذولًا، وربما أخرجه عن كونه شعرًا.

وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعًا متقارب الفواصل، متداني المقاطع؛ وبعضها مما يمتدُّ حتى يتضاعف طوله عليه، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير، وهذا في السجع غير مرضيّ ولا محمود[(٢)].

---

(١) أي من النوعين اللذين ذكرناهما من السجع.

(٢) يبين المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أن الزعم بأن القرآن المجيد محتوٍ على السجع زعم يؤدي إلى الحط من بلاغة القرآن وفصاحته؛ لأن السجع لدى العرب له قواعد وضوابط، وإذا=

فإن قيل: متى خرج السجع المعتدل إلى نحو ما ذكرتموه، خرج من أن يكون سجعًا، وليس على المتكلم أن يلتزم أن يكون كلامه سجعًا، بل يأتي به طورًا، ثم يعدل عنه إلى غيره، ثم قد يرجع إليه.

قيل: متى وقع أحد مصراعي البيت مخالفًا للآخر كان تخليطًا وخبطًا، وكذلك متى اضطرب أحد مصراعي الكلام المسجع وتفاوت كان خبطًا، وعلم أن فصاحة القرآن غير مذمومة في الأصل، فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب. ولو كان الكلام الذي هو صورة السجع منه لما تحيروا فيه، وكانت الطباع تدعو إلى المعارضة؛ لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة؟ وهو غير خارج عنها، ولا مميز منها؟ وقد يتفق في الشعر كلام على منهاج السجع، وليس بسجع عندهم، وذلك نحو قول البحتري:

تشكى الوجَى والليل ملتبس الدجا غُرَيْرِيَّة الأنساب مَرْتٌ نقيعها[(١)]

وقوله[(٢)]:

قريب المدى حتى يكون إلى الندى عدو البنَى حتى يكون معالي[(٣)]

= لم يلتزم الساجع هذه الضوابط كان كلامه مرذولًا ساقطًا، والقرآن لم يلتزم ضوابط السجع فيما زعم أنه سجع فيه. ومن ثم فمآل ذلك - إن كان سجعًا - أن يكون سجعًا مرذولًا ساقطًا ضعيفًا. وحاش لله - تَعَالَى - أن يكون كتابه - أو شيء منه - كذلك. والذي أدى إلى هذا إنما هو الزعم بأن في القرآن سجعًا. وليس الأمر كذلك. بل إن أسلوب القرآن الذي ظن أن به سجعًا أسلوب فريد فذ لا يصل إلى مثله إنس ولا جن.

(١) يمدح الشاعر الخليفة المتوكل، ويصف ناقته التي حملته إلى الخليفة بأنها تعبت من طول الترحال إلى الخليفة حتى شكت الوجَى - وهو وجع في أرجلها - واشتد بها العطش. وكانت مياه الآبار التي تمر بها جافة كالصحراء، كناية عن افتقاد الماء.

(٢) أي: البحتري. وهو أبو عبادة البحتري الوليد بن يحيى بن عبيد بن شملان. ابن بحتر الطائي. أديب مجيد من الأدباء العباسيين. توفي سنة أربع وثمانين ومائتين.

(٣) يصف الممدوح بأنه جواد كريم، وجوده قريب لا يحتاج إلى جهد ليصل إليه. وأنه عدو=

ورأيت بعضهم يرتكب هذا، فيزعم أنه سجع متداخل[(١)]، ونظيره من القرآن قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾[(٣)]، وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾[(٦)]، ولو كان ذلك عندهم سجعًا لم يتحيروا فيه ذلك التحير، حتى سماه بعضهم سحرًا، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به، ويصرفونه إليه، ويتوهمونه فيه، وهم في الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه، وليس القوم عاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم، المألوفة لديهم[(٧)].

والذي تكلمنا به في هذا الفصل كلام على جملة، دون التفصيل، ونحن نذكر بعد هذا في التفصيل ما يكشف عن مباينة ذلك وجوه السجع.

ومن جنس السجع المعتاد عندهم قول أبي طالب لسيف بن ذي يزن[(٨)]:

= البناء. لا يحب أن يبني بناءً إلا إذا كان بناءً عاليًا رفيعًا. والمراد بالبناء هنا: البناء المعنوي وليس المادي. أي مباني الفضل والمكانة، والرفعة، وليس البناء المادي من جدر وبيوت.

(١) بعضهم يسمي هذا النوع: ترصيعا. والترصيع: جمع عدد من الفواصل المتقاربة داخل بيت من الشعر، أو فقرة من النثر.

(٢) سورة النحل. بعض آية:٢٧.

(٣) سورة الإسراء. بعض آية:١٦.

(٤) سورة التوبة. بعض آية:٢٤.

(٥) سورة آل عمرأن. بعض آيتي:٤٨ - ٤٩.

(٦) سورة مريم. بعض آية:٤.

(٧) أي أن القوم ما داموا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن. مع معرفتهم بفنون السجع وقدرتهم عليه. كان ذلك دليلا على أن ما في القرآن ليس سجعا، وإلا لكانوا أتوا بمثله لمعرفتهم السجع وبراعتهم فيه.

(٨) سيف بن ذي يزن: من ملوك اليمن المشاهير، وكانت حياته حروبا ومناوشات له وعليه، وكان قد حارب الحبشة سنين، وهذه الكلمة المذكورة، نسبت إلى أبي طالب وهو يهنئ سيف بن ذي يزن بانتصاره على الحبشة.

«أنبتك منبتًا طابت أرومته[١]**، وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق**[٢] **ونبت زرعه، في أكرم موطن، وأطيب معدن»**. وما يجري هذا المجرى من الكلام.

* * *

والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة، مخالفته للشعر وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم. ولا معنى لقولهم: إن ذلك[٣] مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد ورويّ غير مختلف؛ لأن ما جرى هذا المجرى لا يُبنى على الاشتقاق وحده؛ ولو بُني عليه لكان الشعر سجعًا؛ لأن رويه يتفق ولا يختلف، وتتردد القوافي على طريقة واحدة، وأما الأمور التي يستريح إليها الكلام فإنها تختلف.

فربما كان ذلك يسمَّى قافية، وذلك إنما يكون في الشعر، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان يسمَّى مقاطع السجع، وربما سمّي ذلك فواصل، وفواصل القرآن ـ مما هو مختص بها ـ لا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب.

وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون ـ عليهما السلام ـ في موضع، وتأخيره عنه في موضع، لمكان سجع، ولتساوي مقاطع الكلام، فليس بصحيح؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدًا، من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتتبين فيه البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله، مبتدأ به ومكررًا. ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة، فعبروا منها بألفاظ لهم، تؤدي تلك

---

(١) أنبتك منبتا: رباك في بيت، والأرومة: الأصل. مثل الجرثومة فإن معناها الأصل أيضا، يقول: رباك في بيت أصيل رفيع المكانة.

(٢) بسق: سما وعلا حتى تم ارتفاعه.

(٣) أي السجع. وهو هنا يرفض القول بأن السجع هو كل كلام منسق على روى واحد؛ لأن الشعر كذلك، ولا يسمى سجعا.

المعاني وتحويها وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه، وإلى مساواته فيما جاء به. كيف وقد قال لهم: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[١]؟ فعلى هذا يكون المقصد ـ بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها ـ إظهار الإعجاز على الطريقين جميعًا، دون التسجيع الذي توهموه.

* * *

فإن قال قائل: القرآن مختلط من أوزان كلام العرب، ففيه من جنس خطبهم، ورسائلهم، وسجعهم، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفًّى، ولكنه أبدع فيه ضربًا من الإبداع لبراعته وفصاحته.

قيل: قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى: نظم، ونثر[٢]، وكلام مقفًّى غير موزون، ونَظْم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع، ونظم مقفى موزون له روي. ومن هذه الأقسام ما هو سجية الأغلب من الناس، فتناوُلُهُ أقرب، وسلوكه لا يتعذر. ومنه ما هو أصعب تناولًا كالموزون عند بعضهم أو الشعر عند الآخرين. وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين: إما بتعمُّل وتكلُّف وتعلُّم وتصنُّع، أو باتفاق من الطبع، وقَذْف من النفس على اللسان للحاجة إليه، ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع، لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم، ويتعرض على ألسنتهم، وتجيش به خواطرهم، ولا ينصرف عنه الكل، مع شدة الدواعي إليه، ولو كان طريقه التعلم لتصنعوه ولتعلموه، فالمهلة لهم فسيحة والأمد واسع.

* * *

(١) سورة الطور. الآية: ٣٤.

(٢) الكلام كله، وبصوره المختلفة يدخل تحت هذين القسمين: النظم والنثر. ولذلك يصح الحصر فيهما فيقال: الكلام إما نظم وإما نثر. والأقسام الواردة في كلام المؤلف بعد ذلك كلها تدخل تحت النثر إلا القسم الأخير هو: نظم مقفى موزون له روي. فهذا شعر.

وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم؟ فقد قيل: إنه اتفق في الأصل غير مقصود إليه، على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام، ثم لما استحسنوه واستطابوه، ورأوا أنه تألفه الأسماع، وتقبله النفوس، تتَّبعوه من بعد وتعمَّلوه[١]. وحكى لي بعضهم عن أبي عمر[٢] غلام ثعلب عن ثعلب[٣]: أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول[٤] يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ويسمون ذلك الوضع «المتير» واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع، يقال: مترت الحبل بمعنى قطعته أو جذبته[٥]، ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله.

وأما ما وقع السبق إليه فيشبه أن يكون على ما قدمنا ذكره أولًا، وقد يحتمل ـ على قول مَن قال بأن اللغة اصطلاح ـ أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم، وقد يمكن أن يقال مثله على المذهب الآخر، وأنهم وقفوا على ما يتصرف إليه القول من وجوه التصافح، أو تواقفوا هم بينهم على ذلك.

---

(١) تعملوه: أي تكلفوه واصطنعوه، ودرسوا صوره، حتى كان من ذلك إحصاء أشكاله وضبط أوزانه.

(٢) أبو عمر الزاهد، محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم. غلام ثعلب. كان عالما بالنحو واللغة والشعر. ولسعة علمه وقوة حفظه نسبه البعض إلى الكذب. ولد سنة إحدى وستين ومائتين، ومات سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

(٣) أبو العباس ثعلب: أحد بن يحيى بن يسار الشيباني. إمام الكوفيين في النحو واللغة. ولد سنة مائتين. وتوفي سنة إحدى وتسعين ومائتين.

(٤) أي بكلام غير مفهوم، وأصوات خالية من المعاني. ليس فيها سوى التنغيم والتقطيع على هيئة بعض الأوزان الشعرية.

(٥) جاء في المعاجم: متر الشيء مترا: قطعه. ومتر الحبل ونحوه: مده أو جذبه. وتماتر القوم الشيء: تجاذبوه فيما بينهم.

ويمكن أن يقال: إن التواضع وقع على أصل الباب، وكذلك التوقيف، ولم يقع على فنون تصرُّف الخطاب، وأن اللَّه ـ تَعَالَى ـ أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى، وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد، وبنوا عليه وطلبوه، ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب[1] بوزنها، وتهش[2] النفوس إليها، وجمع[3] دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها، واختيار طرقٍ من تنزيلها، وعرفهم محاسن الكلام، ودلهم على كل طريقة عجيبة[4]، ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بالقرآن. والقدر الذي يتناهَى إليه قدرهم، هو ما لم يخرج عن لغتهم، ولم يشذ من جميع كلامهم، بل قد عرضوا في خطابهم ووجدوا أن هذا إنما تعذر عليهم مع التحدي والتقريع الشديد، والحاجة الماسة إليه، مع علمهم بطريق وضع

---

(١) المراد بالاضطراب هنا: جيشان النفس، وشدة الانفعال، وقوة التأثير.

(٢) تهش النفس لها: تسعد بها، وترتاح إليها، وتقبل عليها.

(٣) فاعل جمع: اللَّه ـ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى ـ.

(٤) حاصل ما ذكر المؤلف من آراء حول نشأة الشعر العربي، وكيف وصل به العرب أو وصل هو بالعرب إلى هذا المستوى، رأيان أساسيان:

الرأي الأول: أن الشعر بدأ في لغة العرب تدرجًا بشكل غير مقصود. بدأ بكلمات ساذجة موزونة، ثم بجمل، ثم بفقرات، ومع التقدم في ذلك وكثرته، وإحساسهم بجماله واستحسانهم إياه تتبعوا ذلك الكلام الموزون واستكثروا منه وجودوه، وتفننوا في طرقه وأساليبه، ثم عنوا به بوضع أوزانه وحصر تفعيلاته حتى وصل إلى ما وصل إليه، واستدل على ذلك بما نقله عن غلام ثعلب عن ثعلب من أن العرب كانت تنهنه أطفالها وتعلمهم بكلام غير مفهوم موزون على أوزان الشعر، ويدخل تحت هذا الرأي كل ما ذكر من كونهم (تواضعوا) على ذلك، أو تواقفوا عليه. فإن كل هذه الآراء تدخل في إطار أن اللغة من وضع البيئة ومفرزاتها.

الرأي الثاني: أن الشعر لم يبدأ تدرجا، ولكن اللَّه ـ تَعَالَى ـ قد أجرى على ألسنة بعض الشعراء ما أجرى من النظم والأوزان، وقد فطنوا لحسنه وجماله وقوة تأثيره، فتتبعوه وأكثروا منه وجودوه ووضعوا له قواعده وأشكاله.

النظم والنثر وتكامل أحوالهم فيه، دلالة على أنه اختص به[١]، ليكون دلالة على النبوة، ومعجزة على الرسالة. ولولا ذلك لكان القوم إذ اهتدوا في الابتداء إلى وضع هذه الوجوه التي يتصرف إليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه، فلأن يقدروا بعد التنبيه على وجهه، والتحدي إليه، أولى أن يبادروا إليه، لو كان لهم إليه سبيل.

ولو كان الأمر على ما ذكره السائل[٢] لوجب أن لا يتحيروا في أمرهم، ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم، ولكانوا يسرعون إلى الجواب، ويبادرون إلى المعارضة، ومعلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد إلى الأمور البعيدة عن الوهم، والأسباب التي لا يحتاج إليها، فيكثر فيها من شعر ورجز، ونجد من يعينه على نقله عنه، على ما قدمنا ذكره، من وصف الإبل، ونتاجها، وكثير من أمرها، لا فائدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا.

ثم كانوا يتفاخرون باللسن والذلاقة والفصاحة والذرابة، ويتنافرون فيه، وتجري بينهم فيه الأسباب المنقولة في الآثار على ما لا يخفى على أهله. فاستدللنا بتحيرهم في أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم، ووقوعه موقعًا يخرق العادات، وهذه سبيل المعجزات.

فبان بما قلنا أن الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظائر التي تقع في الأسجاع،لا يخرجها عن حدها، ولا يدخلها في باب السجع. وقد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء، فكان بعض مصاريعه كلمتين، وبعضها تبلغ كلمات، ولا يرون في ذلك فصاحة، بل يرونه عجزًا، فلو رأوا أن ما تلي عليهم من القرآن سجع لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزيد في

---

(١) الضمير الأول للقرآن المجيد، والضمير الثاني للإعجاز. أي أن القرآن المجيد قد اختص بالإعجاز.

(٢) من أن القرآن خليط من كلام العرب وأغراضه، فيه شعر ونثر، وخطب ورسائل...إلخ. فليس فيه شيء خارج عما احتوته اللغة العربية لدى الناطقين بها.

الفصاحة على طريقة القرآن، ونتجاوز حده في البراعة والحسن. ولا معنى لقول مَن قدر أنه ترك السجع تارة إلى غيره ثم رجع إليه؛ لأن ما تخلل بين الأمرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدروه من التسجيع؛ لأنه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته.

ولابد لمن جوَّز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب إليه النظام(١)، وعباد بن سليمان، وهشام الفوطي، ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صرفوا عنه ضربًا من الصرف(٢). ويتضمن كلامه تسليم الخبط في طريقة النظم، وأنه منتظم في فرق شتى، ومن أنواع مختلفة، ينقسم إليها خطابهم، ولا يخرج عنها، ويستهين ببديع نظمه، وعجيب تأليفه، الذي وقع التحدي إليه. وكيف يعجزهم الخروج عن السجع، والرجوع إليه، وقد علمنا عادتهم في خطبهم وكلامهم، أنهم كانوا لا يلزمون أبدًا طريقة السجع والوزن، بل كانوا يتصرفون في أنواع مختلفة، فإذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة(٣) بين نظمي الكلامين.

* * *

---

(١) إبراهيم بن يسار النظام، من كبار رجال المعتزلة في عصره، وله في مذهب الاعتزال آراء تنسب إليه. وأشهر آرائه وأسفها قوله بأن القرآن الكريم ليس معجزا بلاغة وبيانًا، ولكنه معجز بالصرفة، بمعنى أن اللَّه ـ تَعَالَى ـ صرف قلوب الكفار عن معارضته. وقد تابعه على فريته هذه كثيرون منهم هذان اللذان أشار إليهما المؤلف. وهما عباد بن سليمان الصيمري، وهشام بن عمرو الفوطي. وهما من أصحاب المقالات على مذهب الاعتزال.

(٢) هؤلاء المذكورون من القائلين بأن القرآن غير معجز. وأنه يمكن أن يأتوا بمثله وربما أجود منه. لكن اللَّه ـ تَعَالَى ـ صرفهم عن الإتيان بمثله بأنواع من الصوارف.. وقد سبق وبينا مذهبهم هذا الباطل. كما قد مر رد المؤلف عليهم.

(٣) أي: فرقا أو خلافا.

فصل

في ذكر البديع من الكلام

إن سأل سائل فقال: هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع؟

قيل: ذكر أهل الصنعة، ومن صنَّف في هذا المعنى، من صنعة البديع ألفاظًا نحن نذكرها، ثم نبين ما سألوا عنه، ليكون الكلام واردًا على أمر مبيّن مقرّر وباب مصوّر.

● ١ - الاستعارة:

ذكروا أن من البديع في القرآن قوله عزَّ ذكره: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾(١)، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾(٢)، وقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾(٣)، وقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾(٤)، وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾(٥)، وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾(٦).

وقد يكون البديع من الكلمات الجامعة الحكيمة، كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾(٧)، وفي الألفاظ الفصيحة، كقوله: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾(٨)، وفي الألفاظ الإلهية، كقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾(٩)، وقوله: ﴿وَمَا

(١) سورة الإسراء. بعض الآية:٢٤.
(٢) سورة الزخرف. بعض آية:٤.
(٣) سورة مريم. بعض آية:٤.
(٤) سورة يس. الآية:٣٤.
(٥) سورة الحج. بعض آية: ٥٥.
(٦) سورة النور. بعض آية:٣٥.
(٧) سورة البقرة. بعض آية:١٧٩.
(٨) سورة يوسف عليه السلام. بعض آية:٨٠.
(٩) سورة النمل. بعض آية: ٩١.

بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(١)، وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(٢).

ويذكرون من البديع من قول النبي ﷺ: «**خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعة طار إليها**»(٣)، وقوله: «**ربنا تقبل توبتي، واغسل حوبتي**»(٤)، وقوله: «**غلب عليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، وهي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر**»(٥)، وكقوله: «**الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة**»(٦)، وكقوله: «**وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم**»(٧)، وكقوله: «**أن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم**»(٨).

وكقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في كلام له قد نقلناه بعد هذا على وجهه، وقوله لخالد بن الوليد: «**احرص على الموت توهب لك الحياة**»، وقوله: «**فر من الشرف يتبعك الشرف**».

---

(١) سورة النحل. بعض آية:٥٣.

(٢) سورة غافر. بعض آية:١٦.

(٣) أخرجه مسلم - كتاب الإمارة..

والهيعة: صوت الصارخ، وصيحة المستغيث. والمراد: نداء الجهاد.

(٤) أخرجه أحمد، والرمذي: كتاب الدعوات، وابن ماجه: كتاب الدعاء. وأبو داود: كتاب الصلوات.والحوبة: الإثم والوزر والخطيئة.

(٥) أخرجه أحمد والترمذي.

والحالقة: أي التي تستأصل الدين من صاحبه كما تستأصل الموسى الشعر من الرأس.

(٦) متفق عليه.

والحديث مما جرى مجرى الحكم. يضرب مثلا لكثرة العدد مع ضعف المعدود وقلة غنائه وفائدته. كمن يكون لديه مائة بعير، لكنه لا يجد بينها ما يستطيع أن يحمل عليه رحله.

(٧) أخرجه الترمذي.. وحصائد الألسنة: ثمرات كلامهم من الآثام والأوزار.

(٨) متفق عليه.

والحبط: هو: المرض تخمة، بأن تأكل البهيمة من النبات الذي أنتجه الربيع حتى ينتفخ بطنها من كثرة الأكل وتعجز عن الإخراج..يضرب مثلا للتحذير من الإقبال على متع الحياة الدنيا والإكثار منها.

وكقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم وجهه - في كتابه إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة: **«أرغب راغبهم، واحلل عقدة الخوف عنهم»**، وقوله حين سئل عن قول النبي ﷺ: **«إنما قال ذلك والدين في قل[١]، فأما وقد اتسع نطاق الإسلام فكل امرئ وما اختار»**، وسأل علي ﷺ بعض كبراء فارس عن أحد ملوكهم عندهم فقال: لأزدشير[٢] فضيلة السبق، غير أن أحمدهم أنوشروان[٣]، قال: فأي أخلاقه كان أغلب عليه؟ قال: الحلم والأناة. فقال ﷺ: **«هما توأمان ينتجهما علو الهمة»**. وقال: **«قيمة كل امرئ ما يحسن»**، وقال: **«العلم قفل ومفتاحه المسألة»** وكتب خالد بن الوليد إلى مرازبة[٤] فارس: **«أما بعد؛ فالحمد لله الذي فض خدمتكم[٥]، وفرق كلمتكم»** والخدمة الحلقة المستديرة ولذلك قيل للخلاخيل خدام. وقال الحجاج: **«دلوني على رجل سمين الأمانة»**.. ولما عقدت الرئاسة لعبد الله بن وهب الراسي[٦] على الخوارج أرادوه على الكلام، فقال: **«لا خير في الرأي الفطير[٧]»** وقال: **«دعوا الرأي يغب[٨]»**. وقال أعرابي في شكر نعمة: **«ذاك عنوان نعمة الله ﷻ»**، ووصف أعرابي قومًا فقال: **«إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام، وإذا تصافحوا بالسيوف قعد الحمام[٩]»**، وسئل أعرابي عن

---

(١) أي أتباعه قليلون.

(٢) أزدشير أحد ملوك بني ساسان مؤسس الدوله الساسانية في فارس.

(٣) أنوشروان. من أشهر ملوك فارس، اشتهر بالعدل والحكمة، وممن عمروا في الحكم طويلًا.

(٤) مرازبة فارس: أي قوادها وأكابرها. وأجدها: مرزبان.

(٥) خدمتكم: أي حلقتكم. حيث كانوا يتحلقون في مجالسهم ويكون القائد على رأس الحلقة. وفض خدمتهم: كناية عن انفضاض ملكهم.

(٦) وهب الراسي: من زعماء الخوارج الذين خرجوا على عليّ ﷺ، قتل في موقعة النهروان.

(٧) الفطير: كل ما أعجل به قبل نضوجه. وخبز الفطير سمي كذلك؛ لأنه أنضج قبل أن يختمر. والرأي الفطير: الرأي الذي أبداه صاحبه على عجل دون أن يتثبت من صوابه.

(٨) يغب: أي يتردد في نفسك وفي وهنك حتى ينضج.

(٩) الحمام: الموت. وقعوده كناية عن وقوعه بهم.

رجل فقال: «**صفرت عياب الود بيني وبينه بعد امتلائها، واكفهرت وجوه كأنت بمائها**[١]»، وقال آخر: «**مَن ركب ظهر الباطل نزل دار الندامة**»، وقيل لرؤبة: كيف خلفت ما وراءك؟ فقال: «**التراب يابس، والمال عابس**».

ومن البديع في الشعر طرق كثيرة قد نقلنا منها جملة لتستدل بها على ما بعدها، فمن ذلك قول امرئ القيس:

وقد اغتدى والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل[٢]

قوله: «**قيد الأوابد**» عندهم من البديع ومن الاستعارة، ويرونه من الألفاظ الشريفة، وعنى بذلك أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيدًا لها، وكانت بحالة المقيد من جهة سرعة إحضاره، واقتدى به الناس، واتبعه الشعراء فقيل: «**قيد النواظر**» و«**قيد الألحاظ**» و«**قيد الكلام**» و«**قيد الحديث**» و«**قيد الرهان**»، وقال الأسود بن يعفر[٣]:

بمقلص عتد جهيز شده ... قيد الأوابد والرهان جواد[٤]

وقال أبو تمام[٥]:

(١) العياب: جمع عيبة. خزانة توضع فيها الثياب وما أشبه. وصفرت: أي خلت. شبه أماكن الود من قلبه بخزانة الثياب، وكنى عن خلو قلبه من الود بخلو الخزانة من الثياب. وماء الوجوه كناية عن البشر والطلاقة. وكونها اكفهرت أي عبست وخلت من البشاشة.

(٢) اغتدى: أي أخرج مبكرًا والطير ما تزال في أعشاشها. والمنجرد: الحصان قصير الشعر، والهيكل: عظيم الجسم. والأوابد: الحمر الوحشية وما ماثلها مما يصاد. يقول أنه يخرج للصيد مبكرا قبل خروج الطير من أوكارها، على حصان ضخم الجثة يدرك الصيد كأن الصيد الذي يطارده مقيد لسرعة حصانه الشديدة.

(٣) الأسود بن يعفر بن عبد الأسود جندل بن نهشل بن دارم. من فحول شعراء الجاهلية.

(٤) مقلص: ضامر البطن يخيل إلى الناظر إليه أن قوامه أطول من المعتاد لشدة ضمور بطنه وهي صفة جيدة في الخليل. عتد: قوي الجسم سريع العدو.

(٥) أبو تمام: حبيب بن أوس من قيس من بني طيء، ولد بقرية من قرى دمشق في خلافة الرشيد. وكان من المجيدين، ويمتاز بسرعة البديهة وجودة التخلص.

لها منظر قيد الأوابد لم يزل يروح ويغدو في خفارته الحب[١]

وقال آخر:

ألحاظه قيد عيون الورى فليس طرف يتعداه[٢]

وقال آخر:

قيد الحسن عليه الحدقا[٣]

وذكر الأصمعي[٤] وأبو عبيدة[٥] وحماد[٦]، وقبلهم أبو عمرو[٧] أنه[٨]

---

(١) قيد الأوابد: قيد النواظر إذا وقعت عليه العيون التزمته لحسنه كأنها قيدت عنده أو كأنه قيد لها يمنعها من التحول عنه. يقول الشاعر: أن المرأة لها منظر من شدة جماله يقيد العيون فلا تفارق. وجمالها يروح ويجيء والحب يمشي في ركابه أينما راح وجاء. وفي خفارته: أي حراسته.

(٢) ألحاظه: نظراته السريعة. يقول الشاعر: إن نظراته تجذب عيون الناس إليه فتلزمه ولا تنتقل عنه لجماله وتأثير نظراته.

(٣) الحدق: جمع حدقة وهي السواد المستدير وسط العين. والمراد به العيون. يقول: إن حسنه جعل العيون لا تفارقه كأنها مقيدة عنده.

(٤) الأصمعي هو: عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع. أبو سعيد الأصمعي. من أعلام الأئمة في اللغة والغريب والأخبار والملح والنوادر. توفى سنة ست عشرة - وقيل خمس عشرة - ومائتين.

(٥) أبو عبيدة هو: معمر بن المثنى اللغوي البصري، مولى بني تيم رهط أبي بكر الصديق ﷺ. ولد سنة اثنتي عشرة ومائة، ومات سنة تسع ومائتين. كان أعلم الناس بالأنساب.

(٦) حماد هو: حماد بن سلمة بن دينار. شيخ أهل البصرة في العربية. كان إماما في الحديث ثقة، روى له مسلم والأربعة. كان زاهدا حجة شديدا على المبتدعة. توفي سنة سبع وستين ومائة.

(٧) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد اللّٰه المازني. أحد القراء السبعة المشهورين. إمام البصرة في القراءات والنحو واللغة. توفي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - سنة أربع وخمسين ومائة.

(٨) أي: امرأ القيس.

أحسن في هذه اللفظة(١)، وأنه اتبع فيها فلم يلحق. وذكروه في باب الاستعارة البليغة(٢).

وسماها بعض أهل الصنعة باسم آخر، وجعلوها من باب الإرداف(٣)، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له وردف وقالوا: ومثله قوله(٤):

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل(٥)

وإنما أراد ترفَهَا بقوله: «**نؤوم الضحى**».

ومن هذا الباب قول الشاعر(٦):

بعيدة مهوى القـرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم(٧)

وإنما أراد أن يصف طول جيدها، فأتى بردفه.

ومن ذلك قول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله(٨)

---

(١) المراد جملة: قيد الأوابد. وأنها من إبداعه، وأن الذين قلدوه فيها لم يأتوا بمثلها في الحسن. وإنما لم يأتوا بمثلها لأنهم وقفوا بها عند التقليد، ولم يجددوا أو يضيفوا إليها.

(٢) أي ذكروا قوله: قيد الأوابد.

(٣) الإرداف من الكناية. وهو أن يعدل المتكلم عما يتكلم عنه ويأتي بما يرادفه وبما هو لازم له. مثل وصفهم الرجل بأنه طويل نجاد السيف. كناية عن طوله هو.

(٤) أي امرأ القيس. فالضمير الأول لـ: قيد الأوابد، والثاني لامرئ القيس.

(٥) كنى عن ترفها وثرائها وكثرة الخدم عندها، بأنها تنام حتى الضحى. ولا تبكر كما يبكر من يخدمن أنفسهن. ولم تلبس ملابس العاملات. وإنما تلبس ملابس الثريات المترفات اللواتي لا يعملن.

(٦) القائل عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي الغَزِل.

(٧) مهوى القرط: هو الكتف. وكونه بعيدا عن القرط دليل على طول الجيد وهو العنق.

(٨) السدول: الأستار. ومنه: أسدل علي الستر: أي أرخاه. يشبه ظلام الليل من حوله كأنه أستار أسدلت عليه فحجبت الضوء عنه.

وذلك من الاستعارة المليحة. ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[١]، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[٢].

* * *

● ٢ ـ التشبيه:

ومما يعدونه من البديع التشبيه الحسن كقول امرئ القيس:

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزعُ الذي لم يثقب[٣]

وقوله:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا ... لدى وكرها العناب والحشف البالي[٤]

واستبدعوا تشبيه شيئين بشيئين على حسن تقسيم، ويزعمون أن أحسن ما وُجد في هذا للمحدثين قول بشار[٥]:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه[٦]

(١) سورة مريم. بعض آية: ٤.
(٢) سورة الإسراء. بعض آية: ٢٤.
(٣) الجزع: نوع من الخرز اليماني فيه سواد وبياض. يقول: إنه ضرب خيمته ليلا. واجتمعت الوحوش حول الخيمة تلمع عيونها في الظلام مثل لمعان ذلك الخرز اليماني.
(٤) العناب: نوع من التمر أحمر. الحشف: التمر الجاف الرديء. ومنه قولهم: أحشفا وسوء كيلة. يشبه الشاعر فرسه بعقاب يأكل الطير ويرمي بقلوبها حول وكره، حتى صارت حول وكره كثيرة منها الرطب ومنها اليابس.
(٥) بشار بن برد شاعر أعمى مطبوع، كان مولى من الموالي وكان يرمى بالزندقة. وهو القائل:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

(٦) النقع: الغبار يثار فيملأ الفضاء. يشبه المعركة والغبار الذي تثيره أرجل الخيل وقد ملأ الفضاء حولهم حتى أظلم الجو من شدة الغبار، والسيوف تلمع وتبرق وهي ترتفع وتهوي في أيدي الفرسان، يشبه هذا بليل تتهاوى كواكبه.

وقد سبق امرؤ القيس إلى صحة التقسيم في التشبيه، ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل.

وكذلك عدُّوا من البديع قول امرئ القيس في أذني الفرس:

وسامعتان يعرف العتق فيهما كسامعتي مذعورة وسط ربرب(١)

واتبعه طرفة فقال فيه:

وسامعتان يعرف العتق فيهما كسامعتي شاة بحومل مفرد(٢)

ومثله قول امرئ القيس في وصف الفرس:

وعينان كالماويتين ومحجر إلى سند مثل الصفيح المنصب(٣)

وقال طرفة في وصف عيني ناقته:

وعينان كالماويتين استكنتا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد(٤)

ومن البديع في التشبيه قول امرئ القيس:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل(٥)

وذلك في تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء أحسن فيها.

---

(١) وسامعتان: أي أذنان تتصنتان. والعتق: العراقة والأصالة. والربرب: قطيع بقر الوحش. يشبه أذني فرسه وقد ارتفعت تتصنت بأذني بقرة مذعورة من بقر الوحش.

(٢) الحومل: اسم مكان. يشبه أذني فرسه المتصنتتان بأذني شاة وحيدة خائفة بمكان يكثر فيه الوحوش اسمه حومل.

(٣) الماوية: المرآة الصافية كالما الصافي. والمحجر مكان العين من الوجه. والصفيح المنصب: الحجارة المثبتة.

(٤) استكنتا: اختبأتا. والحجاجان: منبت شعر الحاجبين. والقلت: النقرة في أرض أو بدن. وقلت العين: نقرتها في الوجه.

(٥) الأيطلان: الخاصرتان. والخاصرة: هي ما بين أعلى الورك وأسفل الأضلاع. والإرخاء: نوع من الجري السريع السهل. والتقريب: وضع الرجلين موضع اليدين في العدو. والتتفل: ولد الثعلب.

ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾[١]، وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾[٢]، ومواضع نذكرها بعد هذا.

* * *

ومن البديع في الاستعارة قول امرئ القيس[٣]:

وليل كموج البحر أرخى سُدُولَهُ ... عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلتُ له لما تمطَّى بصلبه ... وأردفَ أعجازًا وناءَ بكلكل[٤]

وهذه كلها استعارات أتى بها في ذكر طول الليل. ومن ذلك قول النابغة:

وصدر أراح الليل عازبَ همّه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب[٥]

فاستعاره من إراحة الراعي إبله إلى موضعها التي تأوي إليها بالليل. وأخذ منه ابن الدمينة فقال:

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم والليل جامع

---

(١) سورة الرحمن ـ جَلَّ وَعَلَا ـ. الآية: ٢٤.

(٢) سورة الصافات. الآية: ٤٩.

(٣) امرؤ القيس: هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو ابن معاوية بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة. في الطبقة الأولى من فحول شعراء الجاهلية. صاحب المعلقة المشهورة التي تبدأ بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وسيأتي شرح ونقد لقصيدته.

(٤) الصلب: الظهر. والإعجاز: مؤخرة الجسم. الكلكل: الصدر. يشبه الليل في هبوطه عليه بالبعير حال نزوله على الأرض.

(٥) أراح: رد وأعاد. كقوله ﷺ في الطير: «تغدو خماصًا وتروح بطانًا»؛ أي: تعود إلى أعشاشها. وعازب همه: تعيد همه، من عزب إذا بعد وفارق. يقول: وصدر جاء الليل فأعاد إليه الهم الذي كان قد فارقه طوال النهار.

ومن ذلك قول زهير(١):

صحا القلب عن ليلي وأقصر باطله وَعُرّيَ أفراسُ الصبا ورواحله(٢)

من ذلك قول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلُها سموَّ حباب الماء حالاً على حال(٣)

وأخذه أبو تمام فقال:

سموَّ عباب الماء جاشَتْ غواربُه(٤)

وإنما أراد امرؤ القيس إخفاء شخصه.

ومن ذلك قوله:

كأني وأصحابي على قرن أغفرا(٥)

يريد لأنهم غير مطمئنين.

ومن ذلك ما كتب إليَّ الحسن بن عبد اللَّه بن سعيد، قال: أخبرني أبي، قال: أخبرنا عسل بن ذكوان، أخبرنا أبو عثمان المازني قال: سمعت الأصمعي(٦) يقول: أجمع أصحابنا أنه لم يُقَلْ أحسنُ ولا أجمعُ من قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُدْركي وإن خلتُ أن المنتأى عنكَ واسعُ(٧)

(١) زهير هو: زهير بن أبي سلمى - واسم أبي سلمى ربيعة - بن رباح بن قرط بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هذمة بن لاطم بن عثمان بن مزينة. من الطبقة الأولى للفحول.

(٢) صحا القلب: أفاق. أقصر باطله: ذهبت هواجس الحب التي كانت تشغله.ويروى عن (سلمى) بدلا من (ليلى)

(٣) يشبه تسلله في الخفاء بفقاقيع الماء إذا صعدت من أسفل الإناء إلى سطحه.

(٤) غوارب الماء: أمواجه، أو أعالي أمواجه، جاشت: ثارت.

(٥) الأغفر: البقرة الوحشية. يشبه اضطرابه وقلقه بالراكب على قرن بقرة الوحش.

(٦) الأصمعي هو: عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي أصمع. أديب لغوي راوية ناقد.ت: ٢١٦.

(٧) يشبه سلطان الممدوح بالليل، من حيث أنه يصل إلى كل مكان، ومن حيث أنه لا يأتي الطارق من جانب واحد، بل يهبط عليه ويشمله من جميع الجوانب فلا يجد له مفرا ولا مهربا.

قال الحسن بن عبد الله: وأخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا عون ين محمد الكندي، أخبرنا قعنب بن محرز قال: سمعت الأصمعي يقول: سمعت أبا عمرو(١) يقول: كان زهير(٢) يمدح السُّوَق(٣)، ولو ضرب على أسفل قدميه مئتا دقل(٤) على أن يقول كقول النابغة(٥):

فإنك كالليل الذي هو مُدْركي وإن خلتُ أنَّ المنتأَى عنك واسعُ

لما قال: يريد أن سلطانه كالليل يصل إلى كل مكان. واتبعه الفرزدق(٦) فقال:

ولو حملتني الريح ثم طلبتني لكنت كشيء أدركتني مقادره

فلم يأت بالمعنى ولا اللفظ على ما سبق إليه النابغة، ثم أخذه الأخطل(٧)

---

(١) هو أبوعمرو بن العلاء.. أحد القراء السبعة المشهورين. ت١٥٤. تقدم التعريف به.

(٢) زهير هو: زهير بن أبي سلمى بن ربيعة المزني. الشاعر الجاهلي ـ سبق التعريف به.

(٣) السوق: بضم ففتح جمع: سوقة. وهم العامة والغاغة.

(٤) الدقل: التمر الرديء. وصاري السفينة يسمى: دقلا. والمراد هنا أردأ أنواع التمر.

(٥) النابغة: هو النابغة الذبياني، أو: نابغة بني ذبيان. واسمه: زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، ويكنى: أبا أمامة. من الطبقة الأولى لفحول الشعراء في الجاهلية.

(٦) الفرزدق: هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية...بن مساجع بن دارم. وكان جده صعصعة عظيم القدر في الجاهلية. اشترى ثلاثين موءودة إنقاذا لهن، حتى جاء الإسلام فأتى صعصعة إلى النبي ﷺ وأسلم. وإنما لقب بالفرزدق لغلظه وقصره، وكنيته أبو فراس. كان شاعرًا مجيدًا، يروى أنه في مرض موته قيل له: اذكر الله، فصمت طويلا ثم قال:

إلى من تفزعون إذا حثوتم بأيديكم علي من التراب

فقالت جارية له: نفزع إلى الله. فقال: أخرجوا هذه من الوصية. وكان قد أوصى لها بمئة درهم..

(٧) الأخطل: واسمه: غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة من بني تغلب. خطله قول كعب بن جعيل له: إنك لأخطل يا غلام: أي سفيها، وكان هجاه هجاء بذيئا. يوضع في الطبقة الأولى من فحول شعراء الإسلام.

فقال:

وإن أميـر المؤمنين وفعلـه لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد رُويَ نحو هذا عن النبي ﷺ: «**نصرت بالرعب، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل**».

وأخذه علي بن جبلة[١] فقال:

وما لامرئ حاولته عنك مهرب ولو كان في جوف السماء المطالعُ

بلى هارب لا يهتدي لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح طالع[٢]

ومثله قول سلم الخاسر[٣]:

فأنت كالدهر مبثوثًا حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هربُ

ولو ملكت عنان الريح أصرفه في كل ناحية ما فاتك الطلب

فأخذه البحتري[٤] فقال:

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجهيم عن خوف بأسك مهربُ

ومن بديع الاستعارة قول زهير:

---

(١) علي بن جبلة. كان شاعرا ضريرا، وكان يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى، فيصل في إغراقه إلى حد الكفر، وهو القائل فيه:

أنت الذي نزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال

وما مددت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

(٢) يقول: إن الذي تطلبه لا يمكن أن يفر منك وسوف تمسك به ولو كان نجما طالعا في السماء.ثم يقول: بلى. أي يمكن أن يهرب منك إذا كان بمكان لا يطلع عليه نهار ولا يسدل عليه ظلام. يريد أنه غير موجود ذلك الذي تطلبه فلا تدركه.

(٣) سلم الخاسر هو: سلم بن عمرو الخاسر، مولى أبي بكر الصديق ﷺ لقب بالخاسر؛ لأنه ورث من أبيه مصحفا فباعه واشترى به طنبورا. فقيل له: إنك لخاسر، فلقب بذلك.

(٤) البحتري: أبو عبادة البحتري وليد بن يحيى بن عبيد بن شملان بن بحتر الطائي.

فلما وردن الماءَ زرقًا جمامه وضعن عِصِيَّ الحاضر المتخيم[١]

وقول الأعشى[٢]:

وإن عتاق العيس سوف يزوركم ثناء على أعجازهن معلق[٣]

ومنه أخذ نصيب[٤] فقال:

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهلُهُ ولو سكتوا أثنَتْ عليك الحقائبُ[٥]

ومن ذلك قول تأبط شرًا[٦]:

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا به كدحه والموت خزيان ينظره[٧]

ومن الاستعارة في القرآن كثير، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٨] يريد

(١) الجمام من الماء: هو الكثير. وزرقته: صفاؤه. المتخيم: الذي يبتني خيمته ليقيم فيها. وإلقاء العصا: كناية عن الإقامة. فإن العصا إنما يعتمد عليها حال المشي والترحال. فإذا ألقاها صاحبها أقام واستقر.

(٢) الأعشى هو: ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة، ويكنى: أبا بصير. من الطبقة الأولى من فحول شعراء الجاهلية.

(٣) بعير عتيق: أصيل. والعيس: الإبل الرواحل. أو ما كان لونه أبيض مشوبا بشقرة. والأعجاز: المؤخرة من كل شيء.

(٤) نصيب: مولى عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص. من فحول الشعراء في الإسلام.

(٥) عاجوا: مالوا إلى المكان فأقاموا به.. والحقائب: جمع حقيبة، ما تحفظ فيه الأشياء.

(٦) تأبط شرا: هو ثابت بن عَمْلَ، وقيل ثابت بن جابر من قبيلة: فهم. كان شاعرا بائسا يغزو على رجليه وحده. وكان مولعا بوصف الغيلان وحكاياتها في شعره.

(٧) لم يكدح: لم يخدشه أو يؤثر فيه. الصفا: جمع صفاة، وهي حجارة ملساء شديدة. يقول: إنه سقط فلامس المكان السهل من الأرض، ولم تؤثر فيه سقطته، ولم تجرحه الحجارة الصلبة، ونجا من الموت الذي كان يتربص به، وكان الموت ينظر إليه ذليلا كاسفا إذ لم يستطع أن يناله.

(٨) سورة الزخرف. بعض آية: ٤٤.

ما يكون الذكر عنه شرفًا. وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[(١)]، قيل دين اللّه أراد، وقوله: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾[(٢)].

* * *

● ٣ ـ الغلو:

ومن البديع عندهم الغلو[(٣)]: كقول النمر بن تولب[(٤)]:

أبقى الحوادث والأيام من نمر ... إسناد سيف قديم أثْرُهُ بادي
تظل تحفر عنه أن ضربتَ به ... بعد الذراعين والقيدين والهادي[(٥)]

وكقول النابغة[(٦)]:

تقدُّ السلوقيَّ المضاعفَ نسجُه ... ويوقدن بالصُّفَّاح نار الحُباحِب[(٧)]

---

(١) سورة البقرة: بعض آية:١٣٨.
(٢) سورة البقرة: بعض الآية:١٦.
(٣) الغلو صورة من صور المبالغة. وهو أن يبالغ في وصف الشيء إلى حد يخرج عن الواقع والإمكان.
(٤) النمر بن تولب، من قبيلة: عُكَل. كان شاعرا جوادًا حسن الشعر عفيفه جاهليًا لقي الرسولﷺ فأسلم، وألقى بين يدي الرسولﷺ شعرا. عاش حتى خرف وأهتر. من ظريف شعره قوله:
أهيم بدعد ما حييت فإن مت ... أوصِّ بدعد من يهيم بها بعدي
(٥) أثره: أثره وسكنت الثاء لضرورة الشعر..يقول: إن ضربة سيفه ما تزال هي الباقية لم تطمسها الأيام والحوادث. فإن ضربه سيفه قدت الرجل وقيده وراحلته وشقت الأرض تحته، وما يزال أثرها في الأرض باقيا.
(٦) النابغة: سبق التعريف به.
(٧) السلوقى: نوع من دروع الحرب منسوب إلى مكان صنعه بالشام، الصفاح: الحجارة العراض. الحباحب: نوع من الذباب يضيء بالليل. يقول: إن ضربة سيفه لقوتها تقطع درعه المضاعف، وتنفذ منه إلى الحجارة فتصدر شررا يضيء كما تضيء الحباحب في الظلام.

وكقول عنترة(١):

فازورَّ من وَقْع القَنا بلَبانه وشكا إليَّ بعَبْرة وتحمحُم(٢)

وكقول أبي تمام(٣):

لو يعلم الركن مَن قد جاء يلثمه لخرَّ يلثم منه موطئ القدم(٤)

وكقول البحتري(٥):

ولو أن مشتاقًا تكلَّف فوق ما في وسعه لمشى إليك المنبرُ(٦)

ومن هذا الجنس في القرآن: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾(٧)، وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢﴾(٨)،

---

(١) عنترة بن عمرو بن شداد. من بني عبس بن بغيض. غلب عليه اسم جده شداد، وإنما هو ابن عمرو. كان عبدا شجاعا جريئا شاعرا. ادعاه أبوه بعد ما رأى من شجاعته. وهو من أشعر العرب في الفخر.

(٢) ازور: مال وانحرف يتفادى الرماح. القنا: الرماح. لبانه: صدره. العبرة: تردد صوت البكاء في الصدر. الحمحمة: صوت الخيل دون الصهيل..

(٣) أبو تمام: سبق التعريف به.

(٤) مبالغة مذمومة ممقوتة. وهي وإن حسنت بلاغيا، فأنها ساءت دينا وشرعا؛ لأن الركن مما شرع الرسول ﷺ لثمه وتقبيله. ولقد لثمه رسولﷺ فأي من الناس أفضل من رسول الله ﷺ حتى يخر الركن ليقبل موطئ قدمه؟ ولو قال يقلبه لكان أقل سوءًا من قوله يقبل موطئ قدمه، وما كان لمكان قبَّله سيد الخلق، يخر ليقبل مواطئ أقدام إنسان مهما كان؟. ما كان أحرى بالمؤلف أن ينزه كتابا كهذا من مثل هذا البيت. لكن يبدو أن تأثير الشعر كان في المؤلف ـ رحمه الله وعفا عنا وعنه ـ أبلغ.

(٥) البحتري سبق التعريف به.

(٦) مبالغة ذميمة. لكنها أقل سوءا من مبالغة أبي تمام السابقة؛ لأن المنابر عديدة، أما الركن فواحد متعين.

(٧) سورة ق. الآية: ٣٠.

(٨) سورة الفرقان. الآية: ١٢.

وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[(١)].

* * *

● ٤ ـ المماثلة:

ومما يعدُّونه من البديع المماثلة[(٢)]. وهو ضرب من الاستعارة، وذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى، فيضع ألفاظًا تدل عليه، وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذي قصد الإشارة إليه، ونظيره من المنثور، أن يزيد بن الوليد بلغه أن مروان ابن محمد يتلكأ عن بيعته، فكتب إليه: «**أما بعد فإني أراك تقدم رجلًا**

---

(١) سورة الملك. بعض الآية: ٨.
والآيات الكريمات الثلاث اللواتي ذكرهن المؤلف ـ عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنْهُ ـ على أن ما ورد فيها هو من الغلو الذي يخرج عن حد الواقع.. قد أخطأ المؤلف في إيرادها تحت هذا الموضوع، ووصف ما فيها بأنه غلو أو حتى مبالغة. فإن اللّه ـ تَعَالَى ـ لا يذكر شيئا على هيئة الخبر إلا وهو واقع لا محالة. ونعوذ بالله أن نكون ممن يكذب بشيء أخبر اللّه ـ تَعَالَى ـ بوقوعه. وأي شيء غريب مستحيل فيما أخبر اللّه ـ تَعَالَى ـ في هذه الآيات الثلاث. أهو خطاب اللّه ـ تَعَالَى ـ لجهنم وجوابها لربها ـ سُبْحَانَهُ ـ، أم أن تميزها من الغيظ عند قرب الكافرين منها ورؤيتها إياهم؟ وهل يعجز اللّه ـ تَعَالَى ـ عن أن يجعل جهنم تنطق، وهو القائل ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]. أليس هو الذي ينطق الجوارح تشهد على أصحابها يوم الحساب؟ وفي دنيانا ألم ينطق الحصى مسبحا في يد النبي ﷺ، ألم يشقق القمر؟؟ ألم ينطق الضب شهادة لرسوله ﷺ؟ إن هذا الإتجاه من المؤلف ـ يجعله يمشي في ركاب الفلاسفة الذين جعلوا للقرآن ظاهرًا وباطنا، وضربوا بآيات القرآن عرض أهوائهم وأغراضهم. وعجيب أن يكون ذلك في كتاب وضع ليكون بيانا للقرآن ودفاعا عنه.

(٢) المماثلة ضرب من السجع تتماثل فيه ألفاظ الكلام دون التقفية. مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦] هذا ما اصطلح عليه الجمهور في تعريف المماثلة. لكن المؤلف يريد هنا بالمماثلة: (الاستعارة التمثيلية) كما اتضح ذلك من تعريفه إياها ومن الأمثلة التي ضربها.

وتؤخر أخرى، **فاعتمد على أيتهما شئت**»[١]، وكنحو ما كتب به الحجاج إلى المهلب: «**فإن أنت فعلت ذاك وإلا أشرعت إليك الرمح**». فأجاب المهلب: «**فإن أشرع الأمير الرمح قلبت إليه ظهر المجن**»، وكقول زهير:

ومن يَعْصِ أطرافَ الزجاج فإنه يُطيعُ العوالي رُكِّبت كل لهذم[٢]

وكقول امرئ القيس:

وما ذرَّفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل[٣]

وكقول عمرو بن معدي كرب:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت. ولكن الرماح أَجَرَّت[٤]

وكقول القائل:

بني عمِّنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا[٥]

---

(١) قيل في توضيح معنى الجملة التي ذهبت مثلا في التردد. إن المراد: تقدم رجلا وتؤخرها تارة أخرى. فحذف الضمير العائد وما يتعلق به. والحذف هنا هو مناط الجمال في العبارة.

(٢) الزجاج: جمع زج. وهو قطعة من الحديد توضع في الرمح من أسفل. والسن اللهذم: السن الطويل. وكان إذا اختلف اثنان وجه كل منهما إلى صاحبه زج رمحه. أي وجه إليه مؤخرة الرمح دلالة على الاستعداد للقتال. فإذا صالحه صاحبه، وإلا وجه كل منهما إلى صاحبه سن الرمح فاقتتلا.

(٣) ذرفت عيناك: أدمعتا. بسهميك: يقصد عينيها. أعشار: قطع. مقتل: المطيع المستسلم. يريد: ما بكيت إلا لتجعلي من دموعك سهاما تصيب قلبي العليل.

(٤) أجرَّ الفَصيل: شق لسانه ليمنعه من الرضاعة حين يريد فطامه. وأيضا: وضع في فمه عود مستعرض ليمنعه من الرضاع. وأجرَّ الرمح: ضرب به وتركه في جسد القتيل فلم ينزعه. يقول: لو أن قومه قاتلوا بشجاعة لقال فيهم شعرًا، لكن جبنهم وفرارهم كان كالجرار التي منعته من الكلام.

(٥) صحراء الغمير: مكان. يقول إنهم بفعلتهم المخزية بصحراء الغمير جعلته يستحيي أن يقول الشعر.

وكقول الآخر:

أقول وقد شدُّوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا(١)

ومن هذا الباب في القرآن (كثير)؛ كقوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾(٢)، وكقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾(٣) قال الأصمعي: «**أراد البدن**»، قال: «**وتقول العرب**: «**فِدَى لك ثوباي**» يريد نفسه، وأنشد:

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخي ثقة إزاري

* * *

● ٥ ـ المطابقة:

ويرون من البديع أيضًا ما يسمونه المطابقة(٤)، وأكثرهم على أن معناها أن يذكر الشيء وضده: كالليل والنهار، والسواد والبياض، وإليه ذهب الخليل بن أحمد(٥) والأصمعي(٦)، ومن المتأخرين عبد اللَّه بن المعتز(٧)، وذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور ما قاله بعضهم: (أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فادخلتنا في

(١) النسع والنسعة: سير يجدل عريضا تشد به الرحال.

(٢) سورة البقرة. الآية:١٧٥.

(٣) سورة المدثر. الآية: ٤.

(٤) هي الجمع بين لمعنيين متقابلين مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقوله ـ سُبۡحَانَهُ ـ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة: ٢٨].

(٥) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري. المكنى أبا عبد الرحمن. أول من استخرج العروض، وحصر أشعار العرب بها. وكتب كتاب (العين) الشهير. توفي سنة خمسة وسبعين ومئة.

(٦) الأصمعي: سبق التعريف به.

(٧) عبد اللَّه بن المعتز: أحد الخلفاء العباسيين،كان يتعاطى الشعر عن ذوق. توفى سنة ست وتسعين ومئتين مقتولا بعد أن تولى الخلافة يوما وليلة.

ضيق الضمان).

ونظيره من القرآن: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[(١)]، وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾[(٣)]، ومثله كثير جدًّا.

وكقول النبي ﷺ للأنصار: «**إنكم تكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع**»[(٤)].

وقال آخرون: بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة، وإليه ذهب قدامة ابن جعفر الكاتب[(٥)]، فمن ذلك قول الأفوه الأودي[(٦)]:

وأقطع الهوجل مستأنسا بهوجل مستأنس عنتريس[(٧)]

عني بالهوجل الأول الأرض وبالثاني الناقة. ومثله قول زياد الأعجم[(٨)]:

ونبئتهم يستنظرون بكاهل وللؤم فيهم كاهل وسنام[(٩)]

---

(١) سورة البقرة. بعض آية: ١٧٩.

(٢) سورة يونس. بعض آية: ٣١، وسورة الروم. بعض آية: ١٩.

(٣) سورة الحج. بعض آية: ٦١. وسورة لقمان. بعض آية: ٢٩ ـ وسورة فاطر. بعض آية:١٣ ـ وسورة الحديد. بعض آية:١٣.

(٤) كنز العمال. من حديث طويل عن أنس رضي الله عنه ١٤ ـ ٦٦.

(٥) قدامة بن جعفر الكاتب: أديب لغوي ناقد، مؤلف كتاب: نقد الشعر. توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

(٦) الأفوه الأودي: هو صلاءة بن عمرو، من مُذْحَج، ويكنى أبا ربيعة. كان جيد الشعر في الحكم. وهو القائل:

لا يصلح الخلق فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

(٧) الهوجل: من صفات الأرض. وصفات الناقة. والعنتريس: الناقة القوية.

(٨) زيادة الأعجم: هو زياد بن سليم العبدي، كان رجلا هجاء قليل المديح للملوك والوفادة عليهم. صنفه صاحب طبقات الفحول في الطبقة السابعة من فحول الإسلام.

(٩) الكاهل: ما بين الكتفين في الإنسان. وأعلى الظهر مما يلي العنق في الخيول. وهو أيضا اسم قبيلة. أراد بكاهل الأولى القبيلة. وبالثانية مكانه من البعير.

ومثله قول أبي داود:

عـهـدت لـهـا مـنـزلًا داثـرًا وآلا عـلـى الماء يـحـمـلـن آلا

فالآل الأول: أعمدة الخيام تنصب على البئر للسقي، والآل الثاني: السراب، وليس عنده[1] قول مَن قال: «**المطابقة إنما تكون باجتماع الشيء وضده**» بشيء.

ومن المعنى الأول قول الشاعر:

أهين لهم نفسي لأكرمها بهم ولن تكرم النفس التي لا تهينها

ومثله قول امرئ القيس:

وتردى على صمٍّ صلابٍ ملاطس شديدات عقد لينات متان[2]

وكقول النابغة[3]:

ولا يحسبون الخيرَ لا شرَّ بعده ولا يحسبون الشرَّ ضربة لازب[4]

وكقول زهير[5] وقد جمع فيه طباقين:

بـعـزمـة مـأمـور مـطـيـع، وآمـر مطاع، فلا يُلفَى لحزمهم مثل

وكقول الفرزدق[6]:

---

(١) أي عند قدامة بن جعفر الكاتب.

(٢) صم صلاب: حجارة مصمتة شديدة. ملاطس: جمع ملطس. والملطس والملطاس حجر ضخم كانوا يدقون به النوى. والمراد أنها حجارة قوية. شديدات عقد: محكمة التكوين. من: عقدت الحبل، أو عقدت السائل: غلظته بالتبريد أو التسخين، متان: جمع متن. والمتن صلب الشيء.

(٣) النابغة: سبق التعريف به.

(٤) ضربة لازب: أي أمر ضروري الوقوع. وهي هنا تماثل: (لازم) بالميم. وفي التنزيل العظيم يقول ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات: ١١]؛ أي: طين متماسك.

(٥) زهير: سبق التعريف به.

(٦) الفرزدق: سبق التعريف به.

والشيب ينهضُ في الشباب كأنه ليلٌ يصيح بجانبَيْه نهارُ

ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير[١]:

وباسط خيرٍ فيكم بيمينه وقابض شرٌ عنكم بشماليا[٢]

وكقول رجل من بلعبر[٣]:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانًا

وروي عن الحسن[٤] بن علي ـ رضي اللَّه عنهما ـ أنه تمثل بقول القائل:

فلا الجود يُفني المالَ والجدُّ مقبلٌ ولا البخلُ يُبقي المالَ والجدُّ مدبرُ

وكقول الآخر:

فسرِّي كإعلاني وتلك سجيَّتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهاريا

وكقول قيس بن الخطيم[٥]:

---

(١) جرير شاعر أموي مشهور توفي عام ١١١هـ، واسمه: جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر ابن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع. كان شاعرًا مجيدًا، وكان هو والفرزدق فرسي رهان، إذا ذكرا في مجلس قل أن يتفق المجلس على واحد منهما.

(٢) ويمكن أن يكون في البيت أربع تطبيقات. كل لفظة من الأربعة في الشطر الأول يقابلها لفظة من الأربعة في الشطر الثاني. فباسط: يقابلها: قابض، وخير: يقابلها: شر، وفيكم: يقابلها: عنكم، وبيمينه: يقابلها: بشماليا.

(٣) بلعبر: أي من قبيلة اسمها: بني العنبر، فهو تركيب مزجي. واسم الشاعر: قريظ بن أنيف، وهو من شعراء الحماسة.

(٤) الحسن بن علي بن أبي طالب، هو السبط الأكبر من السبطين سيدي شباب أهل الجنة ـ رضي اللَّه عن الجميع ـ. ولد ﷺ بعد الهجرة الشريفة بستة أشهر، وقيل: بسنتين وقيل: بثلاث. وهو الأشهر. ولي الخلافة بعد استشهاد أبيه ثم تنازل عنها لمعاوية ـ رضي اللَّه عن الجميع ـ حقنا لدماء المسلمين.. توفي ﷺ في شهر صفر من سنة خمسين للهجرة. وقيل غير ذلك.

(٥) قيس بن الخطيم: يذكره بعضهم في الصحابة. لكن الصحيح أنه لم يعلم إسلامه. قدم مكة على رسول اللهﷺ فدعاه النبيﷺ إلى الإسلام وتلى عليه شيئا من القرآن المجيد. =

إذا أنت لم تنفع فضر، فإنما يُرجَى الفتى كَيْمَا يضرَّ وينفعا

وكقول السموأل(١):

وما ضرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ، وجارُ الأكثرين ذليلُ

فهذا باب يرونه من البديع.

* * *

٦ ـ التجنيس:

وباب آخر وهو التجنيس، ومعنى ذلك أن تأتي بكلمتين متجانستين، فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف حروفها وإليه ذهب الخليل(٢).

ومنهم مَن زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق، كقوله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾(٣)، وكقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾(٤)،

= فقال قيس: إني لأسمع كلاما عجيبا فدعني أنظر في أمري هذه السنة ثم أعود إليك الحول القادم. فمات قبل الحول. وكانت وفاته عام ٧هـ.

(١) السموأل بن عاديا. شاعر جاهلي مجيد. يضرب به المثل في الوفاء لقصته المعروفة مع امرئ القيس الذي استودعه أمواله ودروعه. وجاء الحارث بن ظالم المري فأسر ابن السموأل، وخيره بين أن يسلم أموال امرئ القيس ودروعه وأن يقتل ابنه. فاختار السموأل الأمانة وأسلم ابنه للقتل، فضرب به المثل في الوفاء. وقد كان السموأل يهوديا واسمه يرجع إلى أصل عبراني هو: شمويل أو صمويل وحرفته العرب إلى السموأل. ومن طبع اليهود الغدر والخيانة. لكن السموأل غلبت عليه النخوة العربية فخالف أهل دينه ووفى بعروبته. والبيت المذكور من عيون الأدب في الفخر. وقبل البيت المذكور يقول السموأل:

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

وما قل من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول

(٢) الخليل بن أحمد: سبق تعريفه.

(٣) سورة الروم. بعض آية:٤٣.

(٤) سورة النمل. بعض آية: ٤٤.

وكقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[١]، وكقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾[٢]، وكقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[٣]، وكقول النبي ﷺ: «أسلَم، سالمها الله، وغفار، غفر الله لها، وعصية، عصت الله ورسوله»[٤]، وكقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[٥]وقوله: «لا يكون ذي الوجهين وجيهًا عند الله»[٦]... وكتب بعض الكتاب: «العذر مع التعذر واجب، فرأيك فيه». وقال معاوية[٧] لابن عباس[٨]: «ما لكم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم؟» فقال: «كما تصابون في بصائركم»[٩]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «هاجروا ولا تهجروا»، ومن ذلك قول قيس بن عاصم[١٠]:

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة ... كسته نجيعًا من دم الجوف أشكلا[١١]

---

(١) سورة يوسف عليه السلام. بعض آية: ٨٤.

(٢) سورة الأنعام. بعض آية: ٨٢.

(٣) سورة الأنعام. بعض آية: ٢٦.

(٤) أخرجه البخاري رضي الله عنه عن عبد الله بن عمرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - كتاب فضائل الصحابة.

(٥) أخرجه مسلم، وأحمد، والدارمي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -. عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) أخرجه البيهقي رضي الله عنه في الآداب عن أبي هريرة رضي الله عنه وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة.

(٧) معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه صحابي من أصحاب الرسول ﷺ وكاتب من كتاب وحيه - أول خلفاء بني أمية. توفي عام ٦٠هـ.

(٨) عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -. ابن عم رسول الله ﷺ. حبر الأمة وفقيهها. عمر طويلا وكف بصره في أخريات حياته.

(٩) الأبصار: جمع بصر. وهو ما يكون بالعين. والبصائر: جمع بصيرة. والمراد بها: ذكاء العقل، وشفافية النفس، وقوة الإيمان، وإخلاص اليقين. عير معاوية ابن عباس بآفة العين. فعيره ابن عباس بضعف الإيمان وآفة القلب والعقل.

(١٠) قيس بن عاصم بن سنان من تميم. صحابي جليل.
وفد قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال فيه الرسول: هذا سيد أهل الوبر.

(١١) حفزنا: دفعنا وطعنا. يقال: حفزه بالرمح: طعنه به. الحوفزان: اسم لمحارب. والنجيع: دم الجوف. يقال: طعنه تمج النجيع. والأشكل: الدم المختلط بغيره.

وقال آخر:

أمـل عـلـيـهـا بـالـبـلـى الملـوان(١)

وقال الآخر:

وذاكـم أن ذلَّ الجار حالفكـم وأن أنوفكم لا تعرف الأنفا(٢)

وكتب إلي بعض مشايخنا قال: أنشدنا الأخفش(٣) عن المبرد(٤) عن التوزي(٥):

وقالوا: حمامات فحمَّ لقاؤها وطلـح فزيـرت والمطـي طـلـوح
عقاب بأعقاب من النَّأي بعدما جرت نية تنسي المحب طروح
وقال صحابي: هدهد فوق بانة هـدًى وبـيـان بـالـنـجـاح يـلـوح
وقالوا: دم، دامت مواثيق عهده ودام لنا حسن الصفاء صريح(٦)

---

(١) أملّ: أكثر عليه حتى جعله يمل. والملوان: الليل والنهار، أو طرفا النهار. يقال: لا أفعل هذا ما اختلف الملوأن، أي لا افعله أبدا.

(٢) ذل الجار: كناية عن ذلهم. كانت العرب تكني عن ذل القبيلة بذل جارها. والمراد بالأنف الأولى: حاسة الشم. والأنفا: العزة والإباء والغضب للكرامة.

(٣) الأخفش: هو عبد الحميد بن عبد المجيد أبو الخطاب الأخفش الأكبر، أحد الأخافشة الثلاثة المشهورين. لقي الأعراب وأخذ عنهم، وتلقى عن الأئمة الكبار للعربية كسيبوية ويونس والكسائي، كان ديِّنًا ورعا، وأول من فسر القصيدة بيتا بيتا. وكانوا قبل ذلك يفسرونها جملة.

(٤) المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر البصري المعروف بالمبرد. نزل بغداد، وكان إماما في النحو واللغة، مات سنة خمس وثماين ومئتين ودفن بمقابر باب الكوفة.

(٥) التوزي هو: عبد اللّه بن محمد بن هارون التوزي. من أكابر أئمة اللغة. صنف كتاب: الخليل، الأمثال، الأضداد. مات سنة ثلاث وثلاثين ومئتين.

(٦) حمَّ: قرب ودنا، الطلح: شجر عظيم من أشجار الصحراء ترعاه الإبل. والمطي طلوح: أي مجهدة هزيلة من شدة السير أو جائعة. يقال: طلح البعير إذا خلا جوفه من الطعام. النأي: البعد. والنية: التحول من مكان إلى آخر. طروح: كثيرة. البأنة: شجرة البأن. وهو =

وقال آخر:

أقبلن من مصرَ يبارين البرى[١]

وقال القطامي[٢]:

ولما ردها في الشول شالت بذيّال يكون لها لفاعا[٣]

وقد يكون التجنيس بزيادة حرف أو ما يقارب ذلك، كقول البحتري[٤]:

هل لما فات من تلاق تلاف أم لشاك من الصبابة شاف

وقال ابن مقبل[٥]:

يمشين هيل النقا مالت جوانبه ينهال حينًا وينهاه الثرى حينًا[٦]

وقال زهير:

هم يضربون حَبِيك الْبَيْض إذ لحقوا لا ينكلون إذا ما استلحموا وحموا[٧]

= شجر لين القوام.

(١) البُرى: جمع بُرَه، وهي حلقة من حديد أو نحاس توضع في أنف البعير لتذليله. وتطلق أيضا على كل حلقة من السوار والقرط والخلخال مما يوضع لزينة المرأة. يقول: إن الإبل لشدة سرعتها كانت كأنها تسابق الحلقات التي وضعت في أنوفها. وهذا أيضا يدخل في باب الغلو الذي سبق الكلام عنه.

(٢) القطامي، واسمه: عمرو بن شُيَيْم بن عمرو بن حبيب بن عمرو بن غَنم بن تغلب. شاعر فحل، رقيق الحواشي، حلو الشعر.

(٣) الشَّوْل: أن ترفع الناقة ذيلها وتحركه عند إرادة اللقاح. يقال: شالت الناقة بذنبها. والشول أيضا: بقية اللبن الذي في الضرع. والذَّيَّال: الذيل الطويل. واللفاع: ما يتلفع به. وما يغطَّى به الجسم كله. ثوبا أو غيره..

(٤) سبق التعريف به.

(٥) ابن مقبل: تميم بن أبي مقبل من بني العجلان، كان شاعرا مجيدا. وأجود ما يكون شعره في القدح.

(٦) النقا: الكثيب من الرمل. وهيل النقا: الكثيب من الرمل الذي تتناثر جوانبه وتتساقط.

(٧) البيض: جمع بيضة وهي الخوذة من حديد أو نحوه تلبس في الحرب. وحبيك البيض: أي =

ومن ذلك قول أبي تمام:

يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصم ... تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضب(١)

وأبو نواس يقصد في مصراعي مقدمات شعره هذا الباب كقوله:

ألا دارها بالماء حتى تلينها ... فلن تكرم الصهباء حتى تهينها

وكذلك قوله:

ديار نوار ما ديار نوار ... كسونك شجوًا هن منه عوار(٢)

وكقول ابن المعتز:

سأثني على عهد المطيرة والقصر ... وأدعوا لها بالساكنين وبالقطر

وكقوله:

هي الدار إلا أنها منهم قفر ... وأني بها ثاو وأنهم سفر

وكقوله:

للأماني حديث يغر ... ويسوء الدهر مَن قد يسر

وكقول المتنبي:

وقد أراني الشباب الروح في بدني ... وقد أراني المشيب الروح في بدلي

وقد قيل: إن من قبيل قوله ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾(٣)، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم

= القوي المتين منها. لا ينكلون: لا يحجمون إذا حميت الحرب وتلاحم المقاتلون.

(١) عواص: جمع عاصية. أي أن أيديهم عاصية للأعداء لا تلين لهم. ويمكن أن يكون ثناء بالشرف والمكرمة، بأن ينكلون عواص لكل ما يخدش الكرامة والعزة، وعواصم: جمع عاصمة. وهي اليد التي تحمي زمارها وتمنع جارها. وقواض: قاضيات على العدو، قواضب: قواطع. ضرباتها قاطعة مستأصلة.

(٢) الشجو: الحزن، شجاه الأمر: أحزنه. عوار: خاليات منه.

(٣) سورة الأنبياء. الآية: ٣٧.

مِّن دُونِهِۦ﴾[١].

* * *

٧ ـ المقابلة:

ويعدون من قبيل البديع المقابلة، وهي: أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده، وذلك مثل قول النابغة الجعدي[٢]:

فتى تم فيه ما يسر صديقه   على أن فيه ما يسوء الأعاديا

وقال تأبط شرًّا:

أهز به في ندوة الحي عطفه   كما هز عطفي بالهجان الأوارك[٣]

وكقول الآخر:

وإذا حديث ساءني لم أكتئب   وإذا حديث سرني لم أسرر

وكقول الآخر:

وذي أخوة قطعت أقران بينهم   كما تركوني واحدًا لا أخا ليا

ونظيره من القرآن: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ

---

(١) سورة الزمر. الآية:١٤. وبعض الآية:١٥.

(٢) النابغة الجعدي، أو نابغة بني جعدة: قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، من فحول الشعراء في الجاهلية. عمر طويلا. قال يؤرخ لعمره الذي بلغ مئة واثنتا عشرة سنة:

أتت مئة لعام ولدت فيه   وعشر بعد ذاك وحجتان

(٣) ندوة الحي: مكان اجتماع الحي، أو اجتماع ساداته. وعطفا الرجل: جانباه. وهز العطف كناية عن الشعور بالفخر والعزة. والهجينة: هي الناقة الأصيلة. والأوارك: القوية الأوراك. إشارة إلى قوتها وسرعتها.

عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾[١].

* * *

٨ ـ الموازنة:

ويعدون من البديع الموازنة وذلك كقول بعضهم: اصبر على حر اللقاء، ومضض النزال، وشدة المصارع.

وكقول امرئ القيس:

سليم الشَّظا عبل الشوى شنج النَّسا[٢]

ونظيره من القرآن: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾[٣].

* * *

٩ ـ المساواة:

ويعدون من البديع المساواة، وهي أن يكون اللفظ مساويًا للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وذلك يُعَدُّ من البلاغة، وذلك كقول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تَخْفَى على الناس تعلم[٤]

(١) سورة النحل. بعض آية: ٥٣، ٥٤.

(٢) الشظا: جمع شظية. وهي عظم صغير في الساق متصل بمفصلها من أعلى إلى أسفل. والشوى: أطراف الجسم. قال ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ١٥ ـ ١٦]. والعبل: الضخم من كل شيء. وعبل الشوى: ضخم الأطراف. والنسا. عصب يمتد من الورك إلى الكعب. مثناه: نَسَوَان. وجمعه: أنساء. وشنج النَّسا: سريع تقبض الأرجل.

(٣) سورة البروج. الآيات: ١ ـ ٣.

(٤) الخليقة: الطبيعة والعادة والخلق. خالها: ظنها.

وكقول جرير:

فلو شاء قومي كان حلمي فيهم ... وكان على جهال أعدائهم جهلي

وكقول الآخر:

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا ... أصبت حليمًا أو أصابك جاهل[(١)]

وكقول الهذلي[(٢)]:

فلا تجزعن من سنَّة أنت سرتها ... وأول راضٍ سيرةً مَن يسيرها[(٣)]

وكقول الآخر:

فإن هم طاوعوك فطاوعيهم ... وإن عاصوك فاعصي مِن عصاك

ونظير ذلك في القرآن كثير.

* * *

١٠ ـ الإشارة:

ومما يعدونه من البديع الإشارة، وهو اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة، وقال بعضهم في وصف البلاغة: لمحة دالة. ومن ذلك قول طرفة[(٤)]:

فظلَّ لنا يوم لذيذ بنعمة ... فقل في مقيل نحسه متغيب

---

(١) المراد بالجهل هنا: الطيش وسوء الخلق. الخنا: السفاهة والبذاءة وكل خلق رديء.

(٢) الهذلي: أبو ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد بن محرث... ابن هذيل. من فحول الشعراء في الجاهلية.

(٣) السنة: السيرة والعادة.

(٤) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. من فحول الشعراء المجيدين، من أشهر شعره قصيدته التي مطلعها قوله:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ... وقفت بها أبكي وأُبكي إلى الغد

وكقول زيد الخيل(١):

فخيبة مَن يخيب على غنى وباهلة بن أعصر والرباب

ونظيره في القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾(٢)، ومواضع كثيرة.

* * *

١١ ـ المبالغة والغلو:

ويعدون من البديع المبالغة والغلو(٣)، والمبالغة تأكيد معاني القول وذلك كقول الشاعر:

ونكرم جارَنا ما كان فينا ونتبعه الكرامةَ حيثُ مالا(٤)

ومن ذلك قول الآخر:

وهم تركوك أسلح من حبارى رأت صقرًا، وأشردَ من نعام(٥)

(١) زيد الخيل: هو زيد الخيل بن مهلهل من طيء .. . جاهلي أدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ في وفد طيئ، وسماه الرسول ﷺ: زيد الخير، وأقطعه الرسول ﷺ أرضا بالمدينة، وكانت المدينة وبئة، فقال رسول اللّه ﷺ أن ينجو زيد من أم مِلدَم ـ يقصد الحمى ـ، فلما وصل بلده مات.

(٢) سورة الرعد. بعض آية: ٣١. وجواب (لو) محذوف تقديره: لكان هذا القرآن.

(٣) تقدم ذكر الغلو والكلام عنه.

(٤) هذا من أنواع الغلو. حيث تعدى الممكن عادة إلى المحال. إذ إن إكرامهم جارهم في كل مكان يحل فيه يتطلب منهم معرفة سابقة بكل الأمكنة التي سوف يذهب إليها. وهذا ضرب من علم الغيب لا يعلمه جارهم نفسه.

(٥) الحُباري: طائر طويل العنق، رمادي اللون يتسم بالجبن والخوف. والحباري اسم للذكر والأنثى والجمع. فهي بطبعها خائفة. فإذا رأت صقرا كانت أشد خوفا. وهذه هي المبالغة.

فقوله: «رأت صقرًا مبالغة».

ومن الغلو قول أبي نواس:

توهمتها في كأسها فكأنما ... توهمتُ شيئًا ليس يدركه العقلُ

فما يرتقي التكييف فيها إلى مدى ... يحدُّ به إلا ومن قبله قبلُ

وقول زهير:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قومٌ بأولهم أو مجدهم قعدوا(١)

وكقول النابغة:

بلغنا السماءَ مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجوا فوق ذلك مظهرَا

وكقول الخنساء(٢):

وما بلغت كف امرئ من متاول ... بها المجد إلا حيثما نلت أطولُ

وما بلغ المهدون في القول مدحة ... وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضلُ(٣)

وقول الآخر:

له هممٌ لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر

له راحةٌ لو أن معشارَ جودها ... على البر صار البر أندى من البحر

* * *

(١) بأولهم: أي بأسلافهم وأمجادهم. وهذا غلو فائق.

(٢) الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة: كأنت أبرع من نطقت برثاء. قضت حياتها ترثى أخويها صخرا ومعاوية. فلما أسلمت تحول جزعها إلى مثال في التأسي والصبر، ولما جاء خبر استشهاد ابنائها ما زادت على أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بشهادتهم وأني لأرجو أن يجمعني اللَّه بهم في الجنة.

(٣) من أجمل ما قيل في المديح وأجمعه وأوجزه. وهو من المبالغة القريبة. لا غلو فيه ولا إغراق.

١٢ ـ الإيغال:

ويرون من البديع الإيغال(١) في الشعر خاصة، فلا يطلب مثله في القرآن، إلا في الفواصل. كقول امرئ القيس:

كأن عيونَ الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزعُ الذي لم يثقب(٢)

وقد أوغل بالقافية في الوصف، وأكد التشبيه لها، والمعنى قد يستقل دونها.

* * *

١٣ ـ التوشيح:

ومن البديع عندهم: التوشيح(٣)، وهو أن يشيد أول البيت بقافيته، وأول الكلام بآخره. كقول البحتري:

---

(١) زيادة في آخر البيت يتم المعنى بدونها. لكنها تزاد لتأكيد تشبيه أو زيادة معنى، وهو بهذا المعنى لا يطلب في القرآن ألبته، لا في الفواصل ولا في غيرها، إذ القرآن المجيد لا يضع كلمات زائدة يتم المعنى الشريف بدونها. وكذلك لا يوجد في القرآن العظيم كلمات أهم من كلمات أخرى.
بل كل كلمة وكل حرف له نفس الأهمية والمنزلة التي لكل الكلمات والحروف الشريفة.

(٢) سبق شرح البيت. والزيادة المشار إليها هنا قول الشاعر: الذي لم يثقب، فإن التشبيه يتم بدونها. لكن كون الخرز اليماني الذي هو الجزع غير مثقب يجعله أكثر بريقا، وهذا يؤكد بريق عيون الوحش حول خبائه.

(٣) يسمى لدى البلاغيين تسهيما وإرصادا. وهو أن يضمن البيت من الشعر أو الفقرة من النثر ما يدل على عجزهما إذا عرف الروى أو الفاصلة..
وفي تحقيق هذا في كلام اللّه ـ تَعَالَى ـ نظر. إذ يترتب عليه أن سامع القرآن المجيد قد يسمع جزء آية فيدرك بقية الكلام فيها، ويكملها من عنده، فيكون قد قال كلاما مثل كلام اللّه ـ تَعَالَى ـ ولو كان كلمة أو كلمتين. وليس هذا عندنا بمقبول على الإطلاق.

فليس الذي حلَّلته بمحلل   وليس الذي حرَّمته بحرام

ومثله في القرآن: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾[(١)].

* * *

١٤ ـ رد العَجُز عن الصدر:

ومن ذلك رد عجز الكلام على صدره كقول اللَّه عَجَلّ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾[(٢)]، وكقوله: ﴿لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾[(٣)]، ومن هذا الباب قول ذي الرمة:

وإن لم يكن إلا تعلُّلُ ساعة   قليلًا فإني نافعٌ لي قليلها

وكقول جرير:

سقى الرمل جون مستهل غمامة   وما ذاك إلا حب مَن حل بالرمل[(٤)]

وكقول الآخر:

---

(١) سورة المائدة. بعض الآية: ٣٩.. وليس في الآية ما يجعلها من قسم (التوشيح) الذي يتكلم عنه المؤلف ـ عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنْهُ ـ فليس في بدايتها ما يدل على نهايتها، أو يجعل سامع أولها قادرًا على إكمال آخرها؛ فإن نهاية الآية كان يمكن أن يقال فيه: (فإن اللَّه غفور رحيم) أو: (فإن اللَّه سميع عليم) أو ما شابه. نستغفر اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ ونعوذ به من تبديل الكلم. لكن النظم الشريف جاء بهذه العبارة القرآنية التي لا يمكن لبشر أن يرجم بها.

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٢١.

(٣) سورة طه. بعض الآية: ٦١.

(٤) الجون: الأسود، والأبيض. فهو من أسماء الضد، واستعماله في الأسود أكثر. والمراد هنا: السحاب الأبيض أو الأسود. والغمامة: السحابة البيضاء. فهي بدل من كلمة: جون.

يود الفتى طول السلامة والغنى فكيف يرى طول السلامة يفعل

وكقول أبي صخر الهذلي[١]:

عجبت لسَعْي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهرُ

وكقول الآخر:

أصد بأيدي العيس عن قَصْد أرضها وقلبي إليها بالمودة قاصدُ[٢]

وكقول عمرو بن معدي كرب[٣]:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

* * *

(١) أبو صخر الهذلي: عبد اللَّه بن سالم السهمي الهذلي من شعراء الدولة الأموية، كان مواليا لبني مروانٍ متعصبا لهم. وله في بني مروان مدائح كثيرة، ولهم عليه أياد أكثر.

(٢) العيس: الإبل التي يخالط بياضها شقرة. وقد يطلق على الإبل بعامة إذا كانت كريمة أصيلة.

والعيس: جمع. مذكره: أعيس. ومؤنثه: عيساء.

(٣) عمرو بن معد يكرب الزبيدي، من مذحج، ويكنى أبا ثور. كان من فرسان العرب المشهورين بالبأس في الجاهلية، وأدرك الإسلام وقدم على رسول اللَّه ﷺ المدينة وأسلم. ثم ارتد عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ. ثم هاجر إلى العراق فأسلم وحسن إسلامه، وشهد موقعة القادسية، وله فيها بلاؤه. أوفده سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى عمر بن الخطاب بعد فتح القادسية. فأخذ عمر يسأله في شئون كثيرة وهو يجيب شعرا وحكما. وسأله عن الحرب فقال: هي مرة المذاق، إذا قلصت عن ساق، من صبر فيها عرف، ومن ضعف عنها تلف. وهي كما قال الشاعر:

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا استعرت وشب ضرامها غادت عجوزا غير ذات ضليل

شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

١٥ ـ صحة التقسيم:

ومن البديع صحة التقسيم، ومن ذلك قول نصيب:

فقال فريق القوم: لا. وفريقهم نعم، وفريق قال: ويحك ما ندري

وليس في أقسام الجواب أكثر من هذا.

وكقول الآخر:

فكأنما فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم(١)

وقول المقنع الكندي(٢):

إن يأكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن يهدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيّي هويت لهم رشدا(٣)

وإن زجروا طيرًا بنحس تمر بي زجرت لهم طيرًا تمر بهم سَعْدا

وكقول عروة بن حزام(٤):

بمن لو أراه غائبًا لفديته ومَن لو رآني غائبًا لفداني

---

(١) يشبه شعرها في سواده وكثافته وإحاطته بوجهها كأنه ليل مظلم ووجها وسط هذا الليل كأنه نهار ساطع لشدة بياضه وتلألئه وجماله.

(٢) المقنع الكندي: محمد بن عمير من كندة، وكان من أجمل الناس وجها وأمدهم قامة، وكان إذا كشف عن وجهه لفع، أي أصابته العين، فكان يتقنع عمره، لذا سمي المقنع.

(٣) ضيعوا غيبي: اغتابوني ونموا علي، أو سمحوا لغيرهم أن يفعل ذلك ولم يمنعوه. هووا غيي: تمنوا ما يضرني.

(٤) عروة بن حزام، من بني عذرة. وهو أحد العشاق الذين قتلهم العشق، وصاحبته عفراء بنت مالك العذرية، وكان عروة يتيما في حجر عمه، فلما بلغ مبلغ الصبا علق عفراء، فسأل عمه زواجها فسوفه ثم زوجها غيره، فما زال مريضا بها لم ينفعه طب حتى مات. ولما علم معاوية ﷺ بحالهما قال: لو علمت بحالهما لجمعت بينهما.

ونحوه قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾(١).

* * *

١٦ ـ صحة التفسير:

ونحوه صحة التفسير، كقول القائل:

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم   ولي فرس للجهل بالجهل مسرج(٢)

* * *

١٧ ـ التكميل والتتميم:

ومن البديع التكميل والتتميم(٣) كمقول نافع بن خليفة:

رجال إذا لم يقبلوا الحق منهم   ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع

وإنما تم جودة المعنى بقوله: «ويعطوه»، ذلك كقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ

---

(١) سورة البقرة. بعض آية: ٢٥٧.

(٢) يقول: إنه يقابل كل ظرف بما يناسبه. فالظرف الذي يحتاج إلى حلم يتعامل معه بالحلم. والذي يحتاج إلى شدة وقسوة يبذل له ذلك. والبيت ينسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) التكميل ـ ويسمى الاحتراس، والاحتراز ـ: أن يكون في حشو الكلام ما يوهم خلاف مقصود المتكلم، فيأتي بما يدفع هذا الوهم، والتتميم: أن يأتي في الكلام بزيادة تفيد نكتة بلاغية. مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٩٩].

﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، إلى آخر الآية(١). ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢).

* * *

١٨ ـ الترصيع:

ومن البديع الترصيع(٣)، وذلك على ألوان، منها قول امرئ القيس:

محش مخش مقبل مدبر معًا كتيس ظباء الحلب في العدوان(٤)

ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس:

يا منة امتنها السكر ما ينقضي من لها الشكر

وكقوله وقد ذكرناه قبل هذا:

ديار نوار ما ديار نوار كسَوْنَكَ شجوًا هُنَّ منه عوار

* * *

(١) قول المؤلف: (إلى آخر الآية، ثم قال) يوهم أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ من آية أخرى. وأن الآية تمت قبل هذا الجزء منها. والصحيح غير ذلك، ولو قال: إلى آخر الأمور الخمسة التي لا يعلمهن إلا الله ـ تعالى ـ المذكورة في الآية، لكان ذلك هو الصحيح.

(٢) سورة لقمان. الآية:٣٤.والآية بتمامها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

(٣) الترصيع: تسجيع حشو البيت.

(٤) المحش: منجل يحش ويقطع به الحشيش. والمحش: موقد نار الحرب ومؤججها، ويقال لقائد الكتيبة: محش الكتيبة. وكل هذه المعاني تصح وصفا لفرس الشاعر. والمخش: الفرس الجسور، والرجل الجريء، والحلب نبات تأكله الظباء فتضمر بطونها، وضمور البطن يساعد على السرعة في الجري والعدو. ويروى مكان الصدر (مكر مفر). وفي معلقته المشهورة:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

١٩ ـ الترصيع مع التجنيس:

ومن ذلك الترصيع مع التجنيس. كقول بن المعتز:

ألم تجزَعْ على الرَّبْع المحيلِ وأطلالٍ وآثار محول[١]

ونظيره من القرآن كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾[٢]، وقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾[٣]، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾[٤]، وكقوله: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾[٥]، وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾﴾[٦].

وقد أولع الشعراء بنحو هذا فأكثروا فيه، ومنهم مَن اقتنع بالترصيع في بعض أطراف الكلام، ومنهم مَن بنى كلامه عليه، كقول ابن الرومي[٧]:

أبدانهُنَّ وما لبسْنَ من الحرير معًا حريرُ
أردانهُنَّ وما مَسَسْنَ من العبير معًا عبيرُ[٨]

وكقوله:

فلراهب أن لا يريب أمانه ولراغب أن لا يريث نجاحه

---

(١) الربع المحيل: المجدب الذي لا ماء فيه ولا نبات. ومحول: أي تغيرت ومحيت.
(٢) سورة الأعراف. الآيتان:٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٣) سورة القلم. الآيتان:٢ ـ ٣.
(٤) سورة العاديات. الآيتان:٧ ـ ٨.
(٥) سورة الطور. الآيتان الأولى والثانية.
(٦) سورة النازعات. الآيتان: ٣ ـ ٤.
(٧) ابن الرومي: من الشعراء العباسيين المجيدين، وبخاصة في الرثاء. توفى ٢٨٣هـ.
(٨) الأردان: الأكمام: جمع: ردن. وهو الكم.

٢٠ ـ المضارعة:

ومما يقارب الترصيع ضَرْبٌ يسمى المضارعة، وذلك كقول الخنساء:

حامي الحقيقة محمودُ الخليقة مهديُّ الطريقة نفَّاعٌ وضرَّارُ
جوَّابُ قاصية، جزَّازُ ناصية عقَّادُ ألوية، للخيل جرَّارُ

* * *

٢١ ـ التكافؤ:

ومن البديع باب التكافؤ، وذلك قريب من المطابقة، كقول المنصور[١]: «لا تخرجوا من عز الطاعة إلى ذل المعصية»، وقول عمر بن ذر[٢]: «إنا لم نجد لك إذ عصيت اللّه فينا خيرًا من أن نطيع اللّه فيك»، ومنه قول بشار:

إذا أيقظتك حروبُ العدا فنبّه لها عمرًا ثم نَمْ

* * *

٢٢ ـ باب التعطف:

ومن البديع باب التعطف، كقول امرئ القيس:

عود عليّ عود على عود خلق

وقد تقدم مثاله.

* * *

(١) المنصور: أبو جعفر المنصور وهو الخليفة الثاني من خلفاء بني العباس.
(٢) عمر بن ذر: هو أبو ذر عمر بن ذر بن عبد اللّه بن زرارة بن معاوية بن منبة بن غالب... ابن نوف بن همدان. كان فقيها، روى عن عطاء ومجاهد، وروى عنه وكيع وأهل الطرق. كان من المرجئة. توفي سنة ست وخمسين ومئة.

٢٣ ـ السلب والإيجاب:

ومن البديع السلب والإيجاب، كقول القائل(١)

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القَوْل حين نقولُ

* * *

٢٤ ـ الكناية والتعريض:

ومن البديع الكناية والتعريض، كقول القائل:

وأحمر كالديباج أما سماؤه ... فريًّا وأما ارضه فمحولُ

ومن هذا الباب لحن القول(٢).

* * *

(١) القائل هو: السموأل بن عادياء. الشاعر المعروف. وقد سبق الاستشهاد ببعض أبيات هذه القصيدة التي هي من أشهر وأبلغ ما قيل في الفخر.

(٢) المراد بلحن القول ما يدسه القائل في حشو كلامه من كلمات لها معنى ظاهر مقبول، ولها معنى آخر غير مقبول من السامع وإن كان القائل يقصده. وذلك مثل قول المنافقين: (راعنا) وهي في ظاهرها طلب الرعاية. ولكن ما يقصدونه معنى آخر فيه سخرية وتهكم بالنبي ﷺ. فهذا من لحن القول والتعريض. وقد بين اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ ذلك في قوله ـ تَعَالَى ـ ناعيًا عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦].

ولذلك نهى اللَّه ـ تَعَالَى ـ المؤمنين أن يقولوا هذه الكلمة لاحتمالها ذلك الوجه القبيح. فقال ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]. وقد جعل اللَّه ـ تَعَالَى ـ (لحن القول) من علامات المنافقين. فقال لرسوله ﷺ في شأن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [سورة محمد ﷺ: ٣٠].

٢٥ ـ العكس والتبديل:

ومن ذلك العكس والتبديل كقول الحسن[١]: «إن من خوَّفك لتأمن خير ممن أمَّنك لتخاف»، وكقوله: «اللهم اغنني بالفقر إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك»، وكقوله: «بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا»، وكقول القائل:

وإذا الدر زان حسن وجوه ... كان للدر حسن وجهك زينا

وقد يدخل في هذا الباب قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾[٢].

* * *

٢٦ ـ الالتفات:

ومن البديع الالتفات، فمن ذلك ما كتب إليّ الحسن بن عبد اللَّه العسكري[٣]، أخبرنا محمد بن عبد اللَّه الصولي[٤]، حدثني يحيى بن علي المنجم[٥] عن أبيه[٦] عن إسحاق بن إبراهيم[٧] قال: قال لي الأصمعي: أتعرف

(١) الحسن: الحسن البصري الإمام الزاهد الواعظ. توفي سنة عشر ومئة. ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ.
(٢) سورة الحج. بعض آية: ٦١، وسورة لقمان. بعض الآية:٢٩، وسورة فاطر. بعض الآية:١٣، وسورة الحديد. بعض الآية:٦.
(٣) الحسن بن عبد اللَّه العسكري، صاحب كتاب: صناعتي النظم والنثر. المشهور بالصناعتين. وله غير ذلك مؤلفات كثيرة مفيدة. توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمئة.
(٤) الصولي: لغوي أديب ناقد. توفي سنة ست وثلاثين وثلاث مئة.
(٥) يحي المنجم: شاعر وأديب. توفي سنة ثلاث مئة.
(٦) أبوه هو: علي بن المنجم. توفي سنة ٢٧٥ هـ.
(٧) إسحاق بن إبراهيم الموصلي. توفي سنة أربعين ومئتين.

التفتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أتنسى إذ تودعنا سليمى بفرع بشامة؟ سُقيَ البشام[١]

ومثل ذلك لجرير:

متى كان الخيام بذي طلوح سُقيَت الغيث أيتها الخيام[٢]

ومعنى الالتفات أنه اعترض في الكلام قوله: «سقيت الغيث»، ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتًا وكان الكلام منتظمًا، وكان يقول: «متى كان الخيام بذي طلوح أيتها الخيام»، فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتا[٣]. ومثله قول النابغة الجعدي[٤]:

ألا زعمت بنو سعد بأني ألا كذبوا كبير السن فاني

ومثله قول كثير[٥]:

لو أن الباذلين، وأنت منهم رأوك تعلموا منك المطالا[٦]

---

(١) البشامة: شجرة طيبة الريح والطعم يستاك بها. والجمع: بشام.

(٢) ذو طلوح: الوادي يكثر فيه شجر الطلح. وهو شجر كبير من أشجار البادية من نوع العضاة.

(٣) وهو بهذا المعنى يشمل الاعتراض. ويكون الاعتراض نوعا من الالتفات.

(٤) النابغة الجعدي: هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة، من بني عامر بن صعصعة. من فحول الجاهلية في الشعراء، كبرت سنة وعمر طويلًا. وكان قبل النابغة الذبياني بسنين طويلة. قال يذكر كبر سنه وخلو الأرض من رفقائه:

نداماي عند المنذر بن محرق فأصبح منهم ظاهر الأرض مقفرا

وقال يذكر سنه لما وصل اثنتي عشرة بعد المئة:

أتت مئة لعام ولدت فيه وعشر بعد ذاك وحجتان

(٥) كثير بن عبد الرحمن الخزاعي، وكنيته: أبو صخر. من فحول الشعراء،و وهو عند أهل الحجاز مقدم على غيره. وكان كثير من النقاد يرونه أشعر أهل الإسلام.

(٦) المطال والمطل: التسويف في أداء الحقوق ورد الديون.

ومثله قول أبي تمام:

وأنجدتهم من بعد اتهام داركم   فيا دمع أنجدني على ساكني نجد(١)

وكقول جرير:

طرب الحمام بذي الأراك فشاقني   لا زلت في غلل وأيك ناضر(٢)

التفت إلى الحمام فدعا لها، ومثله قول حسان(٣):

إن التي ناولتني فرددتها   قُتِلَتْ - قُتِلْتَ - فهاتها لم تقتل(٤)

ومنه قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر(٥):

وأجْمِلْ إذا ما كنت لابدَّ مانعًا   وقد يمنع الشيءَ الفتى وهو مجملُ(٦)

وكقول ابن ميادة(٧):

---

(١) أنجدتم: أي أضحيتم من سكان نجد. إتهام داركم: بعد أن كانت داركم في تهامة. أنجدني: أعني.

(٢) ذو الأراك: المكان يكثر فيه شجر الأراك. وهو شجر طيب يستاك به. والغلل: المكان تكثر فيه الأشجار بحيث يتغللها من يمشي فيه، أي يتوارى فيه. أو المكان الخصب يجود بغلته. والأيك: الشجر الملتف الأغصان.

(٣) حسان بن ثابت من الخزرج من بني النجار، صحابي جليل ﷺ، كان كثير الشعر جيده. لما قدم النبي ﷺ المدينة تناولته قريش تهجوه شعرا، فطلب الرسول ﷺ من عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك أن يهجوا قريشا فلم يقدرا على الهجاء. فقال لحسان: اهجهم وائت أبا بكر يخبرك معائب القوم. فانتصر منهم حسان. وروي أن الرسول ﷺ كان يقول له: اهجهم وروح القدس معك.

(٤) يصف كأس خمر - وذلك قبل أن يسلم ﷺ. وقتلت: أي مزجت بالماء، فخففت حدتها وقوتها. لم تقتل: لم تمتزج بالماء. وقتلتَ: دعاء على الساقي.

(٥) عبدالله بن معاوية بن جعفر، شاعر أموي عف كريم. توفي سنة إحدى وعشرين ومئة هـ.

(٦) أجمل: أي كن حسن الجواب واضح الاعتذار إذا رددت صاحب حاجة.

(٧) ابن ميادة: هو الرماح بن يزيد، وميادة أمه، وكانت أم ولد، ويكنى أبا شراحيل. وهو من بني مرة بن عوف بن ذبيان. توفى سنة خمس عشر ومئة.

فلا صرمه يبدوه وفي اليأس راحة ولا وصله يصفوا لنا فنكارمه(١)

ونظير ذلك من القرآن ما حكى الله - تَعَالَى - عن إبراهيم الخليل من قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾(٢)، وقوله ﷻ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٣)، ومثله قوله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(٤)، إلى آخر الآية. ومثله قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾(٥)، ومثله قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً

---

(١) صرمه: أي قطيعته.

(٢) سورة العنكبوت.من الآية: ١٦ إلى الآية: ٢٤. وأول الآيات قوله - تَعَالَى -: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [١٦].. والذي ذهب إليه المؤلف بعيد غاية البعد. فالكلام الذي حكاه القرآن عن أبي الأنبياء - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - أبعد ما يكون عن الاعتراض أو الالتفات. فهو من صلب دعوته. ولذلك ما كان يتم المعنى بدونه، وما كان يعتبر مبلغا رسالته لو لم يقل لهم كل الذي جاء به النص الشريف. أما الالتفات والاعتراضات فهي كثيرة في القرآن العظيم وفي غاية الوضوح، بعيدا عن هذا التكلف الذي اتسم به كلام المؤلف. من ذلك قوله - تَعَالَى - من سورة الواقعة: ﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الآيات: ٧٥ - ٧٧]. فالله - تَعَالَى - اقسم بمواقع النجوم. وجواب القسم قوله - سُبْحَانَهُ -: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ وجملة: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ جملة معترضة وهي التفات. بل إن جملة الالتفات نفسها في داخلها اعتراض والتفات ثان وهو قوله - ﷻ -: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن الكلام في الجملة هو: وإنه لقسم عظيم. وجاءت جملة: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضا داخل الاعتراض. أو التفات داخل الالتفات والله - سُبْحَانَهُ - أعلم.

(٣) سورة إبراهيم عليه السلام. من الآية ١٩ إلى الآية ٢١.

(٤) سورة يونس عليه السلام. بعض آية: ٢٢.

(٥) سورة الأعراف. الآيتان:١٧٥ - ١٧٦.

بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾[1].

ومنهم مَن لا يَعُدُّ الاعتراض والرجوع من هذا الباب، ومنهم مَن يُفْرِدُهُ عنه كقول زهير[2]:

قف بالديار التي لم يعفها القدم نعم وغيرها الأرواح والديم[3]

وكقول الأعرابي[4]:

أليس قليلًا نظرة أن نظرتها إليك، وكلًا ليس منك قليل

وكقول ابن هرمة[5]:

ليت حظي كلحظة العين منها وكثير منها القليل المهنا

ومن الرجوع قول القائل[6]:

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

وقال الأعشى[7]:

---

(١) سورة المائدة. الآية:٣٨. وبعض الآية:٣٩.

(٢) زهير بن أبي سلمى، من الطبقة الأولى لفحول شعراء الجاهلية. سبق التعريف به.

(٣) لم يعفها: لم يذهب أثرها ويمحها. الأرواح: الرياح. الديم: المطر الكثير الهطول.

(٤) الأعرابي: يقصد به: يزيد بن الطثرية، والطثرية أمه، وأبوه اسمه: المنقش، كان شاعرا غزلا مغرما بحديث النساء وقول الشعر فيهن.

(٥) ابن هرمة: من الخلج من قيس عيلان، وكان مولعا بالشراب، جيء به سكران في ولاية أبي العباس فأقيم عليه الحد، فلما ولي أبو جعفر امتدحه ابن هرمة فأعجبه، فقال: تمن علي. قال: تكتب علي عامل المدينة ألا يحدني إذ أتي بي إليه وأنا سكران، فكتب أبو جعفر إلى عامله أن يحتال له فلا يقيم عليه الحد.

(٦) هو ابن الدمينة، وهو شاعر أموي، واسمه: عبيد الله بن عبد الله. والدمينة أمه، وهو من خثعم. وهو شاعر غزل يكثر القول في النساء.

(٧) الأعشى: ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. يكنى: أبا بصير، من فحول شعراء الجاهلية.

صرمت ولم أصرمكمُ، وكصارم أخ قد طوى كشحًا وآب ليذهبا[١]

وكقول بشار:

لي حيلة فيمن ينمُّ وليس في الكذاب حيلة

مَن كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة

وقال آخر:

وما بي انتصار أن غدا الدهر ظالمي عليَّ بلى أن كان من عندك النصر

* * *

٢٧ ـ التذييل:

وباب آخر من البديع يسمى التذييل، وهو ضرب من التأكيد، وهو ضد ما قدمنا ذكره من الإشارة[٢] كقول أبي داود[٣]:

إذا ما عقدنا له ذمّة شددنا العناج وعقد الكرب[٤]

وأخذه الحطيئة[٥] فقال:

(١) الصرم: القطيعة والهجران. والكشح: ما بين الخاصرة والضلوع. وطوى كشحا: أعراض.

(٢) التذييل ضد الإشارة لأن التذييل إطناب وإسهاب. أما الإشارة فقد بينها المؤلف سابقا بأنها المعاني الكثيرة في الكلام القليل.

(٣) أبو داود اختلفوا في اسمه. فقيل: هو جارية بن الحجاج. وقيل: حنظلة بن الشرقي. وهو شاعر جاهلي مجيد. كان امرؤ القيس يروي له.

(٤) العناج: حبل أو سير يشد تحت الدلو ويتصل طرفاه من أعلى الدلو بما يمسك الدلو. بحيث إذا انقطعت أذن الدلو امسكها العناج أن تقع في البئر. والكرب: حبل يشد في وسط خشبة الدلو فوق الرشا ليقويه. والرشا هو الحبل الذي يجذب به الدلو.

(٥) الحطيئة: جرول بن أوس بن مالك بن جُويَّة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان. كان شاعرا مفلقا من فحول الشعراء المخضرمين، وكان الناس قد شكوا سلاطة لسانه وشدة هجائه فأوعده عمر ﷺ أن يقطع لسانه، =

فَدَعَوْا نَزَالِ فكنت أولَ نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل

وكقول جرير:

لقد كنت فيها يا فرزدق تابعًا وريش الذنابى تابع للقوادم[(١)]

ومثله قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾[(٢)].

* * *

٢٨ ـ الاستطراد:

وباب من البديع الاستطراد، فمن ذلك ما كتب إليَّ الحسن بن عبد الله[(٣)]

= وألقاه في مكان مظلم أعده للحبس. فقال الحطيئة يخاطب عمر:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر، عليك سلام الله ياعمر

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقت إليك مقاليد النهي البشر

ما آثروك بها إذ بايعوك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

ولما سمع عمر البيت الأول فاضت عيناه من خشية سؤال الله إياه عن أطفال الحطيئة، ثم اشترى أعراض الناس من الحطيئة بجعل معين أعطاه له، وأطلق سراحه بعد أن عاهده ألا يتعرض لأحد بالهجاء.

(١) ريش الذنابى: ريش الأذناب. وريش القوادم هو: قوادم الريش في كل جناح. كناية عن صغر سنه وحداثته.

(٢) سورة القصص. الآيات: ٤إلى ٨.

(٣) الحسن بن عبد الله: هو حسن سن عبد الله العسكري. المشهور بأبي هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين. المتوفي ٣٩٥هـ.

قال: أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة(١) لحسان بن ثابت(٢) رضي اللَّه عنه:

إن كنت كاذبة التي حدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم ... ورمى برأس طِمِرَّة ولجام(٣)

وكقول السموأل:

وإنا لقوم لا نرى القتل سبَّة ... إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ

وكقول الآخر(٤):

خليليَّ من كعب أعينا أخاكما ... على دهره إن الكريم معينُ
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه ... مخافة أن يرجى نداه حزينُ

وكقول الآخر:

فما ذَرَّ قرن الشمس حتى كأننا ... من ادعي نحكي أحمد بن هشام(٥)

---

(١) أبو عبيدة: هو معمر بن المثنى اللغوي البصري، أعلم من الأصمعي وغيره بالأنساب والأيام. له تصانيف كثيرة. كان شعوبيا. وقيل: كان من الخوارج الإباطية. توفي سنة تسع ومائتين.

(٢) حسان بن ثابت الأنصاري ﷺ الصحابي المعروف وشاعر الرسول ﷺ وهذا البيتان من قصيدة له يذكر غزوة بدر ونصر اللَّه - تَعَالَى - المسلمين. وفرار المشركين. ومنهم الحارث بن هشام الذي ورد ذكره في البيت الأول.

(٣) الطمرة: الفرس شديد العدو. يقول: إنه رمى برأس العداءة، أي أطلق لها العنان فرارا من المعركة.

(٤) القائل: بشار بن برد، شاعر مطبوع. كان يرمي بالزندقة. كان أعمى، وسمع مرة صوت جارية فطرب له ووقع حبه في قلبه فقال:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

(٥) ذر: ظهر وبدا. قرن الشمس: أول ما يبدو من قرصها عند مطلعها. العي: العجز. وهنا: العجز عن البيان.. يقول: إنهم قضوا الليل في شرب الخمر فما أن بدأت الشمس في الشروق حتى كانوا من السكر عاجزين عن الكلام.

وكقول زهير:

إن البخيل ملوم حيث كان ولكنَّ ... الجواد على علاته هرم[١]

وفيما كتب إِلَيَّ الحسن بن عبد اللّه قال: أخبرني محمد بن يحيى، حدثني محمد بن علي الأنباري، قال: سمعت البحتري[٢] يقول: أنشدني أبو تمام لنفسه:

وسابح هطل التعداء هتان ... على الجراء أمين غير خوان
أظمى الفصوص ولم تظمأ قوائمه ... فجل عينيك في ريان ظمآن
ولو تراه مشيحًا والحصى فلق ... بين السنابك من مثنى ووحدان
أيقنت - إن لم تَثَبَّتْ - أن حافرَهُ ... من صخر تدمرَ أو من وجهة عثمان[٣]

وقال لي: ما هذا من الشعر؟ قلت: لا أدري. قال: هذا المستطرد، أو قال: الاستطراد، وقلت: وما معنى ذلك؟ قال: يُري أنه يصف الفرس ويريد هجاء عثمان، فقال (ما قال): وقال البحتري:

ما أن يعاف قذًى ولو أوردْتَه ... يومًا خلائق حَمْدَوَيْه الأَحْوَل

قال: فقيل للبحتري: إنك أخذت هذا من أبي تمام. قال: ما يعاب عليَّ أن

(١) هرم بن سنان. ممدوح زهير بن ابي سلمى.
(٢) البحتري: أبو عبادة البحتري. من الشعراء العباسيين المجيدين. توفي سنة أربع وثمانين ومئتين هـ.
(٣) هطل هتان: المطر المتتابع النزول. التعداء: العدو. والجراء: الجري. الفصوص: جمع فص، وهو ملتقى كل عظمين من الجسم. وأظمأها: كناية عن شدة عرقها ونزول الماء منها حتى جف ماؤها فصارت شبيهة بالظمآن.
والمشيح: الجاد. وهنا: الجاد في الجري. والسنابك: جمع سنبك وهو طرف الحافر من الحصان وغيره.. يصف الحصان بأنه سريع الجري متتابعه كالغيم الذي يسيل ماؤه ولا ينقطع، ومن شدة جرية كانت مفاصل رجليه وجسمه يسيل منها العرق حتى جف ما بها من ماء، وكانت حوافره تفلق الحصى كأنها صخر شديد من صخور تدمر.

آخذه منه وأتْبَعَهُ فيما يقول.

ومن هذا الباب قول أبي تمام:

صُبَّ الفراق علينا صَبَّ من كتبا ... عليه إسحق يوم الروع منتقمًا(١)

ومنه قول السري الرفاء(٢):

نزع الوشاة لنا بسهم قطيعة ... يرمي بسهم الحين مَن يرمي به

ليت الزمان أصاب حب قلوبهم ... بقنا ابن عبد اللّه أو بحرابه

ونظيره من القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾(٣) كأنه كان المراد أن يجري بالقول الأول إلى الإخبار عن أن كل شيء يسجد لله عَجَّلَ، وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص(٤).

* * *

٢٩ ـ التكرار:

ومن البديع عندهم التكرار، كقول الشاعر:

هلا سألتَ جُموعَ كندَةَ ... يـوم ولـو أيْـنَ أيـنـا؟

(١) الروع: الفزع. والبيت يمدح فيه أبو تمام قائدا عباسيا اسمه إسحق.

(٢) السري الرفاء: أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الرفاء الموصلي. كان شاعرًا مجيدًا عذب الألفاظ، كثير الافتنان في التشبيهات والأوصاف. كانت وفاته ببغداد سنة نيف وستين وثلاثمئة هـ.

(٣) سورة النحل: الآيتان: ٤٨ ـ ٤٩.

(٤) هذا تحليل للآيتين خاص بالمؤلف لا ينسحب على غيره، ولا نلتزم نحن به. إذ نخالفه مخالفة صريحة في التعبير عن مراد اللّه ـ سُبْحَانَهُ ـ بمثل قول المؤلف: (كأنه كان المراد) ذ مراد الله تعالى ـ واقع على ما أراد الله ـ سبحانه ـ ولا يقال: كان المراد كان كذا ثم تحول إلى كذا.

وكقول الآخر:

وكانت فزارة تصلى بنا ... فأولى فزارة أولى لها[١]

ونظيره من القرآن: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[٢]، وكالتكرار في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾[٣]، وهذا فيه معنى زائد على التكرار؛ لأنه يفيد الإخبار عن الغيب.

* * *

٣٠ ـ الاستثناء:

ومن البديع عندهم ضرب من الاستثناء[٤] كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غيرَ أن سيوفَهُمْ ... بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائب[٥]

وكقول النابغة الجعدي:

---

(١) أولى لها: أي وليها الشر وقاربها. أو هو دعاء بالويل والهلاك. ومنه قول الله ـ تَعَالَى ـ في شأن من يكذب رسول الله ﷺ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾ [القيامة: ٣٤ ـ ٣٥]؛ أي: ويل لك ثم ويل. وهذا من أوضح الشواهد القرآنية على القسم البلاغي الذي يتحدث عنه المؤلف.

(٢) سورة الشرح. الآيتان: ٥ ـ ٦.

(٣) سورة الكافرون. فاتحة السورة.. وتسمى سورة الكافرون وسورة: قل هو الله أحد: سورتا الإخلاص. وتسمى سورة الكافرون أيضا: سورة البراءة. أي البراءة من عبادة غير الله ـ سُبْحَانَهُ ـ. ومن أوضح الأمثلة على التكرار ما في سورة: الرحمن من تكرار قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ حيث تكررت في السورة الكريمة إحدى وثلاثين مرة.. وكذلك ما ورد في سورة المرسلات. من قوله ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾. حيث وردت في السورة الكريمة عشر مرات.

(٤) وهو المدح بما يشبه الذم. وهو من أكثر أنواع المدح تأثيرا في النفس.

(٥) الفلول: الآثار في السيف من كثرة الضرب به من خدوش والتواء في حده. وقراع الكتائب: منازلتها وحربها.

فتًى كملت أخلاقُهُ غير أنه جوادٌ فلا يبقى من المال باقيًا
فتًى تمَّ فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا

وكقول الآخر:

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيبُ

وكقول أبي تمام:

تنصل ربها من غير جرم إليك سوى النصيحة والوداد(١)

ووجوه البديع كثيرة جدًّا؛ فاقتصرنا على ذكر بعضها، ونبهنا بذلك على ما لم نذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع.

* * *

هل لأبواب البديع فائدة في معرفة الإعجاز؟

وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا؛ لأن هذه الوجوه إذا ما وقع التنبيه عليها أمكنَ التوصُّل إليها بالتدريب والتعوُّد والتصنُّع لها، وذلك كالشعر الذي إذ عرف الإنسان طريقه صحَّ منه التعمُّل له،، وأمكنه نظمه. والوجوه التي نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يُعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنُّع له، والتوصُّل إليه بحال.

* * *

ويبيِّن ما قلنا أن كثيرًا من المحدثين قد تصنَّع لأبواب الصنعة، حتى حشى جميع شعره منها، واجتهد أن لا يفوته بيت إلا وهو يملؤه من الصنعة، كما صنع أبو تمام في لاميته:

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل وصدرك منها مدة الدهر آهلُ(٢)

(١) من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد ويعتذر إليه.

(٢) ذهلية: امرأة من قبيلة ذهل. ذاهل: ساه مشغول. آهل: مسكون.

تطل طلول الدمع في كل موقف ... وتمثل بالصبر الديار المواثل(١)
دوارس لم يجف الربيع ربوعها ... ولا مرَّ في أغفالها وهو غافل(٢)
فقد سحبت فيها السحاب ذيولها ... وقد أخملتْ بالنَّوْر تلك الخمائلُ(٣)
تَعَفَّيْنَ من زاد العفاة إذا انتحى ... على الحيّ صرف الأزمة المتماحلُ(٤)
لهم سلف سمر العوالي وسامر ... وفيهم جمال لا يغيض وجامل(٥)
ليالي أضللت العزاء وخذلت ... بعقلك آرام الخدور العقائل(٦)
من الهيف لو أن الخلاخيلَ صيرت ... لها وشحًا جالت عليها الخلاخلُ(٧)
مها الوحش إلا أن هاتا أوانسٌ ... قنا الخط إلا أن تلك ذوابلُ(٨)
هوى كان خلسا إن من أطيب الهوى ... هوًى جلت في أفيائه وهو خاملُ(٩)

ومن الأدباء مَن عاب عليه هذه الآبيات ونحوها،، على ما قد تكلف فيها من

---

(١) تطل طلول الدمع: تسكب الدمع كثيرا، تمثل به: تعذبه. المواثل: الدوارس كما فسرها في مطلع البيت التالي.
(٢) يجف الربيع ربوعها. لم يهجر الربيع ديارها. الأغفال: القفار.
(٣) سحبت فيها السحاب ذيولها: هطلت عليها. أخملت بالنور: صارت بالزهر خميلة.
(٤) تعفين: طلبن الإعفاء. العفاة: السائلون. صرف: حادث. ومنه صروف الزمان أي حوادثه. المتماحل: المتحامل.
(٥) سلف: أجداد. سمر العوالي: الرماح. والسامر: مكان السمر ليلا: يغيض: يحول وينقضي. وجامل: جمال.
(٦) العزاء: التسلي، خذلت: قطعت: الآرام: الغزلان. العقائل: الأصيلات المصونات يقول: أضعت وصال الأصيلات اللواتي كالغزلان.
(٧) الهيف: الرقة ودقة الخصر. الخلاخيل: حلى تلبس في السيقان. الوشح: قلائد عريضة أو ما يشبهها يشد به الكتف اليمنى والخاصرة اليسرى أو العكس. جالت: تحركت من اتساعها على الخاصرة. يصفهن بشدة دقة الخصر.
(٨) المها: بقر الوحش، تشبه به النساء وبخاصة في جمال العيون. قنا الخط: الرماح. ذوابل: صلبة.
(٩) الأفياء: الأنحاء. خامل: أي عليل طيب.

البديع، وتعمَّل من الصنعة، فقال: قد أذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته، اشتغالاً بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه، وقد تعصَّب عليه أحمد بن عبيد اللَّه ابن عمار[١] وأسرف، حتى تجاوز إلى الغض من محاسنه، ولما قد أولع به من الصنعة، ربما غطى على بصره، حتى يبدع في القبيح، وهو يريد أن يبدع في الحسن، كقوله في قصيدة أولها:

سَرَتْ تستجيرُ الدمع خوفَ نوى غد وعاد قتادًا عندها كل مرقد[٢]

فقال فيها:

لعمري لقد حررتُ يوم لقيتُهُ لو أن القضاءَ وحدَهُ لم يبرد[٣]

وكقوله:

لولم تدارك مسن المجد مذ زمن بالجود والبأس كان المجد قد خرفا[٤]

فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع المقيت، كقوله:

تسعُون ألفًا كآساد الشَّرى نضجَتْ أعمارُهم قبلَ نُضج التين والعنب

وكقوله:

لو لم يَمُتْ بين أطراف الرماح إذًا لمات، إذ لم يَمُتْ، من شدة الحزن

وكقوله:

خشنت عليه أخت بني خشين

---

(١) أحمد بن عبيد اللَّه بن عمار. أديب لغوي عليم بالشعر ونقده. ألف في سرقات أبي تمام. توفي سنة أربع عشرة وثلاث مئة.

(٢) تستجير الدمع: تطلبه وتستحثه. النوى: البعد والفراق. القتاد: الشوك.

(٣) حررت: اشتد غيظي وحنقي حتى سرت السخونة في جسدي . لم يبرد: لم يلق حتفه، يقول: لولا غيظه وحنقه ما برد ومات. ولو كان القضاء وحده دون غيظه ما لقى حتفه. وهذا من ضلالات الشعر بل كفرياته.

(٤) يقول: إن المجد كاد يهرم ويموت من قلة من يغذيه ويتعهده بالكرم والشجاعة. لولا الممدوح أدركه فجدد شبابه.

وكقوله:

ألا لا يمدُّ الدهرُ كفًّا بسيّئ إلى مجتدي نصر فتقطع من الزند[١]

وقال في وصف المطايا:

لو كان كلفها «عبيد» حاجةً يومًا لزنّى شدقمًا وجديلا[٢]

وكقوله:

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربةً غادرته عودًا ركوبًا[٣]

فهذا وما أشبه إنما يحدث من غلوه في محبة الصنعة، حتى يعميه عن وجه الصواب، وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها. حتى استثقل نَظْمُهُ واستوخم رَصْعُهُ، وكان التكليف باردًا، والتصرُّف جامدًا، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح، كما يتفق البارد القبيح.

* * *

وأما البحتري فإنه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام، ويقلُّ التصنُّع له، فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسنًا رشيقًا وظريفًا جميلًا، وتصنُّعه للمطابق كثيرٌ حسن، وتعمُّقه في وجوه الصنعة على وَجْه طلب السلامة. والرغبة في السلاسة، فلذلك يخرج سليمًا من العيب في الأكثر. وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسنى، وقعودُ العبارات عن الغاية القصوى، فشيء لابدَّ منه، وأمر لا محيص عنه، كيف وقد وقف على مَن هو أجلُّ منه، وأعظم قدرًا، في هذه الصنعة، وأكبر في الطبقة، كامرئ القيس وزهير والنابغة، وإلى يومه[٤].

(١) مجتدي نصر: طالب عطاياه. والزَّنْدُ: موصل طرف الذراع في الكف.

(٢) شدقم وجديل: فحلان مشهوران. وأصل الشدقم: الأسد الواسع الشدق. والجديل: زمام البعير المجدول من أدم أو شعر. وزنَّ: من الظن أو التهمة. فتقول: زن فلان بفلان خيرًا أو شرًا: ظنه به أو اتهمه، ويروى: (لأنسى) بدلا من (لزنى) وهو وجيه.

(٣) الأخدعان: عرقان على جانبي العنق. والعود: البعير كبير السن.

(٤) أي أن بلوغ الكمال في صناعة اللغة أمر لا يتوفر لأحد، وإنما هو قصر على الكتاب العزيز. وكل شاعر أو ناثر مهما بلغ في حسن الأداء من جانب قصر به جانب آخر.=

ونحن نبيّن تميز كلامهم، وانحطاط درجة قولهم، ونزول طبقة نظمهم، عن بديع نَظْم القرآن، في باب مفرد، يتصور به ذو الصنعة ما يجب تصوره، ويتحقق وجه الإعجاز فيه بمشيئة اللّه وعونه.

* * *

• لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع:

ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدَّمناه؛ من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادَّعوه في الشعر، ووصفوه فيه؛ وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلُّم، والتدرُّب به، والتصنُّع له، كقول الشعر، ورَصْف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة. وله طريق يسلك، ووجه يقصد، وسُلَّم يرتقى فيه إليه، ومثال يقع طالبه عليه(١).

فربَّ إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعرًا، أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعًا، أو صنعة متصلة، لا يسقط من كلامه حرف، وقد يبادره به ما قد تعوده(٢).

وأنت ترى أدباء زماننا يضيفون المحاسن في جزء، وكذلك يؤلفون أنواع البارع(٣)، ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو رسالة أو خطبة، فيحشون به

ومحال أن يبلغ أحد في ذلك مبلغ الكمال، وإلا ما عجز عن معارضة القرآن. وقد ضرب أمثلة بمن هم أكبر من البحتري وبين كيف وقف بهم جهدهم عن حد الكمال. وقول المؤلف: وإلى يومه: أي أن التقصير ضرب لازب منذ من ضرب بهم المثل وحتى زمان البحتري. ونقول: وما بعد زمانه وحتى تقوم الساعة لايكون الكمال في لغة العرب لأحد من الخلق؛ لأنه وقف على معجزة اللغة الخالدة: القرآن المجيد.

(١) أي يصنع على مثاله.

(٢) أي قد يحاول إنسان أن يغير مما تعود من شعر أو نثر أو سجع، وأن يخرج على ما تعود، لكن عادته تغلبه فلا يخرج كلامه إلا على ما قد ألف وتعود.

(٣) أي أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية.

كلامهم، ومَن كان قد تدرَّب وتقدَّم في حفظ ذلك اشتغل عن هذا التصنيف، ولم يحتج إلى تكلف هذا التأليف، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطًا من باع كلامه، وموشحًا بأنواع البديع ما يحاوله من قوله. وهذا طريقٌ لا يتعذَّر، وبابٌ لا يمتنع، وكل يأخذ فيه مأخذًا، ويقف فيه موقفًا على قدر ما معه من المعرفة، بحسب ما يمدُّه من الطبع.

فأما شأو نظر القرآن فليس له مثال يُحتذى إليه، ولا إمام يُقتدى به، ولا يصحُّ وقوع مثله اتفاقًا، كما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب، وكما يلحق بعض كلامه بالوحشيات، ويضاف من قوله إلى الأوابد(١). لأن ما جرى هذا المجرى، ووقع هذا الموقع، فإنما يتفق للشاعر في لمع من شعره، وللكاتب في قليل من رسائله، وللخطيب في يسير من خطبه. ولو كان كل شعره نادرًا، ومثلًا سائرًا ومعنى بديعًا، ولفظًا رشيقًا، وكلُّ كلامه مملوءًا من رونقه ومائه، ومُحَلًّا ببهجته وحسن روائه، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين، والمتردد بين الطرفين، ولا البارد المستثقل، والغث المستنكر، لم يبن الإعجاز في الكلام ولم يبن التفاوت العجيب بين النظام والنظام.

وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل، ومبهم قد يحتاج في بعضه إلى تفسير، وسنذكر ذلك بمشيئة اللَّه وعونه.

ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه إليهم: إن ذلك باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة، وإنه لا ينفك القرآن عن فنّ من فنون بلاغتهم، ولا وجه من وجوه فصاحتهم، وإذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضع كان جديرًا.

وإنما لم نطلق القول إطلاقًا؛ لأنا لا نجعل الإعجاز متعلقًا بهذه الوجوه

(١) الوحشي من الكلام: العويص. وفلان يتوخى الوحشي في كلامه: أي يأتي فيه بالعويص.. والأوابد في الكلام: غرائبه وعجائبه.

الخاصة، ووقفًا عليها، ومضافًا إليها، وإن صحَّ أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة، آخذة بحظها من الحسن والبهجة، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلُّف المستبشع، والتعمُّل المستشنع[(١)].

* * *

فصل

في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن

قد بينَّا أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القرآن، إلا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك، فإذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تُحدُّوا على أن يأتوا بمثله، وقُرِّعُوا على تَرْك الإتيان بمثله، ولم يأتوا به، تبيَّنوا أنهم عاجزون عنه، وإذا عجز أهل اللسان فهم عنه أعجز.

وكذلك نقول: إن مَنْ كان من أهل اللسان العربي، إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحدَّ الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرُّف اللغة، وما يعدونه فصيحًا بليغًا بارعًا من غيره، فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بمثل ما بيَّنا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره، وهو ومَن ليس من أهل اللسان سواء[(٢)].

---

(١) أي أننا لا ننكر وجود هذه المحسنات ـ في الجملة ـ في القرآن المجيد. لكن بلاغته وإعجازه وطريقته التي تفرد بها مما كان بها في القمة من الحسن والبهجة، لا تتوقف على هذه المحسنات التي أشرنا إليها، بل إلى شيء آخر، وهو حسن استعمالها، وجمال استغلالها، وبراعة رصفها في الكلام الشريف دون تعمل أو تكلف.

(٢) أي أن صاحب اللسان العربي الذي لم يبلغ في الفصاحة مبلغها، ولم يعرف وجوه التصرف في اللغة، شأنه في معرفة إعجاز القرآن شأن الأعجمي أو الفارسي الذي لا يعرف العربية. فكلاهما يدركان إعجاز القرآن ليس بعلمهما، وإنما بمعرفتهما أن العرب عجزوا عن معارضته.

فأما مَن كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها، فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة، فليس يخفى عليه إعجاز القرآن، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر، وكما يميز بين الشعر الجيد والرديء، والفصيح والبديع، والنادر والبارع والغريب. وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره، ويعرف البزاز(١) من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره.

وإن كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر، وربما اختلفوا فيه؛ لأن من أهل الصنعة مَن يختار الكلام المتين والقول الرصين، ومنهم مَنْ يختار الكلام الذي يروق ماؤه وتروع بهجته ورواؤه، ويسلس مأخذه، ويسلم وجهه ومنفذه، ويكون قريب المتناول، غير عويص اللفظ، ولا غامض المعنى. كما يختار قوم ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولا يختار ما سهل على اللسان، وسبق إلى البيان.

ورُوي أن عمر بن الخطاب ﷺ وصف زهيرًا فقال: كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وقال لعبد بني الحسحاس(٢) حين أنشده:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا

أما إنه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه.

وروي أن جريرًا سئل عن أحسن الشعر فقال: قوله:

إن الشقي الذي في النار منزله ... والفوز فوز الذي ينجو من النار

كأنه فضَّله لصدق معناه.

ومنهم مَن يختار الغلو في قول الشعر والإفراط فيه، حتى ربما قالوا: أحسن الشعر أكذبه، كقول النابغة:

---

(١) البزاز: تاجر الثياب. والبز: نوع من الثياب.

(٢) عبد بني الحسحاس بن هند بن سفيان بن غضاب بن كعب بن سعد بن ثعلبة بن دودان ابن أسد بن خزيمة. من فحول الشعراء، كان عبدًا رقيقًا، واسمه سحيم.

يقدُّ السلوقيَّ المضاعف نسجه ... ويوقدن بالصفاح نار الحباحب(١)

وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين في الغلو والاقتصاد، وفي المتانة والسلاسة.

* * *

ومنهم مَن رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة، وألطف تعمُّلا وأن يتخيَّر الألفاظ الرشيقة للمعاني البديعة، والقوافي الواقعة، كمذهب البحتري، وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب:

في نظام من البلاغة ما شك ... امرؤ أنه نظام فريد

وبديع كأنه الزهر الضاحك ... في رونق الربيع الجديد

حُزْنَ مُستَعْمَل الكلام اختيارًا ... وتجنبن ظلمة التعقيد

وركبن اللفظ القريب فأدركن ... به غاية المراد البعيد(٢)

ويرون أن مَنْ تعدَّى هذا كان سالكًا مسلكًا عاميًّا، ولم يروه شاعرًا ولا مصيبًا.

وفيما كتب الحسن بن عبد الله(٣) أو أبو أحمد العسكري(٤) قال: أخبرني محمد بن يحيى، قال: أخبرني عبد اللّٰه بن الحسن قال: قال لي

---

(١) يقد: يشق ويقطع، السلوقي: درع تلبس في الحرب مشهورة بجودتها، الصفاح: الحجارة الصلدة العريضة، الحباحب: نوع من الذباب يضيء ليلًا. يصف الشاعر سيفًا أو ضاربًا به بأنه الضربة تشق الدرع وما تحته ثم تنزل على الصخر فتخرج منه شررًا مضيئًا كضياء هذا الذباب ليلًا.

(٢) المذهب الذي عبر عنه البحتري بهذه الأبيات لا يصدق عليه ما قال المؤلف الفاضل: «ما كان أكثر صنعة»، بل ما كان أيسر صنعة وألطف استعمالًا، وهو ما يعبر عنه بقولهم: السهل الممتنع.

(٣) أبو هلال العسكري صاحب الصناعتين، تقدم التعريف به.

(٤) أبو أحمد العسكري، خال أبي هلال العسكري، صاحب كتاب «صناعة النظم والنثر»، توفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين.

البحتري: دعاني علي بن الجهم[١] فمضيت إليه، فأفضنا في أشعار المحدثين، إلى أن ذكرنا شعر أشجع، فقال لي: إنه يُخلي، وأعادها مرات، ولم أفهمها، وأنفت أن أسأله عن معناها.

فلما انصرفت فكرت في الكلمة، ونظرت في شعره فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة، ليس فيها بيت رائع، وإذا هو يريد هذا بعينه، أن يعمل الأبيات فلا يصيب فيها ببيت نادر، كما أن الرامي إذا رمى برشفة فلم يصب بشيء قيل: قد أخلى، قال: وكان علي بن الجهم أحسن الناس علمًا بالشعر.

وقوم من أهل اللغة يميلون إلى الرصين من الكلام، والذي يجمع الغريب والمعاني، مثل أبي عمرو بن العلاء[٢]، وخلف الأحمر[٣]، والأصمعي[٤].

ومنهم من يختار الوحشي من الشعر، كما اختار المفضل[٥] للمنصور[٦] من المفضليات، وقيل إنه اختار ذلك لميله إلى ذلك الفن.

---

(١) علي بن الجهم: من الشعراء العباسيين المجيدين، كان رقيق الحواشي عذب الألفاظ، توفي سنة تسع وأربعين ومئتين.

(٢) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد اللَّه المازني، أحد القراء السبعة المشهورين، اختلف في اسمه على إحدى وعشرين قولًا، وسبب ذلك أنه لهيبته لم يكن يسأل عن اسمه، كان إمام البصرة في القراءات والنحو واللغة، قرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد، توفي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - سنة أربع، وقيل سنة تسع وخمسين ومئة.

(٣) خلف الأحمر البصري أبو محرز بن حيان، راوية ثقة علامة، قيل لم يكن أحد أعلم بالشعر من خلف والأصمعي، له مصنف في جبال العرب وما قيل فيها من الشعر، توفي في حدود الثمانين بعد المئة.

(٤) الأصمعي: عالم أديب نقادة، تقدم التعريف به.

(٥) المفضل: هو المفضل بن معشر بن أسحم بن عدي بن شيبان بن سود بن غدرة بن منبه ابن نكرة، فضلته قصيدته التي يقال له: المنصفة، وأولها قوله:

ألم تر أن جيرتنا استقلوا ... فَنِيَّتُنَا وَنِيَّتُهُم فريق

وهو من شعراء البحرين المجيدين.

(٦) المنصور: الخليفة المعروف، وقيل إنه اختارها لابنه المهدي.

وذكر الحسن بن عبد اللَّه أنه أخبره بعض الكتاب عن علي بن العباس قال: حضرت مع البحتري مجلس عبيد اللَّه بن عبد اللَّه طاهر(١): وقد سُئل البحتري عن أبي نواس ومسلم بن الوليد(٢)، أيهما أشعر؟ فقال البحتري: أبو نواس أشعر، فقال عبيد الله:

إن أبا العباس ثعلبًا(٣) لا يطابقك على قولك ويفضل مسلمًا، فقال البحتري: ليس هذا من علم ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله، إنما يعلم ذلك مَنْ وقع في سلك(٤) الشعر إلى مضايقه، وانتهى إلى ضروراته.

فقال عبيد الله: وَرِيَتْ بك زنادي(٥) يا أبا عبادة، وقد وافق حكمك حكم أخيك بشار بن برد في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال: جرير أشعرهما، فقيل بماذا؟ فقال: لأن جريرًا يشتد إذا شاء، وليس كذلك الفرزدق؛ لأنه يشتد أبدًا، فقيل له: فإن يونس(٦)، وأبا عبيدة(٧) يفضلان الفرزدق على جرير، فقال: ليس

---

(١) عبيد اللَّه بن عبد اللَّه طاهر: أديب لغوي شاعر ناقد، توفي سنة ثلاثمائة هجرية.

(٢) مسلم بن الوليد الملقب: صريع الغواني، من أبناء الأنصار، وكان مداحًا مجيدًا، ولقب صريع الغواني لقوله:

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

(٣) أبو العباس ثعلب: أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني، إمام الكوفيين في النحو واللغة، ولد سنة مئتين، ومات سنة إحدى وتسعين ومئتين، وذكره الداني في طبقات القراء، وله كتاب في القراءات جيد.

(٤) أي سلك طريق تأليفه ومعاناة نظمه.

(٥) عبارة إعجاب وثناء، تقول لمن أنجدك وأعانك: وَرَت بك زنادي والأصل في الزناد، أنهما عودان من شجر أخضر يحك أعلاهما بأسفلهما فتنقدح من ذلك النار، والأعلى هو: الزند، والأسفل: الزندة، وقد ضرب اللَّه ـ تَعَالَى ـ بذلك مثلًا على قدرته فقال ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: ٨٠].

(٦) يونس بن حبيب البصري أبو عبد الرحمن، من أصحاب أبي عمرو بن العلاء، بارع في النحو، كانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب، توفي سنة ثنتين وثمانين ومئة.

(٧) أبو عبيدة: معمر بن المثنى اللغوي البصري، مولى بني تيم رهط الصديق أبي بكر ﷺ، =

هذا من عمل أولئك القوم، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله، وفي الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق، ولقد ماتت النوار امرأته فناح عليها بقولة جرير:

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار(١)

وروي عن أبي عبيدة أنه قال للفرزدق: ما لك لا تنسب كما ينسب جرير؟ فغاب حولًا ثم جاء فأنشد:

يا أخت ناجية بن سامة إنني أخشى عليك بنيّ أن طلبوا دمي

والأعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة، وما اختاره من الوحشيات، وذلك أنه تنكر للمستنكر الوحشي، والمبتذل العامي، وأتى بالواسطة.

وهذه طريقة من ينصف في الاختيار، ولا يعدل به غرض يخص؛ لأن الذين اختاروا الغريب إنما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم، وإظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه، ولم يكن قصدهم جيد الأشعار لشيء يرجع إليها في أنفسها، ويبين هذا أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ومستنكر المورد على النفس، حتى يتأبّى بغرابته في اللفظ عن الأفهام، أو يمتنع بتعويص معناه عن الإبانة، ويجب أن يتنكب ما كان عليه اللفظ مبتذل العبارة، ركيك المعنى، سفسافي الوضع، مجتلب التأسيس على غير أصل ممهد،

= أول من صنف في غريب الحديث، توفي سنة تسع ومئتين.

(١) بيت على قدر من الضعف في التعبير عن الغرض الذي سيق من أجله، وأي نواح ذلك الذي يستحيي فيه أن يبكي شريكة حياته مجرد بكاء، وأي وفاء لزوجه وأم أولاده ذلك الذي يمنعه الحياء من زيارته قبرها؟ ذلك رغم أن العرب لم يكن لديهم من العادات المتمكنة مثل تمكن عادة زيارة القبور حتى بعد سنين وهي أطلال، والبكاء عليها.

ولا طريق موطد.

وإنما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع، ولذلك وضع أصلها على أكثرها بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة في نظمها، وأسقطوها من كلامهم، فجرى لسانهم على الأعدل، ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي، لأنهم بدؤوا بحرف وسكتوا على آخر وجعلوا حرفًا وصلةً بين الحرفين، ليتمَّ الابتداء والانتهاء على ذلك، والثنائي أقل، وكذلك الرباعي، والخماسي أقل، ولو كان كله ثنائيًا لتكررت الحروف، ولو كان كله رباعيًا أو خماسيًا لكثرت الكلمات.

وكذلك بني أمر الحروف التي ابتدئ بها السور على هذا، فأكثر هذه السور التي ابْتُدِئَت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف، وما هو أربعة أحرف سورتان، وما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان، فأما ما بدئ بحرف واحد فقد اختلفوا فيه: فمنهم مَنْ لم يجعل ذلك حرفًا وإنما جعله اسمًا لشيء خاص، ومن جعل ذلك حرفًا قال: أراد أن يحقق الحروف مفردها ومنظومها(١).

(١) في كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ نظر، فلو أنه وقف بكلامه بعيدًا عن الحروف في أوائل السور القرآنية الكريمة لربّما كان كلامه مقبولًا، أما كلامه عن الحروف القرآنية في أوائل السور فكلام غير مسلم، بل مرفوض ولا يخضع أبدًا للقاعدة التي أجراها على اللغة، ذلك أن الحرف له صوت، وله اسم، أما الصوت فهو ما يكون من مخرجه حين النطق به، ففي الألف نقول: «آ» فالصوت الذي يخرج من الحلق حين ننطق بحرف الألف هو صوت ذلك الحرف، أما اسمه فهو مكون من ثلاثة أحرف وهو: «ألف»، فالاسم في الأحرف غير أصواتها، ونحن في أوائل السور التي بدئت بأحرف لا ننطق أصوات الحروف، بل ننطق بأسمائها، ففي سورة البقرة لا نقرأ فاتحتها من الأحرف فنقول: «الٓمٓ» وإنما ننطق بأسماء الحروف فنقول «ألف لام ميم» فكل حرف منها ينطق اسمه من ثلاثة حروف، وهذه هي القراءة الشريفة، من ثم فإن القواعد التي أراد أن يخضع لها اللغة العربية أو يفسرها بها قد تصدق في غير ما ورد من أحرف في بدايات السور القرآنية، ومحاولة المؤلف الخروج من مأزق السور التي بدئت بحرف واحد متعللًا بأن البعض ذهب إلى أنه =

ولضيق ما سوى كلام العرب، أو لخروجه عن الاعتدال، يتكرر في بعض الألسنة الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيرًا، كنحو تكرر الطاء والسين في لسان يونان، وكنحو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك، ولذلك لا يمكن أن ينظم من معه الشعر في تلك الألسنة على الأعاريض التي تُمْكن في اللغة العربية، والعربية أشدها تمكنًا، وأشرفها تصرُّفًا وأعدلها، ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن، وعلق بها الإعجاز، وصارت دلالة في النبوة.

وإذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس، التي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها، وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها[1]، فما كان أقرب في تصويرها، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد، وأشدَّ تحقيقًا في الإيضاح عن الطلب، وأعجبَ في وضعه، وأرشق في تصرفه، وأبرع في نظمه، كان أولى وأحق بأن يكون شريفًا، وقد شبهوا النطق بالخط، والخط يحتاج مع بيانه إلى رشاقة وصحة ولطف، حتى يحوز الفضيلة ويجمع الكمال، وشبهوا الخط والنطق بالتصوير، وقد أجمعوا أن من أحذق المصورين مَنْ صوَّر لك الباكي المتضاحك، والباكي الحزين، والضاحك المتباكي، والضاحك المستبشر، وكما أنه يحتاج إلى لطف يد في

= اسم لشيء خاص أو غير ذلك من التعلات، هذه المحاولة لا حاجة به إليها لأن الحرف الواحد في أوائل السور لا ينطق حرفًا بل ينطق ثلاثة أحرف، فيقال: صَادْ، قافْ، نُونْ، ونطقها هكذا يحقق له القاعدة التي زعمها من أن العربية تقوم في أصلها على الثلاثي، أما السور التي بدئت بثلاثة أحرف، فهي تنطق في الحقيقة تسعة أحرف، كما بينا في أسماء أحرف أوائل سورة البقرة، ولعل الذي غرر بالرجل أنه خلط بين أصوات الحروف وأسمائها.

(١) عبر الشاعر عن هذا المعنى فقال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

تصوير هذه الأمثلة، فكذلك يحتاج إلى لطفٍ في اللسان والطبع في تصوير ما في النفس للغير(١).

وفي جملة الكلام ما تقصر عبارته وتفضل معانيه(٢)، وفيه ما تقصر المعاني وتفضل العبارات(٣)، وفيه ما يقع كل واحد منهما وفقًا للآخر، ثم ينقسم ما يقع وفقًا إلى ما يفيدها على تفصيل وإلى ما يفيدها بدونه، وكل واحد منهما قد ينقسم على أن يكون كل واحد منهما بديعًا شريفًا غريبًا لطيفًا، وقد يكون كل واحد منهما مستجلبًا متكلفًا، ومصنوعًا متعسفًا، وقد يكون واحد منهما حسنًا رشيقًا وبهيجًا نضيرًا، وقد يتفق أحد الأمرين دون الآخر، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة في واحد منهما، إنما يميز من يميز، ويعرف من يعرف، والحكم في ذلك صعب شديد، والفصل فيه شأوٌ بعيد.

وقد قل من يميز أصناف الكلام، فقد حكي عن طبقة أبي عبيدة وخلف الأحمر(٤) وغيرهم في زمانهم أنهم قالوا: ذهب مَنْ يعرف نقد الشعر.

وقد بينا قبل هذا اختلاف القوم في الاختيار، وما يجب أن يجمعوا عليه

---

(١) ذكر للتعبير عن المعاني القائمة بالنفس ثلاث وسائل على ثلاثة مستويات. المستوى الأول: الكلام، وهو سمعي، أو وسيلة إدراكه حاسة السمع، المستوى الثاني: الخط، وهو بصري، بمعنى أن وسيلة إدراكه حاسة البصر، وعلى هذين المستويين يكون المعنى واضحًا في الألفاظ مسموعة ومكتوبة، ويشترك في إدراك الألفاظ ومعانيها حاستا السمع والبصر جميعًا، وهذا أفضل من إدراكها بحاسة واحدة وآكد في الاحتفاظ بها، أما المستوى الثالث: فهو الرسم والتصوير، وهو وسيلة تعبير فيها من الإبهام والغموض واختلاف الأنفس في التلقي عنها وفهم مضمونها ما ليس يوجد في وسيلتي الكلام والخط، على أنه لا يخفى أن الخط نوع من الرسم والتصوير.

(٢) وهو الإيجاز، مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(٣) وهو الإطناب، مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: ١٧، ١٨].

(٤) خلف الأحمر: راوية مشهور، ولغوي وأديب وناقد، تقدم التعريف به.

ويرجعوا عند التحقيق إليه، فكلام المقتدر نمط وكلام المتوسط باب؛ وكلام المطبوع له طريق، وكلام المتكلف له منهاج، والكلام المصنوع المطبوع له باب.

ومتى تقدم الإنسان في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه، ولم تشتبه عنده هذه الطرق، فهو يميِّز قدر كل متكلم بكلامه، وقدر كل كلام في نفسه ويحلُّه محلَّه، ويعتقد فيه ما هو عليه، ويحكم فيه بما يستحقُّ من الحكم، وإن كان المتكلم يجود في شيء دون شيء عرف ذلك منه، وإن كان يعمُّ إحسانه عرف.

ألا ترى أن منهم مَنْ يجودُ في المدح دون الهجو، ومنهم مَنْ يجود في الهجو وحده، ومنهم من يجود في المدح والسخف، ومنهم مَنْ يجود في الأوصاف، والعالم لا يشذّ عنه مراتب هؤلاء، ولا يذهب عليه أقدارهم حتى أنه إذا عرف طريقة شاعر في قصائد معدودة، فأنشد غيرها من شعره، لم يشكّ أن ذلك من نسجه، ولم يرتب في أنه من نَظْمه، كما أنه إذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة، وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره، وكذلك أمر الخطب، فإن أشتبه عليه البعض فهو لاشتباه الطريقين، وتماثل الصورتين، كما قد يشتبه شعر أبي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك أبو تمام فيه التصنُّع، ويقصد فيه التسهُّل، ويسلك الطريقة الكتابية، ويتوجه في تقريب الألفاظ، وترك تعويص المعاني، ويتفق له مثل بهجة أشعار البحتري وألفاظه.

ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سَبْك أبي نواس، ولا نَسْج ابن الرومي، من نَسْج البحتري، وينبهه ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه، وبديع رونقه، وبهجة كلامه، إلا فيما يسترسل فيه فيشتبه بشعر ابن الرومي، ويحركه ما لشعر أبي نواس من الحلاوة والرقة والرشاقة والسلاسة، حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم[1]، وكذلك يميز بين شعر الأعشى في التصرف، وبين شعر امرئ القيس،

(١) مسلم بن الوليد: تقدم التعريف به.

وبين شعر النابغة وزهير، وبين شعر جرير والأخطل، والبعيث[١] والفرزدق، وكلٌّ له منهج معروف، وطريق مألوف.

ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل عبد الحميد وطبقته، وبين طبقة مَنْ بعده، حتى أنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد، وبين[٢] رسائل أهل عصره ومَنْ بعده، ممن برع في صنعة الرسائل، وتقدَّم في شأوها، حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين، حتى خلص لنفسه طريقة، وأنشأ لنفسه منهاجًا، فسلك تارة طريقة الجاحظ، وتارة طريقة السجع، وتارة طريقة الأصل، وبرع في ذلك باقتداره، وتقدم بحذقه، ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره، وإن كان قد يشتبه البعض، ويدق القليل، وتغمض الأطراف، وتشذ النواحي.

وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر، وتتدانى رسائل كتَّاب دهر، حتى تشتبه اشتباهًا شديدًا، وتتماثل تماثلًا قريبًا، فيغمض الفصل.

وقد يتشاكل الفرع والأصل، وذلك فيما يتعذر إدراك أمده، ولا يتصعب طلاب شأوه، ولا يتمنع بلوغ غايته، والوصول إلى نهايته؛ لأن الذي يتفق من الفصل بين أهل الزمان، إذا تفاضلوا وتفاوتوا في مضمار، فصل قريب، وأمر يسير.

وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الألفاظ وسارق المعاني، ولا من يخترعها ولا من يلم بها، ولا من يجاهر بالأخذ ممن يكاتم، ولا مَنْ يخترع الكلام اختراعًا ويبتدهه ابتداهًا[٣]، ممن يروي فيه، ويجيل الفكر في تنقيحه، ويصبر عليه

---

(١) البعيث: هو خداش بن بشر بن خالد بن بَيْبَة بن قرط بن سفيان بن مجاشع بن دارم، من فحول الشعراء، والسبب في تسميته البعيث أول بيت قاله من الشعر هو:

تبَعَّثُ مني ما تَبَعَّثَ بعدما ... أُمِرَّتْ حبال كل مِرتُها شذرا

(٢) تكرار لفظة: «بين» غير فصيح، والصواب حذفها.

(٣) يأتي بها على البديهة دون تصنع وتكلف ومعاناة.

حتى يتخلَّصَ له ما يريد، وحتى يتكرر نظره فيه.

قال أبو عبيدة: سمعت أبا عمرو[١] يقول: زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر؛ لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان زهير يسمى كبير شعره الحوليات المنقحة، وقال عدي بن الرقاع[٢]:

قصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها[٣]

وكقول سويد بن كراع[٤]:

أبيتُ بأبواب القوافي كأنما أصادى بها سربًا من الوحش نُزَّعَا

ومنهم من يعرف بالبديهة وحدَّة الخاطر، ونفاذ الطبع، وسرعة النظم، يرتجل القول ارتجالًا، ويطبعه عفوًا صفوًا، فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا وكدوا أنفسهم، وجاهدوا خواطرهم، وكذلك لا يخفى عليهم الكلام العلوي، واللفظ الملوكي، كما لا يخفى عليهم الكلام العامي، واللفظ السوقي.

ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلًا، ويعطونه - كيف تصرف - حقوقه، ويعرفون مراتبه،فلا يخفَى عليهم ما يختص به كلُّ فاضل تقدَّم في وجهٍ من وجوه النظم،

(١) أبو عمرو بن العلاء، أحد القراء السبعة، توفي سنة أربع وخمسين ومئة، تقدم التعريف به.

(٢) عدي بن الرقاع: من حيٍّ من قضاعة يسمى عاملة، كان وصافًا، وهو أحسن من وصف ظبية بقوله:

تزجي أَغَنَّ كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وكذا له الكثير الذي سَبَق إليه في هذا الميدان.

(٣) نظر المثقف: أي أنظر فيها نظر المثقف، والمثقف: صانع الرماح، يصلح من رماحه وينظر في المعوج منها ويقومه، القناة: الرمح، والمنآد: المعوج. يشبه نفسه في نظره في قصيدته ليصلح من ألفاظها ومعانيها، بصانع الرماح، الذي يصنع الرمح ثم ينظر فيه ليصلح من عوجه.

(٤) سويد بن كراع بن كراع العُكْليّ، من بني عُكْل، كان شاعرًا محكمًا، وكان رجل بني عكل المقدم فيهم، وصاحب الرأي والعقل والرأي النافذ، من فحول الشعراء.

من الوجه الذي لا يشاركه فيه غيره، ولا يساهمه سواه.

ألا تراهم وصفوا زهيرًا بأنه: أمدحهم وأشدهم أثر شعر، قاله أبو عبيدة، ورُوي أن الفرزدق انتحل بيتًا من شعر جرير وقال: هذا يشبه شعري، فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبناه إليهم من المعرفة بهذا الشأن، وهذا كما يعلم البزازون هذا الديباج عُمِلَ بِتَسْتُر[1]، وهذا لم يعمل بتستر، وأن هذا من صنعة فلان دون فلان، ومن نَسْج فلان دون فلان، حتى لا يخفَى عليه وإن كان قد يخفَى على غيره.

ثم إنهم يعلمون أيضًا مَنْ له سَمْتٌ بنفسه، ومذهب برأسه، ومَنْ يقتدي في الألفاظ أو في المعاني أو فيهما بغيره، يجعل سواه قدوةً له، ومَنْ يُلِمُّ في الأحوال بمذهب غيره، ويأتي في الأحيان بمخترعه.

وهذه أمور ممهدة عند العلماء، وأسباب معروفة عند الأدباء، وكما يقولون: إن البحتري يغير على أبي تمام إغارة، ويأخذ منه صريحًا وإشارة، ويستأنس بالأخذ منه، بخلاف ما يستأنس بالأخذ من غيره، ويألف اتِّباعه كما لا يألف اتِّباع سواه، وكما كان أبو تمام يُلمُّ بأبي نواس ومسلم، وكما يعلم أن بعض الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى، ويؤلف ما يقوله من فرق شتى، وما الذي نفع المتنبي[2] جحوده الأخذ، وإنكاره معرفته الطائيين؟ وأهل الصنعة

---

(١) البزازون: تجار الثياب، والديباج: نوع من النسيج سداه ولحمته من الحرير. وَتَسْتُر: - بفتح التاء الأولى وضم الثانية وسطهما سين ساكنة - بلد بخوزستان كانت مشهورة بصنع الثياب في ذلك الزمان.

(٢) المتنبي: شاعر مجيد كثير التصرف في شعره وأغراضه، مجيد في كل منهما وإنما سمي بذلك لادعائه النبوة، وقيل غير ذلك، وهو القائل:

الليل والخيل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

اعترضه قطاع طرق وهو في سفر ليلًا فقتلوا جميع من معه، ولما ركب فرسه هاربًا منهم فارًّا بنفسه، ذَكَّره واحد من قطاع الطرق بذلك البيت، فقال المتنبي: قتلتني قتلك الله، ثم رجع وقاتل حتى قتل.

يدلُّون على كل حرف أخذه منهما جهارًا، أو ألمَّ بهما فيه سرارًا، وأما ما لم يأخذ عن الغير، ولكن سلك النمط، وراعَى النهج، فهم يعرفونه، ويقولون: هذا أشبه به من التمرة بالتمرة، وأقرب إليه من الماء إلى الماء، وليس بينهما إلا كما بين الليلة والليلة، فإذا تباينا، وذهب أحدهما في غير مذهب صاحبه، وسلك في غير جانبه، قيل: بينهما ما بين السماء والأرض، وما بين النجم والنون، وما بين المشرق والمغرب.

وإنما أطلت عليك ووضعت جميعه بين يديك، لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله، وغامضه وجليه، وقريبه وبعيده، ومعوجه ومستقيمه، فكيف يخفَى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول، وهو قريب متناول، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم، ويبعد عما هو في عرفهم، ويفوت مواقع قُدَرِهِم؟ وإذا اشتُبه ذلك، فإنما يُشتبَه على ناقص في الصنعة، أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه، ويدبرونه بينهم، ولا يتجاوزونه، فلكلامهم سبل مضبوطة، وطرق معروفة محصورة، وهذا كما يُشتبَه على مَنْ يدَّعي الشعر من أهل زماننا، والعلم بهذا الشأن، فيدَّعي أنه أشعر من البحتري، ويتوهَّم أنه أدقُّ مسلكًا من أبي نواس، وأحسن طريقًا من مسلم، وأنت تعلم أنهما متباعدان، وتتحقق أنهما لا يجتمعان، ولعل أحدهما إنما يلحظ عبارة صاحبه، ويطالع ضياء نجمه، ويراعى حفوف جناحه، وهو راكد في موضعه، ولا يضرُّ البحتريَّ ظنه، ولا يُلْحِقه بشأوه همه.

فإن اشتبه على متأدب، أو متشاعر، أو ناشئ، أو مرمد(١)، فصاحة القرآن وموقع بلاغته، وعجيب براعته، فما عليك منه، إنما يخبر عن نقصه، ويدل على عجزه، ويبين عن جهله، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله.

---

(١) ضد الناشئ، من: أرمد: إذا قدم وبلى، أي له خبرة قديمة في فن الشعر، أو هي من أرمد: التصاق بالرماد، كناية عن خلو باعه عن هذا الفن، وجهله به كلية.

وإنما قدمنا ما قدمناه في هذا الفصل، لتعرف أن ما ادعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن، وعجيب نظمه وبديع تأليفه، أمر لا يجوز غيره، ولا يُحْتمَل سواه، ولا يشتبه على ذي بصيرة، ولا يَخِيل عند أخي معرفة، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية وبين المخضرمين وبين المحدثين، ويميز بين مَنْ يجري على شاكلة طبعه، وغريزة نفسه، وبين مَنْ يشتغل بالتكلف والتصنع، وبين مَنْ يصير التكلف له كالمطبوع، وبين مَنْ كان مطبوعه كالتعمل المصنوع، هيهات هيهات، هذا الأمر - وإن دقَّ - فله قوم يقتلونه علمًا، وأهل يحيطون به فهمًا، ويعرفونه إليك إن شئت، ويصورونه لديك إن أردت، ويجعلونه على خواطرك إن أحببت، ويعرضونه لفطنتك إن حاولت، وقد قال القائل:

للحرب والضرب أقوامٌ لها خلقوا ... وللدواوين كتَّابٌ وحسَّابُ

ولكل عمل رجال، ولكل صنعة ناس، وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط، ولكن قد قلَّ مَنْ يميز في هذا الفن خاصة، وذهب مَنْ يُحصّل في هذا الشأن إلا قليلًا.

فإن كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات، والتحقق بمجاري البلاغات، فإنما يكفيك التأمُّل، ويغنيك التصوُّر، وإن كنت في الصنعة مرمدًا وفي المعرفة بها متوسطًا، فلابدَّ لك من التقليد، ولا غنى بك عن التسليم: أن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها، والشادي[١] فيها كالبائن منها.

فإنْ أراد أن يقرب عليه أمرًا، ويفسح له طريقًا ويفتح له بابًا، ليعرف به إعجاز القرآن فإنَّا نضع بين يَدَيْه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب، ونصور له صورة كل قبيل من النظم والنثر، ونحضر له من كل فن من القول شيئًا يتأمله حق تأمله،

---

(١) الشادي في صنعة العربية: من حصَّلَ منها طرفًا يسيرًا وفاته منها الكثير، من قولهم: فلان شدا من الأدب والعلم: حصل منه طرفًا.

ويراعيه حق مراعاته، فيستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد، ويقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية، والطالع عن الإلهية، الجامع بين الحُكْم والحِكَم، والأخبار عن الغيوب والغائبات، والمتضمن لمصالح الدنيا والدين، والمستوعب لجلية اليقين، والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها، بالألفاظ الشريفة على تفننها وتصرفها، ونعمد إلى شيء من الشعر المجمع عليه فنبيّن وجه النقص فيه، وندلُّ على انحطاط رتبته، ووقوع أبواب الخلل فيه، حتى إذا تأمل ذلك، وتأمل ما نذكره، من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته، وانكشف له واتضح، وثبت ما وصفناه لديه ووضح؛ وليعرف حدود البلاغة، ومواقع البيان والبراعة، ووجه التقدُّم في الفصاحة(١).

وذكر الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين»(٢) أن الفارسِيَّ سئل، فقيل له: ما البلاغة؟

فقال: معرفة الفصل من الوصل، وسئل اليوناني عنها فقال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام، وسئل الرومي عنها فقال: حسن الاقتضاب عند

---

(١) ليس بخاف على من يقرأ الكتاب الذي بين أيدينا أن المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ عاشق للأدب شعرًا ونثرًا، وأن حديث المؤلف عن الشعر وفنونه، والأدب وصنوفه فاق كثيرًا حديثه عن القرآن العظيم وإعجازه، وليس من شك في أن الحديث عن أوجه الإعجاز في القرآن المجيد ما كان بحاجة إلى كل هذه الإسهابات في الأبواب والفصول عن الشعر والشعراء وقصائدهم، وشروح قصائدهم المشهورة، ويبدو أن المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ توسل بالحديث عن إعجاز القرآن ليشبع هواه من الحديث في الشعر والأدب، وقد يكون ابتدأ برغبة صادقة لبيان إعجاز القرآن العظيم، ولكن هواه غلبه، فجنح به إلى الشعر والشعراء.

(٢) يبدو أن الأسئلة الآتية والإجابة عليها بما هو مثبت، إنما هو اجتهاد من الجاحظ وتعالم منه بمعرفة خصائص كل لغة من اللغات التي ذكرها، والناظر في هذه الأسئلة وإجاباتها يجد أن البلاغة المسئول عنها إنما تتحقق بجماع تلك الإجابات، وتوافر تلك الآراء، فليس بين الآراء التي وردت في الإجابات تعارض أو تنافر، بل بينهما تكامل وتعاون.

البداهة، والغزارة يوم الإطالة، وسئل الهندي عنها فقال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وقال مرة: التماس حسن الموقع، والمعرفة بساحات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني، أو غمض، وشرد من اللفظ وتعذر، وزينته أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية، وأن لا يكلم سيِّد الأمة بكلام الأمةِ، ويكون في قواه فصل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ويصفيها كل التصفية، ويهذبها بغاية التهذيب.

وأما البراعة ففيما يذكر أهل اللغة: الحذق بطريقة الكلام وتجويده، وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة.

وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها: فمنهم مَنْ عبَّر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى، وقد قيل: معناها الاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس، على عبارات جلية ومعان نقية بهية.

والذي يصور عندك ما ضمنَّا تصويره، وحصل عندك معرفته إذا كنت في صنعة الأدب متوسطًا، وفي علم العربية متبينًا، أن تنظر أولًا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ، فتعرف الفصل بين النظمين، والفرق بين الكلامين، فإن تبينَّ لك الفصل، ووقعت على جلية الأمر، وحقيقة الفرق، فقد أدركت الغرض، وصادفت المقصد، وإن لم تفهم الفرق ولم تقع على الفصل، فلابدَّ لك من التقليد، وعلمت أنك من جملة العامة، وأن سبيلك سبيلُ مَنْ هو خارجٌ عن أهل اللسان.

خطبة للنبي ﷺ

روى طلحة بن عبيد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على منبره يقول: «ألا أيها الناس: توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة

في السر والعلانية، ترزقوا وتؤجروا وتنصروا.

واعلموا أن اللَّه ﷻ قد افترض عليكم الجمعة، في مقامي هذا، في عامي هذا، في شهري هذا، إلى يوم القيامة، حياتي ومن بعد موتي.

فمَنْ تركها وله إمام فلا جمع اللَّه له شمله، ولا بارك له في أمره، ألا ولا حج له، ألا ولا صوم له، ألا ولا صدقة له، ألا ولا بر له، ألا ولا يؤم إعرابيٌّ مهاجرًا، ألا ولا يؤم فاجر مؤمنًا، إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه»[١].

خطبة له ﷺ

«أيها الناس: إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين: بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما اللَّه صانع فيه، وبين أجلٍ قد بقى لا يدري ما اللَّه تعالى قاضٍ عليه فيه، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت.

والذي نفس محمدٍ بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيار دار إلا الجنة أو النار».

خطبة له ﷺ

«إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ اللَّه فلا مضلَّ له، ومن يضلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له.

إن أحسن الحديث كتاب الله، وقد أفلح من زينه اللَّه في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أصدقُ الحديث وأبلغه، أحبوا مَنْ أحبَّ الله، وأحبوا اللَّه من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام اللَّه وذكره، ولا تُقَسُّوا عليه قلوبكم، اعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئًا، اتقوا اللَّه حق

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، وأخرجه البيهقي: كتاب الجمعة، والحديث ضعيف لوجود عدد من الضعفاء في سلسلة رواته.

تقاته، وصدقوا صالح ما تعلمون بأفواهكم، وتحابوا بروح اللَّه بينكم، والسلام عليكم ورحمة الله»[(١)].

خطبة له ﷺ في أيام التشريق

قال بعد حمد الله:

«أيها الناس، هل تدرون في أي شهر أنتم، وفي أي يوم أنتم، وفي أي بلد أنتم؟ قالوا: في يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام. قال: ألا فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه. ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظالموا ثلاثًا، ألا إنه لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا إن كلَّ دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه، ألا وإن أول دم وُضع دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب[(٢)]، ألا وإن كلَّ ربا كان في الجاهلية موضوع، ألا وإن اللَّه تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمي العباس[(٣)]؛ لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون.

ألا وإن الزمانَ قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾[(٤)]، ألا لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا وإن الشيطان قد يئس أن يعبده

---

(١) راجع «كنز العمال» (١٦/١٢٤، ١٢٥).

(٢) ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب هو ابن عم رسول اللَّه ﷺ، كان في بني ليث للرضاع على عادة العرب فقتلته هذيل، وظل دمه مطلوبًا فيمن قتلوه حتى وضعه رسول اللَّه ﷺ.

(٣) كان العباس عم رسول اللَّه ﷺ له أموال يخرجها بالربا على عادة العرب ونظامهم وقتذاك، وشاء اللَّه - تَعَالَى - أن يكون ربا العباس بن عبد المطلب أول ربا يطبق فيه شرع اللَّه حين حرم الربا، كما شاء - سُبْحَانَهُ - أن يكون أول دم يوضع هو دم ابن عم رسول اللَّه ﷺ ربيعة بن الحارث.

(٤) سورة التوبة، بعض آية: ٣٦.

المصلون، ولكن في التحريش بينكم.

اتقوا اللَّه في النساء، فإنهن عندكم عوان[١] لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإن لهن عليكم حقًّا ولكم عليهن حق، ألا يوطئن فرشكم أحدًا غيركم، فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، فإنما أخذتموهن بأمانة اللَّه ـ تعالى ـ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ألا ومَنْ كانت عنده أمانة فليؤدها إلى مَنْ ائتمنه عليها، ثم بسط يده فقال: ألا هل بلغت؟ ليبلغ الشاهد الغائب، فربَّ مُبَلَّغٍ أبلغُ من سامع»[٢].

خطبته ﷺ يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ثم قال:

«لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، صدق اللَّه وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كلُّ مأثرةٍ أو دم أو مالٍ يُدَّعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقَتْلُ الخطأ العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلظة، منها أربعون خلفة في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن اللَّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾... الآية[٣].

يا معشر قريش ـ أو يا أهل مكة ـ ما ترون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء».

* * *

(١) عوان: جمع عان، والعاني هو الأسير، وكل من ذل واستكان فهو عان، يقول ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] أي خضعت وذلت، والمقصود أن النساء مثل الأسرى عند الرجال.

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

خطبته ﷺ بالخيف

روى زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خطب بالخيف من مِنى فقال: «نضر اللَّه عبدًا سمع مقالتي فوعاها، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمَعْها، فربَّ حامل فِقْهٍ لا فقه له، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه.

ثلاث لا يغلَّ عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأولي الأمر، ولزوم الجماعة، إن دعوتهم تكون من ورائه.

ومن كان همه الآخرة جمع اللَّه له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَنْ كان همه الدنيا فرق اللَّه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له» [(١)].

خطبة له ﷺ

رواها أبو سعيد الخدري ﷺ، خطب بعد العصر فقال: «إلا إن الدنيا خضرة حلوة، ألا وإن اللَّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقُّوا الدنيا واتقُّوا النساء، ألا لا يمنعن رجلًا مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه، قال: ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف، فقال: إنه لم يبق من الدنيا فيما مضَى، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضَى» [(٢)].

كتاب النبي ﷺ إلى ملك فارس

«من محمد رسول اللَّه إلى كسرى[(٣)] عظيم فارس: السلام على مَنِ اتَّبع الهدى، وآمن باللَّه ورسوله، وشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير.

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري - رضي اللَّه عن الجميع -، وأبو داود الطيالسي في مسنده، والبيهقي. وقوله: ﷺ: «فيما مضى» أي: بالنسبة إلى ما مضى.

(٣) كسرى: لقب حكام فارس في ذلك الزمان، مثل: قيصر لقب حكام الرومان، ومثل فرعون: لقب حكام مصر وملوكها قديمًا.

محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول اللَّه إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم».

كتاب له ﷺ إلى النجاشي[(١)]

«من محمد رسول اللَّه إلى النجاشي ملك الحبشة: سِلْمٌ أنت، فإني أحمد إليك اللَّه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح اللَّه وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة، فحملت بعيسى، فحملته من روحه ونفخه، كما خلق آدم من طين بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى اللَّه وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، وإني أدعوك وجنودك إلى اللَّه تعالى، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي، والسلام على مَنِ اتَّبع الهدى».

نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية

«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللَّه ﷺ سهيل بن عمرو[(٢)]: اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن

(١) النجاشي: أصحمة النجاشي، والنجاشي لقب ملوك الحبشة، وليس اسمًا لواحد منهم على التعيين، وأصحمة النجاشي رحب بالمسلمين المهاجرين إلى أرضه وأكرمهم، ورفض تسليمهم لمشركي مكة، وقد أكرمه اللَّه - تَعَالَى - بالإسلام، ولما توفي بالحبشة أخبر اللَّه - تَعَالَى - رسوله ﷺ بوفاته فصلى عليه الرسول ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - صلاة الجنازة غائبًا، ولا يعتبر النجاشي صحابيًّا خلافًا للبعض؛ لأنه لم ير الرسول ﷺ، رحم اللَّه النجاشي رحمة واسعة.

(٢) سهيل بن عمرو هذا من أشراف مكة وعقلائهم وسيد من ساداتهم، كان من أسرى المشركين يوم بدر، وتأخر إسلامه حتى فتح مكة، وقد ذكروا فيه؛ أنه لم يكن أحد من كبراء مكة أسلم يوم الفتح أكثر صلاة وصيامًا ولا صدقة، ولا أقبل على ما يعينه من أمر الآخرة من سهيل بن عمرو، وقد تغير لونه من كثرة البكاء، وقد كان يختلف إلى معاذ ابن جبل يقرئه القرآن وهو يبكي، قيل: توفي في طاعون عمواس، وقيل: استشهد يوم الصفة، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

بعض، على أنه مَنْ أتى رسول اللَّه ﷺ بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم، ومَنْ جاء قريشًا ممن مع رسول اللَّه ﷺ لم يردُّوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه مَنْ أحبَّ أن يدخل في عهد رسول اللَّه ﷺ وعقده دخل فيه، ومَنْ أحبَّ أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخلُ علينا مكة، فإذا كان عامًا قابلًا خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك وأقمت بها ثلاثًا، وأن معك سلاح الراكب، والسيوف في الركب، فلا تدخلها بغير هذا»[١].

* * *

الفرق ظاهر بين بلاغة القرآن وبلاغة الرسول ﷺ

ولا أطول عليك، وأقتصر على ما ألقيته إليك، فإن كان لك في الصنعة حظ، أو كان لك في هذا المعنى حس، أو كنت تضرب في الأدب بسهم، أو في العربية بقسط، وإنِ قلَّ ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب، فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، وبين ما نسخناه لك من كلام رسول اللَّه ﷺ في خطبه ورسائله، وما عساك تسمعه من كلامه، ويتساقط[٢] إليك من ألفاظه، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بونًا بعيدًا، وأمدًا مديدًا، وميدانًا واسعًا، ومكانًا شاسعًا.

فإن قلت لعله أن يكون تعلم للقرآن وتصنع لنظمه، وشبه عليك الشيطان ذلك من خبثه، فتثبت في نفسك، وارجع إلى عقلك، واجمع لبَّك، وتيقَّنْ أن الخُطَبَ يحتشد لها في المواقف العظام، والمحافل الكبار، والمواسم الضخام، ولا يتجوز فيها، ولا يستهان بها، والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه[٣]، ويشمر لها عن جد واجتهاد، فكيف يقع بها الإخلال، وكيف

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) لفظة خارجة، ما كان ينبغي أن تذكر بجانب ما يأتينا من معين النبوة السامي لفظة: «يتساقط».

(٣) جراميز الشي: أطرافه ومجتمع بدنه، وجراميز الإنسان: أطرافه وبدنه، ويقال: جمع جراميزه: إذا تقبض استعدادًا للوثوب، والمعنى: مما يجمع له الكاتب همته وبلاغته.

يتعرض للتفريط؟

فستعلم لا محالة أن نَظْمَ القرآن من الأمر الإلهي، وأن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي.

فإذا أردت زيادة في التَبَيُّن، وتقدُّمًا في التعرف، وإشرافًا على الجلية، وفوزًا بمحكم القضية، فتأمَّلْ - هداك اللَّه - ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء، لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبي ﷺ واحد، وسبكها سَبْكٌ غير مختلف، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، وبين شعر الشاعرين، وذلك أمر له مقدار معروف، وحد - ينتهي إليه - مضبوط، فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمي منهاج، ولجملته طريق، وتبيَّنت ما يمكن فيه من التفاوت، نظرت إلى نظم القرآن نظرة أخرى، وتأملته مرة ثانية، فتراعي بعد موقعه، وعالي محله وموضعه، وحكمت بواجب من اليقين، وثلج الصدر بأصل الدين(١).

خطبة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه

قام خطيبًا فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد، فإن وليت أمركم، ولست بخيركم، ولكن نَزَل القرآن وسَنَّ النبي ﷺ، وعَلَّمَنَا فَعَلِمْنا، واعلموا أن أكيس الكيس التُّقَى، وأن أحمق الحمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوي حتى

---

(١) لم يكن ضروريًا - لكي يبين إعجاز القرآن وتفرده - أن ينزل بكلام الرسول ﷺ ويهبط به إلى مستوى عامة الصحابة، فلا يكون بين كلامه ﷺ وكلامهم - رضوان اللَّه عليهم -، سوى ما بين كلامهم بعضهم مع بعض من الفروق العادية، أو «من التفاوت بين كلام الفصيحين، وشعر الشاعرين»، فإنه من المقرر أن رسولنا ﷺ أُعطي جوامع الكلم، وقد جعل رسول اللَّه ﷺ هذا من خصائصه الشريفة، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، وكان كلامه ﷺ في الرتبة العليا التي لا تطاول، ليس إعجازًا كإعجاز القرآن، ولكنه أيضًا ليس كلامًا مثل كلام أحدهم، وإلا فكيف جعل الرسول ﷺ هذا من خصائصه؟

آخذ منه الحق.

أيها الناس، إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت أعينوني، وإن زغت فقوِّموني».

عهد لأبي بكر الصديق إلى عمر رضي الله عنهما

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول اللَّه ﷺ آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، ساعة يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر: إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب، فإن برَّ وعدل فذاك ظنِّي به ورأيي فيه، وإن جارَ وبدَّل فلا عِلْمَ لي بالغيب والخيرَ أردت لكم، ولكل امرئ ما اكتسب من الإِثم، (وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون)»[(١)].

وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة اللَّه عليه قال: «دخلت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه في علَّته التي مات فيها، فقلت: أراك بارئًا يا خليفة رسول الله.

فقال: أما إني على ذلك لشديد الوجع، وما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدُّ عليَّ من وجعي، إني وَلِّيتُ أموركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه[(٢)] أن يكون له[(٣)] الأمر من دونه، واللَّه لتتخذن نضائد الديباج[(٤)]، وستور الحرير، ولتألمن النوم على الصوف الأذربي[(٥)] كما يألم أحدكم النوم على حسك

---

(١) سورة الشعراء، بعض الآية الخاتمة للسورة.

(٢) كناية عن الغيظ والضيق وعدم الرضا.

(٣) الضمير في: «له» لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) نضائد: جمع نضيدة، وهي الوسادة، والأصل في: منضود، ونضيد: المرتب المنسق المضموم بعضه إلى بعض، ومنه قوله اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الواقعة: ٢٩]، والديباج: الحرير.

(٥) الصوف الآذربي: نسبة إلى أذربيجان، وهو صوف ناعم جيد الصنعة، وأذربيجان من الجمهوريات الإسلامية التي فك اللَّه ـ تَعَالَى ـ أسرها من روسيا الشيوعية بعد سقوط الاتحاد السوفييتي الملحد.

السعدان(١)، والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب رقبته في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا، يا هادي الطريق جزت، إنما هو والله الفجر أو البجر» (٢).

فقلت: خفض عليك يا خليفة رسول الله ﷺ، فإن هذا يهيضك(٣) إلى ما بك، فوالله ما زلت صالحًا مصلحًا، لا تأس على شيء فاتَك من أمر الدنيا، ولقد تخلَّيت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيرًا.

وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنا منها على ما نقلنا، منها قصة السقيفة.

نسخة كتاب

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم:

«سلام عليك فإنَّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنَّا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف والوضيع، ولكلٍّ حصته من العدل، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك، فإنَّا نحذرك يومًا تعنو فيه الوجوه، وتجب فيه القلوب(٤)، وإنَّا كنا نتحدث أن هذه الأمة ترجع في آخر زمانها أن يكون إخوان

---

(١) الحسك: الشوك، والسعدان: نبات كثير الشوك تأكله الإبل كأجود ما يكون الأكل لها.

(٢) الفجر: الوقت المعروف، والمقصود ضياؤه، والبُجْر: الشر، والمقصود: المهالك التي يقع فيها المسافر الذي لا يتحرى الضوء ليبصر طريقه، بل يدلج في ظلام الليل فيقع في المهالك.

(٣) يَهيضُك: أي يزيدك مرضًا، أو يعيدك أشد مرضًا بعد أن خَفَّ ما بك، والأصل في «هاض» أنها في كسر العظم بعد ما اندمل أو قارب الالتئام، ومن ذلك قول أم المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: «والله لو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لَهَاضَهَا».

(٤) تعنو الوجوه: تخضع وتذل، ومنه: العاني، وهو الذليل الأسير، تجب القلوب: تخفق بشدة وتضطرب من شدة الهول.

العلانية أعداء السريرة، وإنَّا نعوذ باللّه أن تُنزِل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنَّا إنَّما كتبنا إليك نصيحة لك، والسلام.

● **فكتب إليهما:**

من عمر بن الخطاب، إلى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل:

سلام عليكما، فإني أحمد إليكما اللّه الذي لا إله إلا هو، أما بعد فقد جاءني كتابكما تزعمان أنه بلغكما أني وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع، وكتبتما أن انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك؟ وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله.

وكتبتما تحذراني ما حذرت به الأمم قبلنا، وقديمًا كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويأتيان بكل موعود، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة أو النار، ثم توفى كل نفس بما كسبت إن اللّه سريع الحساب.

وكتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة، ولستم بذلك وليس هذا ذلك الزمان، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة، فتكون رغبة بعض الناس إلى بعض إصلاح دينهم، ورهبة بعض الناس إصلاح دنياهم.

وكتبتما تعوذانني باللّه أن أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما، وإنما كتبتما نصيحة لي، وقد صدقتكما، فتعهداني منكما بكتاب، ولا غِنَى بي عنكما[1].

(١) كنز العمال، (١٦/١٦٠ - ١٦١).

عهد من عهود عمر ﷺ

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من عبد اللَّه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد اللَّه بن قيس[١].

سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنَّة متبعة، فافهم إذا أُدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

آس[٢] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك[٣] ولا ييأس ضعيف من عدلك.

البيِّنة على مَنْ ادَّعى، واليمين على مَنْ أنكر[٤]، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحلَّ حرامًا أو حرَّم حلالًا، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك، وهديت لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك[٥]، مما ليس في كتاب ولا سنَّة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور عند ذلك[٦]، واعمد إلى أشبهها بالحق، واجعل لمن ادّعى حقًا غائبًا أو بيِّنةً أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى.

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حدٍّ أو مجربًا عليه شهادة زور، أو ظنينًا[٧] في ولاء أو نسب.

---

(١) هو: أبو موسى الأشعري، صاحب رسول اللَّه ﷺ و ـ رضي اللَّه عنه ـ توفي بمكة المكرمة سنة اثنتين وأربعين.

(٢) أي اجعلهم سواء، أو اجعلهم سواسية.

(٣) الحيف: الميل عن الحق، وهو جور وظلم.

(٤) من أمهات القواعد الأصولية في القضاء الإسلامي.

(٥) أي تردد في صدرك بين الحق والباطل، افهمه جيدًا وتحقق منه.

(٦) مبدأ القياس في الشريعة الإسلامية.

(٧) أي متهمًا في الولاء أو النسب، أي مشكوكًا فيهما بالنسبة إليه.

فإن اللَّه ولي منكم السرائر، ودرأ[١] بالإيمان والبينات، وإياك والغلق[٢] والضجر والتأذي بالخصوم، والتنكُّر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يُعْظِم اللَّه به الأجر، ويُحْسن به الذخر، فمن صحت نيّته، وأقبل على نفسه، كفاه اللَّه ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم اللَّه أنه ليس من نفسه، شانه اللَّه[٣]، فما ظنك بثواب اللَّه عَزَّوَجَلَّ في عاجل رزقه، وخزائن رحمته، والسلام»[٤].

ولعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطب مشهورة مذكورة في التاريخ لم ننقلها اختصارًا.

ومن كلام عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

خطبة له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال: «إن لكل شيء آفة، وإن لكل نعمة عاهة، في هذا الدين عيَّابون ظنَّانون، يظهرون لكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، طغام[٥] مثل النعام، يتبعون أول ناعق، أحب مواردهم إليهم النازح[٦]، لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم عليَّ، ولكنه وقمكم وقمعكم[٧]، وزجركم زجر النعام

(١) أي دفع، والدرء: الدفع، ومنه قول رسول اللَّه ﷺ: «ادْرَءُوا الحدودَ بالشبهاتِ»؛ أي: ادفعوها، والمراد هنا أن اللَّه ـ تَعَالَى ـ دفع الباطل وبين الحق بالبينة أو اليمين، كما سبق وبين بقوله: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

(٢) الغلق: الضجر والملل وضيق الصدر.

(٣) التخلق: تكلف الإنسان ما ليس من خلقه، والمراد: من تكلف للناس ما ليس من خلقه نفاقًا وخداعًا كشف اللَّه ستره، وأطلعهم على خبيئة نفسه.

(٤) انظر العهد وبيانه في كتاب: الكامل للمبرد ٩/١٠.

(٥) الطغام: هم الغوغاء والدهماء وعوام الناس ممن لا رأي لهم ولا حكمة.

(٦) النازح: البئر التي قل ماؤها ولم يبق فيها شي ينزح، يصفهم بأنهم من جهلهم لا يردون من موارد الماء إلا الآبار التي ذهب معينها.

(٧) وقم: أذل وأخضع، وقمع: ضرب على يده وألزمه الطاعة، والأصل في قمع: ضربه بالمقمعة، وهي عصا من حديد أو خشب يضرب بها، ومنه قول اللَّه ـ تَعَالَى ـ في شأن الكافرين: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾ [الحج: ٢١].

المُخَزَّمَة، واللَّه إني لأقرب ناصرًا، وأعز نفرًا، وأقمَنُ[١] إن قلتُ هلمَّ أن تُجاب دعوتي من عمر، هل تفقدون من حقوقكم شيئًا؟ فما لي لا أفعل في الحق ما أشاء؛ إذًا فلِمَ كنتُ إمامًا؟».

كتابه إلى عليّ حين حصر - رضي الله عنهما:

أما بعد، فقد بلغ السيل الزبى[٢]، وجاوز الحزام الطبيين[٣]، وطمع فيَّ مَنْ لا يدفع عن نفسه، فإذا أتاك كتابي هذا فأقبل إليَّ، عليَّ كنتَ أم لي.

فإن كنت مأكولا فكن خيرَ آكلٍ وإلا فـأدركـنـي ولما أُمَـزَّق

ومن كلام علي رضي الله عنه قال: لما قبض أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبي ﷺ، وجاء عليّ باكيًا مسترجعًا[٤] وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر فقال:

«رحمك اللَّه أبا بكر، كنت إلف رسول اللَّه ﷺ وأنسه وثقته وموضع سره، كنت أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدَّهم يقينًا، وأخوفَهم لله، وأعظمهم غناء في دين الله[٥]، وأحوطهم على رسول الله، وأيمنهم على الإسلام[٦]، وآمنهم على أصحابه، أحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأقربهم برسول اللَّه ﷺ سننًا وهديًا

---

(١) أقمن: أجدر وأحق.

(٢) الزبى: جمع زبية، وهي الرابية لا يصل إليها الماء، وحفيرة يشتوى فيها ويختبز، وحفرة في مكان عال تغط فوهتها فإذا وطئها الأسد وقع فيها.

(٣) الطُّبْيَيْن: مثنى طُبْي، والطبي: حلمة الضرع التي يرضع منها ولد البقرة وما شابه، وقد تطلق على الضرع نفسه، وجمعها أَطْبَاء. وهي لغير الإنسان من الحيوان، وذلك مَثَل - أيضًا - في بلوغ الشدة منتهاها.

(٤) يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٥) أي أعظمهم عطاء ومنفعة للإسلام والمسلمين.

(٦) أيمنهم: من اليُمْن، كنت أكثرهم يُمنًا وسَعْدًا للمسلمين.

ورحمة وفضلًا، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده، جزاك اللَّه عن الإسلام وعن رسوله خيرًا، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر، صدَّقت رسول اللَّه ﷺ حين كذبه الناس، فسماك اللَّه في تنزيله صديقًا؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾[سورة الزمر، بعض آية: ٢٢]، واسيته حين بخلوا، وقمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا، وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة ثاني اثنين، وصاحبه في الغار، والمنزل عليه السكينة والوقار، ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين اللَّه وفي أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس، فنهضت حين وَهَنَ أصحابك، وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا، وقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تبعبعوا[(١)]، مضيت بنوره إذ وقفوا، واتبعوك فهدوا، وكنت أصوبهم منطقًا، وأطولهم صمتًا، وأبلغهم قولًا، وأكثرهم رأيًا، وأشجعهم نفسًا، وأعرفهم بالأمور، وأشرفهم عملًا.

كنت للدين يعسوبًا[(٢)]، أولًا حين نفر عنه الناس، وآخيرًا حين أقبلوا، وكنت للمؤمنين أبًا رحيمًا، إذ صاروا عليك عيالًا فحملت أثقال ما ضعفوا، ورعيت ما أهملوا، وحفظت ما أضاعوا، وشمرت إذ خنعوا[(٣)]، وعلوت إذ هلعوا[(٤)]، وصبرت إذ جزعوا، وأدركت أوتار ما طلبوا، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا؛ وكنت كما قال رسول اللَّه ﷺ أَمَنَّ الناس عليه في صحبتك وذات يدك، وكنت كما قال ضعيفًا في بدنك، قويًّا في أمر الله، متواضعًا في نفسك، عظيمًا عند الله، جليلًا في أعين الناس، كبيرًا في أنفسهم،

---

(١) تبعبعوا: أي تابعوا كلامهم في عجلة دون أن ينطقوا بما يفهم، مأخوذة من بعبع: حكاية صوت الماء حين يخرج من فوهة الإناء متتابعًا.

(٢) اليعسوب: في الأصل ملكة النحل، وهي أنثى: لكن العرب كانوا يظنونها ذكرًا لضخامتها وأهميتها بالنسبة لجماعتها، ولذلك ضربوا بها المثل لكبير القوم، يقال: يعسوب قومه: رئيسهم وكبيرهم ومقدَّمهم.

(٣) خنعوا: ذلوا وخضعوا.

(٤) هلعوا: وصل بهم الخوف إلى حد اليأس والجذع.

لم يكن لأحد فيك مغمز، ولا لأحد مطمع، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك سواء، أقرب الناس إليك أطوعهم لله، شأنك الحق والصدق والرفق، قولك حكم، وأمرك حزم، ورأيك علم وعزم، فأبلغت وقد نهج السبيل، وسهل العسير، وأطفأت النيران، واعتدل بك الدين، وقوي الإيمان، وظهر أمر اللَّه ولو كره الكافرون، وأتعبت من بعدك إتعابًا شديدًا، وفزت بالجد فوزًا مبينًا، فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك في السماء، وهدت مصيبتك الأنام، فإن لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن اللَّه قضاء، وسلمنا له أمره، فواللَّه لن يصاب المسلمون بعد رسول اللَّه ﷺ بمثلك أبدًا، فألحقك اللَّه نبيه، ولا حرمنا أجرك، ولا أضلنا بعدك».

وسكت الناس حتى انقضى كلامه، ثم بكوا، حتى علت أصواتهم[1].

خطبة أخرى لعلي رضي الله عنه

أما بعد: فإنَّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت بإطلاع، المضمار اليوم وغدًا السباق[2]، ألا وإنكم في أيام مهل، ومن ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله فقد فاز، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر علمه وضره وأمله، ألا فاعملوا للَّه في الرغبة كما تعملون له في الرهبة، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ألا وإنه مَنْ لم ينفعه الحق يضرُّه به الباطل، ومَنْ لم يستقم به الهدى يَجُر به الضلال[3]، ألا وإنكم قد أمرتم

(١) أخرجه البيهقي في التفسير، والبغدادي في فضائل أبي بكر وعمر، وغيرهم، راجع كنز العمال: ١٢/٥٤٥.

(٢) المضمار: المكان الذي يكون فيه سباق الخيل، وقد أخذت الكلمة من: ضَمَّر الخيل: إذا علفها وسقاها ثم أركضها في المضمار حتى تخف وتدق وتضحي صالحة للسباق، ومدة تضمير الخيل كانت لدي العرب أربعين يومًا، ثم يبدأ سباقها.

(٣) يجر به الضلال: أي ينحرف به إلى طريق المهالك.

بالظعن، ودللتم على الزَّاد، ألا وإن أخوفَ ما أخافُ عليكم الهوى وطول الأمل[١].

وخطب فقال بعد حمد اللَّه: أيها الناس اتقوا اللَّه فما خلق امرؤ عبثًا فيلهو، ولا أهمل سدًى فيلغو[٢]، ما دنياه التي تحسنت إليه، بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر إليه، وما الخسيس الذي ظفر به من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذي ظفر به من الآخرة من سهمته[٣].

وكتب علي رضي الله عنه إلى عبداللَّه بن عباس ـ رحمه اللَّه ـ وهو بالبصرة:

أما بعد، فإن المرء يسر بِدَرْك ما لم يكن لِيُحْرَمَه، ويسوءه فَوْتُ ما لم يكن لِيُدْرِكه، فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطق، وليكن أسفك فيما فرطت فيه من ذلك، وانظر ما فاتك من الدنيا فلا تكثر عليه جزعًا، وما نلته فلا تنعم به فرحًا، وليكن همك لما بعد الموت.

كلام لابن عباس رضي الله عنه

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس: ما منع أمير المؤمنين[٤] أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين[٥]: قال: منعه واللَّه من ذلك حاجز القدر، وقصر المدة،

(١) رواه الدينوري وغيره، راجع كنز العمال: ١٦/٢٠٣.

(٢) فيلغو: أي يتكلم بالكلام لا فائدة فيه ولا نفع، وقد يكون من ورائه الضرر، من ذلك وصف اللَّه ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

(٣) سهمته: أي عمله للآخرة بملل وسأم وتثاقل، إذ من معاني سهم: الحمل على الأمر فيه كراهة ونفور، شبه رضي الله عنه إقبالهم على الدنيا بأنه: بأعلى هممهم، وعملهم للآخرة بأنه بتكاسل وضيق وعدم إقبال، والخطبة ذكرها السبكي في «الدين الخالص».

(٤) يقصد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) يشير إلى قضية التحكيم المشهورة في واقعة «صفين» بين علي بن أبي طالب، ومعاوية ابن أبي سفيان ـ رضي اللَّه عن الجميع ـ، حين أوشكت المعركة أن تنتهي لصالح أمير المؤمنين علي، فرفع جند معاوية المصاحف طالبين الاحتكام إلى كتاب اللَّه ـ تَعَالَى ـ ووقف =

ومحنة الابتلاء، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه(١)، ناقضًا لما أبرم، ومبرمًا لما نقض، أسفُّ(٢) إذا طار، وأطير إذا أسفَّ، ولكن مضى قدر وبقي أسف، ومع يومنا غد، والآخرة خير لأمير المؤمنين من الأولى.

خطبة لعبد الله بن مسعود ﷺ

أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، خير الملل ملة إبراهيم، وأحسن السنن سنة النبي ﷺ، خير الأمور أوسطها، وشر الأمور محدثاتها، ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى، خير الغنَى غنَى النفس، وخير ما ألقى في القلب اليقين، الخمر جماع الإثم، النساء حبالة الشيطان، الشباب شعبة من الجنون، حُبُّ الكفاية مفتاح المعجزة، من الناس مَنْ لا يأتي الجماعة إلا دَبْرًا(٣)، ولا يذكر الله إلا هجرًا(٤)، أعظم الخطايا اللسان الكذوب، سباب المؤمن فسقٌ، وقتاله كفر، وأَكْلُ لحمه معصية(٥).

من يتألَ على الله يكذبه، ومن يَغْفِر يُغْفَر له، مكتوب في ديوان المحسنين: من عفا عُفي عنه، الشقي من شَقِيَ في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره، الأمور بعواقبها، ملاك العمل خواتيمه، أشرف الموت الشهادة، مَنْ يعرف البلاء يصبر

= القتال، وأدرك عليٌّ أنها خدعة فحاول الاستمرار في القتال ولكن غالب جنده توقفوا ووضعوا السلاح، وفي الاحتكام اختار علي بن أبي طالب أبا موسى الأشعري نائبًا عنه، واختار معاوية عمرو بن العاص نائبًا عنه، وانتهت القضية بما هو معلوم مشتهر.

(١) أي لَوَقَفْتُ ضد هوى نفسه.

(٢) أي أهبط إذا علا، وأعلو إذا هبط.

(٣) دَبْرًا: أي يأتيها متخلفًا عن إقامة الصلاة، أو لا يهتم لها، من قولهم: جعل الأمر دَبْر أذنه، أي أهمله ولم يهتم له.

(٤) لا يذكر الله إلا هجرًا: أي على تباطؤ وتباعد.

(٥) المقصود اغتيابه والنَّمّ عليه، من قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

عليه، ومَنْ لا يعرف البلاء ينكره[١].

خطبة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

قال الراوي: لما حضرته الوفاة قال لمولى له: مَنْ بالباب؟ فقال: نفر من قريش يتباشرون بموتك! فقال: ويحك وَلِمَ؟ ثم أذِنَ للناس، فحمد اللَّه فأوجز، ثم قال: أيها الناس، إنَّا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن شديد، يُعَدُّ فيه المحسن مسيئًا، ويزداد الظالم فيه عتوًّا، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، ولا نتخوَّف من قارعة حتى تحل بنا، فالناس على أربعة أصناف: منهم مَنْ لا يمنعه من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه، وكلال جده، ونضيض وفره[٢]، ومنهم المسلط سيفه[٣]، والمجلب برجله[٤]، والمعلن بشره، وقد أشرط نفسه[٥]، وأوبق دينه[٦] لحطام ينتهزه، أو مقنب[٧] يقوده، أو منبر يفرعه، وبئس المتجر أن تراها لنفسك ثمنًا، وممَّا عند اللَّه عوضًا، ومنهم مَنْ يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر اللَّه ذريعة إلى المعصية، ومنهم مَنْ أقعدهم عن الملك ضئولة في نفسه، وانقطاع سببه، فقصر به الحال عن أمله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس الزهاد، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى، وبقى رجال أغضَّ

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (١٨٨/٤)، والدين الخالص للسبكي: (٢٥٤/٤).

(٢) مهانة نفسه: ذلته وضعف عزيمته، كلال جده: ضعف مجهوده، نضيد وفره: قلة ماله.

(٣) الشاهر سيفه.

(٤) المجلب برجله: الجامع رجاله، يقال: أجلب قومه: إذا جمعهم للعدو، ومنه قوله ـ تعَالَى ـ مخاطبًا الشيطان ـ لَعَنَهُ اللَّهُ ـ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

(٥) أشرط نفسه: أعدها وهيأها.

(٦) ضيع دينه.

(٧) المُقْنَب: جماعة الفرسان.

أبصارهم ذكرُ المرجع، وأراق دموعَهم خوفُ المحشر، فهم بين شديد ناد[١]، وخائف متقمع[٢] وساكت مكعوم[٣]، وداع مخلص، وموجع ثكلان، قد أخملتهم التقية، وشملتهم الذلة، فهم في بحر أجاج، أفواههم دامية، وقلوبهم قريحة، وقد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا، فلتكن الدنيا في عيونكم أقل من حتاتة القرظ[٤] وقراضة الجلم[٥]، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم مَنْ بعدكم، فارفضوها ذميمة، فإنها قد رفضت مَنْ كان أشغف بها منكم[٦].

خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

أيها الناس: إنكم ميتون ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم محاسبون، فلعمري لئن كنتم صادقين، لقد قصرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم، يا أيها الناس إنه مَنْ يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرض يأته، فأجملوا في الطلب[٧].

---

(١) نادّ: نافر، ومن قولهم: ندَّ البعير، نَفَر، ونادَّ فلان فلانًا، خالفه أي أنهم شددوا على أنفسهم في الطاعة، وخالفوا الأصناف التي ذكرها قبل ذلك.

(٢) متقمع: واقف عند حدود الطاعة، فلا يدلج في المعصية، من قمع نفسه: منعها عن المعاصي.

(٣) مكعوم: أي مغلق الفم، من قولهم: كعم فلانًا الخوف: عقل لسانه عن الكلام، فهو مكعوم وكعيم، والأصل في الكعامة أنها رباط يشد على فم البعير أثناء هياجه حتى لا يعض أو يأكل.

(٤) الحتاتة: ما يسقط من الشيء الجاف إذا فركته وحتتَّه، والقرظ: نوع من أنواع السنط يخرج قرونًا، يدبغ به.

(٥) الجْلَم: المقص، وقراضته: ما يتساقط منه حين يقرض به شيء ما، مثل قولهم: قلامة الظفر.

(٦) العقد الفريد (٤/١٥٢).

(٧) مناقب عمر بن عبد العزيز: ابن الجوزي ص٢٣٤.

خطبة للحجاج بن يوسف

حمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: يا أهل العراق، ويا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، وبني اللكيعة(١)، وعبيد العصا وأولاد الإماء، والفقع بالقرقر(٢)، إني سمعت تكبيرًا لا يراد به الله، وإنما يراد به الشيطان، وإنما مثلي ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمداني:

وكنت إذا قومٍ غزوني غزوتهم   فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم

متى تجمع القلب الذكي وصارمًا   وأنفًا حميًا تجتنبك المظالم(٣)

أما واللَّه لا تقرع عصا عصا إلا جعلتها كأس الدابر.

خطبة لقس بن ساعدة الأيادي(٤)

أخبرني محمد بن علي الأنصاري بن محمد بن محمد بن عامر، قال: حدثنا علي ابن إبراهيم، حدثنا عبد اللَّه بن داود بن عبد الرحمن العمري، قال: حدثنا الأنصاري علي بن محمد الحنظلي من ولد حنظلة الغسيل، حدثنا جعفر بن محمد، عن محمد بن حسان، عن محمد بن حجاج اللخمي، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال:

لما وَفَدَ وَفْدُ عبد القيس على رسول اللَّه ﷺ قال: أيكم يعرف قس بن ساعدة قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله، قال: لست أنساه بعكاظ إذ وقف على بعير له أحمر فقال: أيها الناس اجتمعوا، وإذا اجتمعتم فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا

---

(١) اللُّكَع، واللُّكَعَة، واللَّكيعَة: اللئيمة الحمقاء، أي: يا بني اللئام.

(٢) أي: الضرب بالعصا على فقرات الظهر، والفقع: الفرقعة حين الضرب، والقرقر الظهر.

(٣) قائل البيتين عمر بن بَرَّاقق الهمداني، أغار عليه البعض فاستاق إبله وخيله، فاستشار عمر امرأة كانت محل ثقته، فخوفته أعداءه ونصحته بالقعود، لكنه جمع شجاعته وأغار على عدوه فاسترجع أمواله وأخذ الكثير من عدوه، وفي ذلك قال تلك الأبيات.

(٤) انظر أسد الغابة: ٤/٢٠٤.

وعيتم فقولوا، وإذا قلتم فاصدقوا، من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت.

أما بعد، فإن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور(١)، وبحار لا تغور، أقسم باللَّه قِسٌّ قسمًا حقًا لا كاذبًا فيه ولا آثمًا، لئن كان في الأرض رضا ليكونن سخط، إن لله - تَعَالَى - دينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، وقد أتاكم أوانه ولحقتكم مدته، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا.

ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «أيكم يروي شعره؟ فأنشدوه:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ ... ولا من الباقين غابر(٢)
أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القوم صائر

أخبرني الحسن بن عبد اللَّه بن سعيد، حدثنا علي بن الحسين بن إسماعيل، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبد اللَّه بن الضحاك، عن هشام، عن أبيه أن وفدًا من إياد قدموا على رسول اللَّه ﷺ، فسألهم عن حال قس بن ساعدة، فقالوا: قال قس:

يا ناعي الموت والأموات في جدث ... عليهم من بقايا بزهم خرقُ(٣)

---

(١) تمور: تتحرك في مساراتها بزوغًا وأفولًا، والأصل في مار: تحرك في سرعة وتدافع، ومار البحر: اضطرب وماج.

(٢) الغابر: الباقي، ومنه قوله اللَّه - تَعَالَى - عن إهلاك قوم لوط ؑ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾ [الأعراف: ٨٣]، أي من الباقين بالبيت فأهلكت مع قومه الذين هلكوا.

(٣) الجدث: القبر، ومنه قوله - تَعَالَى -: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ =

دعهم فإن لهم يومًا يُصاح بهم كما ينبه من نوماته الصعق
منهم عراة ومنهم في ثيابهم منها الجديد ومنها الأورق الخلقُ(١)

مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وآيات في أثر آيات، وأموات بعد أموات، ضوء وظلام، وليال وأيام، وغني وفقير، وشقي وسعيد، ومحسن ومسيء، أين الأرباب الفعلة؟ ليصلحن كل عامل عمله، كلا بل هو اللّٰه واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وإليه المآب غدًا، أما بعد؛ يا معشر أياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد، أين المحسن الذي لم يشكر؟ أين الظالم الذي لم ينقم؟ كلا ورب الكعبة ليعودن ما بدا، ولئن ذهب يوم ليعودن يوم.

قال: وهو قس بن ساعدة بن حداق بن ذهل بن أياد بن نزار، أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ على عصا، وأول من تكلم بأما بعد(٢).

خطبة لأبي طالب

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدًا حرامًا وبيتًا محجوبًا، وجعلنا الحكام على الناس، وإن محمد بن عبد اللّٰه ابن أخي لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به بركةً وفضلًا ومجدًا ونبلًا، وإن كان في المال مقلًّا، فإن المال عارية مسترجعة، وظل زائل، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أردتم من الصداق فعليَّ(٣).

= يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١].

(١) الأورق: ما كان لونه لون الرماد، والخَلِق: البالي.

(٢) أوردها الطبراني في الكبير: ٨٨/١٢، والبيهقي في الدلائل: ١٠٨/٢، وابن الجوزي في الموضوعات: ٢١٣/١، والمشهور أن أول من قال: «أما بعد» هو داود عليه السلام، قيل: وهذه هي فصل الخطاب في قوله ـ تعالى ـ عن داود: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

(٣) صفة الصفوة، ابن الجوزي: ٧٣/١.

الفرق الظاهر بين كلام البشر وكلام الله

قد نسخت لك جملًا من كلام الصدر الأول ومحاوراتهم وخطبهم، وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن، فتأمل ذلك، وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان واللسن، والفصاحة والفطن، والألفاظ المنثورة والمخاطبات الدائرة بينهم، والأمثال المنقولة عنهم، ثم انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لبٍّ وجمع عقل، في ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين[١] كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة.

فإن خيل إليك أو شبه عليك، وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن؛ لأن الشعر أفصح من الخطب، وأبرع من الرسائل، وأدق مسلكًا من جميع أصناف المحاورات، ولذلك قالوا له ﷺ: هو شاعر أو ساحر، وسوّل إليك الشيطان أن الشعر أبلغ وأعجب وأرق وأبرع، وأحسن الكلام وأبدع، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام بين المحققين.

أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والحذق بهذه الصناعة مع تقدمُّه في الكلام يقول: إن الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في الشعر؛ لأن الشعر يضيق نطاق الكلام، ويمنع القول من انتهائه، ويصدُّه عن تصرُّفه على سننه[٢]، وحضره من يتقدم في صنعة الكلام فراجعه في ذلك، وذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة، وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة[٣].

---

(١) إعادة كلمة «بين» هنا غير فصيح.

(٢) وذلك لما في الشعر من قيود النظم وضوابطه.

(٣) يضاف إلى ذلك ما في الشعر ونظمه من تأثير واضح وجمال أخاذ.

ويشهد عندي للقول الأخير[(١)] إن معظم براعة كلام العرب في الشعر، ولا نجد في منثور قولهم ما نجد في منظومه، وإن كان قد أحدثت البراعة في الرسائل على حدٍّ لم يعهد في سالف أيام العرب، ولم ينقل من دواوينهم وأخبارهم وهو وإن ضيَّق نطاق القول فهو يجمع حواشيه ويضم أطرافه ونواحيه، فهو إذا تهذب في بابه، ووفِّيَ له جميع أسبابه، لم يقاربه من كلام الآدميين كلام، ولم يعارضه من خطابهم خطاب، وقد حكي عن المتنبي أنه كان ينظر في المصحف، فدخل عليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده، فقال له: هذا المكي على فصاحته كان مفحمًا، فإن صحت هذه الحكاية عنه في إلحاده، عرف بها أنه كان يعتقد أن الفصاحة في قول الشعر أبلغ.

وإذا كانت الفصاحة في قول الشعر، أو لم تكن، وبينا أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم، ويتقدم في بلاغته على كل قول، بما يتضح به الأمر اتضاح الشمس، ويتبين به بيان الصبح، وقفت على جلية هذا الشأن.

فانظر فيما نعرضه عليك، وتصور بفهمك ما نصوِّره، ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن، وتأمل ما نرتبه، ينكشف لك الحق.

إذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك، فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة، متفق على كبر محلها، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها ومعانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة، والمعروفين بالحذق في البراعة، فنقفك[(٢)] على مواضع خللِّها، وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف

---

(١) الذي يرى أن في الشعر من الفصاحة والبلاغة ما ليس يوجد في النثر.

(٢) وقف من الأفعال الثلاثية لازمة ومتعدية، فاللازم تقول: «وقف زيدٌ»، ومن المتعدي تقول: «وقف زيدٌ محمدًا»، ويقال يقال: أوقف، ومن ذلك قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤]، ولم يقل النظم الشريف: وأوقفوهم من الرباعي؛ لأن اللغة العربية ليس فيها: «أوقف» وقد بينا ذلك فضل بيان لوقوع الخطأ فيه من الكثيرين، كذلك مما يماثل: وقف، الفعل: «رجع» فهو ثلاثي لازمًا ومتعديًا، ومن المتعدي قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٣] وأمثال ذلك كثير، لكنا أشرنا إلى هذين لكثرة وقوع الخطأ فيهما.

فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدة تعسفها، وبعض تكلفها، وما تجمع من كلام رفيع، يقرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي يقرن بلفظ ملوكي، وغير ذلك من الوجوه التي يجيء تفصيلها، ونبين ترتيبها وتنزيلها.

فأما كلام مسيلمة الكذاب، وما زعم أنه قرآن، فهو أخس من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر فيه، وإنما نقلنا منه طرفًا ليتعجب القارئ، وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته فقد أضل، وعلى ركاكته قد أزل؛ وميدان الجهل واسع، ومن نظر فيما نقلناه عنه، وفهم موضع جهله، كان جديرًا أن يحمد الله على ما رزقه من فهم، وآتاه من علم.

فمما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء: «والليل الأطخم[1]، والذئب الأدلم[2]، والجذع الأزلم[3]، ما انتهكت أسيد من محرم»، وذلك قد ذكر في خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه، وقال أيضًا: «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس»، وكان يقول: «والشتاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق[4]، فما لكم لا تجتمعون»، وكان يقول: «ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشًا قوم يعتدون»، وكان يقول: «والمبديات زرعا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمنًا، لقد

(١) الليل الأطخم: شديد الظلمة.
(٢) دلم الشيء: أسود لونه في ملوسة، وأدلم: تهدلت شفتاه، وكلاهما يصلح وصفًا للذئب.
(٣) الجذع الأزلم: جذع النخلة المقطوع.
(٤) المذق: اللبن المخلوط بالماء.

فضلتم على أهل الوبر[١]، وما سبقكم أهل المدر[٢]، ريفكم فامنعوه والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه».

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان ـ وكانت تتنبأ فاجتمع مسيلمة معها ـ فقالت له: ما أوحي إليك؟ فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا» [٣]، وقالت: فما بعد ذلك؟ قال: أوحي إلي: «إن اللَّه خلق النساء أفواجًا، وجعل الرجال لهن أزواجًا، فنولج فيهن قعسًا إيلاجًا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجًا، فينتجن لنا سخالا[٤]، نتاجًا»، فقالت: أشهد أنك نبي.

ولم ننقل كل ما ذكر من سخفه كراهية التثقيل، ورُوي أنه سأل أبو بكر الصديق ﵁ أقوامًا قدموا عليه من بني حنيفة، عن هذه الألفاظ، فحكوا بعض ما نقلناه، فقال أبو بكر: سبحان اللَّه، ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن آل[٥]: فأين كان يذهب بكم؟ ومعنى قوله: «لم يخرج عن آل» أي ربوبية، ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخف الكلام.

فنرجع الآن إلى ما ضمناه، من الكلام على الأشعار المتفق على جودتها، وتقدم أصحابها في صناعتهم، ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب، وتباعد مواقع البلاغة، ونستدل على مواضع البراعة.

(١) الوبر: صوف الإبل والأرانب وأمثالهما، وأهل الوبر هم سكان البادية؛ لأنهم يتخذون بيوتهم من الوبر.
(٢) المدر: الطين اللزج المتماسك، وأهل المدر: هم سكان القرى الذين يتخذون بيوتًا مبنية من المدر.
(٣) الصفاق: غشاء يفصل ما بين الجلد والأمعاء، يسميه الأطباء: البريتون، والحشا: ما دون الحجاب الحاجز مما يلي البطن كله من الكبد والطحال والكرش.
(٤) السخال: جمع سخلة، والسخلة: هي الذكر والأنثى من ولد الضأن ساعة يولد.
(٥) الآل من معانيه: الربوبية، وكذلك: السراب، وآل الأمير رعيته: عني بهم وقام على رعايتهم، وكذلك: أهل كل إنسان وأقرباؤه هم آله.

امرؤ القيس ومعلقته(١)

وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس، ولا نرتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورًا اتبع فيها، من ذكر الديار، والوقوف عليها، إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه، والشبيه الذي أحدثه، والتلميح الذي يوجد في شعره، والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه، من صناعة وطبع، وسلاسة وعلو، ومتانة ورقة، وأسباب تحمد، وأمور تؤثر وتمدح.

وقد ترى الأدباء أولًا يوازنون بشعره فلانًا وفلانًا، ويضمون أشعارهم إلى شعره، حتى وربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة، وأمور بديعة، وربما فضلوهم عليه، أو سووا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمهم عليه، وبرزوه بين أيديهم.

ولما اختاروا قصيدته في السبعيات، أضافوا إليها أمثالها، وقرنوا بها نظائرها، ثم تراهم يقولون: لفلان لامية مثلها، ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق إلى معارضته، وتساويه في طريقته، وربما غيرت في وجهه في أشياء كثيرة، وتقدمت عليه في أسباب عجيبة، وإذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره، كان أمرًا محصورًا، وشيئًا

(١) امرؤ القيس: هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن يعرب بن نور بن مُرَتِّع بن معاوية بن كندة، والمرار: نبت حامض إذا أكلته الإبل قلصت عن مشافرها فظهرت أسنانها، وقد سمي حجر «آكل المرار» لما روي أن ابنته سباها أحد الملوك، فقالت له: كأنك بأبي قد جاءك كأنه جمل قد أكل المرار، تعني أنه من شدة الغضب قد بدت أنيابه فسمي حجرًا آكل المرار، وامرؤ القيس من فحول الشعراء من الطبقة الأولى لفحول الجاهلية، وقصته معروفة مشتهرة، وهو القائل لما بلغه مقتل والده، وكان على مجلس شراب: ضيعني صغيرًا، وحملني دمه كبيرًا، اليوم خمر وغدًا أمر، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، وقد كان بعض المؤرخين للشعر يقول: بدأ الشعر بملك، وختم بملك، يقصد امرأ القيس، وأبا فراس الحمداني.

معروفًا، أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره، وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه، وتنظر إلى المحدثين كيف توغلوا إلى حيازة المحاسن، منهم من جمع رصانة الكلام إلى سلاسته، ومتانته إلى عذوبته، والإصابة في معناه إلى تحسين بهجته، حتى إن منهم مَن إنْ قصر عنه في بعضٍ تقدم عليه في بعض؛ لأن الجنس الذي يرمون إليه، والغرض الذي يتواردون عليه، مما للآدمي فيه مجال، وللبشرى فيها مثال، فكل يضرب فيه بسهم، ويفوز فيه بقدح، ثم قد تتفاوت السهام تفاوتًا، وتتباين تباينًا، وقد تتقارب تقاربًا، على حسب مشاركتهم في الصنائع، ومساهمتهم في الحرف، ونظم القرآن جنس مميز، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظير متخلص.

فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه، فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس، في أجود أشعاره، وما نبين لك من عواره على التفصيل.

وذلك قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللِّوَى بين الدخول فحومل
فتوضحَ فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل(١)

الذين يتعصبون له، أو يدعون محاسن الشعر، يقولون: هذا من البديع؛ لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر العهد والمنزل والحبيب، وتوجع واسترجع، كله في بيت، ونحو ذلك. وإنما بينًا هذا، لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت، ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة إن وجدت.

(١) مطلع معلقة امرئ القيس المعروفة، واللوى: كثيب الرمل يطول ويلتوي، وسقطه: طرفه، والسقط: الطرف من كل شيء وجانبه، والدخول، وحومل، وتوضح، والمقراة: أسماء لأربعة أماكن تحيط بسقط اللوى، وهو المكان الذي فيه مبكى الشاعر، لم يعف رسمها: لم يذهب أثرها، جنوب وشمأل: رياح تأتي من هاتين الجهتين، من الشمال والجنوب، ونسجها لآثار الحبيب، أن تأتي ريح من إحدى الجهتين فتستر الأثر بالرمال، فتأتي الريح الأخرى فتزيح التراب عنه.

تأمل أرشدك اللَّه، وانظر هداك اللَّه: أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرًا، ولا تقدَّم به صانعًا، وفي لفظه ومعناه خلل:

فأول ذلك: أنه استوقف من يبكي لذكرى الحبيب، وذكراه لا تقتضي بكاء الخلي، وإنما يصح طلب الإسعاد[(١)] في مثل هذا، على أن يبكي لبكائه، ويرق لصديقه في شدة بُرَحائه، فأما أن يبكي على حبيب صديقه، وعشيق رفيقه، فأمر محال، فإن كان المطلوب وقوفه وبكاءه أيضًا عاشقًا، صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر؛ لأنه من السخف أن لا يغار على حبيبه، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه، والتواجد معه فيه[(٢)].

ثم في البيتين ما لا يفيد، من ذكر هذه المواضع، وتسمية هذه الأماكن، من: «الدخول»، «وتوضح»، و«المقراة»، و«وسقط اللوى»، وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا، وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربًا من العي[(٣)].

ثم إن قوله: «لم يعف رسمها»، ذكر الأصمعي من محاسنه أنه باق فنحن نحزن على مشاهدته، فلو عفا لاسترحنا.

وهذا بأن يكون من مساويه أولى؛ لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جدَّة عهد، وشدة وجد، وإنما فزع له الأصمعي إلى إفادته هذه الفائدة خشية أن يعاب عليه، فيقال: أي فائدة لأن يعرفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه؟ وأي معنى لهذا الحشو؟ فذكر ما يمكن أن يذكر، ولكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل.

ثم في هذه الكلمة خلل آخر؛ لأنه عقب البيت بأن قال: «فهل عند رسم

---

(١) الإسعاد: مشاركة الباكي ومعاونته بالتباكي معه، يقال: أسعدت النائحة الثكلى: أعانتها بالبكاء والنواح.

(٢) نقد دقيق وموفق، وإن كان فيه شيء من التجاهل.

(٣) وهذه الفقرة من النقد موفقة، سوى أنه يقال في الرد عليها: إن ذكر هذه المواضع والإطالة فيها نوع من التلذذ بذكر آثار الحبيب، وذلك غرض صحيح.

دارس من معول؟»، فذكر أبو عبيدة أنه رجع فأكذب نفسه، كما قال زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم نعم وغيرها الأرواح والديم(١)

وقال غيره: أراد بالبيت الأول أنه لم ينطمس أثره كله، وبالثاني أنه ذهب بعضه، حتى لا يتناقض الكلامان؛ وليس في هذا انتصار؛ لأن معنى «عفا ودرس» واحد، فإذا قال: لم يعف، ثم قال: قد عفا فهو تناقض لا محالة، واعتذار أبي عبيدة أقرب لو صحَّ، ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير، فهو إلى الخلل أقرب.

وقوله: «لما نسجتها»، كان ينبغي أن يقول «لما نسجها»، ولكنه تعسف، فجعل: «ما» في تأويل التأنيث لأنها في معنى الريح، والأولى التذكير دون التأنيث، وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف.

وقوله: «لم يعف رسمها»، كان الأولى أن يقول: «لم يعف رسمه»؛ لأنه ذكر المنزل، فإن كان ردَّ ذلك إلى هذه البقاع والأماكن التي المنزل واقع بينها فذلك خلل؛ لأنه إنما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه «بعفائه»، أو بأنه لم يعف دون ما جاوره.

وإن أراد بالمنزل الدار حتى أنَّث فذلك أيضًا خلل، ولو سلم من هذا كله ومما نكره ذكره كراهية التطويل، لم نشك في أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين، بل يزيد عليهما ويفضلهما.

ثم قال:

---

(١) يعفها: يذهب أثرها، والديم: جمع ديمة، وهي السحابة الممطرة، والأرواح جمع ريح، والبيت ناقض فيه الشاعر نفسه، حيث قرر أولًا: أن الديار لم يعفها القدم، ثم نقض ذلك بقوله: نعم، أي قد عفاها القدم، فأي القولين نصدق؟ والمؤلف يسوق هذا البيت مثالًا للخطأ الذي وقع فيه امرؤ القيس حيث أخبر أن رسمها باق بقوله: لم يعف رسمها، ثم ناقض نفسه في بيت آخر: فهل عند رسم دارس من معول.

وقوفًا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول(١)؟

وليس في البيتين أيضًا معنى بديع، ولا لفظ حسن كالأولين، والبيت الأول منهما متعلق بقوله: «قفا نبك»، فكأنه قال: قفا وقوف صحبي بها على مطيهم، أو قفا حال وقوف صحبي، وقوله: «بها» متأخر في المعنى وإن تقدم في اللفظ، ففي ذلك تكلف، وخروج عن اعتدال الكلام، والبيت الثاني مختل من جهة أنه قد جعل الدمع في اعتقاده شافيًا كافيًا، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى، وتجمل ومعول عند الرسوم؟ ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدخل على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن، ثم يسائل هل عند الربع من حيلة أخرى(٢)؟

وقوله:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل
إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا يأتي بريا القرنفل(٣)

أنت لا تشك في أن البيت الأول قليل الفائدة، ليس له مع ذلك بهجة، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى، وأما البيت الثاني فوجه

(١) المطي: جمع مطية، وهي الراحلة، والتجمل: الاعتصام بالصبر، والعبرة: الدمعة، ومهراقة: منصبة، مثل: حراقة، يقال: أريق وأهريق، والرسم الدارس: الأثر الممحو، والمعول: المستند والمتكل.

(٢) ما أدق هذه الفقرة من النقد وأجملها.

(٣) والدأب: الشأن والعادة، وفي التنزيل الشريف قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٣١]، والدأب: الجد في العمل، قال ـ تعالى ـ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧]، أي بجد واستمرار، مأسل: اسم مكان. ضاع المسك يضوع ـ من باب قال ـ: انتشرت رائحته، نسيم الصبا: أي مثل نسيم الصبا، ريا القرنفل: رائحة القرنفل.

التكلف فيه قوله: «إذا قامتا تضوَّع المسك منهما»، ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبًا على كل حال، فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير، ثم فيه خلل آخر؛ لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك، شبه ذلك بنسيم القرنفل، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص، وقوله: «نسيم الصبا» في تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله.

وقوله:

ففاضت دموع العين مني صبابة على النحر حتى بل دمعي محملي

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل[(١)]

قوله: «ففاضت دموع العين»، ثم استعانته بقوله: «مني» استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة، وهو حشو غير مليح ولا بديع، وقوله: «على النحر» حشو آخر؛ لأن قوله: «بل دمعي محملي»، يغني عنه ويدل عليه، وليس بحشو حسن، ثم قوله: «حتى بل دمعي محملي»، إعادة ذكره الدمع حشو آخر، وكان يكفيه أن يقول: حتى بلت محملي، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله، ثم تقديره أنه قد أفرط في إفاضة الدمع حتى بل محمله تفريط منه وتقصير، ولو كان أبدع لكان يقول: حتى بل دمعي مغانيهم وعراصهم، ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية، إذ الدمع يبعد أن يبل المحمل، وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل، وإن بله فلقلته وأنه لا يقطر، وأنت تجد في شعر الخُبزَرُزِّي[(٢)] ما هو أحسن من هذا البيت وأمتن وأعجب منه.

والبيت الثاني: خال من المحاسن والبديع، خلوه من المعنى، وليس له لفظ

(١) الصبابة: الشوق، المحمل: حمالة سيفه، دارة جلجل: مكان به ماء.

(٢) الخُبزَرُزِّي: أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر البصري، المعروف بالخبزرزي، كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكان يخبز الخبز بدكان له بمربد البصرة، وكان ينشد أشعاره في الغزل ارتجالًا، والناس يزدحمون عليه لسماع أشعاره، والمؤلف يضرب به المثل للشعراء الضعاف.

يروق ولا معنى يروع، ومن طبائع السوقة، فلا يرعك تهويله باسم موضع غريب.
وقال:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجبًا من رحلها المتحمل
فَظَلَّ العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل(١)

تقديره: اذكر يوم عقرت مطيتي، أو يرده على قوله: «يوم بدارة جلجل»، وليس في المصراع الأول من هذا البيت إلا سفاهته، قال بعض الأدباء: قوله: «يا عجبا» يعجبهم من سفهه في شبابه من نحره ناقته لهم، وإنما أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعًا عن الأول، وأراد أن يكون الكلام ملائمًا له.

وهذا الذي ذكره بعيد، وهو منقطع عن الأول، وظاهره أنه يتعجب من تحمل العذارى رحله، وليس في هذا تعجب كبير، ولا في نحر الناقة لهن تعجب، وإن كان يعني به إنهن حملهن رحله، وأن بعضهن حملنه، فعبر عن نفسه برحله، فهذا قليلًا يشبه أن يكون عجبًا، لكن الكلام لا يدل عليه ويتجافى عنه، ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب، ولا معنى بديع، أكثر من سفاهته مع قلة معناه، وتقارب أمره، ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا، وإلى هذا الموضع لم يمر له بيت رائع، وكلام رائق.

وأما البيت الثاني: فيعدونه حسنًا، ويعدون التشبيه مليحًا واقعًا، وفيه شيء، وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشحم، فلا يعلم أنه وصف شحمها، وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقع، وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فمرت مرسلة، وهذا نقص في الصنعة، وعجز عن إعطاء الكلام حقه، وفيه شيء آخر من جهة المعنى، وهو أنه وصف طعامه الذي أطعم من أضاف بالجودة، وهذا قد يعاب، وقد يقال: إن

---

(١) عقر: ذبح، مطيته: ناقته، رحلها المتحمل: رحلها الذي حملته العذارى بعد أن ذبحها لهن، العذارى: جمع عذراء، وهي البكر من النساء، الهداب، ما تدلى من الشيء، الدمقس: الحرير.

العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيبًا، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيبًا شنيعًا، وأما تشبيه الشحم بالدمقس فشيء يقع للعامة، ويجري على ألسنتهم، فليس بشيء قد سبق إليه، وإنما زاد «المفتل» للقافية، وهذا مفيد، ومع ذلك فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة، ولم يعد أهل الصنعة ذلك من البديع، ورأوه قريبًا.

وفيه شيء آخر، وهو أن تبجحه بما أطعم للأحباب مذموم وإن سوغ التبجح بما أطعم للأضياف، إلا أن يورد الكلام مورد المجون، وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمداعبة.

وقوله:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معًا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل[1]

مذلل، وأنت تعلم أنه على ما يعني به، فهو غير موافق للأبيات المتقدمة، لما فيها من التناقض الذي بيّنا، ويشبه أن يكون من قال بالتأويل الثاني فزع إليه؛ لأنه رأى اللفظ مستكرهًا على المعنى الأول؛ لأن القائل إذا قال: «ضرب فلان بسهمه في الهدف» بمعنى أصابه، كان كلامًا ساقطًا مرذولًا، وهو يرى أن معنى الكلمة أن عينيها كالسهمين النافذين في إصابة قلبه المجروح، فلما بكتا وذرفتا بالدموع كانتا ضاربتين في قلبه، ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ، ولكنه إذا حمل على الثاني فسد المعنى واختل؛ لأنه إن كان محتاجًا ـ على ما وصف به نفسه من الصبابة ـ فقلبه كله لها، فكيف يكون بكاؤها هو

---

(١) الخدر: كل ما توارى فيه الإنسان من بيت ونحوه، ويطلق بخاصة على ستر يمد للمرأة في ناحية من البيت، وأراد الشاعر بالخدر هنا: الهودج، وهو ستر يضرب للمرأة فوق ظهر البعير تجلس فيه حال السفر، مرجلي: جاعلًا إياي راجلة، أي ستسقط الهودج وأضطر أن أمشي على رجلي، الغبيط: القتب الذي يوضع فوق ظهر البعير ويوضع فوقه الهودج.

الذي يخلص قلبه لها[١]؟

واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الأول ولا متصل به في المعنى، وهو منقطع عنه؛ لأنه لم يسبق كلام يقتضي بكاءها، ولا سبب يوجب ذلك، فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال، ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتًا وكان بديعًا ولا عيب فيه فليس بعجيب؛ لأنه لا يُدَّعىٰ على مثله أن كلامه كله متناقض، ونظمه كله متباين، وإنما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه إلى هذا البيت مما لا يكن أن يقال إنه يتقدم فيه أحدًا من المتأخرين، فضلًا عن المتقدمين، وإنما قدم في شعره لأبيات قد برع فيها، وبان حذقه بها، وإنما أنكرنا أن يكون شعره متناسبًا في الجودة، ومتشابهًا في صحة المعنى واللفظ.

وقلنا: إنه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربية كالمهل[٢] مستنكرة، وبين كلام سليم متوسط، وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى، وبين حكمة حسنة، وبين سخف مستشنع، ولهذا قال الله ـ عز اسمه ـ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: بعض آية ٨٢].

فأما قوله:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لهو بها غير معجل

---

(١) تكلف شديد من المؤلف، وتحميل لمعان ربما لم ترد على ذهن الشاعر، والمعروف أن الشاعر إنما يجب أن ينظر إليه كشاعر، وليس كفيلسوف عارف بالتأويلات ووجوهها، وبخاصة إذا كان الشاعر مطبوعًا، فهو يقول الشعر على البديهة دون تعمل أو تكلف أو دراسة لكل تلك الوجوه المتكلفة التي أثارها ويثيرها المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ.

(٢) المهل: كل سائل ثقيل، مثل: المعادن المذابة كالذهب والحديد، والقطران الرقيق، ودُرْدِيّ الزيت، وهو ما ترسب من الزيت بعد غليه، والقيح والصديد، كل ذلك يسمى مهلًا، ولعل المؤلف يقصد ما يستقذر من المهل كرقيق القطران، أو القيح، وفي التنزيل الشريف: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ [المعارج: ٨] أي تكون سائلة متحركة فقدت ثباتها وهيبتها.

تجاوزت أحراسًا إليها ومعشرًا   عليَّ حراصًا لو يُسِرُّون مقتلي(١)

فقد قالوا: عني بذلك أنها كبيضة خدر في صفائها ورقتها، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق إليها، بل هي دائرة في أفواه العرب، وتشبيه سائر، ويعني بقوله: «غير معجل» أنه ليس ذلك مما يتفق قليلًا وأحيانًا، بل يتكرر له الاستمتاع بها، وقد يحمله غيره على أنه رابط الجأش، فلا يستعجل إذا دخلها خوف حصانتها ومنعتها، وليس في البيت كبير فائدة؛ لأنه الذي حكي في سائر أبياته، فلا تتضمن مطاولته في المغازلة واشتغاله بها، فتكريره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى، إلا الزيادة التي ذكر من منعتها، وهو - مع ذلك - بيت سليم اللفظ في المصراع الأول دون الثاني.

والبيت الثاني ضعيف، وقوله: «لو يسرون مقتلي» أراد أن يقول لو أسروا، فإذا نقله إلى هذا ضعف ووقع في مضمار الضرورة، والاختلالُ على نظمه بيِّن، حتى أن المتحرز يحترز من مثله.

وقوله:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل(٢)

قد أنكر عليه قوم قوله: «إذا ما الثريا في السماء تعرضت» وقالوا: الثريا لا تتعرض، حتى قال بعضهم: سمى الثريا وإنما أراد الجوزاء، لأنها تعرض، والعرب

---

(١) بيضة خدر: شبه المرأة بالبيضة المكنونة في خدرها، وذلك في صفائها ورقتها وكونها محفوظة عن أيدي العابثين، لا يرام خباؤها: لا سبيل لأحد إلى الوصول إلى خدرها، والخباء: البيت من الوبر أو الصوف، الأحراس: جمع حارس، والمعشر: القوم الذين تعيش معهم، حراصًا: جمع حريص على قتله في سرية.

(٢) الثريا: مجموعة من النجوم على هيئة نور، تعرضت: أبدت عرضها وهو جانبها، الوشاح: خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان معطوف أحدهما على الآخر، أو نسيج عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها، المفصل: الذي رصع بأكثر من نوع من الجواهر والخرز وغيره، وروي: المفضل مكان المفصل.

تفعل ذلك، كما قال زهير: «كأحمر عاد» وإنما هو أحمر ثمود.

وقال بعضهم في تصحيح قوله: «تعرض»: أول ما تطلع، كما أن الوشاح إذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته، وهذا كقول الشاعر:

تعرضت لي بمجَان خِلٌ تعرض المهرة في الطَّوَل[(١)]

يقول: تريك عرضها وهي في السن.

وقال أبو عمرو: يعني إذا أخذت الثريا في وسط السماء، كما يأخذ الوشاح وسط المرأة، والأشبه عندنا أن البيت غير معيب من حيث عابوه به، وأنه من محاسن هذه القصيدة، ولولا أبيات عدة فيه لقابله ما شئت من شعر غيره، ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو ويستولي على الأمد.

أنت تعلم أنه ليس للمتقدمين ولا للمتأخرين في وصف شيء من النجوم مثل ما في وصف الثريا وكل قد أبدع فيه وأحسن، فإما أن يكون قد عارضه أو زاد عليه.

فمن ذلك قول ذي الرمة[(٢)]:

وردت اعتسافًا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق[(٣)]

ومن ذلك قول ابن المعتز[(٤)]:

---

(١) **المجان:** المجون والمداعبة، **خلٌ:** خليل. **الطول:** الحبل يربط في وتد أو نحو ويطول للدابة لترعى به، **المهرة:** الأنثى مما ينتج من الخيل.

(٢) ذو الرمة: غيلان بن عقبة بن بهيش... عدي بن عبد مناة بن أد، من فحول الشعراء الإسلاميين... ت١١٧.

(٣) وردت اعتسافًا: جئت على غير هدى، من اعتسف الطريق: سار فيه على غير هدى، قمة الرأس: قمة جبل معهود، ابن الماء: الطير من الطيور التي تحلق حول الماء، محلق: صاعد في طيرانه.

(٤) ابن المعتز: شاعر عباسي مجيد، تولى الخلافة يومًا وليلة وقتل.

وترى الثريا في السماء كأنها بيضات أُدْحِيٍّ يَلُحْنَ بفَدْفَدِ[(١)]

وكقوله:

كأن الثريا في أواخر ليلها تَفَتُّحُ نَوْرٍ أو لجام مُفَضَّضِ[(٢)]

وقوله أيضًا:

فناولينها والثريا كأنها جنى نرجس حيا الندامى به الساقي[(٣)]

وقول الأشهب بن رميلة[(٤)]:

ولاحت لساريها الثريا كأنها لدى الأفق الغربي قرطٌ مسلسل[(٥)]

ولابن المعتز:

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه كذات قرطٍ أرادته وقد سقطا

أخذه من ابن الرومي[(٦)] في قوله:

طيب ريقه إذا ذقت فاه والثريا بجانب الغرب قرطُ

ولابن المعتز:

قد سقاني المدام والصبح بالليل مؤتزر

(١) الأدحى: النعام، ويقال للنعامة، بنت أُدحيَّة، فدفد: الفدفد الأرض الواسعة المستوية لا شيء فيها، وتجمع على: فدافد.

(٢) النور: الزهر، اللجام: الحديدة في فم الفرس، ثم أطلق عليها مع ما يلحق بها من سيور وأشياء أخرى، مفضض: مطلي بالفضة.

(٣) الجنى: ما يجنى من ثمر وزهر وغيره، الندامى: جلساء الشراب.

(٤) الأشهب بن رميلة: هو الأشهب بن ثور بن حارثة، ورميلة أمه، وينسب إليها فيقال: ابن رميلة، كان شاعرًا مجيدًا، وكان يهاجي الفرزدق وغيره، وضعه صاحب طبقات الفحول، في الطبقة الرابعة من فحول الشعراء في الإسلام.

(٥) لساريها: أي الماشي ليلًا ينظر إليها، القرط: ما يعلق في الأذن.

(٦) ابن الرومي: شاعر عباسي مجيد رثاء، سبق التعريف به.

والثريا كنور غصن على الأرض قد نثر(١)

وقوله:

وتروم الثريا في السماء مراما

كانكباب طمر كاد يلقي لجاما(٢)

ولابن الطثرية(٣):

إذا ما الثريا في السماء كأنها جمان وَهَىٰ من سلكه فتبددا(٤)

ولو نسخت لك كل ما قالوا من البديع في وصف الثريا، لطال عليك الكتاب، وخرج عن الغرض، وإنما نريد أن نبين لك أن الإبداع في نحو هذا أمر قريب، وليس فيه شيء غريب، وفي جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه في الحسن أو يساويه أو يقاربه.

فقد علمت أن ما حلق فيه، وقدر المتعصب له أنه بلغ النهاية فيه، أمر مشترك، وشريعة مورودة، وباب واسع، وطريق مسلوك، وإذا كان هذا بيت القصيدة، ودرة القلادة، وواسطة العقد، وهذا محله، فكيف بما تعداه؟ ثم فيه ضرب من التكلف؛ لأنه قال: «إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح»، فقوله: «تعرضت» من الكلام الذي يُستغنى عنه؛ لأنه يشبه أثناء الوشاح سواء كان في وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب، فالتهويل بالتعرض، والتطويل بهذه الألفاظ، لا معنى له، وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصل، فلا معنى لقوله:

(١) المدام: الخمر، مؤتزر: ملتف، النور: الزهر.

(٢) الطمر: الفرس الجواد الشديد العدو.

(٣) ابن الطثرية: هو يزيد بن الطثرية، والطثرية أمه، وهو شاعر أموي غزل، قتلته بنو حنيفة يوم الفليح، فرثته أخته بشعر جيد.

(٤) الجمان: اللؤلؤ، أو حب يصنع من الفضة على هيئة اللؤلؤ، أو نسيج من جلد مطرز بخرز ملون تتوشح به المرأة، ومراد الشاعر المعنى الأول أو الثاني.

«تعرض أثناء الوشاح» وإنما أراد أن يقول: تعرض قطعة من أثناء الوشاح، فلم يستقم له اللفظ، حتى شبه ما هو كالشيء الواحد بالجمع.

وقوله:

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت: يمين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك العماية تنجلي(١)

انظر إلى البيت الأول والأبيات التي قبله، كيف خلط في النظم، وفرط في التأليف، فذكر التمتع بها، وذكر الوقت والحال والحراس، ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها، ووصل إليها، من نزعتها ثيابها إلا ثوبًا واحدًا، والمتفضل الذي في ثوب واحد وهو الفضل، فما كان من سبيله أن يقدمه إنما ذكره مؤخرًا، وقوله: «لدى الستر» حشو، وليس بحسن ولا بديع، وليس في البيت حسن، ولا شيء يفضل لأجله.

وأما البيت الثاني ففيه تعليق واختلال، ذكر الأصمعي أن معنى قوله: «ما لك حيلة»: أي ليست لك جهة تجيء فيها والناس حوالي. والكلام في المصراع الثاني منقطع عن الأول، ونظمه إليه فيه ضرب من التفاوت.

وقوله:

فقمت بها أمشي تجر وراءنا على إثرنا أذيال مرط مرجل
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل(٢)

---

(١) نضت: خلعت، لبسة المتفضل: الثوب الواحد المبتذل يلبسه الرجل أو المرأة في البيت للخدمة أو النوم، يمين الله: أقسم بالله، العماية: الضلال والفساد، ويروى: الغواية، وكلاهما بمعنى واحد.

(٢) المرْط: كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به، وتتلفع به المرأة، والملاءة نوع من المروط، مرجل: منقوش بنقوش تشبه صور الرجال، ويروى: مرَّحل، بالحاء بدل الجيم، وهو المنقوش بما يشبه رحال الإبل. أجزنا ساحة الحي: قطعناه وانصرفنا عنها، =

البيت الأول من مساعدتها إياه، حتى قامت معه ليخلوا، وإنما كانت تجر على الأثر أذيال مرط مرجل، والمرجل: ضرب من البرود يقال لوشي الترجيل، وفيه تكلف؛ لأنه قال: «وراءنا على إثرنا»، ولو قال: «على إثرنا»، كان كافيًا، والذيل إنما يجر وراء الماشي، فلا فائدة لذكره «وراءنا»، وتقدير القول فقمت أمشي بها، وهذا أيضًا ضرب من التكلف، وقوله: «أذيال مرط» كان من سبيله أن يقول: ذيل مرط، على أنه لو سلم من ذلك كان قريبًا ليس مما يفوت بمثله غيره، ولا يتقدم به سواه، وقول ابن المعتز[1] أحسن منه:

فبت أفرش خدي في الطريق له ذلا، وأسحب أذيالي على الأثر

وأما البيت الثاني فقوله: «أجزنا» بمعنى قطعنا، والخبت: بطن من الأرض، والحقف: رمل معوج، والعقنقل: المنعقد من الرمل الداخل بعضه في بعض، وهذا بيت متفاوت مع الأبيات المتقدمة؛ لأن فيها ما هو سلس قريب يشبه كلام المولدين وكلام البذلة، وهذا قد أغرب فيه، وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة، وليس في ذكرها والتفضيل بإلحاقها بكلامه فائدة.

والكلام الغريب، واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام، فقد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها، كقوله ﷻ في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[2]، فأما إذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مذمومة بحسب

= بطن خبت: مكان منخفض وطيء حوله نواح مرتفعة، الحقاف: كثبان الرمل المعوجة الملتوية، والعقنقل: الوادي العظيم المتسع، والكثيب العظيم المتداخل من الرمل.

(١) ابن المعتز، شاعر عباسي، تولى الخلافة قليلًا ثم قتل.

(٢) سورة الإنسان، بعض آية: ١٠، والقمطرير: الشديد العبوس، ولسنا مع المؤلف الفاضل في أن اللفظة هنا مباينة لنسج الكلام، بل هي من لحمته وسداه، إذ الكلام عن يوم القيامة وأهواله وعبوسه وشدته، فناسب أن تختار له من الكلمات ما يتناسب مع تصوير ما فيه من رعب وهول، وإذا كانت كل لفظة من ألفاظ القرآن المجيد لا تناسب وضعها من الكلام تمامًا بحيث لا تنوب عنها غيرها، فأين نجد ذلك؟

ما تحمد في موضعها، وروى أن جريرًا أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته:

بان الخليط برامتين فودعوا أو كلما جدوا لبين تجزع[(١)]؟

كيف العزاء ولم أجد مذ بنتم قلبا يقر ولا شرابًا ينقع[(٢)]؟

قال: وكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله:

وتقول بوزع: قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع[(٣)]

فقال: أفسدت شعرك بهذا الاسم.

وأما قوله:

هصرت بُغصْنَي دوحة فتمايلت علي هضيم الكشح ريًا المخلخل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل[(٤)]

فمعنى قوله: «هصرت»: جذبت وثنيت، وقوله: «بغصني دوحة» تعسف، ولم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنين: والمصراع الثاني أصح، وليس فيه شيء إلا ما يتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين، وأنت تجد ذلك في وصف كل شاعر، ولكنه مع تكرُّره على الألسن صالح، ومعنى قوله: «مهفهفة» أنها مخففة ليست مثقلة، والمفاضة التي اضطرب طولها، والبيت ـ مع مخالفته في الطبع الأبيات المتقدمة، ونزوعه فيه إلى الألفاظ المستكرهة، وما فيه من الخلل من

(١) بان: فارق، الخليط: المخالطون والمجاورون من الأحباب، أي استعدوا للفراق، والبين: البعد والفراق، ورامتين: اسم مكان.

(٢) بنتم: فارقتم وبعدتم، شرابًا ينقع: يروي غليلي ويشبع عطشي، شبه شوقه إليه بالعطش الذي لا يرويه إلا هو.

(٣) بوزع: اسم حبيبته، دببت على العصا: كناية عن كبر سنه وضعفه.

(٤) هصرت: جذبت، الدوحة: الشجرة العظيمة الأغصان، هضيم: ضامر، الكشح: ما بين الخاصرة والضلوع، ريا المخلخل: ممتلئة مكان الخلخال، مهفهفة: لينة الخصر ضامرته، غير مفاضة: لا هي ذات طول مضطرب ولا بطنها مترهلة، الترائب: جمع تريبة وهي موضع القلادة من الصدر، مصقولة: بيضاء مجلوة، السجنجل: المرآة.

تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض - ليس بطائل، ولكنه قريب متوسط.

وقوله:

تصدُّ وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وَجْرةَ مُطفِلِ
وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذ هي نصتهُ ولا بمعطل(١)

معنى قوله: «عن أسيل» أي بأسيل، وإنما يريد خدًّا ليس بكزّ، وقوله: «تتقي» يقال: اتقاه برأسه أي جعله بينه وبينه، وقوله: «تصد وتبدي عن أسيل» متفاوت؛ لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد، وقوله: «تتقي بناظرة»، لفظة مليحة، ولكن أضافها إلى ما نظم به كلامه، وهو مختلف، وهو قوله: «من وحش وجرة»، وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا، كان من سبيله أن يضيف إلى عيون الظباء أو المها دون إطلاق الوحش، ففيهن ما تستنكر عيونها، وقوله: «مطفل» فسروه على أنها ليست بصبية وأنها استحكمت، هذا اعتذار متعسف، وقوله: «مطفل» زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذي ذكره الأصمعي، ولكن قد يحتمل عندي أن يفيد غير هذه الفائدة فيقال: إنها إذا كانت مطفلًا لحظت أطفالها بعين رقة، ففي نظر هذه رقة نظر المودة، ويقع الكلام معلقًا تعليقًا متوسطًا.

وأما البيت الثاني فمعنى قوله: «ليس بفاحش» أي ليس بفاحش الطول، ومعنى قوله: «نصته» رفعته، ومعنى قوله: «ليس بفاحش» في مدح الأعناق، كلام فاحش موضوع منه، وإذا نظرت في أشعار العرب رأيت في وصف الأعناق ما

---

(١) تصد: تعرض، تبدي: تظهر، أسيل: خد جميل فيه ملاسة وعدم اكتناز، تتقي: تجعل بينها وبين الآخر وقاية، أي حاجزًا، والناظرة: العين، وجرة: اسم لمكان، مطفل: ذات طفل، والجيد: العنق، الريم: الظبي الأبيض، ليس بفاحش: أي عنقها طويل طولًا مناسبًا، نصته: رفعته، ولا بمعطل: ولا بخال من الحلي.

يشبه السحر، فكيف وقع على هذه الكلمة، ودفع إلى هذه اللفظة؟ وهلا قال كقول أبي نواس(١):

مثل الظباء سمت إلى روضٍ صوادر عن غدير(٢)

ولست أطول عليك فتستثقل، ولا أكثر القول في ذَمِّه فتستوحش، وأَكِلُكَ الآن إلى جملة من القول، فإن كنت من أهل الصنعة فطنت واكتفيت وعرفت ما رمينا إليه واستغنيت، وإن كنت من الطبقة خارجًا(٣)، وعن الإتقان بهذا الشأن خاليًا، فلا يكفيك البيان وإن استقرينا جميع شعره، وتتبعنا عامة ألفاظه، ودللنا على ما في كل حرف منه.

اعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة، وأبيات متوسطة، وأبيات ضعيفة مرذولة، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة وأبيات معدودة بديعة، وقد دللنا على المبتذل منها، ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر الذي يروع السمع، ويهول القلب، ويكد اللسان، ويعبس معناه في وجه كل خاطر، ويكفهر مطلعه على كل متأمل أو ناظر، ولا يقع بمثله التمدح والتفاصح، وهو مجانب لما وضع له أصل الأفهام، ومخالف لما بُني عليه التفاهم بالكلام، فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود، ويلحق باللغز(٤) والأشارات المستبهمة.

---

(١) أبو نواس: شاعر عباسي خليع مجاهر بالمعاصي، مشبب بالنساء والغلمان، أكثر شعره في الخمر والدفاع عنها والترغيب فيها، واسمه: الحسن بن هانئ، مولى الحكم بن سعد العشيرة من اليمن، وهو القائل في غلام له اسمه أحمد:

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدي نعصي جبار السماوات

(٢) صوادر: عائدات بعد أن ارتوت من الغدير، وقوله: «سمت» معنى جميل يفيد أن الروض مرتفع عن الغدير، وفي صعودهن إلى الروض ترتفع رؤوسهن فتظهر أجيادهن أو أعناقهن، وهذا يعطي معنى قول امرئ القيس: إذا هي نصته: أي رفعت جيدها ليرى.

(٣) أي خارجًا من طبقة أهل الصنعة، يقصد العلماء المتقنين لصنعة اللغة وفنونها.

(٤) اللغز: في اللغة جحر الضب واليربوع والفأر، تحفر أحجارها على هيئة ملتوية تمثل مشكلة للباحث عنها، وقد تجعل لأجحارها منفذين تخفي واحدًا وتظهر الآخر، فإذا ابتغيت من =

فأما الذين زعموا أنه من بديع هذا الشعر فهو قوله:

ويُضحِي فتيت المسك فوق فراشها   نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل(١)

والمصراع الأخير عندهم بديع، ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة، لها مَن يكفيها، ومعنى قوله: «لم تنتطق عن تفضل» يقول لم تنتطق وهي فضل، و«عن» هي بمعنى بعد، وقال أبو عبيدة: لم تنتطق فتعمل ولكنها تتفضل.

ومما يعدونه من محاسنها:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي(٢)

فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازًا وناء بكلكل(٣)

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ   بصبح وما الإصباح منك بأمثل(٤)

= الظاهر هربت من الخفي، وأطلق: اللغز كذلك على كل مُعَمَّى من الكلام ومشكل من العبارات، ويجمع على ألغاز.

(١) ويضحي: وقت الضحى حين تستيقظ من نومها وتغادر فراشها، فتيت المسك: دقيق المسك الناشئ عن تفتيته، فهو فعيل بمعنى مفعول، نئوم الضحى: أي تنام حتى الضحى ولا تستيقظ مبكرًا؛ لأن لديها من يخدمها، وهذا كناية عن كونها منعمة مترفة، والمتفضل في اللباس: الذي يلبس ثوبًا واحدًا للخدمة أو النوم، فهو يقول إنها مترفة منعمة تنام حتى الضحى؛ لأن لديها من يقوم على خدمتها، وتكثر من استعمال المسك حتى إن فتاته ليظل منثورًا على فراشها بعد أن تغادره، وهي تلبس اللباس الواحد ليس للخدمة أو العمل ولكن للتفضل والترفه.

(٢) أرخى سدوله: أرسل أستاره، أنواع الهموم: أنواع الأحزان، ليبتلي: ليختبر صبري وتحملي.

(٣) تمطى بصلبه: تمدد بظهره، وأردف أعجازًا: اتبع ذلك بمط مؤخرته، وناء بكلكل: وأتبع ذلك بصدره، يشبه نزول الليل به بالبعير حتى يبرك، فإنه يمدد ظهره، وينزل بمؤخرته ثم يلي ذلك صدره.

(٤) انجل: أي انكشف، وانته، بأمثل: أي بأفضل، يقول: أيها الليل اذهب حتى يأتي الصباح، وإن كان الصباح مليئًا بالهموم مثلك.

وكان بعضهم يعارض هذا بقول النابغة(١):

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصبِ وليل أقاسيه بطيء الكواكب(٢)

تضاعف فيه الحزن من كل جانب نصدر أراح الليل عازب همه(٣)

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يتلو النجوم بآيب(٤)

وقد جرى ذلك بين يدي بعض الخلفاء، فقدمت أبيات امرئ القيس واستحسن استعارتها، وقد جعل لليل صدرًا يثقل تنحيه، ويبطئ تقضيه، وجعل له أردافًا كثيرة، وجعل له صلبًا يمتد ويتطاول، ورأوا هذا بخلاف ما يستعيره أبو تمام من الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكرة، ورأوا أن الألفاظ جميلة، واعلم أن هذا صالح جميل، وليس من الباب الذي يقال إنه متناه عجيب، وفيه إلمامٌ بالتكلف، ودخول في التعمل.

وقد خرجوا له في البديع من القصيدة قوله:

وقد اغتدى والطيرُ في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكرٍّ مفرٍّ مقبل مدبر معًا كجلمود صخر حطه السيل من عل(٥)

وقوله أيضًا:

---

(١) النابغة: هو النابغة الذبياني، أبو أمامة زياد بن معاوية، من الطبقة الأولى لفحول شعراء الجاهلية، سبق التعريف به.

(٢) ناصب: مقيم متعب، بطيء الكواكب: كناية عن طوله.

(٣) أراح الليل عازب همه: أعاد إليه همه الذي كان ذهب ونساه.

(٤) تقاعس: ثبت ولم يبرح مكانه، الذي يتلو النجوم: الصباح.

(٥) اغتدى: أخرج في الغداة وهي الصباح، وكناتها: أوكارها، منجرد: الحصان قليل الشعر، وهي صفة مدح، قيد الأوابد: يدرك الأوابد وهي الوحوش كأنها مقيدة وهو يجري، كناية عن سرعته، هيكل: عظيم الجسم، مكر مفر مقبل مدبر: سريع الكر وهو الهجوم والفر وهو الهروب والإقبال والإدبار، جلمود صخر: حجر عظيم، حطه السيل من عل: أسقطه السيل من أعلى جبل.

له أيطلا ظَبْيٍ وساقَا نعامة وإرخاء سِرْحان وتقريب تتْفُل(١)

فأما قوله: «قيد الأوابد» فهو مليح، ومثله في كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير، والتعمل بمثله ممكن، وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفًا، ويؤلفون المحاسن تأليفًا، ثم يوشحون به كلامهم، والذين كانوا من قبل لغزارتهم وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك، إنما كان يتفق لهم اتفاقًا، ويَطَّرد في كلامهم اطرادًا.

وأما قوله في وصفه: «مكر مفر» فقد جمع فيه طباقًا وتشبيهًا، وفي سرعة جري الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا وألطف، وكذلك في جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه في بيت واحد صنعة، ولكن قد عورض فيه وزوحم، والتوصل إليه يسير، وتطلُّبه سهل قريب.

وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتًا بينًا، في الجودة والرداءة، والسلاسة والانعقاد، والسلامة والانحلال، والتمكن والتسهل، والاسترسال والتوحش والاستكراه.

وله شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها، ولا سواءٌ كلام(٢) ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة، ويتلوَّن تلون الحرباء، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه، وتتقاذف به أسبابه، وبين قول يجري في سبكه على نظام، وفي رصفه على منهاج، وفي وضعه على حد، وفي صفائه على باب، وفي بهجته ورونقه على طريق، مختلفه مؤتلف، ومؤتلفه متحد، ومتباعده متقارب، وشارده مطيع، ومطيعه شارد، وهو على متصرفاته واحد، لا يستصعب في حال، ولا يتعقد في شأن.

وكنا أردنا أن نتصرف في قصائد مشهورة فنتكلم عليها، وندل على معانيها

---

(١) أيطلا: خاصرتا، مثنى خاصرة، والإرخاء نوع من العدو السريع، والسِّرحان: الذئب، والتقريب: ضرب من العدو يضع فيه رجليه مكان يديه، تتفل: ولد الثعلب.

(٢) أي ليس كلامًا مستويًا متماثلًا، كلام فيه مثل هذه الوجوه المتقابلة، والحالات المتناقضة.

ومحاسنها، ونذكر لك من فضائلها ونقائصها، ونبسط لك القول في هذا الجنس، ونفتح عليك في هذا المنهج.

ثم رأينا هذا خارجًا عن غرض كتابنا، والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره، ووزنه بميزانه ومعياره، ولذلك كتب وإن لم تكن مستوفاة، وتصانيف وإن لم تكن مستقصاة، وهذا القدر يكفي في كتابنا.

ولم نحب أن ننسخ لك ما سطره الأدباء في خطأ امرئ القيس في العروض والنحو والمعاني، وما عابوه عليه في أشعاره، وتكلموا به على ديوانه؛ لأن ذلك أيضًا خارج عن غرض كتابنا، ومجانب لمقصوده.

وإنما أردنا أن نبين الجملة التي بيناها، لتعرف أن طريقة الشعر شريعة مورودة، ومنزلة مشهودة، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم، وأنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرَّ عليه فيه، وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم، وتجد معنى قد توافدا عليه، وتوافيا إليه، فهما فيه شريكا عنان، وكأنهما فيه رضيعا لبان، والله يؤتي فضله من يشاء.

* * *

عودة إلى إعجاز القرآن

فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل دون وصفه، نحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض، وتستولي به على الأمد، وتصل به إلى المقصد، وتتصور إعجازه كما تتصور الشمس، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر[١]، وأقرب عليك الغامض، وأسهل لك العسير.

واعلم أن هذا[٢] علم شريف المحل، عظيم المكان قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليس له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه، وهو أدقُّ من السحر، وأهولُ من البحر، وأعجبُ من الشعر.

وكيف لا يكون كذلك؛ وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعرًا أو سجعًا، وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها[٣]، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى ـ لو وضعت موضعها ـ في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار.

---

(١) انظر؛ كيف سيتمكن المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ من تبسيط هذا العلم حتى يجعل إعجاز القرآن في مثل الشمس وضوحًا، والفجر يقينًا؛ مع قوله قبل ذلك: إن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل دون وصفه؟!

(٢) يقصد: علم إعجاز القرآن، وكل العلوم التي تخدم نفس الغرض.

(٣) الجران: باطن العنق من البعير وغيره، ويجمع على: أجرنة وجرن، وألقى بجرانة مثلٌ يضرب للشيء يوضع في مكانه الملائم فيثبت ويستقر، يقال: ضرب الإسلام بجرانه: ثبت واستقر، وفي الحديث الشريف عن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: «... حتى ضرب الحق بجرانه».

ولا أكثر عليك المثال، ولا أضرب لك فيه الأمثال، وأرجع بك إلى ما وعدتك من الدلالة، وضمنت لك من تقريب المقالة، فإن كنت لا تعرف الفصل - الذي بينا - بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام، ومتصرفات مجاري النظام، لم تستفد مما نقربه عليك شيئًا، وكان التقليد أولى بك، والاتباع أوجب عليك، ولكل شيء سبب ولكل علم طريق، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشيء من غير طريقه، ولا بلوغ غايته من غير سبيله.

خذ الآن - هداك الله - في تفريغ الفكر، وتخلية البال، وانظر فيما نعرض عليك، ونهديه إليك متوكلًا على الله، ومعتصمًا به، ومستعيذًا به من الشيطان الرجيم، حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم.

سماه الله - عز ذكره - حكيمًا وعظيمًا ومجيدًا(١)، وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[سورة فصلت: الآية ٤٢]، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[سورة الحشر: الآية ٢١]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾(٢)، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ

(١) وصف القرآن بالحكيم في قوله - تعالى -: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [يس: ١، ٢]، ووصف القرآن بالعظيم في قوله - سُبْحَانَهُ -: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧]. ووصف القرآن بالمجيد في قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١، ٢]، وفي قوله - سُبْحَانَهُ -: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. ووصف القرآن بالكريم في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]. ووصف القرآن بأنه عزيز في قوله - تعالى -: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

(٢) سورة الرعد: بعض آية ٣١، وجواب «لو» في الآية محذوف للعلم به، تقديره: لكان هذا القرآن.

﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[سورة الإسراء: الآية ٨٨].

وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزويني، حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد ابن عثمان، حدثنا أبو يوسف الصيدلاني، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري الطائي، عن الحارث الأعور، عن علي رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله إن أمتك ستفتن من بعدك، فسأل أو سئل ما المخرج من ذلك؟ فقال: **«بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنــزيل من حكيم حميد، من ابتغى العلم في غيره أضله الله، ومن ولي هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله، وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، وتبيان من بعدكم، وهو فصل ليس بالهزل، وهو الذي سمعته الجن فقالوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾[سورة الجن: بعض آيتي ١، ٢] **لا يخلق**[1] **على طول الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه»**[2].

وأخبرني أحمد بن علي بن الحسن، أخبرنا أبي، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيد الله، حدثنا المسيب بن شريك، عن عبيدة، عن أسامة ابن أبي عطاء، قال: أرسل النبي ﷺ إلى علي رضي الله عنه في ليلة، فذكر نحو ذلك في المعنى، وفي بعض ألفاظه اختلاف.

وأخبرنا أحمد بن علي بن الحسن، أخبرنا أبي، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيد الله، حدثنا المسيب بن شريك، عن بشر بن نمير، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ ثلث القرآن أُعطي ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أُعطي نصف النبوة، ومن قرأ القرآن كله أعطي النبوة**

---

(١) يخلق: يبلى، من: خلق الثوب، بلي، اللام في خلق بفتح وتكسر.
(٢) الجامع الصحيح للترمذي، باب ما جاء في فضائل القرآن: ٢٤٥/٤.

كلها، غير أنه لا يوحى إليه»(١)... وذكر الحديث.

ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض نوره، وجلل الآفاق ضياؤه، ونفذ في العالم حكمه، وقبل في الدنيا رسمه، وطمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرواق، ممدود الأطناب، مبسوط الباع، مرفوع العماد، ليس على الأرض من يعرف الله حق معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين بعظمته، أو يعلم علو جلالته، أو يتفكر في حكمته، لكان كما وصفه الله ـ تَعَالَى ـ جل ذكره من أنه نور، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[سورة الشورى: الآية ٥٢].

فانظر إن شئت إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف، كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع، قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [سورة الشورى: بعض آية ٥٢] يدل على صدوره من الربوبية، ويبين عن وروده عن الإلهية، وهذه الكلمة بمنفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه، وكان واسطة عقده، وفاتحة عقده، وغرة شهره، وعين دهره.

وكذلك قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [سورة الشورى: بعض آية ٥٢]، فجعله روحًا؛ لأنه يحيي الخلق، فله فضل الأرواح في الأجساد، وجعله نورًا؛ لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق، ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته، ووقف وقوف الاسترشاد به على إرادته، وبين أنه لم يكن ليهتدي إليه لولا توفيقه، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه، وأنه لم يكن ليهتدي فكيف كان يهدي لولاه فقد صار يهدي ولم يكن من قبل ذلك ليهتدي، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾[سورة الشورى: بعض آية: ٥٢، وآية: ٥٣، التي هي

(١) رواه البيهقي، وابن عساكر، والأنباري، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات.

خاتمة السورة] فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث[١]، فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان [٢]، وقوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلمة منفصلة مباينة للأولى، وقد صيرها شريف النظم أشد ائتلافًا من الكلام المؤلف، وألطف انتظامًا من الحديث الملائم، وبهذا يبين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته.

الأمر أظهر والحمد للَّه، والحال أبين من أن يحتاج إلى كشف، تأمل قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[سورة الأنعام: الآية: ٩٦]. انظر إلى هذه الكلمات الأربع [٣] التي ألف بينها، واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة، وبمفردها درة؟ وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر، ونفاذ القهر، ويتجلى في بهجة القدرة ويتحلى بخالصة العزة، ويجمع السلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة، والرونق الصافي، والبهاء الضافي، ولست أقول إنه شمل الإطباق [٤] المليح، والإيجاز اللطيف، والتعديل والتمثيل، والتقريب والتشكيل، وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه؛ لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها، حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة، أو وجه قصيدة أو فقرة، فإذا ألفت ازدادت حسنًا، وزادتك إذا تأملت معرفة وإيمانًا.

ثم تأمل قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ

---

(١) يريد الجمل الثلاث. وهي: الأولى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. والثانية: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. والثالثة: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

(٢) اللتان هما: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

(٣) أي الجمل الأربع من الآية؛ وهي: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، و﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

(٤) يقصد: الطباق.

قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾[سورة يس الآيات: ٣٧ - ٣٩][1].

هل تجد كل لفظة، وهل تعلم كل كلمة، تستقل بالاشتقاق على نهاية البديع، وتتضمن شرط القول البليغ؟

فإذا كانت الآية تنتظم من البديع، وتتألف من البلاغات، فكيف لا تفوت حد المعهود، ولا تحوز شأو المألوف؟ وكيف لا تحوز قصب السبق، ولا تَتَعَالَى عن كلام الخلق؟

* * *

ثم اقصد إلى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها، وراع ما فيها من براهينها وقصصها، تأمل السورة التي فيها النمل، وانظر في كلمة كلمة وفصل فصل:

بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾[سورة النمل: بعض الآية: ٦]، ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وأنه رأى نارًا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾[سورة النمل بعض آية: ٧].

وقال في سورة طه في هذه القصة: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[سورة طه: بعض آية: ١٠].

وفي موضع: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[سورة القصص: بعض آية: ٢٩].

قد تصرف في وجوه، وأتى بذكر القصة على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك، ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾[سورة الطور: بعض آية: ٣٤]، ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم... وكل كلمة من هذه

---

(١) العرجون: ما يمسك التمر أو البلح. وهو من النخلة مثل العنقود من شجرة العنب. وقيد العرجون بالقديم؛ لأنه كلما قدم وجف اشتد عوجه.

الكلمات(١) وإن أنبأت عن قصة، فهي بليغة بنفسها، تامة في معناها.

ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾[سورة النمل: الآية: ٨].

فانظر إلى ما جرى له الكلام، من علو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية، وما دل به عليها من قلب العصا حية، وجعلها دليلًا يدله عليه ومعجزة تهديه إليه.

وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء.

ثم انظر في آية آية، وكلمة كلمة، هي تجدها كما وصفنا من عجيب النظم، وبديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها، تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها.

ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلًا، ببديع التأليف، وبليغ التنزيل.

* * *

وإن أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبين، وتتحقق بما ادعيناه زيادة تحقق، فإن كنت من أهل الصنعة(٢)، فاعمد إلى قصة من هذه القصص، وحديث من هذه الأحاديث، فعبر عنه بعبارة من جهتك، وأخبر عنه بألفاظ من عندك، حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر، وتتبين في نظم القرآن الدليل الباهر، ولذلك أعاد

---

(١) يقصد كل آية من الآيات السابقة التي اقتبسها من السور المشار إليها.

(٢) أي صناعة اللغة.

قصة موسى في سور، وعلى طرق شتى، وفواصل مختلفة، مع اتفاق المعنى [(١)].

فعلك ترجع إلى عقلك، وتستر ما عندك، إن غلطت في أمرك، أو ذهبت في مذاهب وهمك، أو سلطت على نفسك وجه ظنك.

متى تهيأ لبليغ أن يتصرف في قدر آية في أشياء مختلفة، فيجعلها مؤتلفة، من غير أن يبين على كلامه أعباء الخروج والتنقل، أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعمل؟ وأحسب أنه لايسلم من هذا ـ ومحال أن يسلم منه ـ حتى يظفر بمثل تلك الكلمات الأفراد، والألفاظ الأعلام، حتى يجمع بينها فيجلو فيها فقرة من كلامه، وقطعة من قوله ولو اتفق له في أحرف معدودة وأسطر قليلة، فمتى يتفق له في قدر ما نقول: إنه من القرآن معجز؟ هيهات هيهات!

إن الصبح يطمس النجوم وإن كانت زاهرة، والبحر يغمر الأنهار وإن كانت زاخرة متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام، بعد ذكر العنوان والتسمية، هذه الكلمة الشريفة العالية: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[سورة النمل الآية: ٣١]، والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير[(٢)]، واشتغلت به من المشورة، ومن تعظيمها أمر المستشار، ومن تعظيمهم أمرها[(٣)]، وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة، والكلمات العجيبة البليغة، ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[سورة النمل: بعض آية: ٣٢]، وذكر قولهم: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾[سورة النمل: الآية: ٣٣] لاتجد في

---

(١) وكذلك نهج القرآن العظيم مع كل القصص الذي أورده للأمم الماضية من مثل قصة أبي البشر آدم عليه السلام، وقصة نوح، وقصص عاد وثمود، وإبراهيم ولوط، فقد أورد ذلك القصص وغيره في أكثر من سورة من السور الكريمة، وبأكثر من أسلوب من أساليبه المعجزة. وذلك لذات الغرض الذي أشار إليه المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ.

(٢) الكلام عن بلقيس ملكة سبأ.

(٣) أي مستشاريها.

صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به، وقوله (١): ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾[سورة النمل: بعض آية: ٣٣]، تعلم براعته بنفسه، وعجيب معناه، وموضع اتفاقه في هذا الكلام، وتمكن الفاصلة، وملاءمته لما قبله، وذلك قوله: ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[سورة النمل: بعض آية: ٣٣] (٢)، ثم إلى هذا الاختصار، وإلى البيان مع الإيجاز، فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا مما يزيده الاختصار بسطًا، لتمكنه ووقوعه موقوعه، ويتضمن الإيجاز منه تصرفًا يتجاوز محله وموضعه.

وكم جئت إلى كلام مبسوط يضيق عن الأفهام، ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام.

ثم لو وقع على الأفهام أخل بما يجب فيه من شروط الإحكام، أو بمعاني القصة وما تقتضي من الإعظام، ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصًا في وجه الحكمة، أو مدخولًا في باب السياسة، أو مصفوفًا في طريق السيادة، أو مشترك العبارات إن كان مستجود المعنى، أو جيد البلاغة مستجلب المعنى، أو مستجلب البلاغة جيد المعنى، أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة، أو مستبهم الجانب مستكره الوضع.

وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد، وإذا اختصر كمل في بابه وجاد، وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره، وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه، لم يقع إلا على محاسن تتوالى، وبدائع تترى.

ثم فكر بعد ذلك في آية آية، أو كلمة كلمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[سورة النمل: بعض آية: ٣٤]، هذه الكلمات الثلاث (٣)، واحدة منها كالنجم في علوه ونوره،

---

(١) الضمير يعود إلى مُنَزِّل القرآن سبحان وتعالىٰ.

(٢) الإشارة تعود إلى الأوصاف الخمسة التي وصف بها التنزيل الشريف في الكلام السابق على الإشارة مباشرة.

(٣) يقصد الجمل الثلاثة في الآية السابقة وهي: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وكالياقوت يتلألأ بين شذوره [١]

ثم تأمل تمكن الفاصلة وهي الكلمة الثالثة [٢] وحسن موقعها، وعجيب إحكامها، وبارع معناها.

وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكني قد بينت بما فسرت، وقررت بما فصلت، والوجه الذي سلكت،والنحو الذي قصدت، والغرض الذي إليه رميت، والسمت الذي إليه دعوت.

ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه، وهو تعادل هذا النظم في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة، فأَجِلِ [٣] الرأي في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم والفواتح، والبوادئ والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول، ثم اقض ما أنت قاض، وإن طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض السور.

ما رأيك في قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾[سورة القصص الآية: ٤].

هذه تشتمل على ست كلمات [٤]، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها علا ما تعرف، وهي تشتمل على جملة وتفصيل، وتفسير ذكر العلو في الأرض

---

(١) الشذور: القطع المتفرقة للشيء الواحد. مثلك شذور الذهب: أي حبات التِّبر التي تجمع من مستقره. والشذور أيضًا: حبات اللؤلؤ يفصل بها بين الأحجار الكريمة في عقد واحد. ولعل هذا المعنى الذي قصد إليه المؤلف.

(٢) قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

(٣) أجل الرأي: أي سرِّحه ومرِّره

(٤) أي ست جمل؛ هي: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

باستضعاف الخلق وبذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما؛ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لاتقر على هذا الجور، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد، وكفت في التظليم، وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره [١]، ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾[سورة القصص الآية: ٥].

وهذا من التأليف بين المؤتلف، والجمع بين المستأنس.

كما أن قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾[سورة القصص الآية: ٧٧]، وهي خمس كلمات [٢]، متباعدة في المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشد تألفًا من الشيء المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقًا من المتطابق في أول الوضع.

ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾ [سورة القصص الآية: ٦٨]، ومثلها : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾[٣] ومن المؤتلف قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾، وهذه ثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من

---

(١) وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

(٢) يقصد ما احتوته الآية الكريمة من أمرين ونهيين. بين كل أمرين نهي، وبين كل نهيين أمر ثم ختام ذلك الخبر عن الله ـ عز وجل ـ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

(٣) سورة القصص الآية: ٥٨.

الكبريت الأحمر [١]، ومن الباب الآخر قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾[الآية: ٨٨ خاتمة سورة القصص].

كل سورة من هذه السور، تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته، ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم ونفور الطبع، وشراد الكلام، وتهافت القول، وتَمَنُّع جانبه، وقصورك في الإيضاح عن واجبه، ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة إلى قصة وفصل إلى فصل، حتى تتبين[٢] عليك مواضع الوصل، ويستصعب عليك أماكن الفصل، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة، وأمثالًا سائرة، وحكمًا جليلة، وأدلة على التوحيد بينة، وكلمات من التنزيه والتحميد شريفة.

وإن أردت أن تتحقق ما وصفتُ لك، فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه في المديح والغزل والفخر والهجو يجري مجرى كلامه في ذكر القصص؟ إنك لتراه إذا جاء إلى وصف واقعة، أو نقل خبر، عامي الكلام، سوقي الخطاب، مسترسلًا في أمره متساهلًا في كلامه، عادلًا عن المألوف من طبعه، وناكبًا عن المعهود من سجيته، فإن اتفق له في قصة كلام جيد، كان قدر ثنتين أو ثلاثة، وكان ما زاد عليها حشوًا، وما تجاوزها لغوًا، ولا أقول إنها تخرج من عادته عفوًا؛ لأنه يقصر عن العفو، ويقف دون العرف، ويتعرض للركاكة.

فإن لم تقنع بما قلت لك من الآيات، فتأمل في غير ذلك من السور، هل تجد

(١) يضرب بذلك مثالًا على الندرة.

(٢) كلمة «تتبين» قلقة في موضعها:

أولًا: لأن «تتبين» تتعدى باللام وليس بـ «على». فيقال: تتبين لك، وليس تتبين عليك.

وثانيًا: لأن الظرف ظرف استعصاء وصعوبة، وليس ظرف بيان. كما توضحه الفقرة التالية. ولعل اللفظة المناسبة والقريبة من رسم «تتبين» تتأبى.

الجميع على ما وصفت لك؟ لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت في الإعجاز، فكيف بالقرآن العظيم؟ ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى وأقنع وشفى، ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء، لما طلبت بينة سواها، بل قصة من قصصه، وهي قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾[سورة الشعراء: الآية ٥٢] إلى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾[سورة الشعراء: الآية ٥٧ - ٦٠] حتى قال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾[سورة الشعراء: الآية ٦٣] ثم قصة إبراهيم عليه السلام.

ثم لو لم تكن إلا الآيات التي انتهى إليها القول في ذكر القرآن؛ وهي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ - ١٩٥].

وهذه كلمات مفردة بفواصلها، منها ما يتضمن فاتحة وفاصلة، ومنها ما هي فاتحة وواسطة وفاصلة، ومنها كلمة بفاصلتها تامة، دل على أنه نزله على قلبه ليكون نذيرًا، وبين أنه لكونه آية نبيًّا، ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾[سورة الشعراء: الآيتان ٢١٤، ٢١٥].

فتأمل آية آية لتعرف الإعجاز، وتتبين التصرف البديع، والتنقل في الفصول إلى آخر السورة، ثم راع المقطع العجيب، وهو قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، هل يحسن أن تأتي بمثل هذا الوعيد، وأن تنظم مثل هذا النظم، وأن تجد مثل هذه النظائر السابقة، وتصادف مثل هذه الكلمة المتقدمة؟

* * *

ولولا كراهة الإملال، لجئت إلى كل فصل، فاستقريت على الترتيب

كلماته، وبينت لك ما في كل واحدة منها من البراعة، ومن عجيب البلاغة، ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده، وتستضيء بنوره، وتهتدي بهداه. ونحن نذكر آياتٍ آخر، لتزداد استبصارًا، وتتقدم تيقنًا.

تأمل من الكلام المؤتلف قوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ١، ٣]. أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء اللَّه ـ تَعَالَى ـ وصفاته، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر، وما يجمع ما تجمع هذه الآية، من شريف المعاني، وحسن الفاتحة والخاتمة، واتل ما بعدها من الآي، واعرف وجه الخلوص من شيء إلى شيء، من احتجاج إلى وعيد، ومن إعذار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى مختلفة تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعلي الضم.

ثم جاء إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر: ٥ ـ ٦]، الآية الأولى أربعة فصول(١)، والثانية فصلان(٢)، وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾، وهل تقع في الحسن موقع قوله ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة؟، لو وضع موضع

---

(١) يقصد أنها مشملة على أربعة ـ قضايا، وإن كانت كلها مدمجة في وحدة. وفصولها هي: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

(٢) الفصلان هما ـ في نظر المؤلف ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لكن في هذا نظر. فإن الأوفق كون الآية فصلًا واحدًا؛ لأن كونهم أصحاب النار هي كلمة اللَّه التي حقت عليهم، فلا وجه للفصل بين الجملة الثانية والأولى.

ذلك: ليقتلوه أو ليرجموه أو لينفوه أو ليطردوه أو ليهلكوه أو ليذلوه، ونحو هذا، ما كان ذلك بعيدًا ولا بارعًا، ولا عجيبًا، ولا بالغًا، فانقد موضع هذه الكلمة، وتعلم بها ما تذهب إليه من نخب الكلام، وجميل الألفاظ، والاهتداء للمعاني، فإن كنت تقدر أن شيئًا من هذه الكلمات التي عددناها عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب(١)، فلا سبيل لك إلى الوقوف على تصاريف الخطاب، فافزع إلى التقليد، واكف نفسك مؤونة التفكير، وإن فطنت فانظر إلى ما قال من رد عَجُز الخطاب إلى صدره، بقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، ثم ذكر عقيبها العذاب في الآخرة، وأتلاها تلو العذاب في الدنيا، على الإحكام الذي رأيت.

ثم ذكر المؤمنين بالقرآن، بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسل، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، إلى أن ذكر ثلاث آيات، وهذا كلام مفصول تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى، وانتسابه إلى ما تقدم وتقضى، وعظم موضعه في معناه، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسبيحهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة، بقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].. هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظًا ومعنى، ولطيف هذه الحكاية، وتلاؤم هذا الكلام، وتشاكل هذا النظام؟ وكيف يهتدي إلى وضع هذه المعاني بشري؟ وإلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسي.

ثم ذكر ثلاث آيات في أمر الكافرين على ما ترى، ثم نبه على أمر القرآن وأنه من آياته، بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر: ١٣](٢)، وإنما ذكر هذين الأمرين اللذين

---

(١) أي لا توضح لك إعجاز القرآن المجيد، وتبينه لك كالشمس في وضح النهار كما وعد المؤلف قبل ذلك.

(٢) ولسنا مع المؤلف الفاضل أن كلمة «آياته» في الآية الكريمة مرادًا بها آيات القرآن المجيد. بل هي والله ـ تَعَالَى ـ أعلم آياته في الكون من بديع صنعه وحكيم تدبيره من مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

يختص بالقدرة عليهما لتناسبهما في أنهما من تنزيله من السماء، ولأن الرزاق الذي لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس التي تجب عليها طاعته والنظر في آياته.

ثم قال: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٤ - ١٦].

قف على هذه الدلالة، وفكر فيها، وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية، والكلمات السامية، والحكم البالغة، والمعاني الشريفة، تعلم ورودها عن الإلهية ودلالتها على الربوبية، وتتحقق أن الخطب المنقولة عنهم، والأخبار المأثورة في كلماتهم الفصيحة، من الكلام الذي تعلق به الهمم البشرية، وما تحوم عليه الأفكار الآدمية، وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول.

أي خاطر يتشوف إلى أن يقول: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ [غافر: ١٤ - ١٦]؟ وأي لفظ يدرك هذا المضمار؟ وأي حكيم يهتدي إلى ما لهذا من الغور؟ وأي فصيح يهتدي إلى هذا النظم؟

ثم استقرئ الآية إلى آخرها واعتبر كلماتها، وراع بعدها قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧]، من يقدر على تأليف هذه الكلمات على قربها، وعلى خفتها في النظم، وموقعها من القلب؟

ثم تأمل قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ١٨ - ٢٠]. كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتها، من أنه إذا رآها الإنسان في رسالة كانت عينها، أو في خطبة كانت وجهها، أو قصيدة كانت غرة غرتها، وبيت قصيدتها، الياقوتة التي تكون فريدة العقد، وعين

القلادة، ودرة الشذر، إذا وقع بين كلام وشحه، وإذا ضمن في نظام زيَّنه، وإذا اعترض في خطاب تميز عنه، وبان بحسنه منه.

* * *

ولست أقول هذا لك في آية دون آية، وسورة دون سورة، وفصل دون فصل، وقصة دون قصة، ومعنى دون معنى، لأني قد شرحت لك أن الكلام في حكاية القصص والأخبار، وفي الشرائع والأحكام، وفي الديانة والتوحيد، وفي الحجج والتثبيت، هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الأمور. ألا ترى أن الشاعر المُفلق إذا جاء إلى الزهد قصر، والأديب إذا تكلم في بيان الأحكام، وذكر الحلال والحرام، لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره. ونظم القرآن لا يتفاوت في شيء، ولا يتباين في أمر، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى، والفضل الأسنى، وفيما شرحناه لك كفاية، وفيما بيناه بلاغ.

* * *

ونذكر في الأحكاميات وغيرها آيات أخرى، منها قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤]. أنت تجد في هذه الآية من الحكمة، والتصرف العجيب، والنظم البارع ما يدلك ـ إن شئت ـ [(١)] على الإعجاز، مع هذا الاختيار والإيجاز، فكيف إذا بلغ ذلك آيات وكانت سورة؟

---

(١) واقع الأمر أن قارئ القرآن العظيم إذا ما كان لديه فهم للغة، ومعرفة بأسرارها ـ أو كما يقول المؤلف: من أهل الصنعة ـ فإنه ما إن يقرأ من القرآن شيئًا إلا ويأخذ بإساره، ويستولي على وجدانه، ويدرك إعجازه سواء شاء أو لم يشأ، وقد كان المشركون يسمعونه فيأخذ بألبابهم قسرًا عنهم، حتى كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم خوف سماعه، وكانوا يتواصون فيما بينهم بما حكاه القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

ونحو هذه الآية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وكالآية التي بعدها في التوحيد وإثبات النبوة[(١)]، وكالآيات الثلاث في المواريث[(٢)]. أي بارع يقدر على جميع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام؟ ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم؟

وإن جئت إلى آيات الاحتجاج كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢ ـ ٢٣].

وكالآيات في التوحيد كقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥]. وكقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١ ـ ٢]. وكقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١]، إلى آخرها. وكقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) الآية التي ذكرها المؤلف الفاضل هي في إثبات نبوة محمد ﷺ وإلزام اليهود والنصارى بأن البشارة به عليه السلام اسما ووصفا وزمانا ومكانا مثبتة في توراتهم وإنجيلهم. والآية الثانية التي يشير إليها هنا تأسيس على الآية السابقة وبناء عليها، في الأمر باتباع النبي ﷺ. والآية هي قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

(٢) الآيات الثلاث من سورة النساء؛ وهي: ١١ ـ ١٢، ١٧٦.

وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١ - ١٠]، هذه من الآيات التي قال فيها الله - تعالى - ذكره: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]. وانظر بعين عقلك، وراجع جلية بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة مما نقلناه إليك، وعرضنا عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلا وقصة، أو يتم حديثًا وسورة.

* * *

لا بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب، وتدبره على نحو هذا التنزيل. فلمَ ندَّعِ ما ادعيناه لبعضه، ولم نصف ما وصفناه إلا في كله، وإن كانت الدلالة في البعض أبين وأظهر، والآية أكشف وأبهر.

وإذا تأملت على ما هديناك إليه، ووقفناك عليه، فانظر: هل ترى وقع هذا النور في قلبك، واشتماله على لبك، وسريانه في حسك، ونفوذه في عروقك، وامتلاءك به إيقانًا، وإحاطة، واهتداءك به إيمانًا وبصيرة؟

أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزة تعمل في جوانبك من لون، والأريحية تستولي عليك من باب؟ وهل تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه؟ وتجد في نفسك من المعرفة التي أحدثت لك عزة، وفي أعطافك ارتياحًا وهزة، وترى لك في الفضل تقدمًا وتبريزًا، وفي اليقين سبقًا وتحقيقًا، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة، مهاويهم في ظلال القلة والذلة، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلحظ بها مراتبهم، بحيث يجب أن ترتبها.

هذا كله في تأمل الكلام ونظامه، وعجيب معانيه وأحكامه، فإن جئت إلى ما انبسط في العالم من بركته وأنواره، وتمكن من الآفاق من يمنه وأضوائه، وثبت في القلوب من إكباره وإعظامه، وتقرر في النفوس من حتم أمره ونهيه، ومضى

في الدماء من مفروض حكمه. وإلى أنه جعل عماد الصلاة التي هي تلو الإيمان في التأكيد، وثانية التوحيد في الوجوب، وفرض حفظه، ووكل الصغار والكبار بتلاوته، وأمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه، من قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٨٩]، لم يؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه، فهل يدلك هذا على عظيم شأنه، وراجح ميزانه، وعالي مكانه؟.

* * *

وجملة الأمر أن نقد الكلام شديد، وتمييزه صعب. ومما كتب إليَّ الحسن بن عبدالله العسكري(١): أخبرني أبو بكر بن دريد(٢) قال: سمعت أبا حاتم يقول: سمعت الأصمعي(٣) يقول: فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب. وقال: سمعت أبا عمرو بن العلاء(٤) يقول: العلماء بالشعر أعز من الكبريت الأحمر.

وإذا كان الكلام المتعارف، المتداول بين الناس يشق تمييزه، ويصعب نقده، يذهب عن محاسنه الكثير، وينظرون إلى كثير من قبيحه بعين الحسن، وكثير من حسنه بعين القبح، ثم يختلفون في الأحسن منه اختلافًا كثيرًا، وتتباين آراؤهم في تفضيل ما تفضل منه، فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم، ولا يتأتى في مقدورهم، ولا يمثل بخواطرهم؟ وقد حير القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم، ولا أتم بلاغة، ولا أحسن براعة، حتى دهشوا حين ورد عليهم، وولهت عقولهم، ولم يكن عندهم فيه جواب، غير ضرب الأمثال، والتحرض(٥) عليه، والتوهم فيه، وتقسيمه أقسامًا، وجعله عضين.

---

(١) الحسن بن عبد الله العسكري.. صاحب كتاب: الصناعتين ت: ٣٩٥.

(٢) أبو بكر بن دريد: محمد بن الحسن بن دريد. عالم لغوي أديب راوية. توفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة.

(٣) الأصمعي.. عالم أديب نحوي لغوي راوية. ت: ٢١٦ تقدم التعريف به.

(٤) أبو عمر بن العلاء.. تقدم التعريف به.

(٥) قد تكون الكلمة محرفة عن: «التحريض عليه». أو «التخرص عليه».

وكيف لا يكون أحسن الكلام، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]. استغنم فهم هذه الآية وكفاك، استفد علم هذه الكلمات وقد أغناك، فليس يوقف على حسن الكلام بطوله، ولا تعرف براعته بكثرة فصوله، إن القليل يدل على الكثير، والقريب قد يهجم بك على البعيد. ثم إنه ـ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ـ لما علم من عظم شان هذه المعرفة، وكبر محلها وذهابها على أقوام، ذكر في آخر هذه الآية ما ذكر، وبين ما بين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾(١)، فلا يعلم ما وصفنا لك إلا بهداية من العزيز الحميد. وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(٢)، وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦].

وقد بسطنا لك القول رجاء إفهامك. وهذا المنهاج الذي رأيته إن سلكته يأخذ بيدك، ويدلك على رشدك، ويغنيك عن ذكر براعته آية آية لك.

واعلم أنا لم نقصد فيما سطرناه من الآيات، وسميناه من السور والدلالات، ذكر الأحسن والأكشف والأظهر، لأنا نعتقد في كل سورة ذكرناها أو أضربنا عن ذكرها اعتقادًا واحدًا، في الدلالة على الإعجاز، والكفاية في التمنع والبرهان، ولكن لم يكن بد من ذكر بعض، فذكرنا ما يتسّر، وقلنا فيما اتجه في الحال وخطر، وإن كنا نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر، وفي بعض أدق وأغمض، والكلام في هذا الفصل يجيء بعد هذا، فاحفظ عنا في الجملة ما كررنا، والسير بعد ذلك في التفصيل إليك، وحصل ما أعطيناك من العلامة، ثم النظر عليك.

* * *

قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم إلى قسمين:

---

(١) بعض الآية السابقة.

(٢) بعض الآية السابقة.

أحدهما: ما يتم بنفسه، أو بنفسه وفاصلته، فينير في الكلام، إنارة النجم في الظلام.

والثاني: ما يشتمل على كلمتين أو كلمات، إذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة، وغاية البلاغة، وإنما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثير، أو خطاب طويل، فتراها ما (١) بينها تدل على نفسها، وتعلو على ما قد قرن منها لعلو جنسها، فإذا ضمت إلى أخواتها، وجاءت في ذواتها، أرتك القلائد منظومة، كما كانت تريك عند تأمل الأفراد منها اليواقيت منثورة، والجواهر مبثوثة.

ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر. لأنشدتك ألفاظًا وقعت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه، وكيف ترى بهجتها في أثنائه، وكيف تمتاز منه؟ حتى إنه لو تأمله من لم يقرأ، لتبين أنه أجنبي من الكلام الذي تضمنه، والباب الذي توسطه، وأنكر مكانه، واستكبر موضعه، ثم تناسبها في البلاغة والإبداع، وتماثلها في السلاسة والإغراب، ثم انفرادها بذلك الأسلوب، وتخصصها بذلك الترتيب، ثم سائر ما قدمنا ذكره مما نكره إعادته، وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في مجاريه، ويختل تصرفه في معانيه، ويتفاوت التفاوت الكثير في طرقه، ويضيق به النطاق في مذاهبه، ويرتبك في أطرافه وجوانبه، ويسلمه للتكلف الوحشي كثرة تصرفه، ويحيله على التصنع الظاهر موارد تنقله وتخلصه.

ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفي كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يؤمه ـ على ما وصفه الله ـ تَعَالَى ـ به ـ لا يتفاوت كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولا يخرج عن تشابهه وتماثله، كما قال:

(١) يبدو أن لفظة «ما» زائدة في الكلام لا محل لها.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]. وكما قال: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، ولا يخرج عن إبانته، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وغيره [(١)] من الكلام كثير التلون، دائم التغير، يقف بك على بديع مستحسن، ويعقبه قبيح مستهجن، ويطلع عليك بوجه الحسناء، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي كاللآلئ الزهر. وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهم، قد يقع إليك منه الكلام المثبج [(٢)]، والنظم المشوش، والحديث المشوه، وقد تجد منه ما لا يتناسب ولا يتشابه ولا يتآلف ولا يتماثل، وقد قيل في وصف ما جرى هذا المجرى.

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعي في القريض دخيل

وقال آخر:

وبعض قريض القوم أولاد علة يكد لسان الناطق المتحفظ [(٣)]

فإن قال قائل: فقد نجد في آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة، وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة، وحد يتجاوز حد الألفاظ المستندة، وإن كان الأكثر على ما وصفته به.

قيل له: نحن نعلم أن قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٢٣]، ليس من القبيل الذي يمكن إظهار البراعة فيه، وإبانة الفصاحة، ذاك يجري عندنا مجرى ما يحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه، فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة، بل الذي يعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب، وظهور الحكمة

---

(١) أي غير القرآن المجيد من كلام الشعراء والأدباء.

(٢) المثبج: المعمى غير واضح المعنى.

(٣) أولاد علة؛ أي: أولاد علات. وأولاد العلات. هم الذين آباؤهم واحد، وأمهاتهم شتى فهم الأخوة والأخوات لأب. ويضرب به المثل للأمور المختلفة التي لا تواؤم بينها.

في الترتيب والمعنى [١]، وذلك حاصل في هذه الآيات إن تؤمِّلت. ألا ترى أنه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها، وإدلائها بنفسها، ومكان بعضيتها، فهي أصل لكل من يدلي بنفسه منهن؛ لأنه ليس في ذوات الإنسان أقرب منها، ولما جاء إلى ذوات الأسباب [٢] ألحق لها حكم الأم من الرضاع؛ لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه، فيحصل بذلك أيضًا لها حكم البعضية، فنشر الحرمة بهذا المعنى وألحقها بالوالدة، وذكر الأخوات من

(١) وهذا جانب هام من جوانب الإعجاز في كتاب اللَّه ـ تَبَارَكَ وَـ تَعَالَى ـ. والزعم بأن هذه الآية وما يماثلها ليس فيها إعجاز، وأنها خالية من البلاغة، عارية عن الفصاحة، زعم باطل، وادعاء فاسد، نعجب أشد العجب لصدوره عن المؤلف الذي وقف كتابه، واستنهض همته لبيان إعجاز القرآن.. ولو لم يتوفر الإعجاز في هذه الآية لبطل تحدي القرآن، وثبت معارضة القوم له؛ لأن العلماء متفقون على أن معارضة القرآن تتم بأقصر سورة منه، وهي سورة الكوثر أو ما يماثلها «كمًّا» من الآي. فلو ثبت أن آية في حجم سورة الكوثر خالية من الإعجاز ـ أي يمكن معارضتها ـ لكان القرآن غير معجز، فما بالنا بتلك الآية التي هي قدر سورة الكوثر ست مرات؟

والزعم بأن الآية معجزة من حيث ما اشتملت عليه من الأحكام، وما رتبت من أسماء القرابات، وأن ذلك يقوم مقام الإعجاز اللغوي، وينوب مناب الإعجاز البلاغي، زعم واضح البطلان. ذلكم أن القرآن في تحديه العرب أن يأتوا ولو بسورة من مثله، لم يتحدهم بما في سوره من أحكام؛ لأنهم ما كانوا بارعين في الأحكام حتى يتحداهم فيها، ولكنه تحداهم فيما كانوا بارعين فيه وهي البلاغة والفصاحة..

والمؤلف ـ عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنْهُ ـ «قد كان» بين أمرين لا ثالث لهما؛ إما أن يثبت أن الآية الكريمة، وكل آيات القرآن معجزة بلاغة وفصاحة. وبذلك يكون التحدي قائمًا، والمعارضة ساقطة غير متحققة، وإما أن يذهب إلى ما ذهب إليه من خلو الآية الكريمة وأمثالها من البلاغة والفصاحة، وبذلك يكون قد أبطل التحدي، وأثبت إمكان المعارضة ـ نستغفر اللَّه من ذلك ـ.

وحيث صار الأمر في إطار «قد كان» وقد ذهب المؤلف إلى رحاب الرحمن الرحيم. فنسأل اللَّه ـ تَعَالَى ـ لنا وله العفو والعافية. والرحمة والمغفرة. واللَّه ـ تَعَالَى ـ أعلم.

(٢) يشير إلى أن المحرمات نوعان. محرمات بالنسب، ومحرمات بسبب. ومن المحرمات بسبب: المحرمات بسبب الرضاع.

الرضاعة فنبه بها على كل من يدلي بغيرها، وجعلها تلو الأم من الرضاعة.

والكلام في إظهار حكم هذه الآية وفوائدها يطول، ولم نضع كتابنا لهذا، وسبيل هذا أن نذكره في كتاب «معاني القرآن»، إن سهل الله لنا إملاءه وجمعه. فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تخلف حكمة الإعجاز في النظم والتأليف، والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه الترصيف(١). فقد علم السائل أنه لم يأت بشيء، ولم يهتد للأغراض في دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته، وقد يتفق في الشعر ذكر الأسامي فيحسن موقعه، كقول أبي داود الأسدي:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

بأشدهم كلبا على أعدائه وأعزهم فقدًا على الأصحاب(٢)

وقد يتفق ذكر الأسامي فيفسد النظم ويقبح الوزن.

والآيات الأحكاميات (٣) التي لابد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الألفاظ ما يعتبر في غيرها، وقد يمكن فيها، وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في بابه ما ليس عليه مزيد في البلاغة، وعجيب النظم، ثم في جملة الآيات ما إن لم تراع البديع البليغ في الكلمات الأفراد، والألفاظ الآحاد، فقد تجد ذلك مع

---

(١) أشرنا إلى أن البراعة ـ أو الإعجاز ـ ثابت للآية الكريمة ـ وأمثالها ـ في النظم والتأليف والبراعة في أوجه الترصيف. كما هي ثابتة لها في الحكمة والترتيب وغير ذلك مما أشار إليه المؤلف.

(٢) ثللت: قوضت وهدمت. كلبًا: إيذاء وعداوة.

(٣) يقصد: الآيات التي تشتمل على الأحكام الشرعية.

وها هنا ملحظ لغوي. ذلك أن المؤلف نسب الآيات إلى الأحكام. والأحكام جمع لا ينسب إليه لغة. فإن من قواعد اللغة أن النسب إنما يكون إلى المفرد وليس إلى الجمع. وإذا أردت أن تنسب إلى جمع رددته إلى مفرده فنسبت إليه. فالأحكام ترد إلى مفردها وهو: الحكم، ثم ينسب إلى هذا المفرد، فيقال: الآيات الحكمية.

تركب الكلمتين والثلاث، ويطرد ذلك في الابتداء، والخروج، والفواصل، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة، أو باجتماع ذلك أو في بعض ذلك، وما يخلف الإبداع في أفراد الكلمات، وإن كانت الجملة والمعظم على ما سبق الوصف فيه.

* * *

وإذا عرف ما يجري إليه الكلام، وينهى إليه الخطاب، ويقف عليه الأسلوب، ويختص به القبيل، بان عند أهل الصنعة تميز بابه، وانفراد سبيله، ولم يشك البليغ في انتمائه إلى الجملة التي ينتمي إليها، ولم يَرتَب الأديب البارع في انتسابه إلى ما عرف من نهجه. وهذا كما يعرف طريقه مترسل في رسالته، فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه، فكأنه يرى أنه يعد عليه مجارى حركاته وأنفاسه. وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه، يعرف المتحقق به طبع كل أحد، وسبيل كل شاعر.

* * *

وفي نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها، وتقصيها يطول، وعجائبها لا تنقضي. فمنها الكلام [١] والإشارات، وإذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغًا، ربما زاد الإفهام به على الإيضاح، أو ساوى مواقع التفسير والشرح، مع استيفائه شروطه، كان النهاية في معناه، وذلك كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]، فواصل هذه الآية. وكلماتها على ما شرحناه، من قبل البلاغة واللطف في التقدم، وفي تضمن هذا الأمر العظيم، والمقام الكريم، ويتلو هذه قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]. هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع، وقد

(١) في النسخ كلها مكان هذه الكلمة بياض. فالبعض ملأها ب ـ: الكلام، والبعض: باللفظة. ويغلب لدينا أن يكون مكان البياض الألفاظ. وبذلك تكون العبارة: فمنها الألفاظ والإشارات.

تمثل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره، وموقعه موقع ما لا ينفك منه القول، وقد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض ويظهر عليه التشبيج (١) والتباين، للخلل الواقع في النظم، وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلا ولم يبن عليه تميز الخروج.

ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب إلى ذكر نوح، وكيف أثنى عليه؟ وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها. مع خروجها مخرج البروز من الكلام الأول، إلى ذكره، وإجرائه إلى مدحه بشكره، وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته، وأن يستنوا بسنته، في أن يشكروا كشكره، ولا يتخذوا من دون الله وكيلا، وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان لما حملهم عليه، ونجاهم فيه، حين أهلك من عداهم به، وقد عرفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم، فيما سلط عليهم من قبلهم، وعاقبهم ثم عاد عليهم بالإفضال والإحسان، حتى يتذكروا، ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم، وعلى نوح الذي ولدهم، وهم من ذريته، فلما عادوا إلى جهالتهم، وتمردوا في طغيانهم، عاد عليهم بالتعذيب.

ثم ذكر الله ﷻ في ثلاث آيات بعد ذلك، معنى هذه القصة التي كانت لهم، بكلمات قليلة في العدد، كثيرة الفوائد، لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير، والكلام الطويل؛ ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة، على أعجب تدريج، وأبدع تأريخ، بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، لم ينقطع بذلك الكلام، وأنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله وينتشر مع انتظامه، فكيف بإلقاء ما ليس منه في أثنائه، وطرح ما بعده في أدراجه؟ إلى أن خرج إلى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، يعني إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو، ثم خرج خروجًا آخر إلى ذكر القرآن.

* * *

وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام، وما له من علو الشأن، لا يطلب

(١) التشبيج: التعمية وعدم وضوح المعنى.

مطلبًا إلا انفتح، ولا يسلك قلبًا إلا انشرح، ولا يذهب مذهبًا إلا استنار وأضاء، ولا يضرب مضربًا إلا بلغ فيه السماء، لا تقع منه على فائدة فقدرت أنه أقصى فوائدها إلا قصرت، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها إلا وقد أخلت. إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار أهله، وأحمق من هبنقة (١)، لو كان شعره كله كالأبيات المختارة التي قدمناها لأوجب البراءة من قوله:

وسن كسنيق سناء وسنما ذعرت بمدلاج الهجير نهوض (٢)

قال الأصمعي: لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنم. وقال بعضهم: السنيق أكمة. وقال فيها (٣):

له قصر باعير وساقا نعامة كفحل الهجان القيصري العضوض (٤)

وقوله:

عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلجلة الذباب

وزاد في تقبيح ذلك وقوعه في أبيات فيها (٥):

---

(١) هبنقة: رجل من بني قيس بن ثعلبة. واسمه: يزيد بن ثروان. ويكنى: ذا الوَدَعَات؛ لأنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف. مع طول لحيته. ولما سئل عن هذه القلادة قال: لئلا أضل فلا أعرف نفسي. فسرقها أخوه في ليلة ولبسها، فأصبح فرآها في عنق أخيه. فقال لأخيه: أنت هبنقة. فمن أنا؟ فضرب به المثل في الحمق. وكان يقال عنه: أحمق بني قيس.

(٢) الدالج: الذي يحمل الدلو المملوءة بالماء ويمشي بها من رأس البئر حتى يفرغها في الحوض. والحوض: يسمى مدلج ومدلاج. الهجير والهجيرة والهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس من الظهر أو من العصر.

(٣) الضمير للقصيدة التي قال فيها البيت السابق.

(٤) باعير: أصلها بعير. لكنه أشبع الباء بألف بعدها للوزن. والقصر: أعناق الإبل. الهجان من الأشياء: أجودها وأكرمها. ومن الإبل: البيض الكرام. والعضوض: ما يعض عليه فيؤكل.

(٥) أي في القصيدة التي منها البيت السابق.

فقد طَوَّفْتُ في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
وكل مكارم الأخلاق سارت إليها .همتي ونما اكتسابي (١)

وكقوله في قصيدة قالها في نهاية السقوط:

أزمان فوها كلما نبهتها كالمسك فاح وظل في الفدام (٢)
أفلا ترى أظعانهن بواكرًا كالنخل من شوكان حين صرام (٣)
وكأن شاربها أصاب لسانه موم يخالط جسمه بسقام (٤)

وكقوله:

لم يفعلوا فعل آل حنظلة أنهم جَيْر بئسما ائتمروا (٥)
لا حِمْيَريٌ وَفِيٌ ولا عدس ولا اسْتَ عَيْر يحكها الثفر (٦)
أن بني عوف ابتنوا حسبًا ضيعه الداخلون إذ غدروا

وكقوله:

أبلغ شهابًا بل فأبلغ عاصمًا هل قد أتاك الخُبَرُ مال (٧)

---

(١) أي فيها هذان البيتان الجيدان صنعة ومعنى.
(٢) فوها: فمها. وكذلك: الفاه، والفوه، والفيه، والفوهة: الفم.
الفدام: المصفاة من ليف أو غيره توضع في فم الإناء ليصفى بها ما يصب فيه.
(٣) أظعان: جمع ظعينة. وهي المرأة ما دامت في الهودج. وكذلك الهودج سواء كان فيه ظعينة أم لا، شوكان: اسم مكان. صرام: جنى البلح من النخل وقطعه.
(٤) الموم: الشمع. وهو أيضًا: أشد أنواع الجدري خطورة.
(٥) جير: بكسر الراء وقد تنون: بمعنى القسم، وبمعنى: حقا. فيقال: جير لا أفعل كذا: أي يمين أو قسم لا أفعله، أو حقًّا لا أفعله. وهي أيضًا بمعنى: نعم.
(٦) است عير: مؤخرة الحمار: دبره. الثفر: السير في مؤخرة السرج يدار على مؤخرة الحمار أو الحصان.
(٧) الخبر: الخبر. مال: مرخم: مالك.

أنا تركنا منكم قتلى بخو عى، وسبايا كالسعالي [١]
يمشين بين رحالنا معترفات ما بجوع وهزال

ولم يقع مثل ذلك له وحده فقد قال الأعشى [٢]:

فأدخلك الله برد الجنان جذلان في مدخل طيب [٣]

وقال أيضًا:

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها [٤]

وقال في فرسه:

ويأمر لليحموم كل عشية بقت وتعليق فقد كاد يسنق [٥]

وقال:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول [٦]

(١) خوعى: اسم مكان، السعالي: جمع سعلاة. وهي: الغول أو ساحرة الجن.
(٢) الأعشى: هو ميمون بن قيس، من بني ثعلبة. من فحول شعراء الجاهلية. سبق التعريف به.
(٣) الجذل: الفرح الشديد والسعادة الغامرة.
(٤) غفلة عينه: أي وقت كانت عينه غافلة عن زوجه. شاته: زوجه أو المرأة التي كانت معه. حبة قلبها وطحالها: كناية عن أنه أوقع المرأة في إساره.
(٥) اليحموم: الشديد الحرارة. وفي التنزيل الشريف قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣ ـ ٤٤]. واليحموم أيضًا: الأسود من كل شيء والدخان الأسود الحار، وضرب من الحمام صغير الحجم سريع الطيران. ولعل الشاعر سمى فرسه: اليحموم تشبيهًا له بالدخان أو الحمام لسرعته.. القت: نوع من النباتات العشبية الكلئية بعضها يزرع وبعضها برى، ترعاه الخيل والإبل وغيرها. تعليق: نوع من أشجار يسمى العلقى تدوم خضرته تأكله الماشية. يَسْنَق: يتخم من كثرة الأكل. سنق من الطعام والشراب: بشم وأتخم.
(٦) الحانوت: ماخور الخمار. والشاوي: الذي يقوم على الشواء من اللحم وغيره. المشل: سائق الدواب وغيرها. يقال: شل الدابة: ساقها. والشلول، والشلشل، والشول: كلها بمعنى: السريع الخفيف النشيط في عمله.

وهذه الألفاظ في معنى واحد، وقد وقع لزهير (١) نحوه، كقوله:

فأقسمت جهدًا بالمنازل من مني وما سفحت فيه المقادم والقمل (٢)

كيف يقال هذا في قصيدة يقول فيها:

وهل ينبت الخَطِّيَّ إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل (٣)

وكقول الطرماح (٤):

سوف تدنيك من لميس سبنتا ة أمارت بالبول ماء الكراض (٥)

السبنتاة: الناقة الصلبة، والكراض: ماء الفحل. أسالت ماء الفحل مع البول فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف، والمائر: السائل.

* * *

فإن قال قائل: أجدك تحاملت على امرئ القيس، ورأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشراسة، وبين اللطف والشكاسة، وبين التوحش والاستئناس، والتقارب والتباعد، ورأيت الكلام الأعدل أفضل، والنظام المستوثق أكمل، وأنت تجد البحتري يسبق في هذا الميدان، ويفوت الغاية في هذا الشأن، وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام، ويقدمون رأيه في البلاغة على كل رأي، وكذلك تجد لأبي نواس من بهجة اللفظ، ودقيق المعنى، ما يتحير فيه أهل

(١) زهير: زهير بن أبي سلمى، من الطبقة الأولى لشعراء الجاهلية الفحول. سبق التعريف بـه.

(٢) المنازل من مني: الأماكن المقدسة التي ينزل فيها الحجيج. سفحت: أريقت. المقادم: ما استقبلك من الوجه: العين والأنف وكل أساريره.

(٣) الخَطِّي: الرماح المنسوبة إلى بلدة اشتهرت بصنعها. الوشيج: ما نبت من القنا أو القصب ملتفا. واحدته: وشيجة.

(٤) الطِرِّماح: هو الطرماح بن حكيم من طيء. كان جيد الشعر رصينه. وكان دينا يرى رأي الخوارج الشراة. وكان إلى ذلك خطيبًا راوية.

(٥) لميس: اسم امرأته.

ويقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره، وإنما يقع بينهم التباين اليسير، والتفاوت القليل، فأما أن يظن ظان أو يتوهم متوهم، أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]؛ وإنما هي [١] خواطر، يغير بعضها على بعض، ويقتدي فيها بعض ببعض، والغرض الذي يرمي إليه، ويصح التوافي عليه في الجملة، فهو قبيل متداول، وجنس متنازع، وشريعة مورودة، وطريقة مسلوكة.

ألا ترى إلى ما روي عن الحسين بن الضحاك [٢]، قال: أنشدت أبا نواس قصيدتي التي فيها:

وشاطريّ اللسان مختلف التكريـ ٥ زان المجـون بـالـنـسـك
كأنه - نُصْبَ كأسه - قمر يكرع في بعض أنجم الفلك [٣]

قال: فأنشدني أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها:

أعاذل أعتبت الإمام واعتبا وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقلت لساقيها: أجزها فلم أكن ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عني عقارًا ترى لها إلى الشرف الأعلى شعاعًا مطنبا
إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا[٤]

(١) الضمير للشعر. فهو خواطر. وإنما جعل الضمير مؤنثا نظرا إلى لفظة: «خواطر».
(٢) الحسين بن الضحاك: أبو علي الحسين بن الضحاك بن ياسر الشاعر البصري المعروف «بالخليع» لشدة خلاعته وخباثته ومجونه. توفي ٢٥٠ هـ عن قريب من مئة سنة.
(٣) شاطري اللسان: خبيث اللسان سريع البديهة في الكلام الماجن الخليع.
(٤) لساقيها: أي الخمر. أجزها: اتركني وأعطها غيري، أمير المؤمنين: هو الأمين. مطنبا: كثيرًا ومنتشرًا.
والبيتان الأخيران يكذبان الشاعر الماجن في بيتيه الأولين. حيث ذكر أنه كان في ضميره أن يترك الخمر حتى قبل أن ينهاه أمير المؤمنين ويعذله عاذله. لكنه في البيتين الأخيرين تغزل في الخمر تغزل كلف بها عاشق لها لا سبيل له إلى تركها.

قال: فقلت له: يا أبا علي هذه مصالتة، فقال: أتظن أنه يُروى لك معنى وأنا حي؟

فتأمل هذا الأخذ، وهذا الوضع، وهذا الاتباع، أما الخليع فقد رأى الإبداع في المعنى، فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنه؛ لأن قوله: «يكرع» ليس بصحيح وفيه ثقل بيّنٌ وتفاوت، وفيه إحالة؛ لأن القمر لا يصح تصور أن يكرع في نجم، وأما قول أبي نواس: «إذا عب فيها» فكلمة قد قصد فيها المتانة، وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب، ولو فعل ذلك كان أملح، وقوله: «شارب القوم» فيه ضرب من التكلف، الذي لابد له منه، أو من مثله، لإقامة الوزن، ثم قوله: «خلته يقبل في داج من الليل كوكبا» تشبيه بحالة واحدة من أحواله، وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك، وإنما يتناوله ليلا، فليس بتشبيه مستوفى، على ما فيه من الوقوع والملاحة.

وقد قال ابن الرومي [1] ما هو أوقع منه وأملح وأبدع:

ومهفهف تمت محاسنه ... حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكئوس إلى مراشفه ... وتحن في يده إلى الحبس
أبصرته والكأس بين فمٍ ... منه وبين أناملٍ خمسِ
وكأنها وكأن شاربها ... قمر يقبل عارض الشمس [2]

ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب، إلا أنه تمكن من إيراده في بيتين، وهما ـ مع سبقهما إلى المعنى ـ أتيا به في بيت واحد.

* * *

وإنما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة، يقع فيها التنافس

---

(١) ابن الرومي: شاعر مطبوع مجيد رثاء وصاف.

(٢) المهفهف: الضامر البطن الدقيق الخصر. مراشفه: شفاهه. الحبس: تحن الكأس إلى أن تظل بين أنامله أكبر مدة. عارض الشمس: جانبها.

والتعارض، والأطماع متعلقة بها، والهمم تسمو إليها، وهي إلف طباعنا، وطوع مداركنا، ومجانس لكلامنا، وإعجاب قوم بنحو هذا وما يجرى مجراه، وإيثار أقوام لشعر البحتري على أبي تمام (١) وعبد الصمد (٢) وابن الرومي، وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه، وذهاب قوم عن المعرفة، ليس بأمر يَضُرُّ بنا ولا سبب يعترض على أفهامنا.

* * *

(١) أبو تمام. حبيب بن أوس بن قيس من بني طيء، شاعر عباسي فحل، سريع البديهة جيد التخلص. توفي سنة إحدى وثلاثين ومئتين.

(٢) عبد الصمد: شاعر عباسي مجيد، توفي سنة ست ومئتين.

نقد لامية البحتري[١]

ونحن نعمد إلى بعض قصائد البحتري، فنتكلم عليها، كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة، ويستخلص من سر المعرفة سريرة، ويعلم كيف تكون الموازنة، وكيف تقع الموازنة، وكيف تقع المشابهة والمقاربة، ونجعل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره.

سمعت الصاحب إسماعيل بن عباد[٢] يقول: سمعت أبا الفضل ابن العميد[٣] يقول: سمعت أبا مسلم الرستمي يقول: سمعت البحتري يذكر أن أجود شعر قاله:

أهلًا بذلكم الخيال المقبل

قال: وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول: أجود شعره هو قوله في الشيب:

زجر له لو كان ينزجر

قال: وسئلت عن ذلك فقلت: البحتري أعرف بشعر نفسه من غيره.

فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثل هذا.

---

(١) البحتري: الوليد بن يحيى بن عبيد بن شملان..ابن بحتر الطائي شاعر من شعراء العباسيين المجيدين. توفي سنة أربع وثمانين ومئتين.

(٢) الصاحب بن عباد: هو إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطَّالَقَاني أبو القاسم الوزير الملقب بالصاحب كافي الكفاة. ولد في سنة أربع وعشرين وثلاثمئة، وأخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد، ولي الوزارة ثماني عشرة سنة وشهرًا لمؤيد الدولة ابن ركن الدين بن بويه ولأخيه فخر الدولة. وسمي «الصاحب»؛ لأنه صحب مؤيد الدولة من صغره وسماه الصاحب فغلب عليه. له مصنفات كثيرة أهمها: «المحيط باللغة». عشرة مجلدات. و«جوهرة الجمهرة»، وله ديوان شعره. توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمئة من الهجرة.

(٣) ابن العميد: كاتب مشهور في الدولة العباسية. كان صاحب الصنعة في الكتابة. وعنه أخذ الكثيرون طريقته. توفي سنة ستين وثلاثمئة.

قوله:

أهلا بذلكم الخيالِ المقبلِ فعل الذي نهواه أو لم يفعل
بَرْقٌ سَرَى في بطن وجرة فاهتدَتْ بسناه أعناقُ الركابِ الضللِ(١)

البيت الأول: في قوله: «ذلكم الخيال» ثقل روح وتطويل وحشو، وغيره أصلح له. وأخف منه قوله الصنوبري:

أهلا بذاك الزَّوْرِ من زوْرِ شمس بدت في فلك الدور(٢)

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف، فيصير إلى الكزازة، وتعود ملاحته بذلك ملوحة، وفصاحته عيًا، وبراعته تكلُّفًا، وسلاسته تعسُّفًا، وملاسته تلوِّيًا وتعقُّدًا، فهذا فصل. وفيه شيء آخر، وهو أن هذا الخطاب إنما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال إقباله، فأما أن يحكي الحال التي كانت وسلفت على هذه العيادة، ففيه عهدة(٣)، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى عقدة، وهو ـ لبراعته وحذقه في هذه الصنعة ـ يعلق نحو هذا الكلام، ولا ينظر في عواقبه؛ لأن ملاحة قوله تغطي على عيون الناظرين في نحو هذه الأمور، ثم قوله: «فعل الذي نهواه أو لم يفعل»، ليست بكلمة رشيقة، ولا لفظة ظريفة، وإن كانت كسائر الكلام.

فأما بيته الثاني: فهو عظيم الموقع في البهجة، وبديع المأخذ حسن الرواء، أنيق المنظر والمسمع، يملأ القلب والفهم، ويفرح الخاطر، وترى بشاشته في العروق. وكان البحتري يسمي نحو هذه الأبيات عروق الذهب، وفي نحوه ما يدل على براعته في الصناعة، وحذقه في البلاغة، ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل، مع الديباجة الحسنة، والرونق المليح. وذلك أنه جعل الخيال كالبرق،

---

(١) وجرة: اسم موضع. بطنه: المكان الخفيض منه.
(٢) الزور: الزوار.
(٣) فيه عهدة: أي عيب ونقص. يقال: فيه عهدة لم تحكم: عيب لم يعالج.

لإشراقه في مسراه، كما يقال: إنه يسري كنسيم الصبا فيطيب ما مر به، كذلك يضيء ما مرَّ حوله، وينور ما مرَّ به. وهذا غلو في الصنعة، إلا أن ذكره «بطن وجرة» حشو، وفي ذكره خلل؛ لأن النور القليل يؤثر في بطون الأرض وما اطمأن منها، بخلاف ما يؤثر في غيرها، فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك ببطن وجرة. وتحديده المكان على الحشو أحمد من تحديد امرئ القيس من ذكر سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة، لم يقنع بذكر حدّ حتى حَدَّه بأربعة حدود، كأنه يريد بيع المنزل، فيخشى - إن أخلَّ بحد - أن يكون بيعه فاسدًا، أو شرطه باطلًا[(١)]. فهذا باب.

ثم إنما يذكر الخيال بخفاء الأثر، ودقة المطلب، ولطف المسلك، وهذا الذي ذكر يضاد هذا الوجه، ويخالف ما يوضع عليه أصل الباب. ولا يجوز أن يقدر مقدر أن البحتري قطع الكلام الأول، وابتدأ بذكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة؛ لأن هذا القطع إن كان فعله كان خارجًا به عن النظم المحمود ولم يكن مبدعًا ثم كان، لا تكون فيه فائدة؛ لأن كل برق شعل وتكرر وقع الاهتداء به في الظلام، وكان لا يكون بما نظمه مفيدًا ولا متقدِّمًا، وهو على ما كان من مقصده، فهو ذو لفظ محمود، ومعنى مستحب غير مقصود، ويعلم بمثله أنه طلب العبارات، وتعليق القول بالإشارات، وهذا من الشعر: الجنس الذي يحلو لفظه، وتقل فوائده، كقول القائل[(٢)]:

ولما قضينا من مِنَى كل حاجة ومسح بالأركان مَن هو ماسحُ
وشدت على حدب المهارى رِحَالُنَا ولا ينظر الغادي الذي هو رائحُ

---

(١) تصوير تهكمي من المؤلف في غاية الإحكام والبراعة، وأيضًا فيها ظرف وطرافة لم تعهد من أمثال المؤلف الجادين المتشددين.

(٢) القائل هو: كثير الشاعر الأموي المجيد/ سبق التعريف به.

أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح(١)

هذه الألفاظ بعيدة المطالع والمقاطع، حلوة المجاني والمواقع، قليلة المعاني والفوائد(٢)

فأما قول البحتري بعد ذلك:

من غادة منعت وتمنع نيلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل

كالبدر غير مخبل، والغصن غير مميل، والدعص غير مهيل(٣)

فالبيت الأول: على ما تكلَّف فيه من المطابقة، وتجشُّم الصنعة، ألفاظه أوفر من معانيه، وكلماته أكثر من فوائده، وتعلم أن القصد وضع العبرات في مثله، ولو قال: هي ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله، وتكثيره الكلام وتهويله، ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان.

وأما البيت الثاني: فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدعص أمر منقول متداول، ولا فضيلة في التشبيه بنحو ذلك، وإنما يبقى تشبيهه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء في البيت، وهذا أيضًا قريب؛ لأن المعنى مكرر، ويبقى له بعد ذلك شيء

---

(١) حدب المهاري: أي على ظهرها؛ لأن ظهر الإبل أحدب بسبب سنامه.
المهاري: جمع مَهْريَّة. وهي الإبل الجيدة نسبة إلى حي يسمى: مهرة بن حمدان.

(٢) لسنا مع المؤلف الفاضل في أن الأبيات السابقة قليلة المعاني والفوائد، فالبيت الأخير من أجمل أبيات الشعر العربي تصويرًا ومعاني. فقد صور الشاعر حالهم بعد التعب الشديد وانشغال كل منهم بنفسه عن الآخرين أثناء أداء النسك. وفراغهم من عناء المشاعر، بركوبهم جماعات، وأخذهم بأطراف الأحاديث: أي بالأحاديث ذات الطرافة والظرف. وقد تقاطرت الإبل في تتابع بأعدادها الكبيرة فملأت المسيل الواسع الذي انطلقت فيه كأنها مياه سال بها الوادي. ومن المجمع عليه عند علماء اللغة أن الشطر الثاني من البيت الأخير من أجمل الصور الفنية الجميلة في الشعر العربي.

(٣) غير مخبل: غير منقوص، مكتمل. والدعص: كثيب من الرمل مستدير. غير مهيل: متماسك وثابت في مكانه.

آخر، وهو تعمله للترصيع في البيت كله، إلا أن هذه الاستثناءات فيها ضَرْبٌ من التكلُّف؛ لأن التشبيه بالغصن كاف، فإذا زاد فقال: كالغصن غير معوج، كان ذلك من باب التكلف خللًا، وكان ذلك زيادة يستغنى عنها، وكذلك قوله «كالدعص غير مهيل»؛ لأنه إذا انهال خرج عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفًا إليه، فلا يكون لتقييده معنى.

وأما قوله:

ما الحسنُ عندك يا سعاد بمحسن فيما أتاه ولا الجمالُ بمجملِ

عُذِلَ المشوق، وإن من سيما الهوى في حيث تجهله لجاج العذلِ[1]

قوله في البيت الأول: «عندك»، حشو، وليس بواقع ولا بديع، وفيه كلفة والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء، وفيه شيء آخر؛ لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهييج وجده وتهييم قلبه، وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب. وبيت كشاجم[2] أسلم من هذا وأبعد من الخلل، وهو قوله:

بحياة حسنك أحسني، وبحق مَنْ جعل الجمال عليك وقفًا أجملي

وأما البيت الثاني فإن قوله: «في حيث» حشا بقوله في كلامه، ووقع ذلك مستنكرًا وحشيًّا، نافرًا عن طبعه، جافيًا في وضعه، فهو كرقعة من جلد في ديباج حسنٍ، فهو يمحو حسنه، ويأتي على جماله، ثم في المعنى شيء؛ لأن لجاج العذل لا يدلّ على هوى مجهول، ولو كان مجهولًا لم يهتدوا للعذل عليه، فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعاني، ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن في البيت معنى بديع، ولا شيء يفوت قول الشعراء في العذل، فإن ذلك جملهم الذلول، وقولهم المكرر.

---

(١) عذِل المشوق: أي عاتبه ولامه الناس. سيما: علامة وخصيصة. لجاج العذل: لوم العاذلين.

(٢) كشاجم: شاعر من شعراء العباسيين المشاهير

وأما قوله:

ماذا عليك من انتظارِ متيَّمِ بل ما يضرك وقفةً في منزلِ
إن سيل عيٌّ عن الجواب فلم يُطِقْ رجعًا فكيف يكون إن لم يسأل(١)

لست أنكر حسن البيتين، وظرفهما، ورشاقتهما ولطفهما، وماءَهما وبهجتهما، إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضربًا من الانقطاع؛ لأنه لم يجر لمشافهة العاذل ذكر، وإنما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائم، ثم الذي ذكره من الانتظار، وإن كان مليحًا في اللفظ، فهو في المعنى متكلف؛ لأن الواقف في الدار لا ينتظر أمرًا، وإنما يقف تحسرًا وتذللا وتحيُّرًا. والشطر الأخير من البيت واقع، والأول مستجلب، وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر؛ لأن وضع البيت يقتضي تقدُّم عَذْلٍ على الوقوف، ولم يحصل ذلك مذكورًا في شعره من قبل، وأما البيت الثاني فإنه معلَّق بالأول لا يستقل إلا به، وهم يعيبون وقوف البيت على غيره، ويرون أن البيت التام هو المحمود، والمصراع التام بنفسه ـ بحيث لا يقف على المصراع الآخر ـ أفضل وأتم وأحسن. وقوله: «فكيف يكون إن لم يسأل» مليح جدًّا، ولا تستمر ملاحة ما قبله عليه، ولا يطرد فيه الماء اطراده فيه، وفيه شيء آخر؛ لأنه لا يصلح أن يكون السؤال سببًا؛ لأن يعيا عن الجواب، وظاهر القول يقتضيه.

فأما قوله:

لا تكلفن لي الدموع فإن لي دمعًا ينم عليه إن لم يفضل
ولقد سكنت إلى الصدود من النوى والشريُ أرىٌ عند طعم الحنظل

---

(١) سِيلَ: سُئِلَ وخففت الهمزة فصارت ياءً، وكسرت السين لمناسبة الياء. عَيّ: عجز. من العي وهو العجز عن الكلام. فلم يطق رجعًا: أي لم يستطع الإجابة.

وكذلك طرفة(١) حين أوجس ضربة   في الرأس هان عليه فصد الأكحل(٢)

فالبيت الأول مخالف لما عليه مذهبهم، في طلب الإسعاد بالدموع، والإسعاف بالبكاء. ومخالف لأول كلامه؛ لأنه يفيد مخاطبة العذل، وهذا يفيد مخاطبة الرفيق.

وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها، دون ضبط المعاني وترتيبها؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦]، فأخبر أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم، واللفظ كيف أطاعهم، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم، وذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن، فصار بهذا أبلغ خطابهم، ثم لو أن هذا البيت وما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن في ذلك شيء يفوت شعر شاعر، أو كلام متكلم. وأما قوله: «والشري أري»، فإنه وإن كان قد تصنع له من جهة الطباق، ومن جهة التجنيس المقارب، فهي كلمة ثقيلة على اللسان، وهم يذمون نحو هذا، كما عابوا على أبي تمام قوله:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى   معي ومتى ما لمته لمته وحدي(٣)

ذكر لي الصاحب بن عباد(٤) أنه جارى أبا الفضل بن العميد في محاسن القصيدة، حتى انتهى إلى هذا البيت، فذكر له أن قوله: «أمدحه أمدحه» معيب، لثقله من جهة تدارك حروف الحلق، ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا في

---

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. من الفحول المجيدين. سبق التعريف به.

(٢) لا تكلفن: لا تتكلف البكاء. ينم عليه: يماثله ويدل عليه. الصدود: الهجر. النَّوى: البعد. الشري: الحنظل،وفسائل النخل تنبت عن النواة، والمراد الأول. الأريُ: العسل، يقال: أَرَى النحلُ أَرْيًا: صنع العسل. والأَرْي أيضًا: الندىٰ يسقط على أوراق الشجر، وما التصق بجوانب القدور من الطعام، والمراد المعنى الأول. الأكحل: وريد في وسط الذراع يفصد ويحقن فيه الدواء.

(٣) الورى: الخلق كافة.   (٤) الصاحب بن عباد: كاتب ووزير مشهور. تقدم التعريف به.

هذه النكتة، فعلمت أن ذلك شيء عند أهل الصنعة معروف. ثم أن قوله: «عند أكل الحنظل» ليس بحسن ولا واقع. وأما البيت الثالث فهو أجنبي من كلامه غريب في طباعه، نافر من جملة شعره، وفيه كزازة وفجاجة[1] وإن كان المعنى صالحاً.

فأما قوله:

وأغر في الزمن البهيم محجل قد رحت منه على أغر محجل

كالهيكل المبني إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل[2]

فالبيت الأول لم يتفق له فيه خروج حسن، بل هو مقطوع عما سلف من الكلام، وعامة خروجه نحو هذا، وهو غير بارع في هذا الباب وهذا مذموم معيب منه. لأن من كان صناعته الشعر، وهو يأكل به، وتغافل عما يرفع إليه في كل قصيدة، واستهان بإحكامه وتجويده، مع تتبعه لأن يكون عامة ما يُصدِّر به أشعاره من النسيب عشرة أبيات، وتتبعه للصنعة الكثيرة وتركيب العبارات وتنقيح الألفاظ وتزويرها، كان ذلك أدخل في عيبه، وأدل على تقصيره أو قصوره، وأنه لا يقع له الخروج منه.

وأما قوله: «وأغر في الزمن البهيم محجل»، فإن ذكر التحجيل في الممدوح قريب، وليس بالجيد، وقد يمكن أن يقال: إنه إذا قرن بالأغر حسن، وجرى مجراه، وانخرط في سلكه، وأهوى إلى مضماره، ولم ينكر لمكانه من جواره، فهذا عذر، والعدول عنه أحسن. وإنما أراد أن يرد العجز على الصدر، ويأتي بوجه

---

(١) الكُزَازة والكُزَاز: تشنج وانقباض في العضلات. والمراد ما يسببه من امتعاض وتقزز. والفجاجة: عدم النضج. والفج: غير النضيج من الفواكه. وهو يصيب الإنسان الذي يأكله بمثل ما تصيبه الكزازة.

(٢) الأغر: الفرس الذي في جبهته بياض. والبهيم: ذو اللون الواحد الذي لا يخالطه لون آخر. ويغلب في الرمادي والأسود. والمحجل: الفرس غير الأبيض الذي في قوائمه بياض. والهيكل: الفرس القوي عظيم الجسم. وكذلك معبد النصارى أو متوجَّه صلاتهم داخل المعبد أو الكنيسة.

التجنيس. وفيه شيء؛ لأن ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطيًا الأغر الأول، ورائحًا عليه، ولو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء، وأقاويل الناس، فأما ذكر الهيكل في البيت الثاني، ورده عجز البيت عليه، وظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة، وعمل شيئًا حتى كررها، فهي كلمة فيها ثقل، ونحن نجدهم إذا أرادوا أن يصنعوا نحو هذا قالوا: ما هو إلا صورة، وما هو إلا تمثال، وما هو إلا دمية، وما هو إلا ظبية، ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان، وقد استدرك هو أيضًا على نفسه فذكر أنه كصورة في هيكل، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل، كان أولى وأجمل. ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين(١) لراعوهم بها، وأفزعوهم بذكرها، وذلك من كلامهم وشبيه بصناعتهم.

وأما قوله:

وافي الضلوع يشد عَقْدَ حزامه يوم اللقاء على مُعمٍّ مُخْوِلِ

أخوالُه للرستمين بفارس وجدوده للتُّبَّعَيْنِ بموكل(٢)

نبل المحزم(٣) مما يمدح به الخيل فهو لم يأت فيه ببديع، وقوله: «يشد عقد حزامه» داخل في التكلف والتعسف، لا يقبل من مثله، وإن قبلناه من غيره؛ لأنه

(١) يقصد السحرة ومؤاخي الجن الذين يستحضرون الجن أو الشياطين بكلمات وألفاظ يكررونها بهيئات معينة يزعمون أنها تجلب جنهم وشياطينهم. ويطلقون على هذه الألفاظ والعبارات مصطلح: عزيمة، وجمعها: عزائم وضد هذه العزائم ما يسمى: تعويذة. وهي كلمات وعبارات تحفظ الناس من شر هؤلاء الذين يؤاخون الجن ويسخرون الشياطين. من هذا قيل: التعاويذ تبطل العزائم. أي تبطل تأثيرها.

(٢) وافي الضلوع: سويها كاملها. معم مخول: كريم الأعمام كريم الأخوال. صاحب نسب وصاحب حسب. للرستمين: مثنى رستم القائم الفارسي الشهير. والتبعين: تثنية تبع ملك حمير.

(٣) المحزم: مكان شد الحزام من الدابة، ولكنه في الممدوح كناية عما يعتمد عليه من أصل عريق بينه الشاعر في البيت الثاني.

يتتبع الألفاظ، وينقدها نقدًا شديدًا. فهلا قال: «يشد حزامه»، أو يأتي بحشو آخر سوى العقد، فقد عقَّد هذا البيت بذكر العقد. ثم قوله: «يوم اللقاء» حشو آخر لا يحتاج إليه.

وأما البيت الثاني فمعناه أصلح من ألفاظه، لأنها غير مجانسة لطباعه، وفيها غلظ ونفار.

وأما قوله:

يهوى كما تهوى العقاب وقد رأت صيدًا وينقض انقضاض الأجدل

متوجسٌ برقيقتين كأنما تريان من ورق عليه موصل

ما إن يعاف قذًى ولو أوردته يومًا خلائق حمدويه الأحول[1]

البيت الأول صالح، وقد قاله الناس ولم يسبق إليه ولم يقل ما لم يقولوه، بل هو منقول، وفي سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها، وقد يقولون: يفوت الطرف ويسبق الريح، ويجاري الوهم، ويكر النظر. ولولا أن الإتيان على محاسن ما قالوه في ذلك يخرج الكلام عن غرض الكتاب لنقلت لك جملة مما ذهبوا إليه في هذا المعنى، فتتبع تعلم أنه لم يأت فيها بما يجل عن الوصف، أو يفوت منتهى الحد، على أن الهوى يذكر عند الانقضاض خاصة، وليس للفرس هذه الصفة في الحقيقة، إلا أن يشبه حده في العدو بحالة انقضاض البازي والعقاب، وليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيرانها.

وأما البيت الثاني فقوله: إن الأذنين كأنهما من ورق موصل، وإنما أراد بذلك حدتهما، وسرعة حركتهما، وإحساسهما بالصوت، كما يحس الورق بحفيف الريح، وظاهر التشبيه غير واقع، وإذا ضمن ما ذكرنا من المعنى كان المعنى حسنًا،

---

(١) العقاب: من كواسر الطير قوي المخالب حاد البصر. وفي المثل: «أبصر من عقاب». ولفظه للمذكر والأنثى. الأجدل: الصقر. رقيقتين: أذنين. القذى: ما يسقط من الغبار وخلافه فيفسد الماء، ويؤذي العين.

ولكن لا يدل عليه اللفظ، وإنما يجري مجرى المضمن، وليس هذا البيت برائق اللفظ، ولا مشاكل فيه لطبعه، غير قوله: «متوجس برقيقتين»، فإن هذا القدر هو حسن.

وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب الاستطراد، ونقلنا نظائر ذلك من قول أبي تمام وغيره، وقطعة أبي تمام في نهاية الحسن في هذا المعنى، والذي وقع للبحتري في هذا البيت عندي ليس بجيد في لفظ ولا معنى، وهو بيت وَحِشٌ جدًّا قد صار قذًى في عين هذه القصيدة، بل وخزًا فيها، ووبالا عليها، قد كدر صفاءها، وأذهب بهاءها وماءها، وطمس بظلمته سناها، وأما وجه مدح الفرس بأنه لا يعاف قذًى من المياه إذا وردها؛ كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار[1] في قوله:

ولا يشرب الماء إلا بدم

وإذا كان لهذا الباب مجانبًا وعن هذا السمت بعيدًا، فهلا وصفها بعزة الشرب؛ كما وصفها المتنبي في قوله:

وصولٌ إلى المستصعبات بخيله فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا[2]

يقول الشاعر: لو كان الماء عند قرن الشمس لأورد خيله ذلك الماء.

وهلا سلك فيه مسلك القائل:

وإني للماء الذي شابه القذى إذا كثرت وُرَّادُهُ لعيوف[3]

ثم قوله: «ولو أوردته يومًا» حشو بارد، ثم قوله: «حمدويه الأحول» وَحِشٌ

(١) بشار بن برد: شاعر أعمى مطبوع. كان مولى من الموالي. وكان يُرمى بالزندقة. وهو من فحول الشعراء. سبقت الإشارة إليه.

(٢) المستصعبات: الأماكن الصعبة الوصول إليها. قرن الشمس: أول ما يظهر منها عند الشروق، وآخر ما يغيب منها لدى الغروب، لكن الشائع استعمال ذلك عند الشروق. من ذلك قولهم: ذر قرن الشمس.

(٣) شابه: خالطه ومازجه. عيوف: كاره له منصرف عنه.

جدًّا، فما أمقت هذا البيت وأبغضه، وما أثقله وأسخفه، وإنما غطى على عينه عيبه، وزين له إيراده طمعه في الاستطراد، وهلا طمع فيه على وجه لا يغض من بهجة كلامه، ولا معنى ألفاظه، فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذر.

فأما قوله:

ذنب كما سحب الرداء يذب عن عرف، وعرف كالقناع المسبل
تتوهم الجوزاء في أرساغه والبدر فوق جبينه المتهلل[1]

فالبيت الأول: وحش الابتداء، منقطع عما سبق من الكلام، وقد ذكرنا أنه لا يهتدي لوصل الكلام ونظام بعضه إلى بعض، وإنما يتصنع لغير هذا الوجه، وكان يحتاج أن يقول: ذنب كالرداء، فقد حذف والوصل غير متسق ولا مليح، وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ولا يذهب عن مثله. ثم قوله: «كما سحب الرداء» قبيح في تحقيق التشبيه، وليس بواقع ولا مستقيم في العبارة، إلا على إضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء. وقوله: «يذب عن عرف» ليس بحسن ولا صادق، والمحمود ما ذكره امرؤ القيس، وهو قوله:

فويق الأرض ليس بأعزل[2]

وأما قوله: «تتوهم الجوزاء في أرساغه» فهو تشبيه مليح، ولكنه لم يسبق إليه، ولا انفرد به، ولو نسخت لك ما قاله الشعراء في تشبيه الغرة بالهلال والبدر والنجم، وغير ذلك من الأمور، وتشبيه الحجول، لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها، وأمور مليحة قد ذهبوا إليها وليس ذلك موضع كلامنا، فتتبع ذلك في أشعارهم تعلم ما وصفت لك.

* * *

---

(١) الذنب: الذيل. والعرف: ما يسنم عنق الفرس من الشعر. القناع المسيل: الخمار المرخي. الجوزاء: نجم وبرج من بروج الفلك. أرساغه: جمع رسغ وهو موصل الحافر بما فوقه من رجل الفرس ويده.

(٢) فويق: تصغير فوق. الأعزل من الدواب: ما كان ذنبه مائلًا إلى أحد الجانبين.

واعلم أنا تركنا بقية كلامه في وصف الفرس؛ لأنه ذكر عشرين بيتًا في ذلك، والذي ذكرناه في هذا المعنى يدل على ما بعده، ولا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطًا إلى حد لا يفوت طريقة الشعراء.

ولو تتبعت أقاويل الشعراء في وصف الخيل، علمت أنه وإن جمع فأوعى، وحشر فنادى، ففيهم من سبقه في ميدانه، ومنهم من ساواه في شأوه، ومنهم من داناه، فالقبيل واحد، والنسيج متشاكل، ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم في ذلك، لتقف على ما قلت.

فتجاوزنا إلى الكلام على ما قاله في المدح في هذه القصيدة.

قال:

لمحمد بن علي الشرف الذي ... لا يلحظ الجوزاء إلا من عل

وسحابة لولا تتابع مزنها ... فينا لراح المزن غير مبخل

والجود يعذله عليه حاتم ... سرفًا ولا جود لمن لم يعذل(١)

البيت الأول منقطع عما قبله، على ما وصفنا به شعره من قطعه المعاني، وفصله بينها، وقلة تأتِّيه لتجويد الخروج والوصل. ذلك نقصان في الصناعة، وتخلف في البراعة، وهذا إذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها، وأما إذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذر له. وأما المعنى الذي ذكره فليس بشيء مما سبق إليه، وهو شيء مشترك فيه، وقد قالوا في نحوه: إن مجده السماء، وقالوا في نحوه الكثير الذي يصعب نقل جميعه، وكما قال المتنبي:

وعزمة بعثتها همة زحلٌ ... من تحتها بمكان الترب من زحل(٢)

(١) محمد بن علي: الممدوح. الجوزاء: نجم مشهور. المزن: السحاب، أو الأبيض منه والمطر. والمراد هنا المطر الناشئ عن السحابة المذكورة. يعذله: يلومه. حاتم: جاهلي مشهور بالكرم. يضرب به المثل في ذلك.

(٢) زحل: أبعد الكواكب السيارة في النظام الشمسي. وهو كبير الآلهة في الأساطير =

وحدثني إسماعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل، ثم قال لمن حضره: أتدري من هذا؟ هو الذي قال في أبيه البحتري: «لمحمد بن القاسم[(١)] الشرف الذي». فذلك يدل على استعظامه للميت بما مدح به من البيت.

والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب، وهو حديث مكرر، ليس ينفك مديح شاعر عنه، وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة إبداع، كما قد يقع لهم في نحو هذا، ولكنه لم يتصنع له وأرسله إرسالا. وقد وقع في المصراع الثاني ضرب من الخلل، وذلك أن المزن إنما يبخل إذا منع نيله، فذلك موجود في كل نيل ممنوع، وكلاهما محمود مع الإسعاف، فإن أسعف أحدهما ومنع الآخر لم يمكن التشبيه، وإن كان إنما شبه غالب أحدهما بالآخر، وذكر قصور أحدهما عن صاحبه، حتى إنه قد يبخل في وقت والآخر لا يبخل بحال، فهذا جيد، وليس في حمل الألفاظ على الإشارة إلى هذا شيء.

والبيت الثالث: وإن كان معناه مكررًا، فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم، يشبه ألفاظ المبتدئين.

وأما قوله:

فضل وإفضال وما أخذ المدى بعد المدى كالفاضل المتفضل[(٢)]

سار إذا ادَّلَجَ العفاة إلى الندى لا يصنع المعروف غير معجل[(٣)]

فالبيت الأول منقطع عما قبله، وليس فيه شيء غير التجنيس الذي ليس

= الإغريقية.

يقول: إن همة الممدوح أعلى من زحل قدر علو زحل عن الترب أي عن الأرض.

(١) المذكور في البيت: محمد بن علي، وليس: محمد بن القاسم. وشطر البيت: «لمحمد بن علي».

(٢) المدى: نهاية الفضل وغايته.

(٣) ادلج: سار في آخر الليل، أو سار الليل كله. والدُّلجة: السير في أول الليل. وفي الحديث الشريف: «عليكم بالدلجة؛ فإن الأرض تطوى بالليل». العفاة: الضيوف، وكل طالبي المعروف، لا يصنع المعروف.. إلخ؛ أي: يعجل إلى صنع المعروف، ولا يتريث، أو يتردد.

بديع، لتكرره على كل لسان، وقوله: «ما أخذ المدى» فإنه لفظ مليح، وهو كقول القائل:

قد أركب الآلة بعد الآلة

وروي: الحالة بعد الحالة. وكقول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

ولكنها طريقة مذللة، فهو فيها تابع.

وأما البيت الثاني: فقريب في اللفظ والمعنى، وقوله: «لا يصنع المعروف» ليس بلفظ محمود.

وأما قوله:

عالٍ على نظر الحسود كأنما جذبته أفراد النجوم بأحبل
أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول(١)

فالبيت الأول منكر جدًّا في جر النجوم بالأرسان موضعه إلى العلو، والتكلف فيه واقع.

والبيت الثاني أجنبي عنه، بعيد منه، وافتتاحه رديء، وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانة والتوقيف؟ والبيتان أجنبيان من كلامه، غريبان في قصيدته، ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد، ألا ترى أنه قال بعد ذلك:

نفسي فداؤك يا محمد من فتىً يوفي على ظُلَم الخطوب فتنجلي(٢)
إني أريد أبا سعيد، والعِدَى بيني وبين سحابه المتهلل(٣)

---

(١) أحبل: جمع حبل. أفراد النجوم: بعض النجوم.

(٢) ظلم: جمع ظلمة. الخطوب: المحن والدواهي. يوفي: يعين على إجلاء الظلم وكشف الدواهي بما يعطي ما يكفي ويزيد.

(٣) سحابه المتهلل: أي نداه وكرمه القريب من العفاة. شبهه بالسحاب الذي أهل على الناس بما يحمل من مطر وغيث.

كان هذا ليس من طبعه ولا من سبكه.

وقوله:

مضر الجزيرة كلها وربيعة الخابور توعدني وأزد الموصل

قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأخيك من أدد أبيك بمنصل[(١)]

البيت الأول حسن المعنى، وإن كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه التحسين، وهذا المعنى قد يمكن إيراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق منه، كقوله[(٢)]:

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف، وهو قبيح اللفظ، حيث يقول فيه: «فثنه لأخيك من أدد أبيك»، ومن أخذه بهذا التعرض لهذا السجع، وذكر هذا النسب، حتى أفسد به شعره.

وأما قوله بعد ذلك في وصف السيف، يقول:

يتناول الروح البعيد منالها عفوًا، ويفتح في القضاء المقفل

بإبانة في كل حتفٍ مظلمٍ وهدايةٍ في كل نفسٍ مجهلِ

ماضٍ، وإن لم يمضه يد فارس بطل، ومصقول وإن لم يصقل[(٣)]

---

(١) أسماء قبائل وموضع كل قبيلة. فمضر بالجزيرة، وربيعة في خابور. وأزد بالموصل. الطرف: الكريم من الناس والخيل ونحوها. والمراد هنا: الفرس الكريم. الأدد: امتداد الطريق واستقامته. وهنا: اسم جد الممدوح الأعلى. المُنْصُل: بضمتين بينهما سكون. السيف.

(٢) القائل: جرير، شاعر أموي شهير مجيد. سبق التعريف به.

(٣) عفوًا: أي بيسر ودون مشقة. الحتف: الموت.

والشطر الثاني من البيت الأول فيه إلحاد واضح. فإن قضاء الله ـ تَعَالَى ـ في الآجال وفي كل شيء لا يفتح أحد مغالقه، ولا يغلق مفاتحه. وإنما ذلك لله ـ سُبْحَانَهُ ـ وحده. وقد =

ليس لفظ البيت الأول بِمُضَاهٍ لديباجة شعره، ولا له بهجة نظمه، لظهور أثر التكلف عليه، وتبين ثقلٍ فيه، وأما القضاء المقفل وفتحه فكلام غير محمود، ولا مرضي، واستعارة لو لم يستعرها كانت أولى به، وهلا عِيبَ عليه، كما عيب على أبي تمام قوله:

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عودًا ركوبًا[١]

وقالوا: يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه، وقد اتبعه البحتري في استعارة الأخدع، ولوعًا باتباعه، فقال في الفتح:

وإني وقد بَلَّغتني شرف العلا وأعتقت من ذل المطامع أخدعي

إن شيطانه حيث زين له هذه الكلمة، تابعه حين حسن عنده هذه اللفظة ـ لخبيث مارد ورديء معاند[٢]، أراد أن يطلق أعنة الذم فيه، ويسرح جيوش العتب إليه، ولم يقنع بقفل القضاء، حتى جعل للحتف ظلمة تُجلىٰ بالسيف، وجعل السيف هاديًا في النفس المجهل الذي لا يهتدي إليه، وليس في هذا مع تحسين اللفظ وتنميقه شيء؛ لأن السلاح وإن كان معيبًا فإنه يهتدي إلى النفس، وكان يجب أن يبدع في هذا إبداع المتنبي في قوله:

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد

وقد صُغْتَ الأسنة من هموم فما يخطرن إلا في الفؤاد[٣]

= قدر الله ـ تَعَالَى ـ وقضى كل شيء فلا جديد، بيد هذا الشاعر ولا ممدوحه.

(١) الأخدعان: عرقان على جانبي العنق. والعود: البعير المسن. والركوب: البعير الذي ترك القتب آثاره فيه.

(٢) لخبيث مارد، ورديء معاند: خبر: إن شيطانه.

(٣) الهام: الرءوس. الهيجا: الحرب. شبه عمل السيوف في الرؤوس بإسقاطها على الأرض بعمل النوم في العيون بجامع الرقاد والانطراح على الأرض في كل. كما شبه السيف في خلوصه إلى قلب العدو بالهم الذي لا يسكن إلا القلوب. والبيتان على قدر من الجمال =

فالاهتداء على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن.

وفي البيت الأول شيء آخر، وذلك أن قوله: «ويفتح في القضاء» في هذا الموضع حشو رديء، يلحق بصاحبه اللكنة، ويلزمه الهجنة.

وأما البيت الثالث فإنه أصلح هذه الأبيات، وإن كان ذكر الفارس حشوًا وتكلفًا ولغوًا؛ لأن هذا لا يتغير بالفارس والراجل، على أنه ليس فيه بديع.

وأما قوله:

يغشى الوغى والترس ليس بجنة من حده والدرع ليس بمعقل[1]

مصغ إلى حكم الرَّدَى، فإذا مضى لم يلتفت، وإذا قضى لم يعدل

متوقد يبري بأول ضربة ما أدركت ولو أنها في يذبل[2]

البيتان الأولان من الجنس الذي يكثر كلامه عليه، وهي طريقه الذي يجتنيها، وذلك من السبك الكتابي، والكلام المعتدل، إلا أنه لم يبدع فيها بشيء، وقد زيد عليه فيها، ومن قصد إلى أن يكمل عشرة أبيات في وصف السيف فليس من حكمه أن يأتي بأشياء منقولة، وأمور مذكورة، وسبيله أن يغرب ويبدع، كما أبدع المتنبي في قوله:

سله الركض بعد وهن بنجد فتصدى للغيث أهل الحجاز[3]

= لا ينكر.

(١) الوغي: الحرب. الترس والدرع: من لباس الحرب يتقي بها وقع الأسنة والنصال. ليس بجنة: لا تمنع عنه القتل. وكذلك: ليس بمعقل.

(٢) الردى: الموت. يذبل: اسم جبل. يبرى: يقطع.

(٣) سله: أخرجه من غمده. الركض: نوع من العدو السريع. الوهن، وكذلك الموهن: الوقت من نصف الليل، أو بعد ساعة من الليل. الغيث: المطر. تصدى: تعرض. نجد والحجاز: معروفان.

هذا في باب صقاله وأضوائه وكثرة مائة، وكقوله[١]:

ريان، لو قذف الذي أسقيته لجرى من المهجات بحر مزبد[٢]

وقوله: «مصغ إلى حكم الردى» إن تأملته مقلوب، كان ينبغي أن يقول: يصغي الردى إلى حكمه، كما قال الآخر:

فالسيف يأمر والأقدار تنتظر

وقوله: «وإذا قضى لم يعدل» متكرر على ألسنتهم في الشعر خاصة في نفس هذا المعنى.

والبيت الثالث سليم، وهو كالأولين في خلوه عن البديع.

فأما قوله:

فإذا أصاب فكل شيء مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل

وكأنما سود النمال وحمرها دبت بأيد في قراه وأرجل[٣]

البيت الأول يقصد به صنيعة اللفظ، وهو في المعنى متفاوت؛ لأن المضرب قد لا يكون مقتلا، وقد يطلق الشعراء ذلك، ويرون أن هذا أبدع من قول المتنبي وأنه بضده:

يقتل السيف في جسم القتيل به وللسيوف كما للناس آجال[٤]

وهذه طريقة لهم يتمدحون بها في قصف الرمح طعنا، وتقطيع السيف ضربا. وفي قوله: «وإذا أصيب فما له من مقتل» تعسف؛ لأنه يريد بذلك أنه لا يتكسر، فالتعبير بما عبر به عن المعنى الذي ذكرناه، يتضمن التكلف وضربًا من المحال، وليس بالنادر، والذي عليه الجملة ما حكيناه عن غيره، ونحوه قال بعض

---

(١) أي: المتنبي.
(٢) ريان: قد شرب من دم الأعداء حتى ارتوى. المهجات: جمع مهجة. وهي: النفس.
(٣) القرا: الظهر، ووسطه.
(٤) يقتل السيف: أي يكسر السيف أو يكل حده من كثرة الضرب به.

أهل الزمان:

يقصف في الفارس السمهري وصدر الحسام فريقًا فريقًا[١]

والبيت الثاني أيضًا هو معنى مكرر على ألسنة الشعراء، وأما تصنيعه بسود النمال وحمرها فليس بشيء، ولعله أراد بالحمر الذر، والتفصيل بارد، والإعراب به منكر، وهو كما حكي عن بعضهم أنه قال: كان كذا حين كانت الثريا بحذاء رأسي على سواء، أو منحرفًا قدر شبر، أو نصف شبر، ويمقته الناس[٢]، ورب زيادة كانت نقصانًا، وصفة النمل بالسواد والحمرة في هذا من ذلك الجنس، وعليه خرج بقية البيت في قوله:

دبت بأيدٍ في قراه وأرجلِ

وكان يكفي ذكر الأرجل عن ذكر الأيدي. ووصف الفرند[٣] بمدب النمل شيء لا يشذ عن أحد منهم.

وأما قوله:

وكأن شاهره إذا استضوى به الزحفان يعصى بالسماك الأعزل

---

(١) السمهري: رمح جيد الصنعة.

(٢) أي: التنطع في ذكر تفاصيل لا حاجة إليها ولا غناء فيها، لكنها تشغل عن الأهم منها. فالشاعر في ذكره النمل، ذكر ألوانها سودًا وحمرًا.. وماذا يفيد ذلك؟ وما أثره أن تكون كلها سودًا أو حمرًا أو خليطا، وماذا يهم السامع من ذلك؟. ثم فصل تفصيلا أقبح. فذكر أنها تدب بأيديها وأرجلها. وهل هناك نملة أو نمل يدب بأيديه فقط أو أرجله فقط؟ ومثل ذلك في التفصيل القبيح؛ ذلك الأعرابي الذي أخذ يحدد موقع الثريا من رأسه بالشبر ونصف الشبر والإصبع. فهذا تنطع يمقته اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ ورسوله ﷺ والناس. وقد قال الرسول ﷺ «هلك المتنطعون» وإن لم يكن هذا القول الشريف في الشعر والشعراء فلا ضير من الاستشهاد به.

(٣) الفرند: السيف، وما يلمع في صفحته من أثر تموج الضوء وانعكاسه عليه. والمقصود هنا: السيف.

حملت حمائله القديمة بقلة من عهد عادٍ غضة لم تذبل[1]

والبيت الأول منهما فيه ضرب من التكلف، وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم، وإنما يقول: «قمر يشد على الرجال بكوكب»، فجعل ذلك الكوكب السماك، واحتاج إلى أن يجعله أعزل للقافية، ولو لم يحتج إلى ذلك كان خيرًا له؛ لأن هذه الصفة في هذا الوضع تفضه من الموضع، وموضع التكلف الذي ادعيناه، الحشو الذي ذكره من قوله: «إذا استضوى به الزحفان» وكان يكفي أن يقول: كأن صاحبه يعصي بالسماك، وهذا وإن كان قد تعمل فيه للفظ فهو لغو على ما بيناه.

وأما البيت الثاني ففيه لغو من جهة قوله: «حمائله قديمة»، ولا فضيلة له في ذلك، ثم تشبيه السيف بالبقلة من تشبيهات العامة، والكلام الرذل النذل؛ لأن العامة قد يتفق منها تشبيه واقع حسن. ثم انظر إلى هذا المقطع الذي هو بالعي أشبه منه بالفصاحة، وإلى اللكنة أقرب منه إلى البراعة، وقد بينا أن مراعاة الفواتح والخواتم، والمطالع والمقاطع، والفصل والوصل، بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لابد منه، وإن الإخلال بذلك يخل بالنظم، ويذهب رونقه، ويحيل بهجته، ويأخذ ماءه وبهاءه.

* * *

وقد أطلت عليك فيما نقلت وتكلفت ما سطرت؛ لأن هذا القبيل قبيل موضوع متعمل مصنوع، وأصل الباب في الشعر على أن ينظر إلى جملة القصة ثم يتعمل الألفاظ، ولا ينظر بعد ذلك إلى مواقعها، ولا يتأمل مطارحها، وقد

(١) شاهره: الضمير للسيف. استضوى: استضاء. الزحفان: الجيشان. السماك: نجم في السماء معروف وهما سماكان أحدهما في الشمال ويسمى: السماك الرامح. والثاني في الجنوب. ويسمى السماك الأعزل. وهو الذي ذكره الشاعر هنا. البقلة: واحدة البقل. وهو نبات عشبي يغتذي الإنسان به أو ببعضه مثل: البازلاء. والماشية ترعاها فتسمن. غضة: الطرية لم تجف.

يقصد تارة إلى تحقيق الأغراض، وتصوير المعاني التي في النفوس، ولكنه يلحق بأصل بابه، ويميل بك إلى موضعه، وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها التفاضل.

وإن أردت أن تعرف أوصاف الفرس، فقد ذكرت لك أن الشعراء قد تصرفوا في ذلك بما يقع إليك، إن كنت من أهل الصنعة، مما يطول عليَّ نقله وكذلك في السيف. وذكر لي بعض أهل الأدب أن أحسن قطعة في السيف قول أبي الهول الحميري:

حاز صمصامة الزبيدى من بين جميع الأنام موسى الأمين[١]
سيف عمرو وكان ـ فيما سمعنا ـ خير ما أطبقت عليه الجفون[٢]
أخضر اللون بين برديه حد من ذعاف تميس فيه المنون[٣]
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم ذابت له الذعاف القيون[٤]
فإذا ما شهرته بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
يستطير الأبصار كالقبس المشعل لا تستقيم فيه العيون
وكأن الفرند والرونق الجاري في صحفتيه ماء معين[٥]
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيجاء يعصي به ونعم القرين[٦]

(١) صمصامة: السيف الصارم الذي لا يثنى. الزبيدي: عمرو بن معد يكرب الزبيدي. الأنام: الخلق.
(٢) خير ما أطبقت عليه الجفون: أطبقت بسببه الجفون. أي خير السيوف فتكًا.
(٣) الذعاف: السم الشديد. تميس: تختال وتتهادى. المنون: المنية.
(٤) ذابت: أذابت. الذعاف: السم. القيون: الحدادون صناع السيوف. يقول: إن الذين صنعوا السيف أوقدوا عليه النار ثم نقعوه في السم. وكان من عاداتهم المألوفة تسميم السيوف والخناجر.
(٥) الفرند: السيف. أو انعكاس الضوء على صفحتيه. الرونق: اللمعان والبريق.
(٦) المخراق: الرجل الحسن الجسم، والنافذ في الأمور. والسريع إلى الحرب الشديد فيها. يقال: هو مخراق حرب. أي سريع إليها شغوف بها. والمعنى الأخير هو مراد الشاعر. =

ما يبالي إذا انتحاه بضرب أشمال سطت به أم يمين[١]

وإنما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته، ومن أهل عصره، ومن هو في مضماره، أو في منزلته، ومعرفة أجناس الكلام، والوقوف على أسراره، والوقوع على مقداره، شيء وإن كان عزيزًا، وأمر وإن كان بعيدًا، فهو سهل على أهله، مستجيب لأصحابه، مطيع لأربابه، ينقدون الحروف ويعرفون الصروف.

وإنما تبقى الشبهة في ترتيب الحال بين البحتري وأبي تمام وابن الرومي وغيره، ونحن وإن كنا نفضل البحتري بديباجة شعره على ابن الرومي، وغيره من أهل زمانه، وتقدمه، بحسن عبارته، وسلاسة كلامه، وعذوبة ألفاظه، وقلة تعقد قوله، والشعر قبيل ملتمس مستدرك، وأمر ممكن منطبع، ونظم القرآن عال عن أن يعلق به الوهم، أو يسمو إليه الفكر، أو يطمع فيه طامع، أو يطلبه طالب: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وكنت قد ذكرت لك قبل هذا أنك إن كنت بصنعة علم اللسان متدربًا، وفيه متوجها متقدمًا أمكنك الوقوف على ما ذكرنا، والنفوذ فيما وصفنا، وإلا فاجلس في مجلس المقلدين، وأرض بمواقف المتحيرين. ونصحتُ لك حيث قلت: انظر هل تعرف عروق الذهب، ومحاسن الجوهر، وبدائع الياقوت، ودقاق السحر، من غير معرفة بأسباب هذه الأمور، ومقدماتها[٢]؟ وهل يقطع سمت

= ذي الحفيظة: الحفيظة: الغضب، وشدة الحمية، وشدة الحذر. وأهل الحفائظ: هم المدافعون عن أعراضهم وديارهم. الهيجاء: الحرب. يعصي به: يضرب به كما يضرب أهل العِصي بالعصي. القرين: الصاحب الملازم.

(١) انتحاه: قصد إليه. أي إذا قصد عدوه ليضربه بالسيف ما يبالي جاءت الضربة يمنة أو يسرة.

(٢) يقول إن طالب كل صنعة لن يصل إليها إلا إذا عرف أسرارها ومقدماتها والوسائل التي بها يجيد تلك الصنعة. ومثل ذلك صناعة اللغة. فلا ينبغي أن يتكلم في إعجاز القرآن إلا من كانت لديه البراعة والسبق في هذه الصناعة. أو الصنعة ـ كما يسميها المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ.

البلاد من غير اهتداء فيها؟ ولكل شيء طريق يتوصل إليه به، وباب يؤخذ نحوه فيه، ووجه يؤتى منه، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك. وأغمض وأدق وألطف، وتصوير ما في النفس، وتشكيل ما في القلب، حتى تعلمه وكأنك مشاهده. وإن كان قد يقع بالإشارة، ويحصل بالدلالة والأمارة، كما يحصل بالنطق الصريح، والقول الفصيح، فللإشارات أيضًا مراتب، وللسان منازل، ورب وصفٍ يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه، ورب وصف يربو عليه ويتعداه، ورب وصف يقصر عنه.

ثم إذا صدق الوصف انقسم إلى صحة وإتقان، وحسن وإحسان، وإلى إجمال وشرح، وإلى استيفاء وتقريب، وإلى غير ذلك من الوجوه. وكل مذهب وطريق له باب وسبيل.

فوصف الجملة الواقعة كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: بعض آية ١٨]، والتفسير كقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧] إلى آخر الآيات في هذا المعنى، وكنحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: الآيتان فاتحتا السورة]، هذا مما يصور الشيء على جهته، ويمثل أهوال ذلك اليوم. ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة، كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٥٠ ـ ٥١]. وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٥ ـ ١٢٦]، وهذا ينبئ عن كلام الحزين لما ناله، الجازع لما مسه. ومن باب التسخير والتكوين قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٢٨]، وقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:

بعض آية ٦٥]، وكقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

وتقصي أقسام ذلك مما يطول، ولم أقصد استيفاء ذلك، وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت، لتستدل، وأشرت إليك بما أشرت لتتأمل.

* * *

وإنما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحتري؛ لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره، ويقدمونه على من في عصره، ومنهم من يدعي له الإعجاز غلوًّا. ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علوا. والملحدة تستظهر بشعره، وتتكثر بقوله، وتدعى كلامه من شبهاتهم، وعباراته مضافًا إلى ما عندهم من ترهاتهم(١)، فبينا قدر درجته، وموضع رتبته، وحد كلامه، وهيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه، وأن يكون الليل كالنهار، والباطل كالحق، وكلام رب العالمين ككلام البشر.

فإن قال قائل: فقد قدح الملحد في نظم القرآن، وادعى عليه الخلل في البيان، وأضاف إليه الخطأ في المعنى واللفظ، وقال ما قال، فهل من فصل(٢).

وقيل: الكلام على مطاعن الملحدة في القرآن مما قد سبقنا إليه، وصنف أهل الأدب في بعضه فكفوا، وأتى المتكلمون على ما وضع إليهم فشفوا، ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه في كتابنا. وأما الغرض الذي صنفنا فيه، في التفصيل والكشف عن إعجاز القرآن، فلم نجده على التقريب الذي قصدنا، وقد رجونا أن يكون ذلك مغنيًا ووافيًا. وإن سهل اللّٰه لنا ما نويناه من إملاء «معاني القرآن»(٣) ذكرنا في ذلك ما يشتبه من الجنس الذي ذكروه؛ لأن أكثر ما يقع من الطعن

---

(١) التُّرَّهات: واحدتها تُرَّهة وهي: الباطل. والقول الخالي عن النفع. والترهة أيضًا: الفلاة. والطريق الصغير المتشعب من الطريق الأكبر. والمراد المعنى الأول.

(٢) أي: فهل من جواب يبين لنا وجه ذلك الاعتراض من الحق؟

(٣) كثرت إشارات المؤلف في ثنايا الكتاب إلى نيته في تأليف كتاب يسميه: «معاني القرآن» يرد فيه على الشبهات الموجهة إلى القرآن العظيم.

عليه، فإنما يقع على جهل القوم بالمعاني، أو بطريقة كلام العرب. وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا، وقد قال النبي ﷺ: **«فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»**[1]، وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار، ومهدنا الطريق، فمن كمل طبعه للوقوف على فضل أجناس الكلام استدرك ما بينا، ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والأخطل[2]، والحكم بين فضل زهير والنابغة، أو الفصل بين البحتري وأصحابه، ولم يعرف سخف مسيلمة[3] في نظمه، ولم يعلم أنه من الباب الذي يهزأ به ويسخر منه، كشعر «أبي العيس» في جملة الشعر، وشعر «علي بن صلاة»، فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، والحكم على ما بينا؟

* * *

فإن قال قائل: فاذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الأشعر والأبلغ، قيل له: هذا أيضًا خارج عن غرض هذا الكتاب، وقد تكلم فيه الأدباء. ويحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب، ويفرد له باب، وليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل.

وليس لقائل أن يقول: قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب، ويبلغ أمده في الفصاحة والنظم العجيب، ولا يبلغ عندكم حد المعجز، فلم قضيتم بما قضيتم به في القرآن دون غيره من الكلام؟

وإنما لم يصح هذا السؤال، وما نذكر فيه، من أشعار في نهاية الحسن،

---

(١) أخرجه الترمذي بمعناه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (يقول الرب ـ عز وجل ـ: من شغله القرآن عن ذكري ومسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) وللحديث روايات أخرى. وبعض رجاله فيه ضعف.

(٢) الأخطل: غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة من بني تغلب. من فحول شعراء الإسلام. تقدم التعريف به.

(٣) مسيلمة: متنبئ بني حنيفة الكذاب. معروف. وقد سبق أن ذكر المؤلف بعض أباطيله التي زعم أنها وحي يوحى إليه.

وخطب ورسائل في غاية الفضل، لأنا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع النزاع فيها، والمساماة عليها، والتنافس في طرقها، والتنافر في بابها، وكان البون بين البعض والبعض في الطبقة الواحدة قريبًا، والتفاوت خفيفًا، وذلك القدر من السبق إن ذهب عن الواحد لم ييأس منه الباقون، ولم ينقطع الطمع في مثله، وليس كذلك سمت القرآن؛ لأنه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته[١]، والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته[٢]، وأن الكل في العجز عنه على حد واحد.

وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ فيه، والباب الذي لا يذهب عنه. وأنت تجد قومًا يرون كلامه قريبًا، ومنهاجه معيبًا، ونطاق قوله ضيقًا، حتى يستعين بكلام غيره، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه، من بيت سائر، ومثل نادر، وحكمة ممهدة منقولة، وقصة عجيبة مأثورة. وأما كلامه في أثناء ذلك فسطوره قليلة وألفاظه يسيرة، فإذا أحوج إلى تطويل الكلام خاليًا عن شيء يستعين به، فيخلط بقوله من قول غيره، كان كلامًا ككلام غيره. فإن أردت أن تحقق هذا فانظر في كتبه في «نظم القرآن» وفي الرد على النصارى، وفي خبر الواحد، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى، هل تجد في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع، أو كلام مليح؟

على أن متأخري الكتاب قد نازعوه في طريقته، وجاذبوه على منهجه، فمنهم من ساواه حين ساماه[٣]، ومنهم من أبرَّ عليه إذ باراه، هذا أبو الفضل ابن العميد قد سلك مسلكه، وأخذ طريقه، فلم يقصر عنه، ولعله قد بان تقدمه عليه؛ لأنه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه، ويكملها على شروط صنعته، ولا يقتصر على أن يأتي بالأسطر من نحن كلامه، كما ترى الجاحظ

---

(١) أي: أن معارضته ليست محالة واقعًا فقط، بل إنها محالة حتى في الوهم والخيال. وإذا كان توهم معارضته محالا؛ فكيف بذلك واقعًا.

(٢) المباراة والمساماة: المنافسة والمطاولة.

(٣) أي: حين نافسه.

يفعله في كتبه، متى ذكر من كلامه سطرًا أتبعه من كلام الناس أوراقًا، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابًا. وهذا يدلك على أن الشيء إذا استحسن اتبع، وإذا استملح قصد له وتعمد. وهذا الشيء يرجع إلى الأخذ بالفضل والتنافس في التقدم. فلو كان في مقدور البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده، لكثرت المعارضات، ودامت المنافسات، فكيف وهناك دواعٍ لا انتهاء لها، وجوالب[1] لا حد لكثرتها؟ لأنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا إلى تكذيبه، ثم إلى قطع المحامين دونه عنه، أو تنفيرهم عليه، وإدخال الشبهات على قلوبهم، وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل النفوس، ونصب الأرواح، والإخطار بالأموال والذراري، في وجه عداوته، ويستغنون بكلام هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم عن محاربته، وطول منافسته ومجاذبته.

وهذا الذي عرضناه على قلبك، يكفي إن هديت لرشدك، ويشفي إن دللت على قصدك[2].

ونسأل الله حسن التوفيق والعصمة والتسديد، إنه لا معرفة إلا بهدايته، ولا عصمة إلا بكفايته، وهو على ما يشاء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فصل

فإن قال قائل: قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي ﷺ قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن كان من بعدهم من أهل الأعصار لم يعجزوا.

قيل: هذا سؤال معروف، وقد أجيب عنه بوجوه: منها ما هو صواب، ومنها ما فيه خلل؛ لأن من كان يجيب عنه بأنهم لا يقدرون على معارضته في الأخبار

---

(١) أي دواعي.

(٢) فالأمر في إدراك ما وضع الكتاب من أجله محتاج - ضرورة - إلى توفيق من الله - تَعَالَى - وهداية تهدي القلب إلى ضالته، وتدله على قصده. وتصل به إلى بغيته.

عن الغيوب أن قدروا على مثل نظمه، فقد سلم المسألة، لأنا ذكرنا أن نظمه معجز لا يُقدَر عليه، فإذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل على مراده(١).

والوجه أن يقال فيه طرق:

منها: أنا إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فمن بعدهم أعجز؛ لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول، مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم، وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم، أو يساووهم(٢)، فأما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا.

ومنها: أنا قد علمنا عجز سائر أهل الاعصار كعلمنا بعجز أهل العصر الأول، والطريق في العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد؛ لأن التحدي في الكل على جهة واحدة، والتنافر في الطباع على حد، والتكلف على منهاج لا يختلف، ولذلك قال الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

* * *

(١) أي إن من وقف بإعجاز القرآن عند حد الأخبار بالغيوب فقط، فقد سلم للخصم إمكان معارضته بلاغة وفصاحة. وهذا خطأ وضلال.

(٢) وحتى هذه فلا نسلم بها. إذ من المحال أن يلحق المتأخرون بالسابقين في صناعة اللغة. فالله ـ سُبْحَانَهُ ـ وهو العليم الحكيم، أنزل القرآن بلسان عربي مبين في الزمان والمكان الذي كانت فيه العربية في أزهى عصورها. وأسمى منزلة لها. إذ كانت فطرة وصبغة وبداهة وجبلة، ثم تحولت إلى صناعة وتعمل وتكلف. ومحال أن يكون التعمل والتكلف مساويًا لما يكون فطرة وبداهة.

فصل

في التحدي

يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن يدعوا فيها أنها من دلالتهم وآيتهم[١]؛ لأنه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية؛ لأن النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه، ولا بشيء آخر سوى البرهان الذي يظهر عليه، فيستدل به على صدقه. فإذا ذكر لهم أن هذه آيتي، وكانوا عاجزين عنها، صح له ما ادعاه، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانًا له، وليس يكون ذلك معجزًا إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله، فإذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزًا.

وإنما احتيج في باب القرآن إلى التحدي؛ لأن من الناس من لا يعرف كونه معجزًا، فإنما يعرف أولا إعجازه بطريقه[٢]؛ لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته، وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزًا فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف هذا، حتى يمكنه أن يستدل به، ومتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدي إليه، والتقريع به، والتمكين منه، صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصى ثعبانًا تلقف ما يأفكون.

وأما من كان من أهل صنعة العربية، والتقدم في البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق، فإنه يعرف حين يسمعه عجزه عن الإتيان بمثله، ويعرف أيضًا أهل

---

(١) وهو ما يسمى لدى العلماء بالتحدي. والتحدي وضعه جمهور العلماء شرطًا للمعجز. حيث عرفوا المعجز بأنه: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة مقرونا بالتحدي.

(٢) الضمير للقرآن، أي: عن طريقه.

عصره ممن هو في طبقته، أو يدانيه في صناعته، عجزهم عنه، فلا يحتاج إلى التحدي حتى يعلم به كونه معجزًا، ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم ما بينا لا يعرفون كونه معجزًا حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه، لم يجز أن يعرف النبي ﷺ أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدي إليه، وإذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهي إلى التحدي إلى أقصاهم، وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه، ثم يعرف حينئذ كونه معجزًا.

وهذا القول ـ إن قيل ـ أفحش ما يكون من الخطأ، فجيب أن تكون منزلة أهل الصنعة، في معرفة إعجاز القرآن بأنفسهم، منزلة من إذا رأى اليد البيضاء، وفلق البحر ـ عرف بأن ذلك معجز، وأما من لم يكن من أهل الصنعة، فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة، يعرف بها كونه معجزًا، فيساوي حينئذ أهل الصنعة، فيكون استدلالهما في تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه، على سواه، إذا ادعاه دلالة على نبوته وبرهانا على صدقه، فأما من قدر أن القرآن لا يصير معجزًا إلا بالتحدي إليه، فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وعيسى عليهما السلام ليست بآيات، حتى يقع التحدي إليها، والحض عليها، ثم يقع العجز عنها، فيعلم حينئذ أنها معجزات، وقد سلف من كلامنا في هذا المعنى ما يغني عن الإعادة(١).

ويبين ما ذكرناه في غير البليغ، أن الأعجمي الآن لا يعرف إعجاز القرآن إلا بأمور زائدة على الأعجمي الذي كان في ذلك الزمان مشاهدًا له؛ لأن من هو من

(١) من العلماء من اشترط في التحدي أن يكون بالمقال. أي أن يقول مدعي النبوة: أنا نبي ودليل صدقي أن أفعل كذا وأنتم تعجزون أن تفعلوا مثلي. أو أن يظهر على يديه الأمر المعجز ثم يقول لهم: أتحداكم أن تأتوا بمثله.. ومن العلماء من لم يشترط القول، واكتفى بدلالة الحال عن دلالة المقال. فذهبوا إلى أن مجرد ظهور المعجز على يد النبي، ورؤيتهم إياه، واقتناعهم بأن ذلك فوق قدراتهم وأنهم عاجزون عن مثله. قالوا: ذلك كافٍ في التحدي ولو لم يتحدَّهم النبي قولًا.

أهل العصر يحتاج أن يعرف أولا أن العرب عجزوا عنه، وإنما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة إليه أن النبي ﷺ قد تحدى العرب إليه فعجزوا عنه، ويحتاج في النقل إلى شروط، وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزًا، كذلك لا يصير معجزًا بأن يعلم العربي الذي ليس ببليغ أنهم قد عجزوا عنه بأبلغهم، بل هو معجز في نفسه، وإنما طريق معرفة هذا وقوفهم على العلم بعجزهم عنه.

فصل

في قدر المعجز من القرآن

الذي ذهب إليه عامة أصحابنا، وهو قول أبي الحسن الأشعري(١) في كتبه، أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة: قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها.

قال: فإذا كانت الآية بقدر حروف السورة، وإن كانت سورة الكوثر، فذلك معجز، قال: ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر. وذهب المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة، وقد حُكي عنهم نحو

(١) أبو الحسن الأشعري: هو الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر - إسحاق - ابن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري - صاحب رسول الله ﷺ ورضي الله عنه.. والصحابي الجليل اسمه: عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري اليماني.. ولد أبو الحسن الأشعري سنة ٢٦٠هـ على الأرجح.. توفي والده صغيرًا، وتربى في كنف زوج أمه أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة. فنشأ معتزليًا، وكان مقدمًا لدىٰ الجبائي وينوب عنه في دروسه ومناقشاته. ثم في سن الأربعين انقلب على المعتزلة وأعلن براءته منهم. ثم عكف على التأليف في إبطال مذهبهم وبيان فضائحهم. وأنشأ المذهب الذي نسب إليه وهو «الأشعري» وفي أواخر حياته وضع كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» الذي أعلن فيه أنه على مذهب السلف والجماعة، وأنه يموت على ما كان عليه الإمام الجليل أحمد بن حنبل والمحدثين. توفي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في سنة ٣٣٠هـ على الأرجح.

قولنا، إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة، بل شرط الآيات الكثيرة، وقد علمنا أنه تحداهم تحديًا إلى السور كلها ولم يخص، ولم يأتوا لشيء منها بمثل، فعلم أن جميع ذلك معجز. وأما قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: بعض آية ٣٤]، فليس بمخالف لهذا؛ لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة، وهذا يؤكد ما ذهب إليه أصحابنا[١] ويؤيده، وإن كان قد يتأول قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ على أن يكون راجعًا إلى القبيل دون التفصيل، وكذلك يحمل قوله - تَعَالَى -: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: بعض آية ٨٨] على القبيل[٢]؛ لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الإتيان بجميعه من أوله إلى آخره.

فإن قيل: هل تعرفون إعجاز السور القصار بما تعرفون به إعجاز السور الطوال؟ وهل تعرفون إعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذي قدرتموه بمثل ما تعرفون به إعجاز سورة البقرة ونحوها؟

فالجواب أن أبا الحسن الأشعري - رحمه الله - أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بعجز العرب عنها. وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول: إن ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفًا.

والطريقة الأولى[٣] أسدُّ، وليس هذا الذي ذكرناه أخيرًا[٤] بمناف له؛ لأنه لا

---

(١) يقصد المؤلف بـ «أصحابنا» الأشاعرة؛ لأنه أشعري من المتقدمين في المذهب. وله مؤلفات في الرد على المعتزلة والرافضة وغيرهم. والانتصار لمذهب الأشاعرة.

(٢) أي على النوع وليس على الكل. فالمحال ليس أن يأتوا بمثله جميعه، بل أن يأتوا بشيء يماثله أيا كان قدر ذلك. والقبيل: النوع.

(٣) وهي ما أشار إليها بأنها جواب أبي الحسن الأشعري. وهي أن القرآن كله معجز القليل منه والكثير سواء في الإعجاز.

(٤) يشير إلى القول بالتوقيف. والتوقيف ضد الاجتهاد وإعمال الرأي. فالأمر التوقيفي هو المعتمد على دليل نصي شرعي من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو بكل ذلك. فالقائلون بأن معرفة القدر المعجز من القرآن أمر توقيفي يطلبون دليلًا شرعيًا من الكتاب أو السنة =

يمتنع أن يعلم إعجازه بطرق مختلفة، تتوافى عليه، وتجتمع فيه.

* * *

واعلم أن تحت اختلاف هذه الأجوبة ضربًا من الفائدة؛ لأن الطريقة الأولى تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزًا موجود في كل سورة صغرت أو كبرت، فيجب أن يكون الحكم في الكل واحدًا، والطريقة الأخيرة[١] تتضمن تعذر معرفة إعجاز القرآن بالطريقة التي سلكناها، في بناء من التفصيل الذي بينا، فيما تعرف به في الكلام الفصاحة، وتتبين فيه البلاغة، حتى يعلم ذلك بوجه آخر، فيستوي في هذا القدر البليغ وغيره في أن لا يعلمه معجزًا حتى يستدل به من وجه آخر سوى ما يعلمه البلغاء، من التقدم في الصنعة، وهذا غير ممتنع، ألا ترى أن الإعجاز في بعض السور والآيات أظهر، وفي بعضها أغمض، وقد لا يحتاج في النظر في حال بعضها إلى تأمل كثير، ولا بحث شديد، حتى يتبين له الإعجاز، ويفتقر في بعضها إلى نظر دقيق، وبحث لطيف، حتى يقع على الجلية، ويصل إلى المطلب، ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه في بعض السور، فيحتاج أن يفرع فيه إلى إجماع أو توقيف، أو ما علمه من عجز العرب قاطبة عنه.

فإن ادعى ملحد، أو زعم زنديق، أنه لا يقع العجز عن الإتيان بمثل السور القصار، أو الآيات بهذا المقدار، قلنا له: إن الأعجاز قد حصل بما بيناه، وعرف بما وقفنا عليه، من عجز العرب عنه.

ثم فيه شيء آخر، وهو أن هذا سؤال لا يستقيم للملحد؛ لأنه يزعم أنه ليس في القرآن كله إعجاز، فكيف يجوز أن يناظره على تفصيله، وإذا ثبت لنا معه إعجازه في السور الطوال قامت الحجة عليه، وثبتت المعجزة، ولا معنى لطلبه

= يحدد ذلك القدر. أما الآخرون فيجتهدون آراءهم.

وقد بين المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ أن الطريقتين ليس بينهما تعارض، بل بينهما تآزر وتعاضد. إذ أن معرفة القدر المعجز يمكن أن يكون بطرق مختلفة يقوي بعضها بعضًا.

(١) الطريقة الأخيرة هي القائلة بالتوقيف.

لكثرة الأدلة والمعجزات. ونحن نعلم أن إعجاز البعض بما بيناه، والبعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلا قولنا، لأنا عرفنا في البعض الإعجاز بما بينا ثم عرفنا في الباقي بالتوقيف ونحو ذلك، وليس بممتنع اختلاف حال الكلام، حتى يكون الإعجاز على بعضه أظهر، وفي بعضه أغمض. ومن آمن ببعض دون بعض كان مذمومًا، على ما قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: بعض آية ٨٥]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فظاهره عند بعض أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع، وإن كنا نقول إنه يدل على أن الشفاء في جميعه[١].

* * *

واعلم أن الكلام يقع فيه الأبلغ والبليغ، ولذلك كانوا يسمون الكلمة «يتيمة»، ويسمون البيت الواحد «يتيمًا». سمعت إسماعيل بن عبادة يقول: سمعت أبا بكر بن مقسم يقول سمعت ثعلبًا[٢] يقول: سمعت الفراء[٣] يقول: العرب تسمي البيت الواحد يتيمًا، وكذلك يقال الدرة اليتيمة، لانفرادها، فإذا بلغ البيتين فهي نتفة، وإلى العشرة تسمى قطعة، وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيدًا، وذلك مأخوذ من المخ القصيد[٤]، وهو المتراكم بعضه على

(١) هذا متوقف على الاختلاف في معنى: «من» فالذين قالوا: إنها في الآية للتبعيض ذهبوا إلى أن الشفاء في بعضه. والذين ذهبوا إلى أنها ليست للتبعيض بل هي للابتداء ـ أو ما شابه ـ قالوا: إن القرآن كله شفاء وليس بعضه. وهذا هو الصواب والله ـ تَعَالَى ـ أعلم.

(٢) ثعلب: إمام الكوفيين في النحو واللغة/ ت: ٢٩١. تقدم التعريف به.

(٣) الفراء: يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي. أبو زكريا. المعروف بالفراء؛ لأنه كان يفري الكلام. كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، كان يميل إلى الاعتزال. له مصنفات كثيرة. توفي سنة سبع ومئتين.

(٤) وهناك آراء أخرى. فمنهم من يرى القصيدة ما كانت ثلاثة أبيات فصاعدا. ومنهم من يرى أنها تبدأ من ستة عشر بيتًا. والمخ القصيد: المخ السمين المتراكم. والرأد: التنضيد. والرئيد: النضد.

بعض، وهو ضد الرأد ومثله الرئيد. انتهت الحكاية، ثم استشهد بقول لبيد(١):

فتذاكرا ثقلا رئيدًا بعد ما ألقت ذكاء يمينها في كافر(٢)

يريد بيض النعام؛ لأنه ينضد بعضه على بعض.

وكذلك يقع في الكلام البيت الوحشي والنادر، والمثل السائر، والمعنى الغريب، والشيء الذي لو اجتهد له لم يقع عليه، فيتفق له ويصادفه، قال لي بعض علماء هذه الصنعة وجاريته في ذلك: إن هذا مما لا سبب له يخصه، وإنما سببه القرارة في أصل الصنعة، والتقدم في عيون المعرفة، فإذا وجد ذلك وقع له من الباب ما يطرد عن حساب، وما يشذ عن تفصيل الحساب، فأما ما قلنا من أن ما بلغ قدر السورة معجز، فإن ذلك صحيح.

* * *

---

(١) لبيد بن ربيعة العامري. أدرك الإسلام شيخًا. ومنذ أسلم استبدل الاشتغال بالقرآن بالاشتغال بالشعر. ولم يقل منذ أسلم شعرًا قط إلا بيتًا واحدًا ـ فيما يروى ـ، وقد قال عمر بن الخطاب له: أنشدني من شعرك، فتلا عليه سورة البقرة. وقال: لم أكن لأقول شعرًا بعد أن علمني اللَّه ـ تَعَالَى ـ سورة البقرة. مات شيخًا هرمًا قد تخطى المئة بكثير.

(٢) الثقل الرئيد: يقصد بيض النعام المنضد بجوار بعضه، والضمير في تذاكرا: للظليم والنعامة، والظليم هو الذكر. ذكاء: الشمس. كافر: ظلام الليل؛ لأنه يكفر الأشياء أي يسترها ويخفيها. يقول إن: ذكر وأنثى النعام تذكرا بيضهما بعد أن غابت الشمس.

فصل

في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة؟

ذهب أبو الحسن الأشعري إلى أن ظهور ذلك على النبي ﷺ يعلم ضرورة، وكونه معجزًا يعلم باستدلال[(١)]، وهذا المذهب محكي عن المخالفين[(٢)].

والذي نقوله في هذا إن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالًا، وكذلك من لم يكن بليغًا.

فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية، وغرائب الصنعة، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيان بمثله، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه، كما أنه إذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك فهو يعلم عجز غيره استدلالا.

فصل

فيما يتعلق به الإعجاز

إن قال قائل: بينوا لنا ما الذي وقع التحدي إليه، أهو الحروف المنظومة، أو الكلام القائم بالذات، أو غير ذلك؟

قيل: الذي تحداهم به أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن، منظومة كنظمها، متتابعة، مطردة كاطرادها، ولم يتحدهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له، وإن كان كذلك فالتحدي واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة، التي هي عبارة عن كلام اللَّه ـ تَعَالَى ـ في نظمها وتأليفها، وهي حكاية لكلامه، ودلالات عليه، وإمارات له، على أن يكونوا مستأنفين لذلك، لا حاكين

---

(١) أي أن ثبوت نزول القرآن على النبي ﷺ ثابت بالضرورة. أي أمر مسلم لا يطلب عليه دليل ولا برهان. أما كون القرآن معجزًا فأمر لا يدرك بالضرورة، بل بالاستدلال.

(٢) المقصود بالمخالفين: مخالفو الأشاعرة أمثال المعتزلة وغيرهم. وقد يريد المعتزلة تحديدًا.

بما أتى به النبي ﷺ.

ولا يجب أن يقدر مقدر، أو يظن ظان، أنا حين قلنا: إن القرآن معجز فإنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، أردنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات(١). وقد بيّنّا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزًا لكونه عبارة عن الكلام القديم؛ لأن التوراة والإنجيل عبارة عن الكلام القديم. وليس ذلك بمعجزة في النظم والتأليف، وكذلك ما دون الآية - كاللفظة - عبارة عن كلامه، وليست بمفردها بمعجزة.

وقد جوز بعض أصحابنا أن يتحداهم إلى مثل كلامه القديم القائم بنفسه(٢)، والذي عول عليه مشايخنا ما قدمنا ذكره، وعلى ذلك أكثر مذاهب الناس. ولم

---

(١) يفرق المؤلف - عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنْهُ - كما هو شأن الأشاعرة وكثيرين غيرهم من علماء الكلام بين كلام الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الذي هو صفة معنوية قديمة قائمة بذاته ﷻ، بها وعنها جاءت الكتب الإلهية جميعها التي ذكرت السنة الشريفة أنها مائة كتاب وأربعة كتب؛ منها: التوراة، والإنجيل، والقرآن.. نقول: يفرق المؤلف بين هذه الصفة القديمة لربنا - سُبْحَانَهُ - التي هي صفة الكلام وبين الكتب نفسها التي هي كلام الله، والتي هي أثر لتلك الصفة؛ ولذلك قال المؤلف عن القرآن: إنه حكاية لكلامه - تَعَالَى -.. والمؤلف يفرق - بناء على هذه التفرقة - بين كلام اللَّه - تَعَالَى - الذي هو صفة قديمة به - سُبْحَانَهُ - وكلامه الذي هو بين دفتي المصحف الشريف، فيما يتصل بالإعجاز؛ فيقول: إن المعجز ليس الصفة القديمة، التي قال عنها: «عن الكلام القديم القائم بالذات» فيذهب إلى أن الكلام الذي هو الصفة ليس معجزًا لأن من آثار الكلام القديم القائم بالله - تَعَالَىٰ - الكتب السابقة على القرآن المجيد؛ مثل التوراة والزبور والإنجيل. وكلها ليست معجزة في صنعتها اللغوية مثل القرآن. فلو كان الكلام القديم معجزًا لكان كل الكتب التي صدرت عنه معجزة، لكن التوراة والإنجيل وغيرهما ليست بمعجزة.. والمعجزة عنده هو القرآن المجيد وحده الذي هو حكاية للكلام القديم. وأثر من آثار صفة اللَّه - تَعَالَى -..

هذا وفكر الرجل - بهذه الصورة - به الكثير مما لا نرضاه ولا نوافقه عليه. وإنصافًا للرجل فإن ما ذهب إليه هو - كما ذكرنا قبلًا - مذهب الأشاعرة. لكنا بينا فكر الرجل بأمانة.

(٢) هذا على مذهب من قال: إن القرآن المجيد بمعانيه وحروفه وألفاظه قديم.

يجب أن نفسر ونذكر موجب هذا المذهب الذي حكيناه، وما يتصل به؛ لأنه خارج عن غرض كتابنا؛ لأن الإعجاز وقع في نظم الحروف، التي هي دلالات وعبارات عن كلامه، وإلى مثل هذا النظم وقع التحدي، فبينا وجه ذلك، وكيفية ما يتصور القول فيه، وأزلنا توهم من يتوهم أن الكلام القديم حروف منظومة، أو حروف غير منظومة، أو شيء مؤلف، أو غير ذلك[١]، مما يصح أن يتوهم، على ما سبق من إطلاق القول فيما مضى.

فصل

في وصف وجوه من البلاغة

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

* * *

فأما الإيجاز: فإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى، فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة، وذلك ينقسم إلى حذف وقصر:

فالحذف الإسقاط للتخفيف، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢١]. وحذف الجواب كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، كأنه قيل لكان هذا القرآن. والحذف أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب.

---

(١) يرى المؤلف ـ عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنْهُ ـ أن القرآن بحروفه وألفاظه دلالات على كلام اللَّه ـ تَعَالَى ـ القديم، وليست هي قديمة. فالحروف والألفاظ عنده حادثة. أما المعاني التي عبرت عنها تلك الحروف والألفاظ وحكتها فهي القديمة. ونحن لا نوافق على ذلك ـ عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنْهُ ـ.

والإيجاز بالقصر كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

والإطناب فيه بلاغة، أما التطويل ففيه عي.

وأما التشبيه فهو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل، كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٩ - ٢٠]، وقوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وقوله ـ تعَالَى ـ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن: ٢٤]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤]..ونحو ذلك.

* * *

ومن ذلك باب الاستعارة: وهو بيان التشبيه، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وكقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤]، وكقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وكقوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، فالدمغ والقذف مستعار. وقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٢٧]. وقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وقوله: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، وقوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: ١٨]، وقوله: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٥]، وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١]، يريد أن لا إحساس بآذانهم من غير صمم. وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، وهذا أوقع من اللفظ الظاهر، وأبلغ من الكلام الموضوع.

* * *

وأما التلاؤم: فهو تعديل الحروف في التأليف. وهو نقيض التنافر، كقول الشاعر:

وقبر حربٍ بمكان قفرٍ وليس قرب قبر حربٍ قبرُ[1]

(١) وصل هذا البيت من التنافر إلى الحد الذي جعله مضرب المثل لذلك لدى جمهرة المتكلمين عن التنافر.

قالوا: هو من شعر الجن، حروفه متنافرة، لا يمكن إنشاده إلا بتتعتع فيه.
والتلاؤم على ضربين: أحدهما في الطبقة الوسطى كقوله:

رمتني وستر اللَّه بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم[1]

رميم التي قالت لجارات بيتها ضمنت لكم أن لا يزال يهيم

ألا رب يومٍ لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

قالوا: والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله، وإن كان بعض الناس أحسن إحساسًا من بعض، كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض.

والتلاؤم: حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، ووقوع المعنى في القلب، وذلك كالخط الحسن[2]، والبيان الشافي. والمتنافر كالخط القبيح، فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان، وصحة البرهان، في أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع. بصيرًا بجودة الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر. والمتنافر ذهب الخليل إلى أنه من بعد شديد، أو قرب شديد، فإذا بَعُد فهو كالطفرة[3]، وإذا قرب جدًا كان بمنزلة مشي المقيد، ويبين ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدها.

* * *

وأما الفواصل: فهي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني. وفيها بلاغة. والأسجاع عيب؛ لأن السجع يتبع المعنى، والفواصل تابعة للمعاني،

---

(١) آرام: جمع رئم وريم. وهو الظبي خالص البياض. ويجمع أيضًا على: أرآم. والكناس ـ بكسر الكاف ـ: بيت الظبي. يقال: أوى الظبي إلى كناسه. ورميم: اسم محبوبته.

(٢) الكلام له جانبا حسن: في السمع وذلك بحسن الصنعة في اللغة، والجانب الثاني في العين. وذلك بحسن الصنعة في رسم الكلمات وجودة الخط.

(٣) أي الذي يمشي قفزًا. وهو عكس الذي يمشي مقيد الرجلين.

والسجع كقول مسيلمة(١)، ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على حروف متقاربة، ولا تحتمل القوافي ما تحتمل الفواصل؛ لأنها ليست في الطبقة العليا في البلاغة؛ لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي، وإقامة الوزن، وأما **التجانس** فإنه بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد، وهو على وجهين: مزاوجة ومناسبة.

فالمزاوجة كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٩]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وكقول عمرو بن كلثوم(٢):

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وأما المناسبة فهي كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

* * *

أما التصريف: فهو تصريف الكلام في المعاني، كتصريفه في الدلالات المختلفة: كتصريف المُلْك في معاني الصفات، فصرِّف في معنى «مالك» و«ملك» و«ذي الملكوت» و«المليك» وفي معنى «التمليك» و«التملك» و«الأملاك»..

---

(١) قد سبق وذكر المؤلف بعض السجع المسف الساقط للكذاب مسيلمة والذي زعم أنه وحي من رب العالمين ـ سُبْحَانَهُ عما يقولون ـ وذلك مثل قوله: «ضفدع يا بنت ضفدعين ـ نقي أو لا تنقين ـ نصفك في الماء ونصفك في الطين..» إلى آخر هذا الغثاء البارد لكذاب بني حنيفة.

(٢) عمرو بن كلثوم: عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد، من بني تغلب بن وائل شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات. له معلقة مطلعها:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

والبيت المذكور من المعلقة.

وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة، كما كرر من قصة موسى مواضع(١).

* * *

وأما التضمين: فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه، وذلك على وجهين: تضمين توجبه البنية كقولنا: معلوم يوجب أنه لابد من عالم.

وتضمين يوجبه معنى العبارة، من حيث لا يصح إلا به، كالصفة بضارب يدل على مضروب. والتضمين كله إيجاز، والتضمين الذي تدل عليه دلالات القياس أيضًا إيجاز، وذكر أن «بسم اللّٰه الرحمن الرحيم» من باب التضمين؛ لأنه تضمن تعليم الاستفتاح في الأمور باسمه، على جهة التعظيم للّٰه ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ، أو التبرك باسمه.

* * *

وأما المبالغة: فهي الدلالة على كثرة المعنى، وذلك على وجوه:

منها مبالغة في الصفة المبينة لذلك، كقولك رحمن، عدل عن ذلك للمبالغة، وكقوله: غفار، وكذلك فعال وفعول كقوله: شكور وغفور، وفعيل كقوله: رحيم وقدير، ومن ذلك أن يبالغ باللفظة التي هي صفة عامة، كقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٠٢، الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢، غافر: ٦٢]، وكقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وكقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]. وقد يدخل فيه الحذف الذي تقدم ذكره للمبالغة.

* * *

وأما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة. ويقع التفاضل في البيان، ولذلك قال عز من قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢

---

(١) أي بكلام مختلف، ومعان متعددة. والمضمون واحد.

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، وقيل: أعيا من باقل، سئل عن ظبية في يده بكم اشتراها؟ فأراد أن يقول بأحد عشر، فأشار بيديه مادًّا أصابعه العشرة ثم أدلع لسانه، وأفلت الظبي من يده.

ثم البيان على مراتب.

* * *

قلنا: قد كنا حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة، التي ذكرنا أنها تسمى البديع في أول الكتاب مما مضت أمثلته في الشعر. ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التي عددناها في هذا الفصل.

واعلم أن الذي بيناه قبل هذا، وذهبنا إليه، هو سديد، وهو أن هذه الأمور تنقسم، فمنها: ما يمكن الوقوع عليه، والتعمل له، ويدرك بالتعلم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به، وأما ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه، ونحن نضرب لذلك أمثلة، لتقف على ما ذهبنا إليه، وذكرنا في هذا الفصل عن هذا القائل أن التشبيه تعرف به البلاغة، وذلك مسلم، ولكن إن قلنا: ما وقع من التشبيه في القرآن معجز، عرض علينا من التشبيهات الجارية في الأشعار ما لا يخفي عليك. وأنت تجد في شعر ابن المعتز(١) من التشبيه البديع الذي يشبه السحر، وقد تتبع في هذا ما لم يتتبع غيره، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء.

وكذلك كثير من وجوه البلاغة، قد بينا أن تعلمها يمكن، وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره. فإن كان إنما يعني هذا القائل أنه إذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية، ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه إلى متصرفاته على أتم البلاغة، وأبدع البراعة، فهذا مما لا نأباه، بل نقول به. وإنما ننكر أن يقول قائل: إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز،

---

(١) ابن المعتز. شاعر عباسي. تولى الخلافة يومًا واحدًا ثم قتل.

من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام، ويفضي إليه، مثل ما يقول: إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، وإن التشبيه معجز، وإن التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة. فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه: فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها فإني لا أدفع ذلك، وأصححه، ولكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه، وصاحب المقالة التي حكيناها أضاف ذلك إلى موضع التشبيه، وما قرن به من الوجوه، ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان، وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس، ولذلك قال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥]. فكرر في مواضع ذكره أنه مبين.

فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهد، وتشكله على جهته، حتى يحل محل البرهان، ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنًا وبهجة وسناء ورفعة. وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب، والتمكن في النفوس، ما يذهب ويبهج، ويقلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجودًا، ويرمى السامع من وراء رأيه مرمى بعيدًا، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة، وبحسب ما يترتب في نظمه، ويتنزل في موقعه، ويجرى على سمت مطلعه ومقطعه، يكون عجيب تأثيراته، وبديع مقتضياته، وكذلك على حسب مصادره، يتصور وجوه موارده.

وقد ينبئ الكلام عن محل صاحبه، ويدل على مكان متكلمه، وينبه على عظيم شأن أهله، وعلى علو محله. ألا ترى أن الشعر في الغزل إذا صدر عن

محب كان أرق وأحسن. وإذا صدر عن متغزل، وحصل من متصنع، نادى على نفسه بالمداجاة(١)، وأخبر عن خيبته في المراءاة. وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع، فيعلم وجه صدوره، ويدل على كنهه وحقيقته. وقد يصدر عن المتشبه، ويخرج عن المتصنع، فيعرف من حاله ما ظن أنه يخفيه، ويظهر من أمره خلاف ما يبديه، وأنت تجد لقول المتنبي:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والحرب والطعن والقرطاس والقلم(٢)

من الوقع في القلب ـ لما تعلم أنه من أهل الشجاعة ـ ما لا تجده للبحتري في قوله:

وأنا الشجاعة قد بدا لك موقفي ... بعقرقس والمشرفية شُهَّدي(٣)

وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب، في الفخر وغيره، ما لا تجده لغيره؛ لأنه إذا قال:

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرًا ... وسارت ورائي هاشم ونزار

وعم السماء النقع حتى كأنه ... دخان وأطراف الرماح شرار(٤)

وقال:

---

(١) المداجاة: المخادعة بإظهار الود وإبطان العداوة. يقال: داجاه. أي ساتره بالعداوة ولم يبدها له.

(٢) يروى كذلك: والحرب والضرب بدلا من: والحرب والطعن. ويروى أن هذا البيت كان السبب في قتل المتنبي. إذ كان في سفر له فعرض له في الطريق قطاع طرق، وقتل من مع المتنبي من خدمه وعبيده. ولما هم بالفرار ناداه أحد اللصوص قائلًا له: ألست الذي قلت:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والحرب والضرب والقرطاس والقلم

أتكون جبانًا وكذابًا؟ فالتفت المتنبي راجعًا، وقال للرجل: قتلتني، قتلك الله. وظل يقاتل وحده حتى قتل.

(٣) عقرقس: اسم موضع. والمشرفية: اسم لنوع من السيوف الجيدة.

(٤) أوقرت: ملأت البلاد حتى ضاقت. حوافر: خيلا. النقع: الغبار المتطاير من سنابك الخيل =

قد تردَّيتُ بالمكارم دهرًا وكفتني نفسي من الافتخار
أنا جيش إذا غزوت وحيدًا ووحيد في الجحفل الجرار[(١)]

وقال:

أيها السائلي عن الحسب الأطيب ما فوقه لخلق مزيد
نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القرَى، فماذ تريد؟[(٢)]
ولنا ما أضاء صبح عليه وأتته رايات ليل سود

وكما أنشدنا الحسن بن عبدالله[(٣)] قال: أنشدنا محمد بن يحيى لابن المعتز قصيدته التي يقول فيها:

أنا ابن الذي سادهم في الحياة وسادهم بي تحت الثرى
وما لي في أحد مرغب بلى فيَّ يرغب كل الورى
وأسهر للمجد والمكرمات إذا كُحِلت أعين بالكرى[(٤)]

فانظر في القصيدة كلها، ثم في جميع شعره، تعلم أنه ملك الشعر، وأنه يليق به من الفخر خاصة، ثم مما تبعه مما يتعاطاه، ما لا يليق بغيره بل ينفر عن سواه، ولم أحب أن أكثر عليك، فأطول الكتاب، بما يخرج عن غرضه.

وكما ترى من قول أبي فراس الحمداني[(٥)]، في نفسك إذا قال:

= أثناء المعركة.

(١) ترديت: لبست. الجحفل الجرار: الجيش الكثير.

(٢) العترة: الأصل. وفي المثل: «عادت لعترها لميس» أي لأصلها. والعترة: النسل والرهط والعشيرة..القرى: إطعام الطعام. وإكرام الضيفان.

(٣) الحسن بن عبدالله: أبو هلال العسكري. صاحب: الصناعتين. مر التعريف به.

(٤) أي: أن أباه ساد القوم في حياته بنفسه، وسادهم بعد مماته بابنه الذي هو الشاعر. مرغب: ما يرغب ويطمع فيه. الكري: النوم.

(٥) أبو فراس الحمداني: الحارث بن سعيد بن حمدان. ابن عم سيف الدولة الحمداني. من =

ولا أصبح الحيَّ الخلوفَ بغارة ولا الجيش ما لم يأته قبلي النُّذر[١]
ويا ربَّ دار لم تخفني منيعة طلعتُ عليها بالردى أنا والفجر[٢]
وساحبةِ الأذيال نحوي لقيتها فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر[٣]
وهبت لها ما حازه الجيش كله وآبت ولم يكشف لأبياتها ستر
وما راح يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي في المال أبغي وفوره إذا لم أفر عرضي فلا وَفَر الوفرُ

والشيء إذا صدر من أهله، وبدا من أصله، وانتسب إلى ذويه، سلم في نفسه، وبانت فخامته وشواهد أثر الاستحقاق فيه. وإذا صدر من متكلف، وبدا من متصنع، بان أثر الغرابة عليه، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه، وعرف شمائل التخير منه.

إنا نعرف في شعر أبي نواس أثر الشطارة، وتمكن البطالة، وموقع كلامه في وصف ما هو بسبيله، من أمر المغازلة، ووصف الخمر، والخمار. كما نعرف موقع كلام ذي الرمة[٤]، في وصف المهامه والبوادي، والجمال والأنساع والأزمة.

= ذوي السيف والقلم. كان بعض مؤرخي الأدب يقول: «بدئ الشعر بملك. وختم بملك» يريد امرأ القيس وأبا فراس.

(١) الخلوف: الفاسد. يقال: خلف الطعام أي فسد. وخلف فم الصائم: أي تغير إلى ما يكره. وفي الحديث الشريف: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».. النذر: جمع نذير أي أنه لا يغير على أعدائه غدرًا وسرًا، وإنما يعلمهم قبل أن يغير عليهم.

(٢) الردى: الموت. طلعت عليه بالردى أنا والفجر: أي أن الموت يأتي في ركابه.. ويبيت أعداؤه وافرين فيأتي الصباح فلا يكون لهم وجود. ومن عادة العرب أن يغيروا ليلا أو في الصباح الباكر.

(٣) ساحبة الأذيال: المرأة. يصف نفسه بالجرأة والشجاعة والقسوة في مقابلة الرجال، وباللين والرقة والنخوة في لقاء النساء.

(٤) ذو الرمة: غيلان بن عقبة بن بهسين. شاعر إسلامي مجيد. سبق التعريف به.

وعيب أبي نواس التصرف في وصف الطلول والرباع والوحش، ففكر في قوله:

دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبلي عهد جدتها الخطوب[1]
وخلِّ لراكب الوجناء أرضًا تخبُّ بها النجيبة والنجيب[2]
بلاد نبتها عشر وطلح وأكثر صَيْدِها ضبع وذيب[3]
ولا تأخذ عن الأعراب لهوًا ولا عيشا فعيشهم جديب
دعِ الألبان يشربها رجال رقيق العيش عندهم غريب
إذا راب الحليبُ فبل عليه ولا تحرج، فما في ذاك حوب[4]
فأطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها ساقٍ أديبُ
كان هديرها في الدن يحكى قَرَاة القس قابله الصليب[5]

---

(١) تسفيها الجنوب: تذروها الرياح. الخطوب: الأحداث والمحن.

(٢) الوجناء: في الأصل عظيمة الوجنتين. والمراد بها في جانب البعير: الشديدة القوية النجية والنجيب: الناقة والبعير سريع الجري الذي يسبق ما عداه.

(٣) يصف البلاد بأنها لا خير فيها لا للرعي ولا للصيد. وهما أهم ما كان ينشط له العربي. فلا نبات فيها يصلح للرعي، ولا حيوان فيها يصلح للصيد.

(٤) راب الحليب: صار رائبًا. الحوب: الجرم والإثم. والبيت من أسوأ ما قال ذلك الماجن الفاسق. وما كان أجدر بالمؤلف الفاضل أن ينزه كتابًا في موضوع شريف عن شعر هذا الخليع الذي يصدم النفس ويلوث الفطرة السوية..
وهذا البيت والذي بعده يذكرنا بواقعة شريفة. حين عرض على سيدنا رسول الله ﷺ إناءان في أحدهما حليب والآخر فيه خمر. فاختار ﷺ الحليب. فقال له الملك: اخترت الفطرة.
ونحن لا نستبعد أن يكون الشاعر الفاسق قد اطلع على الخبر الشريف وعارضه بهذين البيتين اللذين هما في موقع النقض له تمامًا.

(٥) قراة القس: أي قراءته في كنيسته. وقراءة القساوسة لها زمزمة ورطانة لا تكاد تبين.

أعاذل أقصري عن طول لومي فراجي توبتي عندي يخيب
تعيبين الذنوب، وأي حر من الفتيان ليس له ذنوب؟

وقوله:

صفة الطلول بلاغة الفدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم(١)

وسمعت الصاحب إسماعيل بن عباد(٢) يقول: سمعت براكويه الزنجاني يقول: أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى:

وَدِّعْ هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيقُ وداعًا أيها الرجل

وكان وصف فيها الطلل، قال براكويه: فقال لي هلال، فقلت بديها:

إذا سمعت فتى يبكي على طلل من أهل زنجان فاعلم أنه طلل

* * *

وإنما ذكرت لك هذه الأمور لتعلم أن الشيء في معدنه أعز، وفي مظانه أحسن، وإلى أصله أنزع، وبأسبابه أليق، وهو يدل على ما صدر منه، وينبه ما أنتج عنه، ويكون قراره على موجب صورته، وأنواره على حسب محله، ولكل شيء حد ومذهب، ولكل كلام سبيل ومنهج، وقد ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كلام مسيلمة ما أخبرتك به فقال: إن هذا كلام لم يخرج من آل(٣). فدل على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية، ورفعة الإلهية، يتميز عما لم يكن كذلك.

ثم رجع الكلام بنا إلى ما ابتدأنا به، من عظيم شأن البيان، ولو لم يكن فيه إلا ما منَّ به اللَّه على خلقه بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ٣، ٤].

---

(١) الفدم: الغبي الأحمق. والأصل في الفدام: أنه الغطاء يوضع على الفم أو الإناء. وكأن الأحمق قد وضع غطاء على عقله فستره وعطله.

(٢) الصاحب إسماعيل بن عباد: إسماعيل بن عباد الملقب بالصاحب. سبقت الإشارة إليه.

(٣) عن ربوبية: أي أنه لا يمكن أن يكون وحيًا عن اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ.

فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسناه. تأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف: ٥]، في شدة التنبيه على تركهم الحق، والإعراض عنه، وموضع امتنانه بالذكر والتحذير. وقوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾ [الزخرف: ٤٩]، وهذا بليغ في التحسير. وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر، معودين لمخالفة النهي والأمر. وقوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧]، هو في نهاية الوضع من الخلة إلا على التقوى. وقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وهذا نهاية في التحذير من التفريط. وقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، هو النهاية في الوعيد والتهديد. وقوله: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۝٤٤ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٥٤ ـ ٥٥]، نهاية في الوعيد. وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، نهاية في الترغيب. وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وكذلك قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] نهاية في الحجاج. وقوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٣ ـ ١٤]، نهاية في الدلالة على علمه بالخفيات.

* * *

ولا وجه للتطويل، فإن بيان الجميع في الرفعة، وكبر المنزل على سواء، وقد ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز، وهو معجز، من القرآن، وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ فليس ذلك بطريق الإعجاز؛ لأن الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام غيره، وليس ذلك بمعجز، بل قد يصح أن

يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه من اللفظ يثمر الإعجاز.

وتضمين المعاني أيضًا قد يتعلق به الإعجاز، إذا حصلت للعبارة طريق البلاغة في أعلى درجاتها. وأما الفواصل فقد بينا أنه يصح أن يتعلق بها الإعجاز. وكذلك قد بينا في المقاطع والمطالع نحو هذا. وبينا في تلاؤم الكلام ما سبق من صحة تعلق الإعجاز به. والتصرف في الاستعارة البديعية يصح أنه يتعلق به الإعجاز. كما يصح مثل ذلك في حقائق الكلام؛ لأن البلاغة في كل واحد من البابين، تجرى مجرى واحدًا، وتأخذ مأخذًا مفردًا.

وأما الإيجاز والبسط فيصح أن يتعلق بهما إعجاز، كما يتعلق بالحقائق. والاستعارة والبيان في كل واحد منهما ما لا يضبط حده، ولا يقدر قدره، ولا يمكن التوصل إلى ساحل بحره بالتعلم، ولا يتطرق إلى غوره بالتسبب، وكل ما يمكن تعلمه، ويتهيأ تلقنه، ويمكن تخليصه، ويستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب وقوع الإعجاز به، ولذلك قلنا إن السجع مما ليس يلتمس فيه الإعجاز؛ لأن ذلك أمر محدود، وسبيل مورود، ومتى تدرب الإنسان به واعتاده، لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه. وكذلك التجنيس والتطبيق متى أخذ حدهما، وطلب وجههما، استوفى ما شاء، ولم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه، كما أولع بذلك أبو تمام والبحتري، وإن كان البحتري أشغف بالمطابق، وأقل طلبًا للمجانس.

فإن قال قائل: هلا قلت إن هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية لا يوصل إليها بالتعلم، ولا تملك بالتعمل، كما ذكرتم في البيان وغير ذلك؟

قلنا: لو عمد إلى كتاب الأجناس(١)، ونظر في كتاب العين(٢)، لم يتعذر عليه التجنيس الكثير. فأما الإطباق فهو أقرب منه، وليس كذلك البيان، والوجوه

---

(١) كتاب الأجناس. للأصمعي الأديب اللغوي الناقد. سبق التعريف به.

(٢) كتاب العين. للخليل بن أحمد ـ النحوي اللغوي المشهور. سبق التعريف به.

التي رأينا الإعجاز فيها، لأنها لا تُستوفَى بالتعلم.

فإن قيل: فالبيان قد يتعلم.. قيل: إن الذي يمكن أن يتوصل إليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس، وتتناهى فيه العادات، وهو كما يعلم من مقادير القوى في حمل الثقيل وإن الناس يتقاربون في ذلك، فيرمون فيه إلى حد، فإذا تجاوزوه وقفوا بعده، ولم يمكنهم التخطي، ولم يقدروا على التعدي، إلا أن يحصل ما يخرق العادة، وينقض العرف، ولن يكون ذلك إلا للدلالة على النبوات، على شروط في ذلك القدر الذي يفوت الحد في البيان، ويتجاوز الوهم، ويشذ عن الصنعة، ويقذفه الطبع في النادر القليل، كالبيت البديع، والقطعة الشريفة التي تتفق في ديوان شاعر، والفقرة تتفق في لسان كاتب، حتى يكون الشاعر ابن بيت أو بيتين، أو قطعة أو قطعتين[(١)]، والأديب شهيد كلمة أو كلمتين، وذلك أمر قليل، ولو كان كلامه كله يطرد على ذلك المسلك، ويستمر على ذلك المنهج، أمكن أن يدعي فيه الإعجاز، ولكنك إن كنت من أهل الصنعة، تعلم قلة الأبيات الشوارد، والكلمات الفرائد، وأمهات القلائد، فإن أردت أن تجد قصيدة كلها وحشية، وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية، لم تجد ذلك في الدواوين، ولم تظفر بذلك إلى يوم الدين.

ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة، ولفظة بديعة، وإنما أنكرنا أن

---

(١) لَسْنَا مع المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في أن الأديب أو الشاعر قد يأتي بالبيت أو البيتين، والقطعة أو القطعتين من الكلام المعجز الذي يشبه القرآن المجيد. فإن ذلك يبطل كون القرآن معجزًا، ويحقق معارضته بمثله. فإن بيتي الشعر إن كانا بهذه المثابة فقد ثبت بهما التعارض من حيث إنهما في قدر «سورة الكوثر» التي ذهب جمهور العلماء إلى أن التحدي يقع بها أو بقدرها من الآي.

وليس يلزم لإبطال الإعجاز أن يطرد هذا النوع المعجز في كلام الشاعر أو الأديب، بل يكفي أن يصدر منه ما يماثل سورة الكوثر أو قدرها، ولو مرة واحدة ولذلك فإن كلام المؤلف بأن ما يماثل القرآن بلاغة قد يصدر من الشاعر في بيتين، أو من الأديب في قطعة أو قطعتين. كلام مرفوض لا حظ له من الصواب.

يقدروا على مثل نظم سورة أو نحوها، وأحلنا أن يتمكنوا من حد في البلاغة، ومقدار في الخطابة، وهذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق في القرآن، وإن لم يكن له حكم الشعر(١).

فأما قدر المعجز فقد بينا أنها السورة طالت أو قصرت، وبعد ذلك خلاف: من الناس من قال: مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجز، وعندنا كل واحد من الأمرين معجز، والدلالة عليه ما تقدم، والبلاغة لا تتبين بأقل من ذلك. فلذلك لم نحكم بإعجازه. وما صح أن تتبين فيه البلاغة، ومحصولها الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس، على أحسن معنى، وأجزل لفظ، وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام، فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغًا وبليغًا، فإذا تجاوز حد البلاغة، إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، وانتهى إلى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة، صح أن يكون له حكم المعجزات، وجاز أن يقع موقع الدلالات، وقد ذكرنا أنه بجنسه وأسلوبه مباين لسائر كلامهم، ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر.

فإن قيل: فإذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة، تباين جميع ديوانه في البلاغة، ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه، ولا يعرف سبب ذلك البيت، ولا تلك القطعة، في التفصيل، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك، ويجعل جميع كلامه من ذلك النمط، لم يجد إلى ذلك سبيلًا، وله سبب في الجملة وهو التقدم في الصنعة؛ لأنه يتفق من المتأخر فيها. فهلا قلتم: إنه إذا بلغ في العلم بالصناعة مبالغة قصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك وسمت تلك القطعة، وهلا قلتم إن القرآن من هذا الباب؟

---

(١) أي قد تحقق الأوزان الشعرية في شيء من النص الشريف دون أن يعتبر ذلك شعرًا؛ لأن من شروط اعتبار الكلام شعرًا أن يكون القائل قد قصد إلى جعله شعرًا. وقد سبق الكلام على تلك الشروط. وصورة الشعر التي أشار إليها المؤلف وذكر أنها قد تتحقق في القرآن مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فالجواب أنا لم نجد أحدًا بلغ الحدَّ الذي وصفتم في العادة، وهؤلاء الناس وأهل البلاغة أشعارهم عندنا محفوظة، وخطبهم منقولة، ورسائلهم مأثورة، وبلاغاتهم مروية، وحكمهم مشهورة، وكذلك أهل الكهانة والبلاغة، مثل قس ابن ساعدة[١]، وسحبان وائل[٢]، ومثل شق وسطيح[٣] وغيرهم، كلامهم معروف عندنا، وموضوع بين أيدينا، لا يخفي علينا في الجملة بلاغة بليغ، ولا خطابة خطيب، ولا براعة شاعر مفلق، ولا كتابة كاتب مدقق. فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في البلاغة، أو يشاكله في الإعجاز، مع ما وقع من التحدي إليه المدة الطويلة، وتقدم من التقريع والمجازاة الأمد المديد، وثبت له وحده خاصة قصب السبق والاستيلاء على الأمر، وعجز الكل عنه، ووقفوا دونه حيارى، يعرفون عجزهم وإن جهل قوم سببه، ويعلمون نقصهم وإن أغفل قوم وجهه[٤]، رأينا أنه ناقض للعادة، ورأينا أنه خارق للمعروف في الحيلة، وخرق العادة إنما يقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات، وعلى أن من ظهرت عليه، ووقعت موقع الهداية إليه، صادق فيما يدعيه من نبوته، ومحق في قوله، ومصيب في هديه، قد شهدت له الحجة البالغة، والكلمة التامة، والبرهان النير، والدليل البين.

* * *

(١) قس بن ساعدة الأيادي: من أشهر خطباء الجاهلية بلاغة وحكمة.

(٢) سحبان وائل: من أشهر الخطباء العرب. أدرك عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ ويضرب به المثل في البلاغة والطلاقة والحكمة.

(٣) شق وسطيح: من كهان النصارى المشاهير في الجاهلية.

(٤) قول المؤلف: وإن جهل قوم سببه وإن أغفل قوم وجهه. يشير بذلك إلى اختلاف المشتغلين بإعجاز القرآن حول أوجه هذا الإعجاز، وحول كنهه. وهو يشير هنا ـ بوجه أخص ـ إلى القائلين بالصرفة. ثم يشير إلى فريق يقر بأن القرآن معجز ويؤمن بذلك، لكنهم لا يكلفون أنفسهم مؤنة فهم أوجهه، ولا فقه أسبابه.

فصل

في حقيقة المعجز

معنى قولنا: آن القرآن معجز على أصولنا أنه لا يقدر العباد عليه، وقد ثبت أن المعجز الدالَّ على صدق النبي ﷺ لا يصحُّ دخوله تحت قدرة العباد، وإنما ينفرد اللَّه - تَعَالَى - بالقدرة عليه، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه، كما يستحيل عجزهم عن ذلك حقيقة، وكذلك معجزات سائر الأنبياء على هذا.

فلما لم يقدر عليه أحد، شبه بما يعجز عنه العاجز(١)، وإنما لا يقدر العباد على الإتيان بمثله؛ لأنه لو صح أن يقدروا عليه، ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله، وعرضوا عليه من كلام فصحائهم وبلغائهم ما يعارضه. فلما لم يشتغلوا بذلك، علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم، وأساليب نظامهم،

---

(١) كلام عجيب من المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - لم أفهم مراده منه، ولا ما يرمي إليه به. فالمؤلف يفرق بين «عدم القدرة» و«العجز» فيقول: إن الخلق لا يقدرون على الإتيان بمثل القرآن. لكن لا يصح وصفهم بأنهم عاجزون عنه. ويقول: «بأننا لا نقدر على فعل الأجسام - أي خلقها -، وإن لم يصح وصفنا بأننا عاجزون عن ذلك حقيقة».. ويقول: «فلما لم يقدر عليه أحد - أي على الإتيان بمثل القرآن - شبه بما يعجز عنه العاجز».
ونحن لا نفهم معنًى «للعجز» إلا أنه «عدم القدرة» كما لا نفهم معنًى «لعدم القدرة» إلا أنه «عجز». وعلى هذا سار علماؤنا في تعريف كل معجزة لنبي بأنها: «أمر خارق للعادة يظهره اللَّه على يد مدعي النبوة تصديقًا له مع (عجز) الآخرين عن الإتيان بمثله» ولذلك سميت المعجزة معجزة.
وكأني بالمؤلف أراد أن ينفي العجز حتى يصح التحدي.. باعتبار أن تحدي العاجز فيما هو عاجز عنه تحصيل حاصل، وتكليف بما لا يطاق. لكن هذه فكرة متكلفة، وتحتمل الكثير من التمحيص، ومحل ذلك في مجال آخر خشية الإطالة.

وزالت أطماعهم عنه.

وقد كنا بيّنا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر، ووجوه النظم المستحسنة في الأوزان المطربة للسمع، ولا يُحتاج في مثله إلى توقيف، وإنه يتبين أن مثل ذلك يجري في الخطاب، فلما جرى فيه فطنوا له، واختاروه وطلبوا أنواع الأوزان والقوافي، ثم وقفوا على حسن ذلك، وقدروا عليه بتوفيق اللَّه ﷻ، وهو الذي جمع خواطرهم عليه، وهداهم له، وهيأ دواعيهم إليه، ولكنه أقدرهم على حد محدود، وغاية في العرف مضروبة، لعلمه بأنه سيجعل القرآن معجزًا، ودل على عظم شأنه، بأنهم قدروا على ما بيّنا من التأليف، وعلى ما وصفنا من النظم، من غير توقيف، ولا اقتضاء أثر، ولا تحدٍّ إليه، ولا تقريع، فلو كان هذا من ذلك القبيل، أو من الجنس الذي عرفوه وألفوه، لم تزل أطماعهم عنه، ولم يدهشوا عند وروده عليهم، فكيف وقد أمهلهم، وفسح لهم في الوقت، وكان يدعو إليه سنين كثيرة؟ وقال عزَّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[1]. وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدي، بان أنه خارج عن عاداتهم، وأنهم لا يقدرون عليه.

وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ؛ لأن ذلك طبعهم ولغتهم، فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن، وهذا في البلغاء منهم دون المتأخرين في الصنعة، والذي ذكرناه يدلُّك على أنه لا كلام أزيد في قدر البلاغة من القرآن، وكل مَن جوز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله في البلاغة، لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال، ولو لم يكن جرى في المعلوم أنه سيجعل القرآن معجزًا لكان يجوز أن تجري عادات[2] الأولين، وأخبار

(١) سورة فاطر. بعض آية: ٣٧.

(٢) من هنا يبدأ كلام معاد قد سبق بنصه في كلام المؤلف تحت عنوان: «فصل في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن» والكلام المكرر يبدأ بقوله: «الأولين» وينتهي بقوله: «وإن اختلف الحال في ذلك» وهو قرابة ستة وثلاثين سطرًا. =

المرسلين، وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب، وعن الحوادث التي أنبأ أنها تقع في الآتي، فلا يخرج من أن يكون متأولًا على ما يقتضيه نظام الخطاب، من أنه لا يأتيه مَن يبطله من شبهة سابقة، تقدح في معجزته، أو تعارضه في طريقه، وكذلك لا يأتيه من بعد قط أمر يشكك في وجه دلالته وإعجازه، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه(١). ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾(٢)، فأخبر أنه لو كان أعجميًّا لكانوا يحتجون في ردِّه، إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم، أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، بأنهم لا يتبينَّ لهم وجه الإعجاز فيه؛ لأنه ليس من شأنهم، ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور، وأنه إذا تحدَّاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه، وَجَبَت الحجة عليهم به، على ما نبيِّنه في وجه هذا الفصل. إلى أن قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾(٣).. والذي ذكرنا من نَظْم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور، فكرهنا سرد القول فيها، فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه، يجده كذلك.

ثم مما يدل على هذا قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾(٤)، فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعلم من

= ومحل هذا الكلام هناك وليس هنا؛ لأنه يشير في أثنائه إلى السورتين اللتين شرحهما وبين أوجه البلاغة فيهما. ويقصد بذلك سورة: «غافر» وسورة «فصلت» وإنما شرحهما المؤلف هناك وليس هنا.. وقد أثبتنا الكلام هنا متابعة للأصل المطبوع.. واكتفاءً منا بأن التنبيه إليه مؤذ للغرض.

(١) يقصد بذلك قوله ـ تَبَارَكَ وَـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

(٢) سورة فصلت. بعض آية: ٤٤.

(٣) سورة فصلت. الآية: ٥٢.

(٤) سورة العنكبوت. الآيتان: ٥٠، ٥١.

أعلامه، وأن ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله عليهم.

ويدل عليه قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾(١)، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾(٢)، فدلَّ على أنه جعل قلبه مستودعًا لوحيه، ومستنزلًا لكتابه، وأنه لو شاء صرف ذلك إلى غيره، وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق، وإبطال الباطل، مع صرفه عنه. ولذلك أشباه كثيرة تدل نحو الدلالة التي وصفناها، فبان بهذا وبنظائر ما قلنا، أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله ـ تَعَالَى ـ، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد عليها، ووصف منضاف إليها؛ لأن نظمها ليس معجزًا، وإن كان ما تتضمنه من الأخبار عن الغائبات والغيوب معجزًا. وليس كذلك القرآن؛ لأنه يشاركها في هذه الدلالة، ويزيد عليها في أن نظمه معجز. فيمكن أن يستدل به عليه. وحلَّ في هذا من وجه سماع الكلام من القديم ـ سُبْحَانَهُ ـ؛ لأن موسى عليه السلام لما سمع كلامه، علم أنه في الحقيقة كلامه، وكذلك مَن يسمع القرآن، يعلم أنه كلام اللّٰه، وإن اختلف الحال في ذلك(٣) عند البشر، بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغة، وأمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة.

وأما نظم القرآن؛ فقد قال أصحابنا: «إن اللّٰه ـ تَعَالَى ـ يقدر على نظم القرآن في الرتبة التي لا مزيد عليها». وقال مخالفونا: «إن هذا غير ممتنع؛ لأن فيه من الكلمات الشريفة، الجامعة للمعاني البديعة، وانضاف إلى ذلك حسن الموقع، فيجب أن يكون قد بلغ النهاية؛ لأنه عندهم وإن زاد على ما في العادة، فإن الزائد عليها ـ وإن تفاوت ـ فلابدَّ من أن ينتهي إلى حد لا مزيد عليه.. والذي تقول: إنه

(١) سورة الفرقان. فاتحة السورة.
(٢) سورة الشورى. بعض آية. ٢٤.
(٣) إلى هنا ينتهي الكلام المكرر الذي أشرنا إليه قبل ذلك.

لا يمتنع أن يقال: إنه يقدر اللَّه ـ تَعَالَى ـ على أن يأتي بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله، وأما قدرة العباد فهي متناهية في كل ما يقدرون عليه، مما تصح قدرتهم عليه(١).

* * *

فصل

في كلام النبي ﷺ وأمور تتصل بالإعجاز

إن قال قائل: إذا كان النبي ﷺ أفصح العرب، وقد قال هذا في حديث مشهور(٢)، وهو صادق في قوله، فهلا قلتم إن القرآن من نظمه لقدرته في الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره.

قيل: قد علمنا أنه لم يتحدهم إلى مثل قوله وفصاحته، والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشاعرين وكلام الخطيبين في الفصاحة وذلك مما لا يقع به الإعجاز، وقد بينا قبل هذا أنا إذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور، وبين نَظْم القرآن، تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام اللَّه ﷻ وكلام الناس. ولا معنى لقول مَن ادَّعَى أن كلام النبي ﷺ معجز وإن

---

(١) خلاصة ما يثيره المؤلف في هذه الفقرة: أن هناك خلافًا بين المتكلمين بعامةُ وبين الأشاعرة ـ قبيل المؤلف ـ والمعتزلة ـ الذين قال عنهم المؤلف مخالفونا ـ بخاصة. والخلاف قائم حول الجواب على هذا السؤال: هل يقدر الله ـ تعالى ـ على أن يجعل القرآن أبلغ مما هو عليه أم لا؟ . أو : هل كان الله ـ تعالى ـ قادرًا على أن ينزل القرآن على صورة أبلغ مما هو عليه أم لا؟ ذهب المؤلف والأشاعرة إلى أن الله ـ تعالى ـ كان قادرا على أن ينزل قرآنا أبلغ من هذا الذي أنزل، والمعتزلة عارضوا ذلك ورفضوه.

(٢) يشير إلى الحديث الصحيح الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «**فُضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**» رواه مسلم والترمذي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ.

كان دون القرآن في الإعجاز.

فإن قيل: لولا أن كلامه معجز لم يشتبه[١] على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن، وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن أم لا، ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره، وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط. وقد يجوز أن يكون شذَّ عن مصحفه؛ لأنه نفاه من القرآن، بل عوَّل على حفظ الكل إيَّاه. على أن الذي يروونه خبر واحد لا يسكن إليه في مثل هذا ولا يعمل عليه، ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ينساه كما يكتب الواحد منا بعض الأدعية على ظهر مصحفه.

وهذا نحو ما يذكر الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود وبين مصحف عثمان ـ رحمة الله عليهما ـ. ونحن لا ننكر أن يغلط في حروف معدودة، كما يغلط الحافظ في حروف وينسى. وما لا نجيزه على الحفاظ، مما لم نجزه عليه، ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك، وكان يظهر وينتشر، فقد تناظروا في أقل من هذا، وهذا أمر يوجب التفكير والتضليل، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه؟ وقد علمنا إجماعهم على ما جمعوه في المصحف، فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولدة بالإجماع المتقرر، والاتفاق المعروف؟ ويجوز أن يكون الناقل أشبه عليه؛ لأنه خالف في النظم والترتيب، فلم يثبتهما في آخر القرآن، والاختلاف بينهم في موضع الإثبات غير الكلام في الأصل، ألا ترى أنهم قد اختلفوا في أول ما نزل من القرآن، فمنهم مَن قال قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[٢]، ومنهم مَن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾[٣]، ومنهم مَن قال: فاتحة الكتاب. واختلفوا أيضًا في آخر ما أنزل، فقال ابن عباس: ﴿إِذَا

---

(١) يبدو أن «لا» زائدة في: لولا. والصحيح: لو أن كلامه معجز لم يشتبه. إلى آخر الكلام. وبدون حذف «لا» لا يستقيم الكلام.

(٢) سورة العلق. فاتحة السورة.

(٣) سورة المدثر. فاتحة السورة.

جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾(١)، وقالت عائشة: «سورة المائدة»، وقال البراء بن عازب: «آخر ما أنزل: سورة براءة»، وقال سعيد بن جُبير: «آخر ما أنزل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾(٢) «آخر ما أنزل: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾(٣)، ويجوز أن يكون في مثل هذا خلاف، وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع.

ولو كان القرآن من كلامه، لكان البون بين كلامه وبينه، مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئها رجل واحد، وكانوا يعارضونه، لأنَّا قد علمنا أن القدر الذي بين كلامهم وبين كلام النبي ﷺ لا يخرج إلى حد الإعجاز، ولا يتفاوت التفاوت الكثير. ولا يخفى كلامه من جنس أوزان كلامهم، وليس كذلك نظم القرآن؛ لأنه خارج من جميع ذلك.

* * *

فإن قيل: لو كان على ما ادَّعيتم، لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره. قيل: معرفة الفصل بين وزن الشعر ووزنه، والفرق بينه وبين غيره من الأوزان، تحتاج إلى نظر وتأمل، وفكر وروية واكتساب، وإن كان النظم المختلف الشديد التباين، إذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة، إلا أن كل وزن وقبيل إذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه إلى الفكرة والتأمل.

فإن قيل: لو كان معجزًا لم يختلف أهل الملة في وجه إعجازه. قيل: قد يثبت الشيء دليلًا، وإن اختلفوا في وجه دلالة البرهان، كما قد يختلفون في الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق.

فأما المخالفون فإنه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام اللَّه؛ لأن مذهبهم

---

(١) سورة النصر. فاتحة السورة.

(٢) سورة البقرة. بعض آية: ٢٨١.

(٣) سورة التوبة. خاتمة السورة.

أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول، أو من قبل الله ﷻ في كونه معجزًا؛ لأنه إن خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله، أمكنه أن يأتي بما له هذه الرتبة، وكان متعذرًا على غيره، لفقد علمه بكيفية النظم. وليس القوم بعاجزين عن الكلام، ولا عن النظم والتأليف.

والمعنى المؤثر عندهم في تعذُّر مثل نظم القرآن علينا فقد العلم بكيفية النظم، وقد بينا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه. والمفحم قد يعلم كيفية الأوزان واختلافها، وكيفية التركيب وهو لا يقدر على نظم الشعر، وقد يعلم الشاعران وجوه الفصاحة وإذا قالا الشعر جاء شعر أحدهما في الطبقة العالية وشعر الآخر في الطبقة الوضيعة، وقد ترد في شعر المبتدي والمتأخر في الحذق القطعة الشريفة، والبيت النادر، مما لا يتفق للشاعر المتقدم. والعلم بهذا الشأن في التفصيل لا يغني، ويحتاج معه إلى مادة من الطبع، وتوفيق من الأصل، وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة، ثم يتفق لأحدهما من اللطف في الصنعة ما لا يتفق في الآخر. وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون، مع العلم بكيفية النظم، وكذلك أهل الرمي يتفاضلون في الإصابة، مع العلم بكيفية الإصابة.

وإذا وجدت للشاعر بيتًا، أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس، لا يدلُّ ذلك على أنه أعلم بالنظم منه؛ لأنه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد، وبحسب ذلك البيت في الشرف والحسن والبراعة، ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها، وإن كان كذلك علم أن هذا لا يرجع إلى قدرة من العلم، ولسنا نقول: إنه يستغني عن العلم في النظم، بل يكفي علم به في الجملة، ثم يقف الأمر على القدرة. وهذا يبين لك بأنه قد يعلم الخط فيكتب سطرًا، فلو أراد أن يأتي بمثله بحيث لا يغادر منه شيئًا لتعذر والعلم حاصل، وكذلك قد يحسن كيفية الخط، ويميز الجيد منه من الرديء ولا يمكنه أن يأتي بأرفع درجات الجيد. وقد يعلم قوم كيفية إدارة الأقلام، وكيفية تصوير الخط، ثم

يتفاوتون في التفصيل، ويختلفون في التصوير، وألزمهم أصحابنا أن يقولوا بقدرتنا على إحداث الأجسام، وإنما يتعذر وقوع ذلك منا، لأنا لا نعلم الأسباب التي إذا عرفنا إيقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الأجسام(١).

وقد ذهب بعض المخالفين إلى أن العادة انتقضت بأن أنزله جبريل، فصار القرآن معجزًا لنزوله على هذا الوجه، ومن قبله لم يكن معجزًا وهذا قول أبي هاشم(٢) وهو ظاهر الخطأ؛ لأنه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن، وأنه لم يتعذر عليهم فعل مثله، وإنما تعذر بإنزاله، ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله، وإن كانوا في الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولا بعده على مثله، فهو قولنا.

---

(١) هذا من أضاليل علم الكلام وترهات المتكلمين. وإلا فهل هناك عاقل يقول: بأننا قادرون على إحداث الأجسام وخلقها؟
ثم، ما معنى: إنا لا نعلم الأسباب التي إذا عرفنا إيقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الأجسام؟
إنه لا شيء يحجزك عن خلق الأجسام إلا أنك لست رب العالمين؛ لأن ذلك خاص به - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فهو الذي أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

(٢) أبو هاشم هو: عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي. المُكنَّى: أبو هاشم. من شيوخ المعتزلة الذين لهم أتباع وآراء بُنِيَ عليها مذهب نسب إليه اسمه: «البَهْشَمِيَّة» نسبة إلى أبي هاشم. بلغ مبلغًا من الذكاء والقدرة على الجدل، لكنها كانت وبالًا عليه مالت به إلى الضلال حتى برئ منه شيوخ المعتزلة الآخرون وكفره الجمهرة منهم لأمور قال بها. توفي سنة إحدى وعشرين ومئتين.
وهو صاحب الأحوال التي عرفت في تاريخ الفكر باسمه فقيل: «أحوال أبي هاشم» وهي إثباته صفات لا هي موجودة ولا هي معدودة، ولا هي معلومة ولا هي مجهولة. حتى ضرب بها المثل في الضلال والخفاء. وقد جعلها الشاعر إحدى المحالات الثلاثة. حيث قال:

مما يقال ولا حقيقة عنده ... مفهومة تدنو إلى الأفهام
الحال عند البهشمي والكسب عند ... الأشعري وطفرة النظام

وأما قول كثير من المخالفين فهو على ما بينًا؛ لأن معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله، وكان ذلك متعذرًا قبل نزوله وبعده.

فأما الكلام في أن التأليف هل له نهاية، فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه، فمنهم مَن قال: ليس لذلك نهاية كالعدد، فلا يمكن أن يقال: إنه لا يتأتّى قول قصيدة إلا وقد قيلت من قبل، ومنهم مَن قال: إن ما جرت به العادة فله نهاية، وما لم تجر به العادة فلا يمكن أن نعلم نهاية الرتبة فيه، وقد بينا أن على أصولنا قد تقدر لكلامنا حد في العادة، ولا سبيل إلى تجاوزه ولا يقدر، فإن القرآن خرق العادة فزاد عليها(١).

* * *

فصل

إن قيل: هل من شروط المعجز أن يعلم أنه أتى به مَن ظهر عليه؟ قيل لابدَّ من ذلك، لأنا لو لم نعلم النبي ﷺ هو الذي أتى بالقرآن، وظهر ذلك من جهته، لم يمكن أن يستدلَّ به على نبوته.

وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة، فأتى بها بلدًا، وادَّعى ظهورها عليه، وأنها معجزة له، لم تقم الحجة عليهم، حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه. وقد حققنا أن القرآن أتى به النبي ﷺ وظهر من جهته، وجعله علمًا على نبوته، وعلمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا(٢).

* * *

---

(١) يثير المؤلف قضايا كلامية لا تؤدي إلى شيء يفيد، ولا ثمرة لها، بل إن الحديث فيها تضييع للوقت والجهد فوق ما تثيره من البلبلة التي قد تفضي إلى الحيرة والشك.. وإلا؛ فما علاقة كلام الله المعجز بالتأليف، وهل له نهاية يقف عندها ثم يكون كل كلام بعد ذلك معاد، أم أنه لا نهاية له؟

(٢) وهذا الافتراض هو الآخر كسابقه لا يتصور وقوعه.

فصل

قد ذكرنا في الإبانة عن معجزة القرآن وجيزًا من القول، رجونا أن يكفي، وأملنا أن يقنع، والكلام في أوصافه إن استُقصي بعيد الأطراف، واسع الأكناف، لعلو شأنه وشريف مكانه.

والذي سطرناه في الكتاب، وإن كان موجزًا، وما أمليناه فيه وإن كان خفيفًا، فإنه ينبه على الطريقة، ويدل على الوجه، ويهدي إلى الحجة، ومتى عظم محل الشيء فقد يكون الإسهاب فيه عيًّا، والإكثار في وصفه تقصيرًا، وقد قال الحكيم - سئل عن البليغ متى يكون عييًّا - فقال: متى وصف هوًى أو حبيبًا[1]. وضل

= **فإن قيل**: المجيد قد علم - ضرورة وتواترًا - أنه المنزل على محمد بن عبدِ اللّه عبدِ اللّه ورسوله، وأنه هو الذي ادعى النبوة ونصب القرآن دليلًا على صدقه، ولم يعد الأمر مجهولًا حتى يتصور أن يأخذ أحدًا كائنًا مَن كان حمقًا وجنونًا شيئًا من القرآن مدعيًا أنه نبي وأن أنزل عليه. وهذه الحقيقة معلومة ومقررة منذ عهد الصحابة - رضوان اللّه عليهم - حيث جمعوا القرآن وأذاعه الخليفة الشهيد عثمان بن عفان في الأمصار. ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى مثل هذا الافتراض. وبخاصة وأن النبوة ختمت بخاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، فلو جاءنا واحد من الناس ومعه شيء من القرآن مدعيًا أنه نبي وأن هذه معجزته - كما صور ذلك المؤلف - فإننا لسنا بحاجة إلى أن نبحث هل نزل عليه هذا فعلًا أم لا، لأن انقطاع النبوات وختمها بمحمد ﷺ أمر مقرر. فكيف يستقيم - مع ذلك - قول المؤلف: «وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة فأتى بها بلدًا وادعى ظهورها عليه، وأنها معجزة له. لم تقم الحجة عليهم حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه». نقول: كيف يستقيم هذا الكلام مع إيماننا بأن النبوات ختمت وأنه لا نبي بعد الخاتم - عليه الصلاة والسلام -؟

(١) لأن الحكيم إذا ما أخذ في وصف حبيب يهواه، أو هوًى يحبه، فإنه سوف يخرج على مقتضى حكمته، وينسى سمات وقاره، وينساق مع حبه وهواه فيطنب ويسهب، ويطيل ويكثر. فيخرج عن الحكمة، ويفارق الوقار. وقد قال المؤلف: إن الإسهاب قد يكون عيًّا، والإكثار قد يكون تقصيرًا.

أعرابي في سفر له ليلًا وطلع القمر فاهتدى به، فقال: ما أقول لك؟ أقول: رفعك الله وقد رفعك؟ أم أقول: نورك الله وقد نورك؟ أم أقول: جملك الله وقد جملك[١]؟

أنشدني أبو القاسم الزعفراني قال: أنشدني المتنبي لنفسه القطعة التي يقول فيها:

وكم من عائب قولًا صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيمِ

ولكن تأخذ الآذانُ منه ... على قدرِ القرائحِ والعلومِ

وأنشدني الحسنُ بن عبد الله[٢] قال: أنشدنا بعض مشايخنا للبحتري:

أهزُّ بالشعر أقوامًا ذوي سنة ... لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعرُوا

عليَّ نحت القوافي من مقاطِعِها ... وما عليَّ لهم أن تفهم البقرُ[٣]

---

(١) ما أروع هذا الكلام من المؤلف وأبرعه، فقد وضع المؤلف نفسه مكان الأعرابي، ووضع كلام الله مكان القمر، وجعل القرآن هاديًا له من ظلمات الجهالة، كما كان القمر هاديًا للأعرابي من ظلمات الليل وضلال الطريق.. ثم انظر إلى جمال الكلمات التي نقلها عن الأعرابي في مناجاته القمر، وأنس الأعرابي والقمر، وتخيل، بل استحضر صورة المؤلف العقلية عندك وهو يناجي كلام الله رب العالمين في نهاية رحلته معه في هذا الكتاب. وهو يقول للقرآن: ما أقول لك؟ أقول: رفعك الله وقد رفعك. أم أقول: نورك الله وقد نورك. أم أقول: جملك الله وقد جملك. ويغلب على ظني أن المؤلف ربما اخترع قصة الأعرابي والقمر لينفذ من خلالها مستأذنًا على عتبات الكتاب المبين والذكر الحكيم فيبثه تلك الكلمات التي تشع نورًا وإيمانًا، بعد رحلة طويلة في رحابه المقدسة.. وكأني بالمؤلف يختم بهذه الكلمات كتابه معتذرًا عما يكون قد بدا منه من تقصير. أو بدر عنه من سوء فهم.. - رحم الله المؤلف رحمة واسعة -.

(٢) الحسن بن عبد الله: أبو هلال العسكري.. سبق التعريف به.

(٣) هنا يبرئ المؤلف نفسه من ذوي الفهم السقيم الذين قد يقرأون كتابه هذا فيفهمون منه ما لم يقصد، أو يسندون إليه ما لم يقل. أو يسيئون فهم ما قصد. غير أن استشهاده بالبحتري في وصف قارئيه بالبقر. كما وصف البحتري رواة شعره، نقول في ذلك شدة =

فإذا كان نقد الكلام كله صعبًا، وتمييزه شديدًا، والوقوف على اختلاف فنونه متعذرًا، وهذا في كلام الآدمي، فما ظنك بكلام ربِّ العالمين؟

* * *

قد أبنَّا لك أن مَن قَدَّر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، ولا يفطن منها إلا اليسير.

ومَن زعم أن البديع يقتصر على ما ذكرناه من قبل عنهم في الشعر، فهو متطرِّف. بلى إن كانوا يقولون إن هذه من وجوه البلاغة، وغرر البديع، وأصول اللطيف، وأن ما يجري مجرى ذلك ويشاكله ملحق بالأصل، ومردود على القاعدة، فهذا قريب.

وقد بينَّا في نظم القرآن أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف، ثم الفواتح والخواتم، والمبادئ والمثاني، والطوالع والمقاطع، والوسائط والفواصل، ثم الكلام في نَظْم السور والآيات في تفاصيل التفاصيل، ثم في الكثير والقليل، ثم الكلام الموشح والمرصع، والمفصل والمصرع، والمجنس والموشَّى، والمحلَّى والمكلل، والمطوق والمتوج، والموزون والخارج عن الوزن، والمعتدل في النظم والمتشابه فيه، ثم الخروج من فصل إلى فصل، ووصل إلى وصل، ومعنى إلى ومعنى، ومعنى في معنى، والجمع بين المؤتلف والمختلف، والمتَّفق والمتَّسق، وكثرة التصرُّف، وسلامة القول في ذلك كله من التعسُّف، وخروجه عن التعمُّق والتشدُّق، وَبُعْده عن التعمُّل والتكلُّف، والألفاظ المفردة.

والإبداع في الحروف والأدوات، كالإبداع في المعاني والكلمات، والبسط والقبض، والبناء والنقض، والاختصار والشرح، والتشبيه والوصف، وتميُّز

= وجنوح كنا نتمنى لو لم يستشهد المؤلف بالبيتين فيأتي بهذا الوصف المسيء.
والشطر الثاني من البيت الثاني يروى: وما عليّ إذا لم تفهم البقر..

الإبداع من الاتباع، كتميُّز المطبوع عن المصنوع، والقول الواقع عن غير تكلُّف ولا تعمُّل.

وأنت تتبيَّنُ في كل ما تصرَّف فيه من الأنواع، أنه على سمت شريف، ومرقب منيف، يبهر إذا أخذ في النوع الربِّي(١) والأمر الشرعي، والكلام الإلهي؛ الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت، وشرف الجبروت، وما لا يبلغ الوهم مواقعه، من حكمة وأحكام، واحتجاج وتقرير، واستشهاد وتقريع، وإعذار وإنذار، وتبشير وتحذير، وتنبيه وتلويح، وإشباع وتصريح، وإشارة ودلالة، وتعليم أخلاق زكية، وأسباب رضية، وسياسات جامعة، ومواعظ نافعة، وأوامر صادعة، وقصص مفيدة، وثناء على الله ﷻ بما هو أهله، وأوصاف كما يستحقه وتحميد كما يستوجبه، وأخبار عن كائنات في التأتِّي(٢) صدقت، وأحاديث عن المؤتنف(٣) تحققت، ونواه زاجرة عن القبائح والفواحش، وإباحة الطيبات، وتحريم المضار والخبائث، وحثٍّ على الجميل والإحسان.

تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك، في منظر بهيج، ونظم أنيق، ومعرض رشيق، غير متعاصٍ على الأسماع، ولا مغلق على الأفهام، ولا مستكره

---

(١) نسبة إلى الرب - سُبْحَانَهُ -.
والنسبة إلى الرب - سُبْحَانَهُ - تأتي على «رَبِّي، رِبِّيّ» بفتح الراء قياسًا. وكسرها سماعًا. حيث ورد في القرآن المجيد النسبة بكسر الراء في قوله - تَعَالَى -: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وتأتي تلك النسبة - أيضًا - على «رَبَّانِيّ» وذلك كما في قوله - ﷻ -: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

(٢) أي أمور سوف تكون في المستقبل، فيما يأتي من الزمان.

(٣) المؤتنف: أي ما يستأنف من زمان. أي المستقبل.. وقد وردت اللفظة هكذا: «المؤتلف» في بعض الطبعات، وهي غير وجيهة.

في اللفظ، ولا متوحّش في المنظر، غريب في الجنس، غير غريب في القبيل، ممتلئ ماءً ونضارة، ولطفًا وغضارة، يسري في القلب كما يسري السرور، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم، ويضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على المُتناول المُنْتاب، كالروح في البدن، والنور المستطير في الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[١].

مَن توهم أن الشعر يلحق شأوه بَانَ ضلاله، وصحَّ جَهْله، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، وتداولته القلوب، وانثالت عليه الهواجس، وضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه. وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلًا، وأقرب مأخذًا، وأسهل مطلبًا، ولذلك قالوا: فلان مفحم، فأخرجوه مخرج العيب، كما قالوا: فلان عيّي، فأوردوه مورد النقص.

والقرآن كتاب دل على صدق متحمله، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها، وبرهان شهد له براهين الأولياء المتقدمين، وبيّنة على طريقة ما سلف الأولون. تحداهم به إذ كان من جنس القول الذين زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية، وبلغوا فيه الغاية[٢]، فعرفوا عجزهم.

كما عرف قوم عيسى نقصانهم، فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج، والوصول إلى أعلى مراتب الطب، فجاءهم بما بهرهم: من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص[٣].

---

(١) سورة فصلت: الأية:؟.

(٢) يشير المؤلف هنا إلى القاعدة التي اشتهرت لدى العلماء والتي تقول: «إن معجزة كل نبي إنما تكون من جنس ما برع فيه قومه».. وهي قاعدة رغم ما لها من بريق واشتهار بين العلماء والدارسين، فإنها ليست صحيحة على إطلاقها. وسنبين ذلك ـ بفضل اللَّه ـ تَعَالَى ـ في آخر الفقرة بعد أن ينتهي من تعداد ما يظنه المؤلف تصديقًا لهذه القاعدة.

(٣) يشير إلى ما يعتقده ـ خطأ ـ من براعة بني إسرائيل على عهد عيسى عليه السلام في صناعة =

وكما أتى موسى بالعصا التي تلقفت ما برعوا فيه من سحرهم، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم(١)، وكما سخَّر لسليمان من الرياح والطير والجن، حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة، وبدائع من اللطف(٢). ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والآخر وقوفًا واحدًا، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة(٣).

* * *

= الطب والعلاج من الأمراض. بينما واقع الأمر أنهم كانوا من أكثر الأمم جهلًا بهذا العلم.

(١) يشير إلى براعة قوم فرعون في فن السحر وعلومه.

(٢) يتكلف المؤلف ويحمل نفسه عنتًا في البحث عن شيء لدى بني إسرائيل على عهد سليمان عليه السلام يناسب ما ميزه الله ـ تَعَالَى ـ واختصه من تملك على الجن والشياطين والريح.

(٣) آنَ لنا أن نناقش القاعدة التي تقول: «إن معجزة كل نبي هي من نوع أو من جنس ما برع فيه قومه».

وهذه القاعدة لا ينبغي أن تؤخذ على إطلاقها لما يترتب عليها من محاذير. أهمها ما يلي:

أولًا: أنها تجعل فعل الله ـ تَعَالَى ـ مندرجًا تحت جنس أو نوع يشمله وغيره من أفعال تشابهه وتماثله. وذلك منطوق عبارتهم التي تقول: معجزة كل نبي هي من جنس ـ أو من نوع ـ ما برع فيه قومه. ومن المعلوم أن فعل الله ـ سُبْحَانَهُ ـ لا يجوز شرعًا ولا عقلًا أن ندرجه مع شيء من أفعال الخلق تحت جنس أو نوع يشمل الجميع باعتبارها أفرادًا متشابهة يضمها ذلك الجنس أو النوع.

فالمعجزات ليست أفعال الرسل. ولكنها فعل الله ـ عز وجل ـ، ومن ثم لا ينبغي أن نجعلها فردًا من أفراد جنس أو نوع يُوحِّد بينها وبين أفعال الخلق.

ثانيًا: أن معجزات الأنبياء وإن تشابه بعضها ـ من حيث الظاهر ـ مع أفعال الأقوام الذين أرسلوا إليهم، فإنها لا تتشابه جميعها. فالبراعة في السحر لدى قوم فرعون الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام، ما علاقتها بفلق البحر، وهو معجزته عليه السلام العظمى. هل كان قومه بارعين في فلق الأنهار أو الترع الصغيرة، فجاء هو عليه السلام ففلق البحر وشقه، وبذلك بان فضله عليهم في هذا الجانب من معجزاته؟ وما علاقة سحرهم ـ كذلك ـ بنتق الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل كأنه ظلة، وضرب الحجر بالعصا لينبثق منه اثنتا عشرة عينًا.

وعيسى عليه السلام الذي زُعِمَ ـ خطأً ـ أن بني إسرائيل في عهده كانوا بارعين في الطب =

وانظر وفقك الله لما هديناك إليه، وفكر في الذي دللناه عليه. فالحق منهج

= والعلاج. ما علاقة معجزاته بالطب؟
هل إحياء الموتى طب؟.. هل النفخ في الطين المصور طائرًا فيصير حيًا ويطير طب؟ هل إبراء الأعمى الذي ولد وليست له عينان، بل حفرتان خاليتان من جسم العين. يضع عيسى عليه السلام يده على مكان عينيّ الأكمه ثم يدعو فتنبت العينان ويرى بهما هل هذا طب؟ إن معجزته عليه السلام الكبرى هي إحياء الموتى لا صلة لها بالطب من قريب أو من بعيد، وقد ثبت تاريخيًا أن بني إسرائيل على عهد عيسى عليه السلام كانوا أجهل الناس بالطب. والتكلف لمعجزات سليمان عليه السلام حيث وهبه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، تكلف واضح ما يحتاج إلى مشقة الرد عليه. إذ التملك على الجن والطير والريح والشياطين والعلم بلغات الحشرات. كل ذلك ما صلته بالحكمة والفلسفة - إن صح أنهم كانوا بارعين في شيء من ذلك -.
ثالثًا: إن أوضح ما ينبي هؤلاء قاعدتهم تلك عليه إنما هو التحدي الذي وقع بين موسى عليه السلام وقوم فرعون السحرة. وما كان بينهما من مباراة، ثم التحدي الذي وقع من القرآن المجيد للعرب أن يأتوا بمثله.
ولكل من هذين حديث.
أما ما وقع بين السحرة وموسى عليه السلام فلم يكن في واقع الأمر مباراة في السحر، كما يحدث بين ساحروساحر، لأن موسى عليه السلام لم يزعم لهم أنه ساحر، ولكن موسى عليه السلام تحداهم في أن يبطل سحرهم، ويبين عن زيفهم. وهكذا كانت المباراة، والذي قام به موسى ليس سحرًا لأن موسى ليس ساحرًا، ولا فعل ربنا - سُبْحَانَهُ - سحر. فكيف يقال: إن فعل موسى من نوع فعل السحرة؟ إن السحرة نوّموا الناس وسيطروا على عقولهم، وهذا قول الله - تَعَالَى - عنهم: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وحتى موسى عليه السلام تأثر بسحرهم ووقع تحت تأثيرهم حتى خيل إليه أن حبالهم وعصيهم تسعى. قال - تَعَالَى -: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] ولما ألقى موسى عصاه لقفت ما ألقى السحرة من حبال وعصي. ولم ير الحاضرون جميعًا فرقًا بين فعل موسى وفعل السحرة إلا أن ثعبان موسى أكبر من ثعابين السحرة. لكن الجماعة الوحيدة التي كانت خارج نطاق السحر هم السحرة، وهم الذين أدركوا فورًا أن فعل موسى لا هو سحر ولا هو من قبيل =

واضح، والدين ميزان راجح، والجهل لا يزيد إلا غمًّا، ولا يورث إلا ندمًا. قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[2]، وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِ

= السحر، وإنما هو فعل الله، وليس فعل موسى. أدركوا ذلك من دون الموجودين جميعًا لأمرين: الأول: أنهم لم يكونوا مسحوري الأعين كالآخرين. الثاني: أنهم أهل الذكر وأهل الصنعة في السحر. لذلك لم يخبر القرآن أن أحدًا آمن سواهم. قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٢].

وأما معجزات رسول الله الخاتم محمد ﷺ فإنها لا تخضع لهذه القاعدة في كافتها إلا في القرآن المجيد. فحنين الجذع إليه، وتسبيح الحصى في يديه، وانشقاق القمر له، ونبع الماء من بين أصابعه، والكثير من المعجزات ليس لها صلة بشيء مما برع فيه قومه ﷺ إن كانوا بارعين في شيء ـ وتبقى معجزة القرآن المجيد التي تحداهم بها ربنا أن يأتوا بشيء مثلها فعجزوا، وكانوا بارعين في اللغة وصناعتها.

على أننا نعرف أن أوجه الإعجاز في القرآن المجيد كثيرة، منها الإخبار بالمغيبات الماضية، والمغيبات المقبلة، والأحكام والشرائع التي تضمن السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وعدم الاختلاف والتضارب على طوله... إلى آخر هذه الأوجه التي لا صلة للعرب بها من قريب أو من بعيد.

وإذن فمعجزات رسول الله ﷺ كثيرة، من بينها معجزة واحدة هي كبراها، وليست جميع وجوه الإعجاز في تلك المعجزة، بل وجه من أوجه عديدة.. أفيجوز مع ذلك أن نطلق تلك القاعدة ونعممها في جميع المعجزات، وجنس الآيات لدى جميع الأنبياء وبخاصة سيدنا رسول الله ﷺ؟ مع أنها ـ إن صدقت ـ ففي وجه واحد من أوجه كثيرة، ولمعجزة واحدة من معجزات عديدة؟

(١) سورة الزمر. بعض آية: ٩.
(٢) سورة الشورى. بعض آية: ٥٢.

كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾[(١)]، وعلى حسب ما أتى من الفضل، وأعطى من الكمال والعقل، تقع الهداية والتبيين، فإن الأمورتتم بأسبابها، وتحصل بآلاتها. ومن سُلِبَ التوفيق، وحرم الرشاد والتسديد، فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

فاحمد اللّه على ما رزقك من الفهم أن فهمت، وقل ربي زدني علمًا، وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وإن ارتبت فيما بيَّنّاه فازدد في تعلُّم الصنعة، وتقدَّم في المعرفة، فسيقع بك على الطريق الأرشد، ويقف بك على الوجه الأحمد، فإنك إذا فعلت ذلك أحطت علمًا، وتيقنت فهمًا.

ولا يوسوس إليك الشيطان، بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية، وأرجح منك في الفصاحة، أقوام وأقوام، ورجال ورجال، فكذبوا وارتابوا؛ لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز، ولكن اختلفت أحوالهم: فكانوا بين جاهل وجاحد[(٢)]، وبين كافر نعمة وحاسد، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات، وحائر عن النظر في الدلالات، وناقص في باب البحث، ومختل الآلة في وجه الفحص، ومستهين بأمر الأديان، وغاوٍ تحت حبالة الشيطان، ومقذوف بخذلان الرحمن.

وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة، ودرجات الحرمان مختلفة.

وهلا جعلت بإزاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامري[(٣)] في حسن إسلامه،

---

(١) سورة البقرة. بعض آية: ٢٦.

(٢) الجاهل الذي يُكَذِّب عن جهل. وأما الجاحد فهو الذي يعرف الحق ولكنه يكذب به رغم علمه عنادًا واستكبارًا وحقدًا.

(٣) لبيد بن ربيعة العامري، ويكنى: أبا عقيل. كان فارسًا شاعرًا شجاعًا. حسن الإسلام. سأله عمر عما أحدث من الشعر في الإسلام فقال: أبدلني اللّه به البقرة وآل عمران. فزاد في عطائه حتى بلغ ألفين، فلما ولي معاوية قال له: يا أبا عقيل: عطائي وعطاؤك سواء، لا أراني إلا سأحُطُّك. قال: أو تدعني قليلًا ثم تضم عطائي إلى عطائك فتأخذه أجمع. ـ يشير إلى قرب وفاته ـ.

وكعب بن زهير(١) في صدق إيمانه، وحسان بن ثابت(٢)، وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا.. على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجمٌ زاهر، أو بحرٌ

---

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى، من فحول الشعراء في الجاهلية. صاحب البردة.
من خبره أن أخاه «بُجَيْرًا» أسلم وشهد مع الرسول ﷺ فتح مكة وحنينًا، فأرسل إليه كعب هذا أبياتًا من الشعر ينهاه فيها عن الإسلام وعن صحبة النبي ﷺ. فلما علم النبي بذلك أوعده. فأرسل بجير إلى كعب يقول له: ويلك إن النبي قد أوعدك، وقد أوعد رجالًا بمكة فقتلهم، وإنه والله قاتلك أو تأتيه فتسلم. فلما بلغ ذلك كعبًا خشي على نفسه القتل، وضاقت عليه الأرض. ثم لما هداه الله - تَعَالَى - إلى الإسلام قدم المدينة متنكرًا، فأتى أبا بكر ﷺ، فلما صلوا الصبح أتى به أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وكعب متلثم بعمامته وقال: يا رسول الله رجل يبايعك على الإسلام وبسط كعب يده وحسر عن وجهه. وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا مقام العائذ بك. فأمنه رسول الله ﷺ. فأنشد مدحته للنبي التي يقول فيها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يشف مكبول

إلى أن وصل إلى قوله:

وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألفينك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم ... فكل ما وعد الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يومًا على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

فنظر الرسول ﷺ إلى من عنده... أي: اسمعوا.
ثم كساه النبي ﷺ بردة كان قد اشتراها معاوية من آل كعب بن زهير بمال كثير، وسمى كعب بن زهير. صاحب البردة، وسميت قصيدته هذه، أو قصيدة أخرى مدح بها الأنصار بالبردة.
وهي التي نهج عليه البوصيري - رحمه الله - قصيدته في مدح النبي ﷺ وسميت نهج البردة.

(٢) حسان بن ثابت ﷺ، الصحابي الجليل، وشاعر الرسول ﷺ.

زاخر.

وقد بينًّا أنه لا اعتصام إلا بهداية اللَّه، ولا توفيق إلا بنعمة اللَّه، وذلك فضل اللَّه يؤتيه مَن يشاء.

فتأمل ما عرفناك في كتابنا، وفرغ له قلبك، واجمع له لبك، ثم اعتصم باللَّه يهدك، وتوكل عليه يغنك ويجزك، واسترشده يرشدك. وهو حسبي وحسبك ونعم الوكيل.



تم الجمع والصف بمكتب الرضا للدعاية والإعلان
ت: ٢٣٢٠٢٥٤ (٠٨٢) ـ محمول ٠١٠١٤٦٠٨٦١
بني سويف . ج م ع

فهرس الموضوعات